دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية جامعة الأزهر

من الحصاد القديم

مكتبة وهبة

دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

من الحصاد القديم

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

من الحصاد القديم
دكتور محمد محمد ابوموسى
الطبعة الأولى ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٥٠٤ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٨/١١٣٧٦
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
978-977-225-477-4

تحذير
جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة . غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية ، أو ميكانيكية ، أو نقله بأي وسيلة أخرى ، أو تصويره ، أو تسجيله على أي نحو ، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر .

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any from or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأى المؤلف وهو المسئول عنها وحده

دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

ابوموسى ، محمد محمد .
من الحصاد القديم /محمد محمد أبوموسى .. ط١ ، القاهرة : مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٨
٥٠٤ صفحة ، ٢٤ سم
تدمك ٤ ٤٧٧ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - البلاغة العربية - مقالات ومحاضرات
أ- العنوان

٤١٤,٠٤

ISBN 978-977-225-477-4
9 789772 254774

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٤) .

قال ﷺ في أيام التشريق :

«ألا فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه»

وقال : «اسمعوا مني تعيشوا ألا لا تظالموا ألا لا تظالموا ألا لا تظالموا».

وقال : «ألا لا يمنعنّ رجلاً مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه».

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمده سبحانه وأستعينه وأستغفره وأسأله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب أن يوفقني على أن أكتب ما يسرني في القيامة أن أراه كما قال أهل الصلاح من علمائنا .

ولا تكتب بكفك غير حرف يسرُّك في القيامة أن تراه

وأصلي وأسلم على صفوته من خلقه سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه صلاة وسلامًا دائمين دوام الليل والنهار ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله كما صليت وسلمت وباركت على أبويه إبراهيم وإسماعيل في العالمين إنك حميد مجيد ، وبعد .

فكل ما في هذا الكتاب من بحوث ومقالات إنما كان مستخرجًا من واقعنا لأني شديد الحرص على مخاطبة الواقع . وشديد الحرص على سداده وسلامته وصوابه . وكانت حياتي كلها فيه وله . ويقيني أن رسالة العلم والتعليم والقلم والكتاب والمدرسة والجامعة هي أن يكون هذا الواقع في يومه أفضل مما كان في أمسه . وأن يكون في غده أفضل مما هو عليه في يومه . وأن يكون النهوض والارتقاء هو الهدف الذي لا يغيب عن وعي المعلمين والمتعلمين في كل مراحل العلم والتعلم ، فإذا كانت مدارسنا

وجامعاتنا اليوم أفضل مما كانت عليه الأمس ، فهذا يعني أننا على الطريق السليم . وإذا كانت مدارسنا وجامعاتنا اليوم أسوأ مما كانت عليه بالأمس فنحن نواجه كارثة يجب تداركها . ويجب مَنْعها ولا يُهمْل هذا إلا من لا يصح أن يكون له رأي في حياة الجماعة . توقُّف مدارسنا وجامعاتنا عن التقدم وتفوقها على نفسها يعني أننا شعب في خطر ، فإذا كانت لم تتوقف وإنما تتخلف فنحن نواجه بلاء لا يسكت عنه إلا خائن لهذا الشعب ، قلت إن كل ما كتبته وكل درس درّسته لم يكن له هدف يسمو على أن يكون الجيل الذي أخاطبه أفضل وأن يكون يومه أفضل من أمسه وغده أفضل من يومه ولا يخالجني شك في أنه إما هذا أو الطوفان ، والحقيقة التي لا تغيب هي أن كل فروع المعرفة تنتج تقدمًا لأنها تنتج إنسانًا أفضل ؛ لأن عملية التعليم في ذاتها حركة للعقل وارتقاء بالإنسان مع صرف النظر عن جنس المادة المعلومة . وقد أخبرنا ربنا جل وتقدّس أنه يرفع الذين أوتوا العلم درجات ولم يجعل هذا الرفع بسبب معلوم دون معلوم ، وإنما قال أوتوا العلم أي علموا وكان من شأنهم العلم ويستوي في ذلك كل العلوم ؛ لأن القضية قضية عقل إنساني شغل بالمعرفة واستنار بها ، وراجع كلمة يرفع وهي ليست بعيدة عن التقدم والازدهار والحياة الأكرم ، وأن العلم يرفع الإنسان عن الخسائس الإنسانية ويرفعه عن الظلم والبغي والاستبداد والقهر والطمع والكذب والخيانة والغدر والزور ، وكل ما يكون مع الجهل والتخلف ، وقد أكّد ربنا لنا هذا المعنى في آيات كثيرة وأخبرنا بأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولم يذكر مفعولاً لفعل «يعلمون» مع أنه من الأفعال المتعدية ؛ لأن المقصود يكون منهم العلم مع صرف النظر

عن أي فرع من فروع العلم ، وأن هذه الناس التي تعيش على هذا الكوكب إنما تتمايز وتتفاضل بمقدار حظها من العلم ؛ لأن حظها من العلم هو ذاته حظها من التقدم والثروة والقوة والأمن واحترام إنسانية الإنسان ، وكل عائلة التقدم هي بنات العلم ، فالرحمة من العلم والرفق بالناس من العلم وإتقان العمل من العلم والصناعة المتقدمة من العلم والحياة الطيبة من العلم ، وكما أن العلم هو الأب الذي لا أب سواه لكل عائلة التقدم والحياة الأفضل والأكرم فإن الجهل هو الأب الذي لا أب سواه لكل عائلة التخلف من الفقر والظلم والقهر والفتن وإغراء طوائف الشعب بعضها ببعض ، فالكل يتجسّس على الكل والكل مشغول بالكل والذي لا يشغل به أحد هو مصلحة البلاد والعباد التي نسميها مصلحة الأوطان ، وهذا هو جحيم الدنيا قبل أن يكون جحيم الآخرة ، كما أن التقدم هو جنة الدنيا قبل أن يكون جنة الآخرة ، لاشك أن المعلم داخل فصله إذا استشعر أنه يعمل في بناء إنسان أفضل لغد أفضل فسيجد لدرسه مذاقًا آخر وسيشعر طلابه بذلك ويجدون لدرسه مذاقًا آخر ؛ وكذلك الكاتب إذا كان يكتب لبناء جيل أفضل لغد أفضل فسيكون لكتابه مَذَاقٌ آخر ؛ لأننا جميعًا كرهنا ما نحن عليه من تخلف ولا يدفع عنا عار التخلف أن نقول نحن أبناء حضارة قديمة ؛ لأنه لا يقبل منك أحد أن تذكر أمجاد ماضيك ما لم يكن لك مجد في حاضرك ، وإذا كنت متخلفًا وتغنيت بتقدم آبائك فأنت تسيءُ إلى نفسك أولا وتُسيء إليهم ثانيا ؛ لأن التَّافه لا يجوز أن يذكر مجد أبيه .

أي نظام سياسي لا يكون العلم الذي هو التعليم أول أولوياته هو نظام يجهل كيف يسوس أحوال البلاد ولا ينتظر منه الخير إلا فارغ مُغفَّل ، وعدنا

ربنا بصلاح أعمالنا إذا قلنا قولاً سديدًا فقال لنا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (الأحزاب:٧٠-٧١) ولاحظ أن الخطاب هنا للذين آمنوا ، وصَحَّتْ عقيدتهم والمطلوب هو إرشادهم إلى صلاح أعمالهم وراجع كلمة صلاح الأعمال ، لأنها تعني الإتقان في كل ما تباشرونه من أعمال في العلم وفي الصناعة وفي الزراعة وفي السياسة وفي كل ما تشغل به الشعوب على أرضها ، وأن صلاح كل ذلك يُفضي لا محالة إلى التقدم والازدهار في كل مناحي الحياة ، وأنه يسدّ الباب سدًا منيعًا في كل أسباب التخلف ويفتح كل باب لأسباب التقدم ، وأن كل هذا مؤسس في كلام ربنا على القول السديد الذي نجتهد فيه ونتحرى الحق والصدق والصواب وأن نتجنب الباطل والزور والكذب والنفاق وإنما يكون شأننا كله هو الصواب والحق والصدق ، فإذا كنت معلمًا مثلي كان المطلوب أن تكون الكلمة مع طلابي كلمة سديدة صحيحة مدققة ومحررة ؛ وإذا كنت كاتبًا كانت الكلمة في كتابك أو مقالك كلمة سديدة صحيحة مدققة ومحررة ، وعليك أنت أن تستحضر باقي الصورة لمجتمع تسود فيه كلمة الحق والسداد والرشاد هل ترى فيه ظالمًا ؟ أو منافقًا أو ضالاً أو مُضللاً ؟ ثم عليك أن تتابع تمام صورة صلاح الأعمال في كل شأن نعمله . هل ترى غِشًا أو فسادًا ؟ ثم ضع بإزاء الآية الكريمة قوله عليه السلام وذكره للكلمة التي تهوى بصاحبها سبعين خريفًا في النار ، وهي لا شك الكلمة غير السديدة أعني كلام المنافقين والمزوّرين والمضلّلين وأن مجتمعا يشيع فيه الكذب والزور واتهام الأبرياء وتكذيب الصادقين وإبعادهم وتصديق الكذابين وتقريبهم هو مجتمع يهوى بأصحابه سبعين خريفًا في

جهنم التي يعيشها على أرضه قبل أن يموت ، وقد وعد ربنا الذين يعملون الصالحات بجنة الفردوس ؛ لأن عمل الصالحات في الدنيا يصير به الوطن جنة ننتقل منها إلى جنة الآخرة ، وعمل السيئات في الدنيا يصير بها الوطن جحيمًا ننتقل منه إلى جحيم الآخرة ، والظلم من السيئات والقهر من السيئات وتلفيق التهم للأبرياء من السيئات وجور القضاء من السيئات والظلم والقهر وتلفيق التهم وجور القضاء كل هذا هو جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة ، والخلاصة أن جنة الآخرة لمن زرعوا جنة في أرضهم وبلادهم بعمل الصالحات ، وأن جحيم الآخرة لمن صيروا حياة الناس في وطنهم جحيمًا بفعل السيئات ، والقلم في يد الكاتب كميزان العدالة في يد القاضي إذا انحرف القلم عن قبلته التي هي تَحَرِّي الحق والصدق يكون قد فتح على قومه بابًا من الشر لا يقادر قدره ، وكذلك إذا انحرف ميزان العدل في يد القاضي يكون قد فتح على قومه أبوابًا من البلاء ؛ لأن القضاء العادل هو ضمان الأمان لكل من في الوطن ، هو الذي يأخذ حق أضعفنا من أقوانا وحق أصغرنا من أكبرنا والقوى فينا ضعيف حتى يؤخذ منه الحق والضعيف فينا قوي حتى يؤخذ له الحق ، فإذا اختل هذا في زمن التهم التي تُرْمَى على الناس من هنا وهنا وصُدِّق الكاذب وكُذِّب الصادق ، وعوقب البريء ونجا المجرم فالويل لمن يعيشون على هذه الأرض ، والحاكم الصالح هو الذي يرفض انحراف القضاء وغش البيان وكذب الإعلام ، ولا أشك في أن من يجد في صَدْرِه كلمة حق وسداد لقومه الذين يعيش بينهم ثم يَضِنَّ بها عليهم ، أو يسكت طلبًا للراحة في زمن التهم لا أشك في أنه قد أساء لأن الجماعة في حاجة شديدة لكل كلمة حق وصدق وكل كلمة مبرأة من أن تكون

لنصرة هذا أو لخذلان ذاك ، والمطلوب فقط هو التجرد لمصلحة الجماعة وأن هذا التجرد من أقرب القربات ، ولا عليك أن يرضى من يرضى ولا أن يغضب من يغضب ما دمت تبتغي وجه الله في نصح قومك ، وكل نصح للجماعة هو من العبادة وكل عمل خير للجماعة هو من أقرب القربات ، وتذكر الرجل الذي رآه سيدنا رسول الله ﷺ يتقلب في الجنة بسبب غصن شوك أزاله عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين .

ومن الكلمات التي لا يجوز أن يدور بها لسان من شهد الشهادتين كلمة الإرهاب الإسلامي لأن من يقرأ القرآن أو جزءًا منه ومن يقرأ كلام رسول الله ﷺ أو جزءًا منه يرى أن الإرهاب الذي نعيشه الآن ليس بينه وبين الإسلام أي صلة . وحسبك أن تقرأ قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ (الجاثية:١٤) . وراجع كلمة يغفروا وكلمة الذين لا يرجون أيام الله وراجع أن الله سبحانه وتعالى قال لرسوله الكريم قل ، ولم يخاطبنا سبحانه ويقول لنا اغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، وإنما أمر نبيه عليه السلام أن يبلغنا هذا عن ربه لأن الذين لا يرجون رحمة الله يعتقدون أن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه ليس نبيًا يعني هم يكذبونه عليه السلام ، وقد أمر أن يقول لنا اغفروا لهم والمغفرة لا تكون إلا من ذنب ، يعني هم أذنبوا في حقنا وأمرنا أن نغفر لهم ، ومثل هذا كثير في الكتاب العزيز ، وقد قال ربنا لنبينا صلوات الله وسلامه عليه فاصفح عنهم وقل سلام ، ونحن مأمورون بكل ما أمر به صلوات الله وسلامه عليه ، ولم يعرف في تاريخ الإسلام أن جماعة خرجت تقتل المسلمين لتدخل الجنة هذا حديث خرافة يا أم عمرو ، والذين صنعوا الإرهاب هم الذين وضعوا في

أيديهم السلاح الذين حطموا به جيوش بعض بلادنا ، ووضعوا في أيديهم الأموال وانقطعوا لتخريب بلادنا ولم يرموا العدو المغتصب لمقدساتنا بحصاة ، بل إن من يسمونهم أنصار بيت المقدس لم يحاولوا محاولة واحدة يشتبكون فيها مع المغتصب لبيت المقدس ، ولا بد أن تُكشف حقيقة الإرهاب حتى لا ينشأ أبناؤنا وهم يعتقدون أن من الإسلام أن نقتل المسلمين لندخل الجنة وأن الجنة لمن عملوا الصالحات في هذه الأرض وليست للقتلة .

وكلمة التطرف الإسلامي مثلها مثل كلمة الإرهاب الإسلامي كلاهما يُستعاذ بالله منه ؛ لأن الإسلام ليس فيه تطرف وكلمة وسطية الإسلام لا تعني أنه له وسطًا وطرفين وإنما معنى الوسطية في الإسلام العدل ، والعدل هو الوسط والإسلام كله عدل وكله وسط ، ولا بد أن نلاحظ هذا الزمن الممتد والذي قطع أربعة عشر قرنًا ونصف قرن من رُقْعَة هي الأرض كلها وعلماء من أجناس البشر جميعًا وكل فتوى صدرت أو كتاب كُتب يجب أن يقرأ في سياق زمانه وأحداثه ؛ لأن هذه الأحداث وهذه الأزمنة لها مدخل كبير في الفكر الذي في الكتاب ، والأصل هو الرجوع إلى الكتاب والسنة ولن نجد شيئًا اسمه التطرف الإسلامي ، وإنما الذين صنعوا الإرهاب بتدمير جيوشنا ودولنا ووضعوا المال والسلاح في أيدي تجار الدماء هم الذين وصفوا الإرهاب بالإسلامي أو بالتطرف الإسلامي ، وأنا أستعيذ بالله أن ألقاه وقد جرى لساني بهذا أو بما يشبهه ، ويجب أن نبعد الإسلام وعلماء الإسلام عن المنازعات السياسية التي يُقْذَف فيها بالغيب من مكان بعيد فيصيب القذف الذي بالغيب ما لا يجوز أن يصيبه ، وقد اتهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالتطرف وتكرر ذلك وقاله من لا يحسن أن يقرأ كتابًا لابن عبد الوهاب ،

وقد ذكر المرحوم محمود محمد شاكر أن الشيخ ابن عبد الوهاب أحد رجال النهضة الذين دخل الاستعمار ديارنا للقضاء عليهم ، وهذا مذكور في هذا الكتاب في بحث محمود محمد شاكر والفجر الصادق ، وكذلك قيل عن ابن تيمية وهو من أوسع علمائنا علمًا ، وقل مثل ذلك في الشيخ يوسف القرضاوي الذي اختارته جماعة علماء المسلمين في العالم الإسلامي كله رئيسًا لها وكان عضو هيئة كبار العلماء في الأزهر الشريف ، وإذا كان رئيس جماعة علماء المسلمين وعضو هيئة كبار العلماء إرهابيًّا فهذا يعني أن سعة علمه بالإسلام هو الذي صنع منه إرهابيًّا ، فإذا كانت جماعة علماء المسلمين هي الأخرى إرهابية فنحن لم نُبْقِ شيئًا من الإرهاب إلا وصفنا الإسلام به ، وهذا موضع ذلل يجب البعد عنه حتى لا نفتح باب وصف الإسلام بالإرهاب كما فتحه أعداؤه ، نعم لنا أن نختلف مع من نشاء وكل عالم يؤخذ منه ويرد والخطأ من العلماء متوقع وواقع ويكثر بمقدار غزارة ما قدموا ، ولكم أن تدينوا العلماء ولكن ليس لكم أن تدينوا العلم نفسه ؛ لأن الخلاف مع العلم له منطق غير منطق الخلاف السياسي ، وقد أمرنا أن نذكر محاسن موتانا فكيف إذا كانوا من أهل العلم وأهل الرأي منا ، ونهينا عن الطعن في موتانا ولا حرج علينا في الاختلاف في الرأي مع الاحتفاظ بكرامة من كرّمهم الله بالعلم ، ولم يفتح الله باب العلم لعالم من علماء هذه الأمة إلا وفيه خير ؛ لأن علمها كما قال سيدها صلوات الله وسلامه عليه «يَحْمِلُه من كُلِّ خَلَفٍ عدولُه» وبمقدار احترامنا للعلم يكون احترامنا لأهله ، يزعجني ويزعجك أن يقال عن الشيخ الشعراوي أنه إرهابي وقد قيل .

ومن أهم ما لفتنا إليه ربنا جل وتقدس هو أنه سبحانه نهانا عن التنازع وحذّرنا من مغبّتِه ، وأنه يورثنا أمرين ، الأول : الفشل الذي هو التخلف ، والثاني : الهزيمة في مواجهة عدونا وعجزنا عن حماية أرضنا وأعراضنا ، اختصر المولى ذلك في لغة معجزة وقال لنا : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ (الأنفال:٤٦)، وراجع الآية ، قال سبحانه ولا تنازعوا ولم يقل ولا تختلفوا لأن الاختلاف متوقع ، وإذا كان اختلافنا اختلافًا متجردًا لمصلحة بلادنا كان اختلافًا نعم الاختلاف ؛ لأن كل واحد منا يجتهد في رؤية ما يحقق الخير لهذه الأرض ومن يعيشون عليها الذين هم أنا وأنت وهو وهي فأنا مختلف معك ويقيني أنك تبحث عن الخير لأرضي التي أعيش عليها ويعيش عليها أحفادي من بعدي ، وأنت مختلف معي وعندك هذا الشعور ، وهذا اختلاف يورث المحبة ولا يمكن أن يكون تنازعًا وإنما يكون التنازع إذا كان الاختلاف قد داخلته عوامل أخرى كأن أبحث عن الخير لجماعتي أو مؤسستي وحينئذ تُنْسَى البلاد ومن عليها ، وهذا ما نحن فيه . لم نختلف وإنما نتهالك وأصبحت الغاية ليست هي الخطوة إلى الأمام من أجل حياة مائة مليون من حقهم أن يعيشوا على أرضهم مكرّمين ، وإنما أصبحت الغاية أن يدمر بعضنا بعضًا ، فاستبيحت المحرمات استبيحت الدماء والأموال والأعراض ، وأوشكت الحياة أن تكون جحيمًا وأصبح يحرض بعضنا على بعض ويتهم بعضنا بعضًا ويتجسس الجار على الجار والأخ على أخيه ، ووجود هذا الواقع إدانة لكل من يعمل بالسياسة ، لأن السياسي الحق هو الذي يوقف هذا التنازع وهذه الأحقاد ويعلن رفضه لوقوع الظلم على أرضه وأنه يرفض أن يظلم خصمه وأن يستباح عدوه ؛ لأن البلاد

إذا قبلت الظلم وقبلت استباحة الأموال والأعـراض فلـن تتقـدم خطـوة إلـى الأمام ، لأنها لا تتقـدم خطـوة إلا بالتماسـك والتعـاون والتـآلف والاخـتلاف المضيء الباحث عن مصالح البلاد والعباد وليس بالاختـلاف الأسـود الأناني الباحث عن مصلحة الجماعة أو الحزب أو المؤسسة ، صاحب البصيرة يفهم أن الجماعـة مـن الحـزب والحـزب منهـا ، وأن الجماعـة مـن المؤسسـة والمؤسسة منها وأننا جميعًا أبنـاء أرض واحـدة هـي أم لنـا وأب ، وأن البِرَّ بأرضنا هو ذاته البر بأمنا وأبينا ، السياسي الذي نحبه ونتمناه هو الذي يعيش بهـذه الـروح روح المـودة ، والتماسـك والتـآلف ولـيس بـروح التحـريض والبغضاء والأحقاد والانتقـام ، وراجـع الآيـة لـترى الأمـر المعجـز وهـو أن التنازع تهالك والتهالك أغلال يستحيل معها التقدم خطوة إلى الأمام ، وهـذا هو معنى الفشل ، ثم هو إنهاء لقوتكم بأيديكم وذهاب الريح معنـاه ذهـاب القوة ، ووقوع الريح مجازًا عن القوة فيـه إشـارة لنـا وهـي أن مكـامن القـوة فيكم ليست محصورة في جهة دون جهة ، وأن جيوشكم وإن كانـت المركـز الأقوى لقوتكم فليسـت هـي وحـدها قـوتكم وإنمـا قـوتكم مبثوثـة في كـل طبقات مجتمعكم ، كما أن الريح مبثوثة في كل جهاتكم فاحرصوا على كل طرف من أطرافكم وكل جزء من أجزائكم ولا تُهمِّشـوا أحـدًا ولا تسـتهينوا بأي طبقة من طبقاتكم ، والكل يجب أن يكون متداخلاً مع الكل ومتآلفًا مع الكل ، والتنازع هو العدو اللدود لهذا التماسـك وهـذا الـتلاحم وهـذه الـريح وهذه القوة ، وكل سياسي يُغْرِي بعضَنا بـبعض ويخـوِّف بعضـنا مـن بعـض ويرمي بعضنا بالتهم من كل جهة ليس أهلاً لأن يزاول السياسة فضلاً عن أن يكون في مواقعها الأساسية ، لن نكـون إلا إذا كنـا جميعًـا وكـأن المسـتعمر

القديم والحديث وعى إلى هذا المعنى فأقام سياسته على « فرّق تَسُد » لأنك إن فرقت بين أبناء الوطن سدتهم وإن اجتمعوا عليك فلن تستطيع أن تسود فيهم وأي نظام يفرق بيننا هو نظام عدونا .

وأختم هذه المقدمة بكلمة عن أصول علوم العربية ومن أين استُخرجت ؟ وقد اعتدنا أن نقول إنها مستخرجة من استقصاء كلام العرب ، وهذا حق لا ريب فيه . ولكنه أحال إلى كلام العرب الذي نطقت به ألسنتهم ودوّنوه في دواوينهم ومدوناتهم ، وليس لنا طريق إلى معرفة كلام العرب إلا هذه الدواوين وهذه المدونات ، وهي اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم ، وهذا يعني أن هذه العلوم ممثلة ومصورة لهذا اللسان الذي في هذه الآثار ، وإذا كان كلام العرب بكل ما يتضمنه من أصول نحوية وصرفية وبلاغية ولغوية لم تصنعه ألسنة العرب ، وإنما صنعته العقول والقلوب والطباع والفطرة البيانية والملكات اللسانية ، وإنما كان اللسان معبراً عن هذه الطاقات التي لا أستطيع أن أختار لها اسمًا واحدًا يعبر عنها ، وإنما هي طاقات القلوب والعقول والملكات اللسانية والفطرة البيانية ، ونحن نختصر كل هذا ونقول ما قاله الشاعر القديم :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

أقول إذا كانت اللغة وكان نحوها وصرفها وبلاغتها وكل مكوناتها تصنع هناك في الذي وراء اللسان ثم تقذف على اللسان فلا يكون له فيها عمل إلا الإبانة عنها ، فالواجب أن نقول إن أصول علم البلاغة وكل عائلة العلوم العربية إنما هي مستخرجة من أحوال وضوابط القوى التي وراء اللسان ، وأنها شرح وتحليل للفطرة البيانية التي اضطردت على أصول معينة في بيانها

وبلغت ذروة اكتمالها زمن نزول الكتاب العزيز ، فنزل بها وضبطها وأمسكها على الحالة التي كانت عليها زمن نزوله وهي حالة ذروتها واكتمالها ، وأننا حين نقول علوم العربية إنما نعني العلوم المستخرجة من ضوابط الطباع وما تواضع عليه القوم وألفوه واعتادوه في الإبانة عن نفوسهم ، كأن تقول إنهم ألفوا واعتادوا أن يستعملوا إنما في معاني كذا وكذا ولا النافية في كذا وكذا ولن النافية في كذا وكذا والتنكير في كذا وكذا ، وأنهم إن قالوا كذا فقد أرادوا كذا وكل هذا ليس من عادات اللسان الذي بين الفكين ، وإنما هو عادات الملكة البيانية التي يبينون بها ما يقولون ويستقبلون بها ما يسمعون ، وهذا يعني أن التفتيش في النحو تفتيش في هذه الملكات ، وأن البحث في البلاغة بحث في هذه الملكات ، ووراء ذلك ما وراءه من كلام آخر والمراد فقط بيان أن هذه العلوم ليست مستقاة من اللسان الذي بين الفكين ، وإنما هي مستقاة من نبع آخر كان علماؤنا يدركونه إدراكًا أوضح حين كانوا يقولون لنا ونحن نقرأ كتبهم ارجع إلى نفسك وراقبها وهي تصنع البيان وانظر في الذي تزاوله ، فإن رأيتها تتعامل مع الألفاظ فاعلم أن المزية ترجع إلى الألفاظ ، وإن رأيتها تتعامل مع المعاني فاعلم أن المزية ترجع إلى المعاني .

هذا والله أعلم ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله كما صلى وسلم وبارك على أبويه إبراهيم وإسماعيل في العالمين إنه حميد مجيد .

المعادي الجديدة

يوم الجمعة ٢٤ من جمادى الأولى ١٤٣٩هـ

الموافق ١٢ من يناير ٢٠١٨م

الدكتور

محمد محمد أبوموسى

مناهج علمائنا في بناء المعرفة[1]

نستفتح بما كان يستفتح به شيوخنا رحمهم الله كانوا يقولون أول كلامهم: اللهم احفظ ألسنتنا من فضول الباطل، واغسل قلوبنا وعقولنا من غبَّارة الجهالة، وغبرات الضلالة، اللهم آمين، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فقد كنت دائم النظر في طرائق أهل العلم ومناهجهم في بناء المعرفة وتأسيس العلوم وكيف كانوا يستخلصون الأصول العلمية، وأعتقد أننا لو أحسنا تحرير هذا واستخلاصه، والانتفاع به، لساعدنا على تجديد حياتنا العقلية، وتجديد علومنا تجديدًا تظل به هذه العلوم عربية خالصة يتلقفها القلب العربي المسلم، فتزدهر به، ويزدهر بها وتزدهي به ويزدهي . بها، وتنمو به وينمو بها، ويَسْقِيها وتسقيه، ويظل بها عربيًا مسلمًا ولا يتحول بعجمتها إلى أرجوحة بين العروبة والعجمة.

وكنت دائم الإثارة لهذا الموضوع الذي هو دراسة مناهج علمائنا في تأسيس المعرفة مع طلابي ومن أقاربه ويقاربني من أهل العلم، وهو موضوع غامض لم تطرق أقلام العلماء الطريق الواصل إليه، ولا يكشف لك

(١) ألقي في قاعة المحاضرات الكبرى في جامعة أم القرى ونشر في مجلة كلية اللغة العربية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

عن وجهه إلا بعد فقه المعرفة ؛ لأن طريق الاستخراج يكمن في قلب المعرفة وفي غورها البعيد ، وهذا سر صعوبته ، وسر غموضه ، ومهما يكن من أمره فلا محيد لنا من القرع على بابه حتى يفتح ولا محيد لنا من الطرق على جوانبه حتى يلين وينقاد ويَسْلُس ، وبهذا نُحْكِم فهم طرائق البناء ، وننزع أنفسنا وأجيالنا من الاسترخاء العقلي الذي أغرقنا أنفسنا فيه ، من طول ما أَلِفْنا من مضغ ما كدّ الآخرون في استخراجه ، وحتى كدنا نفقد حقيقتنا ، وحقيقة علومنا وطابع حضارتنا ، ألفنا مضغ الرجيع ولم نأنف حتى أدرنا عليه مناهجنا ودروسنا ومعاركنا ، ولابد أن ينتزع العقل العربي من ذل الأخذ إلى عز العطاء ؛ وهذا ما يجب أن نسعى إليه وأن يكون واحداً من أهم أهدافنا وبين أعيننا ونحن نربي أجيالنا . إن استعجام العقل العربي كارثة لابد أن نمنعها وأن يمنعها معنا كل رجالات هذه الأمة في كل موقع ؛ لأن هذه الكارثة ليست ثقافية فحسب وإنما هي كارثة قومية ودينية ؛ لأنها تعني نهاية الوجود العربي الإسلامي لهذه الأمة والويل لمن لم يدرك .

هذه هي الدوافع التي تدفعني إلى الخوض في غمرة هذا الموضوع ، وأعلم أنه صعب وأن ضعفي وعجزي يحولان دون كشف سره ، ولكنني اخترت أن أقتحمه ـ لما سكت عنه الناس ـ مع الضعف والعجز عسى أن يقتحمه بعدي من هو أقدر مني على كشف سره ، وعسى أن تترادف حوله الجهود حتى يتهيأ لسالكيه ، ولابد من وضع أقدام الجيل عليه .

وهذا حق هذا الجيل ؛ وأمانته في أعناق القائمين على توجيهه ، وسأكتفي بالإشارات الموجزة ، وأقول ـ وبالله التوفيق :

اعتدنا أن نقرأ مصادرنا وهمُّنا هو تحصيل ما فيها من علم ، ولهذا نُسوّي بين المصادر التي شاركت في تأسيس المعرفة والمصادر التي جاءت بعد ذلك فجمعت وشرحت ، وصقلت ، ودققت ، ولخّصت ، نقرأ الكل قراءة واحدة ، لا نفرق بين طريقة قراءتنا لكتاب (الخصائص) وطريقة قراءتنا لكتاب (المغني) ، وكذلك لا نفرق بين طريقة قراءتنا لكتاب (دلائل الإعجاز) وطريقة قراءتنا لكتاب (الإيضاح) ، وهكذا مع أن الكتب التي شاركت في تأسيس العلوم فيها شيء لا يجوز إهماله ، وهو التعرف على طرائق العلماء ومسالكهم في تأسيس المعرفة ، وإذا كنت أقرأ لتحصيل المعرفة وقطف الثمرة لا غير فسأقرأ رسالة الشافعي كما أقرأ (الشرح الكبير) في فقه مالك ، وبهذا يضيع مني أهم ما عند الشافعي وهو إعمال عقله بطريقة مستمرة وفذة ، وقيام علمه على الاستنباط والقياس والموازنات ، ثم التقاط الأصل الفقهي الغائب الذي لا تراه في النصوص أول النظر ، وإنّما يتوهج لك بعدما يقدح الشافعي هذا النص بذلك ، أنت في هذه الحالة لم تقطف الثمرة إلا بعد ما عرفت كيف صارت ثمرة ، وهذا هو المطلوب في إعداد جيل يبني بعقله ويديه لا بعقل غيره ولا بيد غيره ، وقل مثل ذلك في قراءتك لسيبويه وابن جني وعبد القاهر ، لو أخذت خلاصة ما قالوه في المسألة تكون قد ظفرت بعلم شريف ولو تتبعت خط سير عقولهم وهم يتلمسون ما تحت أيديهم من معلومات مجملة وغامضة ، وكيف كانوا يستخرجون من هذا الغامض المجمل علمًا مبسوطًا ، وأبوابًا متسعة ، أقول لو تتبعت هذا لظفرت فيه بما هو أفضل من حاصل المسألة الذي اعتدنا على طلبه في قراءتنا ، ولا أعرف شيئًا أشرف من العلم إلا أن نتعلم من

علمائنا كيف كانوا يصنعون العلم ، وحين نهتم بهذا الجانب نرى في إرثنا أعاجيب ، حتى إنك لتجد الخبر المطروح الذي يتداوله الناس وهو لا يعدو أن يكون حكاية تَرْوِي حدثًا ، وقد نفذت في غوره بصيرة عالم نافذ ، فيستخرج منه أصلاً من أصول المعرفة(١)

ومن أسباب غفلتنا عن هذا الباب الجليل أننا لم نهتم الاهتمام الواجب بتاريخ العلوم ، ودراسة تاريخ العلم يجب أن تكون على وجه أكثر عناية من الاكتفاء بالتراجم وعرض المؤلفات ، والذي يُدْخِلُنا هذا الباب الشريف هو أن نؤرخ لمسائل العلم وفنونه فنّا فنّا ، ومسألة مسألة ونتتبّع قصة المسألة من يوم أن لَفَتَ إليها أولُ من لفت ، إلى أن استوت في الكتب ، وكيف تعاورتها أقلام العلماء وكيف حاورتها ، ومن أي جهاتها تجاذبتها ، وأي عالم هزها حتى بسطها ؟ وأي عالم طواها واختزلها ، وكيف تراسلت مع غيرها في حقول المعرفة المختلفة ، من لغة وتفسير ، وأصول ، وأي شيء علق بها وهي تنتقل في هذه الميادين ؟ وكيف كانت تعتورها أقلام مختلفة الاهتمامات من فقهاء ، ونقاد ، وأصحاب صناعة حديث ، وأصحاب صناعة شعر ، إلى آخر ما نراه في هذا الباب .

وقد لاحظت أن علماءنا الذين شاركوا في تأسيس العلوم ، كانوا يهتمون اهتمامًا واضحًا ببيان الخطوات التي سلكوها في استنباط حقائق العلوم ، وكانوا يزاوجون في إعداد الجيل الذي يخلُفهم بين أمرين ؛ الأول : تعليم

---

(١) راجع ما استخرجه عبد القاهر في باب الحذف من حكاية قيس بن سنان . دلائل الإعجاز ص ١٦٩

أصول العلم ، والثاني : بيان كيف استُخْرِجت هذه الأصول ، والخطوات التي سلكوها ، وكأنهم يعلمون تلاميذهم العلم ، ويعلمونهم أيضًا علم صناعة العلم ، حتى يكون هؤلاء التلاميذ متمِّمين لمسيرتهم وماضين على دربهم ، وحتى يستوعبوا كل تجاربهم ، ويخوضوا وراءهم كل غَمْرة ، ويجدوا ما وجدوا من المشقة ، على هذا الدرب الشريف ، وإنها لمشقة صعبة ولكنها مشقة محببة مفضية إلى لذة هي لذة النفوس الكبيرة حين تلابسها النشوة التي تجدها لحظة الكَشْف وميلاد المعرفة ؛ وحين يفتح لهم باب العلم بعد إدمان قرعه ، كما كان يقول الجاحظ ، وقد ذكر ذلك في باب شريف ذكر فيه ما في الفكر والنظر من الفضيلة ، وكان واحدًا ممن خامرت نفوسهم تلك النشوات وهم يستكشفون بإلحاح وكد ، وصبر ، أغمض ما في البيان من فروق ودقائق ، قلت : إن علماءنا كانوا يعلِّمون تلاميذهم كيف يضعون أقدامهم على درب أقدام شيوخهم ، ليواصلوا السير على طريق هؤلاء الشيوخ في تأسيس المعرفة ، وإدمان القرع على الأبواب حتى تفتح ، ولهذا نرى سيبويه يستأنس في نفسه القدرة على إحياء علم الخليل وإتمامه ، فيقول لصاحبه علي بن نصير بعد موت الخليل : « تعال حتى نتعاون على إحياء علم الخليل» ثم يُخْيِيه ويتمه هو وحده ويكتب كتابه الذي وُصف بأنه ليس في الكتب كتاب في بابه يستغنى به عن كل كتاب إلا كتاب سيبويه[1].

وكذلك يمضي أبو الفتح على طريقة شيخه أبي علي حتى يصنع علمًا جديدًا يقوم على بيان « ما أُودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة

---

(١) كتاب سيبويه ص ٦٠٨

وما نِيطَتْ به من علائق الإتقان والصنعة» وأراد بذلك الحكمة التي وراء كل أصل من أصول هذا اللسان الشريف، وله خطوات واستنباطات بالغة في الدقة وبُعْد الغَوْص وسداد الفهم، وكان يعالج مشقة استخراج ما استخرج بصبر شديد، وينبه إلى أن علماء الفريقين يعني البصريين والكوفيين كان يتراءى لهم هذا العلم الشريف حتى يجدوه ولكنهم كانوا يدركون صعوبة الخوض فيه، بل صعوبة الخوض في أدنى أوشاله، وخُلُجه - كما قال - فضلاً عن اقتحام غماره ولُجَجِه ولهذا كانوا «يُعَرِّدون» عنه أي: يفرّون، ثم اقتحم هو الغمار واللُّجج وما عرَّد ولن أذكر شواهد منه؛ لأن الكتاب كله بني على ذلك ولم يكتب في العربية كتاب أفضل منه في بابه وهو قريب مما يكتبه الفقهاء في علل الأحكام، وإن كان بعض فقهائنا يرفضون الخوض في ذلك ويقولون سمعنا أمر الله ونهيه وأطعنا، علمنا العلل أو لم نعلم، وبعض اللغويين يرى في اللغة مثل هذا الرأي ويقول إن علة العلل هي نطق العرب وما جاء عنهم ولكن أبا الفتح يصر على بيان العلل ويصر على أن العرب كانوا يدركون حكمتهم التي بنيت عليها لغتهم، يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم.

ولم يرزق ابن جني إلى يوم الناس هذا عالما يبسط للناس علمه كما بسط هو علم شيخه أبي علي وإن كان قد رُزئ كما رُزئ غيره من علمائنا بمن يغبِّرون في وجهه.

وإذا كان مقصودنا هو الدلالة على التجارب العقلية الفذة والمتميزة في إرث علمائنا والتي كانت أساسًا في استخراج المعرفة، فإنه لا يجوز أن نهمل الإشارة إلى كتاب من أَجَلِّ الكتب في هذا الباب وهو كتاب (الرسالة)

للشافعي رضي الله عنه ، وقد قال فيه إسماعيل بن يحيى المُزني صاحب الشافعي : « قرأت كتاب الرسالة خمسمائة مرّة ما من مرّة فيها إلا استفدت فائدة جليلة لم أستفدها في الأخرى » وهذا كلام نفيس جدًّا ومعناه أن طول الملابسة لكلام الكبار من علمائنا يفتح من كلامهم وفي كلامهم ينبوعًا بعد ينبوع فينمو العلم بذلك ويتسع ويتجدد ، وكأن الكتاب المقروء نفسه ينمو ويتكاثر ويتسع بطول المراجعة ؛ ولأن تقرأ كتابًا واحدًا عشرين مرة أفضل من أن تقرأ عشرين كتابًا ، هكذا يُرْوى عن العقاد ، وكان الإمام أحمد يرى أنّ الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس ويرى أن الذي يفوته العلم عند عالم قد يدركه عند غيره ، والذي يفوته عقلُ هذا الفتى القرشي فلن يجده عند غيره ، ورحم الله أحمد وكأنه يقول إن معرفة حركة العقل في علاج المعرفة أعز وأندر من المعرفة نفسها ، فإذا فاتك العلم عند عالم أدركته عند غيره ، وإذا فاتك طريق العقل الفذ فقد فاتك ما لا يدرك ، وهذا كلام نفيس جدًّا .

والرسالة مشحونة بآيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ وتتناثر فيها تعليقات للشافعي مختصرة جدًّا ، ولكنها تطوي عملاً عقليًّا تفردت به الرسالة بين الكتب كلها ، وأغرت إسماعيل بن يحيى بقراءتها خمسمائة مرة وهو في كل مرة يجد فيها جديدًا وهذه تجربة عجيبة في القراءة ، وتعليقات الشافعي ليست مما حصله من أهل العلم فحسب ؛ وإنما جزء أساسي منها يرجع إلى ذكاء فطري عرف به الإمام والرسالة قائمة من أولها إلى آخرها على الاستنباط وكان يضع الآية بإزاء الآية وضعًا ينبلج به الحكم الشرعي ولا يحتاج منه إلا إلى تعليق بسطر أو سطرين يخرج لك بهما الحكم

ويدلك على مخرجه ودليله ، وهذه التعليقات المختصرة صارت بها الرسالة منهجًا من مناهج التفكير ، وصورة حية من صور إعمال العقل بأقصى طاقاته في نصوص الشرع ، فالتقى بها المعقول والمنقول في أزكى الصور وأسراها وهي أصل من أصول علم الفقه وهو من أجلّ العلوم وأحكمها وأضبطها .

وكان الشافعي يعلم أنه يؤسس منهجًا في إعمال العقل في النص فبدأ رسالته ببيان أن إعمال العقل باب من الأبواب التي تعبّد الله بها عباده ، يعني أن الله سبحانه كما تعبدنا بفرض الصوم والزكاة والصلاة تعبدنا بإعمال العقل ثم قال : « وابتلى طاعتنا فيه كما ابتلى طاعتنا في غيره »[(١)]

وهذا معناه أن التفكير وإعمال العقل باب من أبواب العبادة وأن ابتلاء الله لنا فيه يعني مقدار ما نحاوله من ضبط العمل العقلي واستقامته وموضوعيته وصحة منهجه وسداد نتائجه ، وأن هذه الاستقامة والموضوعية وسداد المنهج يتفاضل الناس فيها في شرع الله كما يتفاضلون في ضبط الوضوء والصلاة والزكاة وغيرها مما تعبّدهم الله به ، وهذا من أفضل ما يقال في هذا الباب وليس أجل من أن تعلم أن التفكير منسك من مناسكنا

ويستخرج الشافعي هذا الأصل الكريم من أصول الحياة الفكرية في أمة الإسلام بتعليقاته المختصرة التي كأنها ضربات البرق تشق أسداف الظلام فيذكر قوله تعالى في الصيد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ

---

(١) ينظر : الرسالة ص ٢٢

وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ (المائدة:٩٥) . ويرى في الآية الكريمة موضعين من مواضع الاجتهاد : الأول : أن يجتهد من قتل الصيد في معرفة العدل وما تتوفر فيه من صفات ، والثاني : أن يجتهد العدل في تقدير الشبيه والمثيل من النعم ، وبهذا يصير الحكم الشرعي منوطًا بالاجتهاد والبحث والتجرد وإعمال العقل ، ويذكر قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة:١٥٠) .

وتولية الوجوه جهة البيت التي لا تتم الصلاة إلا بها عمل من أعمال الاستدلال والانتفاع بما خلق الله من علامات دالة ، ونجوم تهتدون بها في ظلمات البر والبحر ، قال الشافعي : « فخلق لهم العلامات ونصب لهم المسجد الحرام ، وأمرهم أن يتوجهوا إليه ، وإنّما توجههم إليه بالعلامات التي خلق لهم والعقول التي ركبها فيهم التي استدلوا بها على معرفة العلامات »[1]

وبهذا الحكم وشبهه صار التفكير والاستنباط وإعمال العقل والتحري في هذه الأعمال جزءًا من التعبد لا يتم الواجب إلا به ولا يتم الركن إلا به ، وهكذا وضع الشافعي إعمال العقل في موضعه في حياة المسلمين العلمية والعملية .

ومن المفيد أن أُلمّ بشيء من هذا في كتاب سيبويه وقد عاش مع الشافعي وعُمِّر الشافعي بعده .

---

(١) الرسالة ص ٣٨

وكتاب سيبويه أرسخ وأقدم وأشمل كتاب في علوم العربية ، ولا شك أن سيبويه واحد من العلماء الكبار الذين تدفق علمهم في هذه الأمة وتدفق عقلهم أيضًا ، ولا يزال عقله يطبع عقول الناس وهو واحد من أبرز بناة المجد العلمي الباذخ الذي غيبته عن أجيالنا ضبابات يتلاعب بها من دخلوا ميدان العلم وليسوا من أهله ، ثم هو مع كل ذلك يختلف اختلافًا ظاهرًا عن كتاب (دلائل الإعجاز) لأن كل أبواب (دلائل الإعجاز) أسسها عبد القاهر وسأبين ذلك وليس الأمر كذلك في كتاب سيبويه ؛ لأن كتاب سيبويه كان خلاصة علم الخليل .

ولم يكن الخليل مع فضله الظاهر هو الذي استنبط ما أودعه صدر سيبويه ، وإنما كان الخليل أحد الورثة الذين آل إليهم علم غزير وجليل ممن سبقوه من يوم أن فتح أبو الأسود الدؤلي الكلام في النحو ، وأبو الأسود رجل قديم عاش في الجاهلية والإسلام وهو أول من نهج السبيل ووضع القياس كما يقول محمد بن سلام ، وقد أخذ عن أبي الأسود يحيى بن يعمر ، ثم قتادة السدوسي ، وميمون الأقرن ، وعَنْبَسة الفيل ، وأبو إسحاق الحضرمي الذي قال عنه ابن سلام : إنّه أول من بعّج النحو ومَدَّ القياس والعِلَل[1]

ثم جاء الخليل وانتهى إليه علم هؤلاء وغيرهم ثم أودعه صدرَ تلميذه سيبويه ، وكان متوقدًا وكان الخليل يحبه ويقربه ، وقالوا إن الخليل هو الذي عقد له أبواب الكتاب وعقد له المصطلحات .

(١) طبقات فحول الشعراء ١/١٤٠

ومع كل هذا فإن أثر سيبويه في بناء النحو أثر جليل ؛ لأن علم هؤلاء الأعلام الذين سبقوه لم يكتب إلا في القليل منه ، وإنّما كان ينتقل من صدور العلماء إلى صدور تلاميذهم الذين كانوا « يتلقفونه تلقفًا »[(١)]

ثم إنّ النحو أوسع وأرحب وأخصب ، ولهذا تواردت عليه جهود عظيمة ، وكل واحد من أعلامه له حظ موفور من الابتكار والكشف والتأسيس ولا يجوز أن تقارن علم المعاني الذي وضعه عبد القاهر مع أهميته الشديدة بعلم النحو في اتساعه وعمقه .

وأهم ما أريد أن ألفت إليه في كلام سيبويه هي كلمة أبي عمر الجرمي ، حدّث أبو جعفر الطبري قال : سمعت الجرمي يقول : أنا منذ ثلاثون سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه . هكذا قال : ثلاثون .

قال : فحدثتُ محمد بن يزيد على وجه التعجب والإنكار ، فقال : أنا سمعت الجرمي يقول هذا وأومأ بيديه على أذنيه ، وذلك أن أبا عمر الجرمي كان صاحب حديث فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث ، إذ كان سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش . انتهى كلام محمد بن يزيد .

وأقول : معنى هذا أن أبا عمر لم ينتفع بالمادة العلمية التي في كتاب سيبويه بمقدار ما انتفع بالتجربة العقلية الفذة التي يحتويها الكتاب ويقوم عليها ، ونحن نأخذ من سيبويه النحو ونغفل هذه التجربة التي فطن إليها الجرمي ووعاها وجرّدها من مادتها العلمية وانتفع بها من حيث هي منهج في التفكير ، والبحث ، والنظر ، والتفتيش ، ونقلها إلى الفقه فأخرجت له من

---

(١) كلمة شيخنا محمود شاكر رحمه الله .

الفقه ينبوعًا ظل يستقي منه ويسقي ثلاثين سنة ، لقد تعلّم الجرمي من كتاب سيبويه كيف يستخرج المعرفة الغائبة ، وكيف يبني بها ويضيف إلى الفقه مسائل في الفتيا ، وإذا كان هذا المعنى قد غاب عن الإمام أبي جعفر الطبري حتى حدّث به محمد بن يزيد على وجه التعجب والإنكار ، فإنّ محمد بن يزيد قد فطن لهذا ودل عليه بتعليقه الرائع ، وكأن هذا الأمر كان له حضوره عند علمائنا وهو أن الكتاب لا يؤخذ ما فيه من علم فحسب كما نفعل نحن ، وإنّما يؤخذ ما فيه من طريقة تفكير وإعمال عقل كما أريد أن أقول ، يعني أن نرقب حركة عقل المؤلف وأن نستقي من طريقة استخراجه للعلم كما نستقي من العلم ، وأن نتعلم العلم منه كما نتعلم منه كيف نصنع العلم ، وهذا ما عقدت عليه هذا البحث .

وتأمل قول محمد بن يزيد عن الجرمي : «وأنه كان صاحب حديث فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث» وفي هذه العبارة بيان للإخصاب والإثراء والازدهار الذي يتم بالتداخل والتشارب والتلاقح بين فروع المعرفة ، لما شغل الجرمي بالنحو زاد فقهًا في الحديث لا من جهة أن النحو أعانه على تحليل لغة الحديث وإنما من جهة أنه قرأ كتابًا يشحذ العقل ، فبعد مغاصه في باب الحديث ، لم يكن طلب العلم استظهارًا للمادة العلمية ، وإنما كان تفكرًا ونظرًا ومفاتشة ، ومحمد بن يزيد يقول كتاب سيبويه لا يعلم النحو فحسب وإنّما يعلم النظر الذي يعلمك كيف تستنبط وكيف تستخرج وكيف تؤسس بالاستنباط والاستخراج علمًا جديدًا

وهـذا التيار لم ينقطـع في الأمـة إلا في عصـر الانكسـار ، عصـر مضـغ الرَّجيع ، عصر ثقافة البرق الخُلَّب ـ عصر ثقافة النُّتف ، والمستلات ، العصر الذي نحن فيه والذي لن يدوم إن شـاء الله ، وإنمـا ظـل الكبـار مـن علمائنـا يحتفظون بهذا المنهج ويهتمون بعمل العقل ، وطرائق تأتيـه واسـتخراجاته ، ويولون ذلك عناية لا تقل عن عنايتهم بالمـادة العلميـة ، والـتي هـي قواعـد العلم وقوامه ، وتجد هذا في الحواشي والشروح التي لم يعد أحد يقرؤهـا ، والعلامة التفتازاني من علماء القرن الثامن الهجري يرفض شرح كلمة (علم) في قولنا : علم المعاني مثلاً بقولنا : القواعـد والمسـائل ومعرفـة الجزئيـات والكليات وما هو من هذا الباب ، ويقول : إن العلم ملكة أي : طاقـة عقليـة يُقْتَدر بها على مناقشة قضايا العلم ومشكلاته ، العلم ليس ذاكرة تحفظ وإنما عقل يتحرك ويستخرج ، وقد سئل واحد من علمائنـا متـى يفـتي الرجـل ؟ فقال : إذا عرف موضع المسألة من الكتاب وهو بالطبع لا يريد عـرف رقـم صفحتها ؛ لأن الفهرس يبين ذلك ، وإنما يريد عرف كيـف يسـتخرجها مـن بين السطور يعني عرف النص الذي إذا غاص في أحشائه وجدها ، وهذا من الكلام الكريم لو صادف نفسًا .

والآن أقترب من الموضوع بصورة أكثر بيانًا وتفصيلاً ، وذلك ببيان بغض المسائل وكيف تفجر ينبوعها ؟ وكيف تسلسل ؟ ولا أجد هذا يظهر ظهـورًا مشرقًا ، كما يظهر في كتابي عبد القاهر ، فإنّك ترى في هذين الكتابين عقل الشيخ الإمام وهو يكشف الحجب حجابًا بعد حجاب حتى يضع بين يـديك الفكرة الجديدة الغضة التي تترقرق فيها طراوة الميلاد ، وهذا يحتاج منا إلى مزيد من اليقظـة ؛ لأنّ هـذا الأمـر الـذي نـدل عليـه وهـو طرائـق استخراج

المعرفة لا تراه إلا وراء فهم المسألة . يعني لا يتكشف إلا بعد التحصيل والتدقيق والوصول إلى الجذور والمنابع .

وكان الشيخ عبد القاهر يكره أن يكرر المعرفة التي سبق غيرُه إلى بيانها ، ويكره مضغ المعلوم ، فإذا كان ولابد أن يكتب في المسائل التي سبق غيره إليها حاول أن يبحث في الموضوع عن فكرة جديدة تائهة لم يفطن إليها من سبقه وأن يجعل هذه الفكرة الجديدة قطب الرحى الذي يدور عليه كلامه ، وبهذه المهارة ينحرف عن السير في الطريق الممهد الذي وطئته الأقدام ، إلى السير في الطريق الذي يستكشفه هو ويمهده هو وتكون قدمه أول من خبط أديمه ووطئ وجهه ، فمبحث التشبيه مثلاً مبحث تناوله العلماء قبله ووسّعوا الكلام فيه ؛ لأن كلام العرب بني عليه كما قال قدامة ، فلما عرض له عبد القاهر وطرق بابه كانت طرقته الأولى على حقيقة غائبة لم يتكلم فيها واحد ممن سبقوه ، وهي أصل في الباب ، وقد اهتدى إلى هذه الحقيقة الغائبة من جهة النظر والتروي في أصل التشبيه وأنه عقد مشابهة بين طرفين يعني وجود قاسم مشترك بينهما ، ولما تأمل الشيخ هذا الاشتراك وجد هذه الحقيقة الغائبة ؛ لأنه وجده يختلف ، فقد يشترك الطرفان في الصفة اشتراكًا حقيقيًا وذلك في الصور الحسية ، وقد يشترك الطرفان اشتراكًا مؤسسًا لا على الحقيقة وإنما على وجه من المقاربة ، وهنا يقع على ضالته فيمسك بهذا الخيط ويتتبعه في كلام العرب فتتكاثر الصور وتنجلي الفروق ويتسع الكلام وكله حقائق جديدة وفروق جديدة وأساسية في بناء الكلام تقوده حقيقة إلى حقيقة ويفضي من فرق إلى فرق ويُدْخِلُه بابٌ إلى باب ، وهكذا ترى أنك بدأت مع الشيخ على طريق معلوم ثم اقتادك إلى آفاق جديدة

وأرض بِكْر لم تطأها قدم قبله وهو فَرَطُك الذي يقودك بمهارة عقلية مذهلة فيكشف لك سرًّا هنا وعلة هناك ، فإذا رآك اهتززت واستحسنت كما كان يقول أو تملكتك طُرِبة كما يروي هو عن أبي الحسن وقف ودخل معك في سر نفسك وربط لك هذا الذي أثارك بطبائع هذه النفس ، ثم يدلك على أنك لست وحدك الذي تستحسن هذا وإنما تستحسنه كل نفس حية ؛ لأنه مبنى الطباع وموضوع الجبلة .

ثم لا يقف بك عند هذا الحد وإنما ينقلك أنت والقاعدة من باب الشعر والبيان إلى دائرة الصناعات الدقيقة ، وكل عمل إنساني له اعتبار ، ويريك - وهذا مهم جدًّا - أن هذا كله يدخل في هذه القاعدة البلاغية ويخضع لأصلها وكأنه حَفْرٌ في طبع الإنسان وأن القدرة هناك في هذا الطبع على بناء البيان تتناغى مع القدرة على كل عمل شريف وكل بناء دقيق ، وهكذا يضع لك المهارات أو القدرات الإنسانية والمواهب الفردية في نسق فلسفي وبناء حضاري متماسك ومتكامل ، وكأنك لا تتعلم درسًا في البيان وإنّما تتعلّم كيف تبني الإنسان ، وبناء الإنسان هو الغاية التي يحط عندها العلم رحله ، ويلقي العالم عندها عصاه ويستقر به النوى .

وكان عبد القاهر كَلِفًا بالنصوص العلمية التي تدل في كلام من سبقوه على طريقة تأسيسهم للمعرفة ، وعلى وجه بنائهم لمسائل العلوم ، واستنباطهم لها ، كان كلفا برؤية القاعدة لحظة ميلادها.

تراه في باب القصر يبدأ بنص لأبي علي الفارسي ذكره في الشيرازيات ، وهو أظهر نصوص الفارسي دلالة على طريقة أبي علي في استخلاص

القاعدة ، وقد بُني النص على كلمة قالها «ناس من النحويين» كما يقول أبو علي يعني : ليسوا من مشاهير النّحاة ـ يفسرون قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (الأعراف:٣٣) ، بقولهم ما حرم ربي إلا الفواحش ، ولما سمع أبو علي هذا لم يقض بصحته ولا بخطئه وإنما جعله أمرًا معلقًا حتى يصيب ما يثبته أو ينفيه فيما يقرأ ويسمع من اللغة وكلام العلماء ثم قال : « وأصبت ما يدل على صحة قولهم في قول الفرزدق : إنّما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي » وقد فصل الفرزدق الضمير مع إمكان اتصاله وقال يدافع أنا ولم يقل أدافع أنا والأول لا يجوز في كلام العرب إلا إذا كانت إنّما بمعنى النفي والاستثناء ؛ لأنه يجوز أن نقول : ما يدافع إلا أنا ، وهذا يؤكد ما قاله ناس من النحويين . وهكذا يلتقط الفارسي بدقة فائقة ما في بيت الفرزدق من دلالة ثم يراجع كلام أبي إسحاق الزجاج في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ (البقرة:١٧٣) ، وأن معناه ما حرَّم عليكم إلا الميتة وأن هذا التفسير الذي فسر ﴿ إِنَّمَا ﴾ بمعنى « ما » و« إلا » ، في الآية الكريمة يوافق قراءة الرفع:(إنّما حرّم عليكم الميتةُ)؛لأنّ الميتة في قراءة الرفع خبر « ما »، والأصل إن الذي حرمه عليكم الميتة ، وهذا يفيد القصر بتعريف الطرفين وتفسير إنما بـ « ما » و« إلا » يفيد القصر ، وهذا وجه الموافقة .

وهكذا كان أبو علي في النص الذي نقله عنه عبد القاهر يرصد ويجمع ، ويحلل ، ويراجع ، ثم ينتهي إلى ما ينتهي إليه الرصد والجمع والتحليل والمقارنة ونتيجة هذا أن ﴿ إِنَّمَا ﴾ بمعنى « ما » و« إلا » ومثل هذا التفسير للحرف لابد أن يكون مستخلصًا من مقدمات صحيحة ؛ لأن تفسير معاني الحروف لا يجوز التساهل فيه ولابد أن يكون قد روجع حتى نتأكد من

معناه وإلا أفسدنا دلالة الكلام ، وأفسدنا معاني التفسير وندخل بذلك في باب الكذب على الله ورسوله ﷺ ، وهذه محاذير لا منجاة لنا منها إلا بضبط المنهج والمبالغة في الدقة والبحث عن وجه الصواب ، وبهذا يختلف منهج علماء الإسلام عن منهاج الأمم الأخرى ، وهذه إحدى مخاطر مضغ رجيع الأمم مع الجهل بعلومنا .

لا شك أنك حين تعود إلى نص أبي علي الفارسي ستعجب بهذا التيقظ الشديد وكيف كان يستخلص خيوط القاعدة من الشعر والتفسير وأفواه العلماء ومأثورات السلف ، وكيف كان يضيف كل ذلك بعضه إلى بعض ويرتب بعضه على بعض ويختبر بعضه ببعض ثم يستخلص الفكرة التي يفضي كل ذلك إليها .

وأنا على يقين من أن عبد القاهر أدرك هذا في نص الفارسي ، وأدرك أن الفارسي لم يكن يحدد قاعدة وإنما كان يشرح خطواته التي انتهت به إلى هذه القاعدة ، ولو كان الفارسي يريد بيان القاعدة لكفاه أن يقول إن ﴿ إِنَّمَا ﴾ بمعنى ما وإلا من غير أن يقص علينا قصة عقله وهو يستخلصها ، ولو كان عبد القاهر يعنيه أن يحدثنا بما انتهى إليه العلماء لما نقل هذا النص الطويل ، وبلفظ أبي علي ، وكان يكفيه نصف سطر يقول فيه : إنّ إنّما بمعنى ما وإلا كما قال الفارسي ، وكل هذا يؤكد ما أقول من أن علماءنا كانوا يعلمون الأمرين معًا : العلم ، وعلم صناعة العلم ، أو قل العلم ومخارجه التي استُخْرِج منها ، ومناهجه ، ووسائله وطرائقه ، التي تهدي إلى هذه المخارج ، أو كما قالوا الاستنباط والقياس والعلل ، وهذه الثلاثة كأنها أركان العلم .

ثم إنّ عبد القاهر أراد أن يعلمنا هو كيف نتعامل مع المعرفة التي بين أيدينا ، وهل نعتبر النتائج التي توصل إليها من قبلنا من العلماء نهاية الأمر في المسألة أم نعتبرها نقطة بداية ؟ ونحول نتائجهم إلى مقدمات ؟ يختار عبد القاهر الطريق الثاني ويحول الكلمة النهائية لأبي علي إلى كلمة بداية يقطع معها وبها مسافة جديدة في الفقه والتحليل ، ولم يتهيأ له ذلك إلا بالتدقيق في قراءة كلمة أبي علي التي قرأها قبله علماء كثيرون على مدار مائة سنة أو تزيد وكان قراؤها من مثل أبي الفتح بن جني ، وعلي بن عيسى الرُّماني ، وشيخه أبي الحسن ابن أخت أبي علي الفارسي ، لم تمنعه مكانة هؤلاء وغيرهم ممن هم في طبقتهم أو أفضل منهم ، أن يعيد قراءة كلمة أبي عليٍّ على طريقته في الرويَّة ، والاستنباط ، وقدح كلام العلماء بزناد العقل كما كان يقول فاستخرج منها خبئًا جديدًا أو فجَّر منها ينبوعًا آخر ، وكان أول فَتْقٍ فَتَق به هذه الكلمة النهائية لأبي علي هو أنه فرَّق بين أن يكون الشيء فيه معنى الشيء ، وأن يكون الشيء الشيء ، وما دام أبو علي قال : إنّ ﴿ إنَّمَا ﴾ بمعنى « ما وإلا » فلابد أن يكون قصده أنها ليست هي ، ولابد أن يكون بينهما فرق ثم أخذ يتلمس صور هذا الفرق فرآه في اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فإن كلمة « أحد » أو « من » الزائدة تأتي مع النفي والاستثناء فتقول: ما أحد إلا وهو يقول كذا ، وما من رجل إلا ويعلم ذلك ، ولا تقول : إنّما أحد ، ولا إنما من رجلٍ ، وهناك أساليب تصلح فيها إنّما ولا تصلح فيها « ما وإلا » تقول : إنّما جاءني زيد لا عمرو ، ولا تقول : ما جاءني إلا زيد لا عمرو ، وهذه فروق قاطعة بأنهما ليسا سواء ، وكذلك الحال في المعنى ، فإن إنما تأتي في الأمر لا يجهله المخاطب ولا ينكره ، فتقول : إنّما هو

أخوك ولا تقول : ما هو إلا أخوك ، وهكذا فتح الشيخ باب الفرق بين هذين الطريقين واستوفى ذكر المقامات التحقيقية والتنزيلية لهما ، وقاده بيان الفرق إلى ذكر «لا» العاطفة والفرق بينها وبينهما في المعنى ، وهذه رؤوس موضوعات ما سماه العلماء بعده باب القصر الذي لم يكتب فيه شيء قبله ، وهو من أدق وأجل أبواب بلاغة هذا اللسان ولم يكتب أحد فيه بعده إلا فضل تحقيقات وتقسيمات لم تدخل في جوهر المادة العلمية .

ومن أهم ما تهيأ به عبد القاهر لهذا البناء الجليل هو أنه استيقن أنه يواجه غوامض في فروق الصيغ ودقائق في فروق الإبانة ، فاستثار أقاصي ما في نفسه من تنبه وتركيز واستغراق ثم ارتاض مع هذا على الصبر في التدبر والمراجعة ، ولهذا ألاحظ أن المخبآت العظيمة كانت تتجلى له بُعيد مواجهته للغوامض واقتحامه خلجان الضباب في طرائق اللغة ووجوب إبانتها ، فباب القصر الذي هو كنز من كنوز علم هذا اللسان الشريف إنّما عثر عليه وأزال أسداف غيبه بعدما تحير وتلدد أمام غوامض كلمة «إن» التي خفيت على الكندي المتفلسف حتى توهم في كلام العرب حشوًا ثم لم يسكت الكندي ؛ لأنه لم تسكن نفسه إلى أنَّ في كلام العرب حشوًا ، فركب إلى أبي العباس ثعلب وحدثه بما جرى في نفسه وأنه لا يجد فرقًا بين قولنا : عبد الله قائم ، وإنّ عبد الله قائمٌ ، وإن عبد الله لقائم ، فأخبره أبو العباس بالفروق بين الصيغ الثلاثة ، ويعقب الشيخ عبد القاهر على القصة بكلام نفيس جدًا أضعه بين يديك هو قوله : «واعلم أنّ هاهنا دقائق لو أن الكندي استقرى وتصفح وتتبع مواقع «إن» ثم ألطف النظر وأكثر التدبر لعلم علم ضرورة أن ليس سواء دخولها وألا تدخل» انتهى كلام الشيخ ، ثم بدأ هو يعالج ما كان على

الكندي أن يعالجه بهذا المنهج الذي وصفه والذي هداه إلى الكشف عن سر كلمة « إن » ، ولاحظ أنه لم يكتف بما أجاب به أبو العباس ثعلب كما اكتفى من سبقوه من زمن أبي العباس إلى زمانه ، وكما اكتفى ابن الأنباري الذي روى هذا الخبر ، وهو من هو علما وإحاطة ! كما يجب أن تلاحظ الخطوات التي اختطها لطريق الاستخراج والاستنباط والاستبصار وأنها تقوم أساسًا على استقصاء مواقع هذا الحرف في كلام العرب وتتبعه وتصفحه ، وأن هذه هي مادة البحث التي لا يجوز الكلام في غيبتها وفيها الخبيء الذي يبحث عنه ؛ لأنه بعد إحضار مواقع الحرف في كلام العرب تبدأ المرحلة الثانية من مراحل التفتيش والتنقيب ، والاستخراج ، وهي إعمال العقل إلى أقصى طاقات إعماله ، وبحذر شديد ، ويقظة شديدة ؛ ثم إنّ هذا الإعمال وهذا التفكير في التراكيب اللغوية التي جمعت جمعًا لا يقوم على الاختيار ، وإنّما يقوم على الاستقصاء والاستقراء ، والتصفح ، والتتبع ، أقول هذا الإعمال والتفكير لابد أن يطول ويراجع وأن تقلّب هذه الصور باللسان ، وبالعقل ، وبالحس ، وبالصبر ، وباليقظة ، حتى يستخرج خبيئها المستكن في أغوارها تأمل قوله : « ثم ألطف النظر وأكثر التدبر » وأنه لم يقل ثم انظر وتدبر ، وإنما ذكر لطف النظر وليس كل واحد بقادر على أن يلطف النظر ؛ لأن معناه أن تتلمس الجهة التي منها تنظر بلطف ودقة ، حتى تنظر فيما يكون فيه النظر مفيدًا ، ومنتجًا ، وهكذا ...

ثم طبّق هذا المنهج واستخرج ثلاث عشرة صفحة من ص ٣١٥- ص٣٢٨ في دلالات « إن » ومواقعها لم تكتب في العربية قبل أن يكتبها ،

ولم ينته من بيان دقائق هذا الحرف الذي رآه المتفلسف حشواً ، والذي أبان ثعلب عن فحواه في ثلاثة سطور ، هي التي تتردد في كتب البلاغيين المتأخرين ، وراجع قول الشيخ : « لتعلم علم ضرورة أن ليس سواء دخولها وألا تدخل » وكيف ينتج من التتبع والتصفح والاستقراء ولطف النظر وطول التدبر علم يوصف بأنه « علم ضرورة » يعني لا يعترضه شك ، وكيف تكون خوافي الدلالات اللغوية غارقة في الغموض ، فإذا استخرجت صار العلم بها علم ضرورة وهذا غريب ومن المواطن التي يجب على العقل الحي مراجعتها ، وكان منهج الشيخ كما قلت في التتبع والاستقصاء لكلام العرب ثم لطف النظر وطول التدبر منهجًا مباركًا في كشفه عن مخبآت هذا الحرف حتى رأى معاني هذا الحرف وفروقه تنثال عليه ، ويهمي غمامها ، ويتكاثر صوبها ، فأراد أن يطوي الحديث وأن يكتفى بما قال ؛ لأنه بهذا العطاء الغمر يمهد السبيل لمن يريد أن يسلكه ، ونبه إلى أنّه بقي في الحرف أسرار ، ثم نقل الحديث إلى كلمة « إن » إذا اتصلت بها « ما » الكافية ، وصارت « إنما » وبهذا ولج الباب الذي سمى بعده باب القصر ، وتأمل كيف كان ينتقل ؟ وكيف ينبه إلى ما ترك من أسرار تحتاج إلى من يأتي بعده لإتمامها ؟ وأنه يفتح الأبواب ولا يستقصي ؟ وأنه يشق طريقًا من بعد طريق ؟ قال : « وليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق والأمور الخفية بالشيء يدرك بالهوينا ، ونحن نقتصر الآن على ما ذكرنا ونأخذ في القول عليها إذا اتصلت بها (ما) » [١]

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٢٧

وقد رأيت الشيخ يتولج من مكابدة البحث في الغموض والخفاء إلى فسحة الكشف والاستنباط والإبداع ، وأنه ما شكى المكابدة والمشقة والاعتياص إلا رأيته بعد قليل ينشر بين يديك فصلا متسعًا من فصول معرفة جديدة زحزح عنها حجبها بعد المكابدة ، وبذل المشقة واستفراغ المجهود ، وهذه الألفاظ دوارة في معجمه ، وكما بسط باب القصر وهو في ضيق البحث عن خواص « إنّ » التي غابت عن الكندي المتفلسف رأيته يفتح باب الفصل والوصل لأول مرة في تاريخ هذا اللسان الشريف ، وهو يكابد استنطاق « الواو » في الجملة الحالية ، ولماذا تأتي في الكلام مرة وتغيب مرة ، وما الفرق بين قولنا : جاء يسعى غلامه بين يديه ، وجاء وغلامه يسعى بين يديه ، ويستحيل عند الشيخ أن يكونا سواءً ولو كانا سواء لَذكَرَ العربُ واحدة ولم ينطقوا بالثانية ؛ لأن وجود العبث في بناء اللغة عند الشيخ وعند علمائنا مستحيل ، وما دام العرب قالوا بالواو وبدونها ، فلا محالة لهم في معانيهم قصد ، وغرض مع الواو ، وقصد وغرض بدون الواو ، ولكن العلماء الذين سبقوا الشيخ سكتوا عن بيان هذه العلة وعنوا فقط ببيان أحوال مجيئها ، ومتى تكون واجبة ، ومتى تكون جائزة ، ومتى لا تجوز ، وبقي الطريق إلى بيان العلة مُلْبِسًا غير مسلوك ، والجهة التي تعرف منها غير معروفة ، كما يقول الشيخ ، ثم قال : « وأنا أكتب لك أصلاً في الخبر إذا عرفته انفتح لك وجه العلة في ذلك »[1]

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٢

ولا يمكن أبدًا أن نفهم العلم ما لم نحلل الألفاظ الجارية على ألسنة العلماء، ونستخرج منها مضمر أغراضهم التي أودعوها في مضمر الكلمات، تأمل «الإشكال والغموض» الذي يواجهه كثيرًا ؛ لأنه دائمًا يستخرج، وعقله يتحرك إلى أقصى طاقاته، وهذا بخلاف من ارتاض واعتاد على مضغ كلام غيره فإنه لا يواجه إشكالاً ولا غموضًا ؛ لأن الذي واجه الإشكال والغموض نيابة عن الماضغ الفاضل، هو صاحب هذا (المنجز)»، ثم تأمل قوله : «الطريق غير مسلوك، والجهة غير معروفة»، والوصول إلى المراد يقتضي أمرين أن تحدد الجهة التي تتوجه إليها، أفي شرق هي أم في غرب وبعد تحديد الجهة تعرف الطريق الذي تسلكه في هذه الجهة، وعبد القاهر يتدرج من الغموض إلى الأغمض، فيقول الطريق غير مسلوك، وحتى الجهة غير معروفة، وكأن الرجل وقف في مفازة «يحار بها القطا» ثم وهو في هذا التيه يضرب ببوارق عقله فيهتدي إلى شيء لا يزيل الإشكال، وإنما فقط يفتح الطريق إلى إزالته، وهذا الشيء الذي يفتح الطريق فقط هو معرفة طبيعة الجملة الحالية وموقعها من الجملة الأم التي جاءت فرعًا من فروعها، والتي قال العلماء قبله، ومنهم أبو الفتح إنّها خبر ثان ألْحِقَ بالخبر الأول، وعبارة أبي الفتح في (المحتسب) هي : «ألا ترى أنّ الحال زيادة في الخبر وضرب منه»[(١)].

وقد فطن عبد القاهر إلى أهمية هذا الأصل وجعله نجمه الذي يهتدي به، فاستخلص قاعدة ذهبية في دلالة بيان العربية وتحليل نصوصها لم أقرأها

---

(١) المحتسب ص ٣٠٧ .

لأحد قبله ، وفحواها أن هذه الجملة الحالية إذا كان قصدك أن تضم معناها إلى معنى الخبر في الجملة الأم فلا تأتي بالواو واجعل الثانية مُضَامَّةً للأولى وجزءاً منها وفرعًا لاصقًا بها لا ينهض وحده ، وكأن عنايتك بمضمون الجملة الحالية ليس له استقلال في نفسك ، وكأن القصد في قولك : جاء يسعى غلامه بين يديه ، هو الإخبار بالمجيء الذي كان السعي جزءاً منه ، فإذا جئت بالواو وقلت : وغلامه يسعى بين يديه ، كان ذلك لفضل عنايتك بهذه الجملة الثانية الملحقة بالجملة الأم ، وكأنك تخبر خبرين ، الأول هو المجيء ، والثاني هو السعي ، ومرجع ذلك إلى أن التغاير أصل في سوس هذه الواو ، فلا تقع في الكلام إلا وهي مؤذنة بأن ما بعدها غير ما قبلها ، وهذا المعنى هو أصل معنى العطف الذي هو أصل معناها ، ثم إنّ معنى العطف هذا لا ينخلع عنها ولو كانت واو حال ، ويُلَخِّص عبد القاهر في آخر المبحث الفرق بين مجيء الواو وعدم مجيئها ، فيقول : « فرق بين أن تقول : جاءني كذا ، وأن تقول : جاءني وهو كذا » ، وهذا كما نرى من أدق ما يكتب في علم اللسان ، وينتقل عبد القاهر من غموض « الواو » الواقعة في الجملة الحالية إلى « الواو » الواقعة بين الجملتين المستقلتين مثل : جاء زيد وذهب عمرو ، ويرى أن مجيء الواو مرة وغيابها مرة في الكلام الذي يعطف بعضه غلى بعض ، أو يترك العطف فيه ، حتى تكون الجمل منثورة تستأنف الواحدة فيه بعد الأخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلَّص والأقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنّا من المعرفة في ذوق الكلام هم به أفراد »[1]

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٢

وهو بذلك يدخل بابًا آخر من أبواب الغموض ودقة المسلك ؛ لأنه ليس بين يديه في تراث العلماء ما يبين العلة في مجيء هذه الواو وفي تركها وليس أمامه إلا أن يبحث ، ويستخرج ، فيسلك طريقًا آخر يؤسس فيه باب الفصل والوصل ، وهو طريق القياس الذي طالما نبه إليه ، وجمع بينه وبين الروية والاستنباط ، والفكر ، وسلك هذه الأربعة التي هي مفاتيح العلم في عقد واحد وطالما بدأ بالفكر ثم بالروية ثم بالقياس ثم بالاستنباط ، وتأمل ترتيبها وتنزيلها في الذكر على وفق منازلها في الممارسة والعمل ، وكأنه يصف الخطوات التي يخطوها الباحث عن الحقيقة الغائبة وأنه يفكر ، ثم يتروى في التفكير أي يصبر عليه ، ويمعن فيه ، ثم يقيس ما لم يعلم على ما علم ، ثم يستنبط ، وهكذا فعل في باب الفصل والوصل فقد فكر في أمر الجمل التي يعطف بعضها على بعض ، أو الجمل التي يؤتى بها مستأنفة منثورة ، وتروّى في التفكير ثم قاس أمرها الذي يجهله على أحوال المفرد التي يعلمها ، ووجد في المفرد ما يعطف ، وما لا يعطف وأن هنا لعلل فنقل هذه العلل إلى الجمل ، وجرّب ، واختبر ، فاستقام هذا الأصل واضطرد ، فاستنطق أحوال الجمل بالقاعدة فنطقت ، ثم سجل هذه القاعدة الرفيعة في فهم نصوص العربية ، وهي أن ترك العطف يكون للاتصال إلى الغاية ، أو الانفصال إلى الغاية ، وأن العطف يكون للتوسط بين هذين الأمرين ، وليس المقصود أن أشرح هذا وإنّما المقصود أن أبين كيف أستخرج ، وأن أصله هو أن الكلمة المفردة إذا كانت تأكيدًا للتي قبلها ، أو صفة لها أو بدلاً منها لا تعطف عليها ؛ لأنها هي ، ولأن الوصل بين الكلمتين قائم من ذات الدلالة والمعنى ، فلا يصح وجود عاطف ؛ لأن الواو حينئذ تكون قد وقعت

بين الشيء ونفسه ، وليس هذا من مواقعها ؛ لأن المغايرة شيء في سوس طبعها ، وكذلك الجمل التي هي بهذه المنزلة ، وكان بين يديه فيض من الكلام العالي ، منه ما هو موصول ، ومنه ما هو مفصول ، وفي ضوء هذا القبس الذي التقطه من نظام اللغة في علاقات المفردات ، أخذ يبحث في هذه الشواهد الموصولة والمفصولة ، ويفكر ، ويتروّى ، ويقيس ، ويستنبط .

وأكتفي بهذا وإن كانت هناك مواطن كثيرة في كتابي الشيخ تُغْري بمزيد من البيان ، حتى إنك لترى مسائل علمه تسبح دائمًا في طرائق نظره ، فلا تنفصل مسألة عن طريقة استخراجها ، وكل فكرة موسومة ببيان كيف تخلّقت ؟ وكيف استخرجت ؟ وكأن عليها بطاقة تدل على ميلادها ، والرحم التي احتضنتها ، وكيف لمح الشيخ نبضها في رحمها ؟ وكيف شق الحجب عنها واجتلاها ؟ وكان كثيرًا ما يذكر الجوهر في الصدف ، وأنه لا يبرز لك إلا بعد أن تشقه عنه ، ويذكر العزيز المحجّب ، لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ، ويقول ليس كل أحد يُفلح في شق الصدفة ، ولا كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه»[1] ، وحين تراجع هذا ومثله في كلام الشيخ تعجب من الذين يشيعون القول بأنه سطا على بلاغة اليونان ، وأنه تلميذ أرسطو ، وتقطع بأن الذي يقول هذا لابد أن يكون واحدًا من اثنين : إما أنه لم يقرأ ، أو قرأ ولم يفهم .

(١) أسرار البلاغة ص ١٤١ بتصرف .

وما كان ينبغي أن نهمل هذا في تربيتنا لأجيالنا ؛ لأنه لا أجلَّ ، من العلم إلا أن نتعلم كيف بنى العلماء العلم ، وليس تحصيل العلم مع أهميته بكاف في تربية الأجيال ، لا يكفي أن نعلمهم كيف يحصلون ، وإنما لابد أن نعلمهم كيف يبنون ، ومن تعلم البناء بنى ، ومن بنى كدّ ، ومن كدّ اشتد ، ومن اشتد حفظ ، ورعى وحمى .

وبهذا نعد أجيالنا لحماية أرضنا من بعدنا ، وعلومنا هي أصول حضارتنا وحضارتنا هي مصنع رجالنا وعمود قوتنا ..

قلت : إن هذه الروح النشطة اليقظة الفعّالة في منهج علماء الإسلام ظلت عنصراً قائمًا في علومنا ، وإن كانت تظهر في كتب الصدر الأول ، وإنك لتراها في تراث القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، وهذه الحقبة هي آخر الأزمنة لسيطرة هذه العلوم على ديار الإسلام ؛ لأن أهل النصرانية استباحوا بلادنا في أوائل القرن الثالث عشر ، وكانت بلادنا تعمر بعلومنا ، ورجالنا ، ومناهجنا ، وتدور فيها دروس العلم وتنشأ الأجيال ، وهذه العلوم تجري كالأنهار في كل أصقاع ديار الإسلام حتى الشعوب الإسلامية التي لم يغسل اللسان العربي ألسنتها من العجمة جرت فيها هذه العلوم ؛ لأن الدين لا يصلح إلا بها فشقّت هذه العلوم طريقها في أدغال العجمة في آسيا وأفريقيا ، وأقبلت عليها عقول أهل الدين وقلوبهم ، حتى إن بعض العائلات في أفريقيا سُمّي بها فيقال : فلان النحوي كما يقال : فلان الفَرَضي نسبة إلى علم الفرائض وهكذا جعلوا هذه العلوم أمًا لهم وأبًا .

وكان جرَيَانُ هذه العلوم في قلوب أهل الإسلام هو الرباط الذي يجمع هذه الأمة مع تباعد ديارها واختلاف أجناسها ، ولم تكن كذلك إلا لأنها علوم هذا الدين ، ومفاتيح ما أنزله الله على رسوله ، ولن يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه ، وماله ، وأهله ، وقد أصابت هذه العلوم فضلاً من فيض هذا الحب ، فأحبها من أحب الدين واجتواها من اجتواه ، وانظر حولك وتأمل تجد صدق ما أقول ، ولهذا أدرك عدوها الألد أن التجزئة السياسية التي فرضها على شعوبها لم تحقق مرادهم من التفتيت والتشتيت ؛ لأن العلوم الواحدة والثقافة الواحدة المرتبطة بدينهم جمعت هذه الأمة كلها في جسد واحد يشد بعضه بعضًا ، ويُكَمّل بعضه بعضًا ، كما صاغ فيها جنودًا وقوادًا صنعوا في التاريخ الأعاجيب التي تشبه الخوارق ، حتى إن الرغبة العارمة إلى الاستشهاد في سبيل الله دفعت قائدًا مسلمًا إلى أن يلبس كفنه يوم لقاء العدو ، وقبل بدء المعركة ، وحَمَلَ راية جيش الإسلام وهو في ثياب كفنه . قال الراوي : جاء رومانوس الرابع قائد جيش الروم في مئتي ألف وستمائة وزحف على ديار الإسلام ، وكان قائدًا جريئًا شجاعًا يمتلئ غرورًا ، وكان قد ملك زمام الأمر في بلاده ، والتفت الروم حوله ، ولما علم القائد المسلم بذلك لم يكن حوله من رجاله إلا خمسة عشر ألفًا فطلب المهلة من قائد الروم فأبى ، فلما كان يوم الجمعة اغتسل القائد المسلم ولبس ثيابًا بيضاء ، وتحنّط ، وخطب في جنوده وقال : إن قتلت فهذا كفني فاستعرت الحمية في صدور الجند وزحفوا نحو عدوهم ، والتقى الجمعان وفار التنور ، ووجد رجالنا ريح الجنة ، فانكشفت الحرب عن هزيمة مروِّعة لمئتي ألف وستمائة من الروم بسيوف خمسة عشر ألفًا من

المسلمين وأسر قائد الروم ومعه قواده وأشرقت الأرض وتطهرت ، ولما حضر أرمانيوس بين يدي القائد المسلم ذكّره بأنه طلب منه المهلة فأبى ثم أطلقه من الأسر ومعه قواده وحباه بهدايا وخرج في وداعه قدر فرسخ ، فَذُهِلَ قائد الروم بما رأى وابتدر القائد المسلم بقوله : أعاهدك على أنّي لا أحاربك ولا أساعد من يحاربك وأن أكون نائبك في حكم الروم وأن أدفع لك الجزية ، وكان ذلك في القرن الحادي عشر الميلادي في الزمن الذي عاش فيه عبد القاهر . هل يعرف هذا الجيل إلى أي مدى بلغت قوة المسلمين ، وحضارة المسلمين ، وعلوم المسلمين ، حتى إن ملك الروم يعني أوربا من جنوبها إلى شمالها ، تعهد بدفع الجزية لطُغرل بك حاكم إقليم من أقاليم دولة الإسلام ؟ هل يعرف الجيل هذا التاريخ وهذا المجد أم أنه يعرف ما يسمعه من قدح المهازيل في تاريخ الإسلام وعلوم الإسلام[١] ومن قدح الهلافيت في طغرل لأنه تركي؟

أدرك عدونا هذا وأكثر من هذا ، ولما دالت له الأيام ، ودالت علينا ، وغلب على ديارنا ، كان التصميم الأكيد على طمس هذا النهر الذي يخصب هذه الديار ، فتنبت هؤلاء الرجال الذين لم ينقطع شبههم بطلائع الفتح في صدر الإسلام ، والذين يرفضونه ويرفضون سيطرته ويرفضون وجوده ، ويرفضون حضارته ، وقيمها ، وأصولها ، وفروعها ، وكل ما ينبثق منها ، وهذا الرفض القاطع يختص بالعلوم الداخلة في تكوين الإنسان وبنائه ، وهي عندنا العلوم العربية والإسلامية ، ولا يشمل العلوم التي هي خارج هذه

(١) تاريخ الإسلام السياسي ١/ ٢٢

الدائرة ، كالرياضيات ، والكيمياء ، والفيزياء ؛ لأن هذه العلوم لا تتغير بتغير البيئات ، والحضارات ، ولا شأن لها بالعقائد ، وإنّما هي حقائق واحدة في شرق الأرض وغربها ، وهي علم مشترك بين الناس جميعًا مهما اختلفت عقائدهم .

قلت : كان التصميم الأكيد على طمس هذا النهر الذي يُخصِب الأرض فتنبت رجالاً كرجال طلائع الفتح الأول . ويحكي الجبرتي : أن جنود نابليون كانت تتوجه إلى المكتبات في المساجد ، والتكايا ، والزوايا ، تنهب منها ما تنهب ، وما لا تستطيع نهبه أحرقته ، أو دمّرته ، وأن المكتبات كانت كأنها ثكنات عسكرية .

ومن أجل هذا الطمس وإمعانًا فيه وفي تغييب هذه العلوم افتُعلت قضايا ومعارك ودُلست حقائق وشاعت أفكار كلها تعمل على تغييب هذه العلوم وهذه المناهج وإحلال علوم العدو المحتل محلها ، من ذلك المعركة بين القديم والجديد التي ثارت في أول هذا القرن .

ومعنى القديم في هذه المعركة ليس الفكر الذي يرجع إلى الزمن القديم كما يدل عليه اللفظ ، وإنما كل ما يتصل بعلوم العرب المسلمين ، ولو كان كُتب اليوم ، ولم يجف مداه بعد ، ولهذا كانت كتابات الرافعي تعد في القديم ، وقابل ذلك أن الجديد كل ما يتصل بالفكر المسيحي وجذوره اليونانية ، فكان الكلام في الإلياذة ، وأرسطو ، وسوفكليس ، وأساطير اليونان كل ذلك من الجديد ، مع إيغاله في القدم ، ولو سمينا الأشياء بأسمائها لقلنا إنها معركة أو صراع بين علوم الإسلام أولها وآخرها ، وعلوم النصرانية بكل

جذورها الوثنية اليونانية ، ولو طُرِحَت بهذا الاسم الدال على جوهرها ما اجترأ أحد من أبناء جلدتنا على الوقوف مع علوم النصرانية ، ومما يدلك على أن حقيقتها كما أقول إن المقالات التي كتبها الرافعي في الدفاع عن القديم جمعت بعنوان « تحت راية القرآن » وتأمل العنوان يدلك على صدق ما أقول .

اختير لها هذا الاسم المدلِّس ليواري بشاعتها ، ويخفي شناعتها ، وكلمة الجديد لا يرفضها من له عقل ، ولو قلت للناس فلان يرفض الجديد لقالوا : لا شك أن عنده حالة عقلية يرجى له منها الشفاء ، ولو عبرت عن الأشياء بأسمائها وقلت : إن فلانًا يرفض تدمير أصول حضارة الإسلام ، وغرس أصول حضارة مسيحية في ديار الإسلام لوقف الكل معه ، ونقطة البداية أن نسمي الأشياء بأسمائها

وقد قرأت كلمة لشيخ الأمناء ـ رحمه الله ـ أفزعتني ، وقلت في نفسي عفا الله عنه كيف قالها ، فحواها في مقدمة كتاب (فن القول) الذي لا يزال يذكره من علم . ومن لا يعلم ، أنه كان وهو في إيطاليا أيام هذه المعركة يسمع قعقعة القديم وهو ينقض تحت ضربات الجديد ، ولا يبتئس لذلك ، وهذا الذي لا يبتئس لذلك ، يعني لسماع قعقعة علومنا ، وهي تنقض تحت ضربات علوم اليهود والنصارى ، كان رائدًا وصاغ عقلية جيل كامل هم الآن روّاد ، وتأمل كل شيء حتى تفهم أقل شيء ؛ لشدة اللبس والتزييف ، ثم شاع الجديد بهذا المعنى ، وغاب التجديد بالمعنى الحقيقي الذي تكلمت فيه في هذا البحث والذي كان روحا تسري في العلوم ، وهو بناء العلوم والاجتهاد والكد في استخراج حقائق جديدة في العلوم التي بين أيدينا كما يفعل العلماء في الأمم كلها

والذين يجتهدون في غرس علومهم في بلادنا من أشد الناس محافظة على تراثهم وأصول حضارتهم ، ولا يعرفون الجديد بهذا المعنى الذي يفرضونه علينا ، وإنّما الجديد عندهم هو ما تكشفه عقول الدارسين ، من فكر حي مستور في قلب الفكر القديم ، ثم يضيف إليه من فكره واجتهاده ، وكده ، وكدحه ، ما يربو به ويتسع ، وكل المذاهب الفكرية في فروع المعرفة المختلفة يبزغ فيها الجديد من كهوف القديم ، ولا يزال الباحث يحلل ويناقش ، ويُقَلِّب ، ويحاور وينابذ ، ويجاذب حتى يكشف عن وجه الفكرة ذات السخاء ، ولم يعرفوا هم ولا غيرهم من أمم الأرض الجديد بهذا المعنى الذي عندنا ، وهو احتلال فكر دخيل غريب مواقع فكر أصيل نبت وثبت وتأصّل وتأيد في منابته وفي قلوب أمته . الجديد بهذا المعنى عمل عدواني يعني اقتحامًا وغزوًا ، وليس اقتحام أرض ، ولا غزو أرض ، فحسب وإنّما اقتحام عقل الإنسان ، وقلبه ، وهذا أشرس من اقتحام الأرض ، ولذلك سماه عقلاؤنا الغزو الفكري ، وقد صحب في تاريخنا احتلال الأرض ، وولد معه ، فهو أخوه وتوأمه ، وكان الذين يرفضونه ولا يزالون ذادة مجاهدين يذودون عن مآثر صالحات ، وكما كان حملة السيوف يذودون عن أرض هذه الأمة كان حملة الأقلام يذودون عن عقلها ، ولهذا كان مداد العلماء يوزن بدماء الشهداء ؛ لأنهما أخوان ، يتكافآن ، وقد ذكر الحق في سورة التوبة الخروج إلى طلب العلم ، وسماه نفرًا ، كما سمى الجهاد نفرًا ، قال سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ ﴾ (التوبة:١٢٢) ، كما قال جل ذكره في السورة نفسها : ﴿ ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة:٤١) .

وجاءت آية الخروج في طلب العلم في قلب آيات الجهاد وسياق الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ ورغبوا بأنفسهم عن نفسه وهذا شيء يجب أن يحكم فهمه ، حتى يعلم أهل الحق وطلاب العلم من علماء هذه الأمة أنهم في رباط إلى يوم القيامة .

قلت : إن الذين فرضوا علينا التجديد بهذا المعنى القبيح الذي بينته من أشد الناس تشبثًا بتراثهم وعلومهم ، ومن أشد الناس أخذًا بمعنى الجديد الذي هو تأسيس وبناء المعرفة على الوجه الذي شرحته ، وكتاب (مبادئ النقد الأدبي) من أهم الكتب في تاريخ النقد الإنجليزي يقول مؤلفه في أول سطر فيه : هذا نسج جديد لخيوط قديمة ، مع أن الكتاب كان حدثًا مدويًا ، ولكن صاحبه يدل قومه على مصدر علمه ويقول : إن خيوطه التي بني عليها ، ونسج منها هي إرث من إرث علمائهم وهي امتداد لفكرهم ، وجهادهم ، والذي له فيه هو النسج الجديد لا غير ، هو لم يستصحب كلام الأولين ، ولم يستضئ به فحسب ، وإنما كلامهم هو اللبنات التي أشاد بها بناءه ، والذي له فيه هو طريقة البناء ، وأسلوب التصميم لا غير .

وهذا فقه جيد لمعنى التجديد ، وحرص على تلاحم مراحل العلم وتماسكها وألا تكون هناك قطيعة بين يومه وأمسه ، هو حرص على الكيان ، بل إن إصرارهم على فرض علومهم وحضارتهم على ديارنا من هذا الباب نفسه ؛ لأنهم لا يتشبثون بعلومهم وحضارتهم في ديارهم فحسب ، وإنما يفرضونها حيث يكون لهم سلطان ، فالمد الفكري والحضاري لفكرهم ، وحضارتهم يواكب في الدرجة الأولى ضروب النفوذ الأخرى من سياسية ،

واقتصادية ، وعسكرية ، وغيرها ، وهذا وغيره كان كافيًا لتنبيه العقل العربي من غفلته ، حتى يَدْفَع عن علومه ، التي هي ذات نفسه ، والتي هي كيان أمته ، وكيان حضارته ، وتأمل الواقع وحلله بصبر كما تتأمل الكتاب وتحلله بصبر والواقع هو الكتاب الأغمض ، وهنا شيء يجب بيانه وهو أن الرفض القاطع للتجديد بهذا المعنى القبيح لا يعني رفض معرفة ما يقوله الآخرون ، المرفوض فقط هو اصطناع فكر الآخرين ، وعلومهم ، وإحلال ذلك محل فكرنا وعلومنا ، أو غرس فكرهم وعلومهم في قلب فكرنا وعلومنا ، أو غرس فكرهم وعلومهم في قلب فكرنا وعلومنا ، كما يفعل أصحاب «الأصالة والمعاصرة» وهذا شر من الأول ، هذا هو المرفوض ، أما معرفة ما يقولون وكيف يفكرون فهذا ليس من المباح وإنّما هو من الواجب ، وكل قدر طاقته ؛ لأنه ليس للاطلاع سدود ولا لطلب العلم حدود ، الواجب أن نتعرف على ما تقوله أمم الأرض وليست أمة النصرانية وحدها ، ولكننا لا نعرف ما يقولون لنقول ما يقولون ، ولا نعرف كيف يفكرون لنفكر كما يفكرون ؛ لأن هذا تقليد ، والتقليد عجز ، والعجز ذل وانكسار ، وإنما لنقول ما يجب أن نقوله ولنفكر بالطريقة التي نراها .

يجب أن يطّلع العقل المسلم الحيّ على كل تجارب الأمم وأن تكون كلها تحت سمعه وبصره ، والضابط العاصم الذي لا ترخص فيه هو أن يكون كل ذلك لزيادة خبرة هذا العقل ، فإذا ما عالج علومه ومسائله ، عالجها ببصيرة أحكمت تجاربها ؛ لأن كل هذا الاطلاع على تجارب الآخرين يجب أن يكون قد سبقه ليس اطلاعه على علومه وأصول حضارته

فحسب ، وإنما تربيته فيها وغمسه من رأسه إلى قدمه فيها ، وتشرُّبه لها ، وتمثله لها ، وملابسته لها ، حتى تعيش فيه ويعيش فيها ، وتقوم به ، ويقوم بها ، ويُمْسي بها ويصبح ، وتكون هي القطب الذي تدور عليه الرحا ، ويكون كل ما اطلع عليه من تجارب الأمم قد تحوّل إلى طاقة ، ونور ، وبصيرة ، كما يتحول الطعام في الجسم الصحيح إلى عافية يباشر الإنسان أعماله بهذه العافية كذلك زاد العقول ، إذا قرأتُ كلامًا لا يظل كلمات مرصوصة في رأسي أكتبها في كتابي وأقولها لطلابي ، وإنّما تتحول هذه الكلمات إلى طاقة وعافية في نفسي ، وعقلي ، وأواجه نصوص علومي ، وأصول فكر أمتي ، بهذه العافية ، التي وفّرها لي ليس تطوافي على كلام الآخرين فحسب ، وإنّما قبله وبعده أني ملأت مزادتي وعيبتي من علومي ، حتى رَسَخَتْ في قلبي ، وكانت هي ينبوعي ، ومشربي ، ولحمي ، ودمي ، وهذا هو طريق الناس في طول الزمان وعرضه وفي العرب والعجم ، وهو طريق صعب ، وبصعوبته رفع الله الذين أوتوا العلم درجات ، وجعلهم ورثة النبيين ، ولم يرفعهم ، ولم يرثوا النبوات ؛ لأنهم يخطفون فكرة من هنا ، وفكرة من هناك ويخلطون هذا بذاك ، ويقولون هذه عصائر الأصالة والمعاصرة ، أو هذا هو التجديد ، وكأننا لم نعد علماء وإنما صرنا باعة في الأسواق ، وهذا طريق سهل جدًّا وشائع جدًّا وفاسد جدًّا ومنحط جدًّا وهو أشبه بفعل الدجالين والمشعوذين منه بفعل العلماء ، وكل الحركات الفكرية والإصلاحية والأدبية التي تدور في عالمنا إلى اليوم خرجت من كهف الجديد بهذا المعنى الفاسد والمغشوش والقبيح الذي ذكرته ، خذ موضوع « تحديث

العقل العربي» وكل ما كتب تحت هذا العنوان لا يخرج عن طلب مزيد من إفراغ علوم أهل الكتابين في صدور وقلوب أهل الإسلام ، ومثل هذا ما يقال في باب «التنوير» فإنّه راجع إلى هذا ، وحكاية «الحداثة والتراث» لا معنى لها إلا هذا ، إلحاح لا يفتر على خلع النفس من ذاتها ، والأجيال بفطرتها متشبثة بكيانها وعلومها وتاريخها وآية ذلك هذا الشباب الرافض ؛ لثقافة الباعة والدجل هذه .

ومن الباطل الذي نبت حول هذا الباطل وقبلناه بغفلة عجيبة قياس الخلاف حول قضية القديم والجديد التي أثيرت أول هذا القرن وشرحنا حقيقتها، قياس ذلك على الخلاف حول القديم والجديد في العصر العباسي ، ويقولون في تأكيد هذا التدليس الفاجر إن الخلاف بين القديم والجديد سُنَّة الحياة والجيل المسكين يسمع ويشرب ويكرع ، وهو لا يتعقل أن الخلاف في العصر العباسي ، كان خلافًا بين شعراء أدب واحد ، وأمة واحدة ، ولغة واحدة ، وتحت مظلة ثقافة واحدة ، وهو خلاف في المذهب الشعري ، كالخلاف بين الفقهاء ، واللغويين ، وعلماء العقائد وهذا شيء والذي نحن فيه شيء آخر ؛ لأن الذي نحن فيه صراع بين علوم أهل الإسلام ، وعلوم أهل الكتابين على أرض الإسلام ، ويجب أن تسمى الأشياء بأسمائها وقد كررت هذه الكلمة ويجب أن تتكرر .

ومن الأفكار التي لا أجد لها أصلاً في كلام القدماء القول بأن علومنا ازدهرت في العصر العباسي بعد ترجمة علوم اليونان .

وقد ذكر القاضي الأكرم قصة ترجمة علوم اليونان ولم يذكر كلمة واحدة تدل على ذلك ، بل ذكر ما يدل على عكس ذلك وخلاصة ما ذكره أن الدولة الرومانية لما دخلت في المسيحية حرّمت هذا الفكر اليوناني ، لأنه فكر وثني ويتصادم مع المسيحية ، فجمعت كل تراث اليونان وبنت له بيتا ووضعته فيه ، وأحكمت إغلاقه وطُلب من كل مَلِكٍ أن يضع قُفلاً على هذا البيت إمعانًا في إبعاده ، ولما طلبها المأمون كان قد مضى على هذا قرون طويلة فجهلوا القصة ، وجهلوا مكان هذه الكتب ، ثم دلهم عليها راهب ، وسأله الملك : هل عليّ من حرجٍ لو أعطيت هذه الكتب لملك المسلمين ؟ فقال له الراهب : كلا أيها الملك ، إنّ هذه الكتب ما دخلت على دين قوم إلا أفسدته فأعطها لملك المسلمين ، وأنت مأجور غير مأزور . والقفطي كتب هذا بعد ترجمتها بقرون ، وهو رجل صناعته التاريخ ، وقد أرّخ للفكر الإسلامي وهو قريب من الزمن ، ولو كانت علوم المسلمين ازدهرت بذلك أو قال أحد إنها ازدهرت بذلك لأشار القفطي في هذا المقام إلى هذا الأثر ولو بكلمة واحدة ، ولم أقرأ هذه الكلمة قبل هذا الزمن وأرى أنها قيلت لتقنعنا بالأخذ عنهم ، وأنه ما دام آباؤنا اعتمدوا على آبائهم فلا حرج علينا أن نعتمد عليهم وأن نكون عالة على عقولهم كما كان آباؤنا عالة على عقول آبائهم ، وهذا كلام كأنه مَقَامِعُ ذلٍّ يُضْرَبُ بها الأنفُ العربي ، ويقال له : أبوك أبو جهل وجدك مثله ، والذي في كتب علمائنا غير القفطي يدل على أنهم كانوا يزدرون هذه اليونانيات ويحتقرون من اشتغل بها ، وكان القائمون عليها مجموعة من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ، وبعض فسقة المسلمين ، وكان رئيسهم ، أبو بشر القُنَّائي الراهب ، وكان أبو سعيد

السيرافي يقول له : لو أن حكيمكم يعني أرسطو قرأ تحرير مسألة فقهية حررها واحد من أصاغر فقهائنا لاستصغر الذي عنده .

ومع فساد هذه الفكرة شاعت وملأت الكتب ودخلت قلوب تلاميذ المدارس الثانوية وقلوبهم خالية وغضة فتمكنت ولم تعد قابلة للمناقشة ؛ لأنها عندهم حقيقة :

أتاني هواها قبلَ أنْ أعرفَ الهوى فصادفَ قلبًا خاليًا فتمكّنا

وبعد: فإنه لا محيد لنا من أن نعود إلى علومنا ومناهج علمائنا وأن نحيي ذلك وأن نعرف كيف كانت تتفجر ينابيع العلم تحت ضربات أقلامهم ؛ وكيف كانوا يجرونها أنهارًا في صدور تلاميذهم وأجيالهم ، وليس لنا في تجديد علومنا إلا هذا الطريق ، وهو طريق صعب ، وكل شيء في الحياة له قيمة لابد أن يكون صعبًا وهذا أو الطوفان وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

المنهج الغائب في تراث عبد القاهر[1]

اللهم إني أستعينك على كل ما يرضيك وأصلي وأسلم على صفوتك من خلقك سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأسألك سبحانك العون والقبول وبعد .

فإن هذا البحث داخل في بحث مناهج علمائنا في بناء المعرفة ، وإنما أفردته لأن كتابي عبد القاهر يصفان هذا المنهج وصفًا جليًا ، ثم إن عبد القاهر كان في هذين الكتابين متميزًا تميزًا شديدًا في الكشف والاستخراج والاستنباط ، ثم إن توفري على كتابيه أكثر من توفري على كتب غيره من علمائنا الذين أسسوا علومنا كالخليل وسيبويه والشافعي وأبي الفتح ومالك وغيرهم ، وهذا التوفر ربما ساعد أكثر على إظهار حقائق هذا الباب الذي غاب غيابًا غريبًا وكريهًا ، وقد استحكم عندي أن فرضًا عليَّ أن أخاطب الجيل الذي أخاطبه بهذا المنهج الغائب والأمل والرجاء معقود على أن تدب أقدامهم على هذا الطريق وأستعين بالله وأقول :

إن هذا البحث يتجه إلى باب من أبواب العلم كان قد أحكمه علماؤنا وأتقنوه وأثبتوه حتى صار بين أيديهم واضح المعالم فلا تَلْتَبس مداخله ومخارجه ، وكان هذا من القرون التي تأسَّسَتْ فيها العلوم ، وكانت الصفوة التي أحكمت هذا المنهج هم طبقات العلماء الذين أسَّسُوا علومنا ، وحدَّدوا

(١) ألقي هذا البحث في مؤتمر النقد الأدبي الذي أقامته جامعة البحرين سنة ١٩٩٩م.

حدودها ، ومَيزُوا أصولها ، وشققوا فروعها ، ثم كان مما كان مما أدّى إلى إهمال هذا الباب وإغفاله ، ثم نسيانه .

وقد أفضى إغفال هذا المنهج إلى غياب الحركة التي يجب ألا تغيب عن الحياة العلمية والعقلية ؛ لأنها جزء من جوهرها ، وماهيتها ، ما دامت حياة علمية تتوفر لها صفة «الحياة»، وهي التجديد الدائم لعقل الأمة ، وعلومها ، ولما غاب التجديد القائم على تطوير المعرفة ، واتساعها ، وتغازرها ، وتكاثرها ، من خلال التنشيط الدائم للروح الحيَّة الكامنة في العلوم ذاتها ، حَلَّ مَحَلَّ هذا التجديد تجديدٌ آخر مغلوط المفهوم ، ومَشْبُوه الأهداف ، يدعو إلى نقل علوم الآخرين ، وغرسها في مغارس علومنا ، بعد مطاردة هذه العلوم ، واجتياحها ، واجتثاثها ، واصطلامها ، أو بقاء ما يسمونه (العناصر) المختارة ، من ثقافتنا ، كأنها «بقايا سلالات مُنْقَرِضة»

هذا المنهج هو علم طرائق العلماء ، في استخراج العلوم ، وتأسيسها ، وهو باب مُتَّسع ومتنوع ، وفيه علم غزير ، أُهمِلَ كلُّه ، وكل علم من علومنا توفّرت عليه طبقات من العلماء أقاموا بناءه لبنة بعد لبنة ، وفكرة بعد فكرة ، ومن الواجب أن نعرف كيف استخرجوا كل فكرة ، وكيف شَقُّوا عنها حُجُب الغيب ، وكيف حاوروها حتى اتَّسَعت وتكاثرت ، وسوّدت الصحائف . لقد أحكمنا علم الشافعي ، ولكننا لم نُحكم كيف استخرج الشافعيُّ علمه .

وأحكمنا علم سيبويه ، ولم نحكم كيف استخرج سيبويه علمه .

وقرأنا علم أبي الفتح ، ونحن مشغولون بتحديد مراده ، ولم نُشْغَل بمعرفة كيف وصل هو أولا إلى مراده هذا ، وغير هؤلاء كثير ، من علمائنا

الذين أضافوا أفكارًا جديدة ، ولم يكتفوا بفهم مسألة القدماء ، وإنما استخرجوا منها مسألة ، ثم إن منهم من لم يستخرج من المسألة مسألة ثانية فحسب وإنما استخرج من العلم علمًا آخر ، كعلم خصائص العربية الذي استخرجه ابن جني من علم سيبويه والفارسي ، وهو علم غير علمهم ، وإن كان مُشْتَقًّا من أصلاب علمهم، وهكذا يقال في الكتب التي لها طابع يُميِّزُها ، وكأنها علم جديد .

وكل عالم من علمائنا أضاف مساحة من المعرفة في أي فرع من الفروع يُعَدُّ تجربة عقلية خصبة لا يجوز إهمالها ، يجب علينا أن نتعرف على خطواته ، وكيف فكرّ ، وكابد ، وصَبر ، وثابر ، حتى أضاف إلى المعلوم مساحة من المجهول ، وكيف فُرِقَ له عن هذا المجهول كما كان يقول أبو الفتح ، حتى تخلَّقت منه فكرة بين يديه ، وكيف صوَّرها خلقًا ، وكيف نفخ فيها من روحه ؟ وكيف دخلت باب المعرفة وصارت جزءًا من العلم ، يتدارسه العلماء .

إنه ليروع القارئ المتأملَ أن يتفرَّس في المسألة التي يقرؤها في كتب طبقات العلماء المؤسسين للعلوم فيراها - أحيانًا - طيفًا يَخْطُر في عقل العالم ، ثم لا ينفك يُتابعها ، حتى يَقْتَنِصَها ، ويُقَيِّدهَا ، وكأنها طير من طيور الحكمة ، صادها الخاطر من آفاق الإلهام ، ويرى القارئ الكلف بهذا اللون من النظر جلالاً لهذه المتابعة ، هو أجلُّ من المعرفة ذاتها ، لأنه لا شيء أهَمَّ من معرفة العلم ، إلا معرفةُ كيف وُجِدَ العلم ، وكان علماؤنا يُثْبِتُون هذا في نفوس من يقرؤون كتبهم ، وربما جعلوا الإشارة إلى هذا من عنوان الكتاب ، مثل الذي سمَّى كتابه « نتائج الفِكَر » والذي سمى كتابه « صيد الخاطر ».

إن عودة هذا المنهج صارت ضرورة مُلحة لأنه هو المدخل الوحيد لإحياء العلوم ، والنهوض بها ، وإحياء العلوم والنهوض بها هو المدخل الوحيد لإحياء الأمة ، وارتقائها ، ونهضتها ، ولن تحيا أمة بحياة علوم غيرها ، ولن ترتقي بفعل غيرها ، وآفتنا أنه آل إلينَا تُراثٌ مُتَّسع ، فشغلنا بتحصيله ، حتى صارت عادتنا التلخيصَ ، والشرحَ ، وهناك من دعا إلى أن نَنْقُل « رحا » الاستذكار والتحصيل والتلخيص إلى علوم الآخرين ، ورأينا في هذا تجديدًا ، مع أن المسألة في جوهرها هي التحصيل ، ويَسْتَحيلُ أنْ ينتج هذا التحصيل تقدمًا ، ويؤكد كل ذي فهم أننا لَوْ بَقِينا نَدْرسُ كلام الآخرين وعلومهم دهرًا بعد دهر ، فلن تكون في آخرالأبد إلى إسطوانات هلكى ، من كثرة ما نقش على صفائحها ، وهذا يعني ضرورة أن ننزع عن هذا التَّلهِّي الذي توهمناه تقدمًا ، وتنويرًا وتحديثًا ، إلى ما يجب أن نُشْغَل به ، وهو البحث عن وسائل تجديد علومنا ، وإحيائها .

وآمل أن أدل على معالم هذا الطريق في تراث عبد القاهر دلالة عامة .

لأن استقصاء ذلك يحتاج إلى مؤلف أوسع من مؤلفات عبد القاهر ، لأن كل فكرة كتبها تحتاج في بيان كيف كتبها إلى أكثر مما تحتاجه في بيانها ، وليس هذا تجاوزًا ، لأن القارئ لابد أن يرى ما وراء الفكرة من مكابدات ، ومتابعات ، ولا شك أن بيان العالم لفكرته هو آخرُ مراحلها ، وأخْطرها ، وأيْسَرُها ، والمهم هو ما قبل هذه المرحلة ، وليس هذا إحالة إلى مجهول ، لأن كلام العلماء المؤسسين ، له طريقه في الدلالة ، فقد تجد بوارق حول الفكرة من غَيْر بابها ، وقد تجد إرْهَاصَاتٍ لها في معالجة مسألة قريبة منها ،

أو بعيدة عنها ، وربما في علم آخر ، وهذا شيء لا يدلك عليه إلا أن تبحث عنه بنفسك .

وهذا اللون من النظر سيقدم معلومات يُراجع في ضوئها تاريخ العلوم ، ويَسْقطُ بها كثيرٌ من الأوهام التي عَلِقَتْ بهذا التاريخ في غيبة هذا المنهج ، لأنك وأنت تقرأ كلام العلماء تجد فَرْقًا بين عقل يَخْلُق المسألة ، خَلْقًا من بعد خَلْق ، ويَسُوقُها طوراً بعد طور ، ويبسطها فكرة فكرة ، فتعرف معرفة لا يداخلها ريب أن هذا من بنات عقله ، أو أن هذا مما حصَّله من كلام الآخرين، وإنك لترى هذا في كلام العلماء واضحًا كفلق الصبح .

وعلم البلاغة الذي أسَّسه عبد القاهر علم وجد ليبقى ، لأنه ليس من المعارف التي تعكس فلسفة عصر من العصور ، أو منهج جيل من الأجيال ، يذهب بذهاب ذلك أوْ يضعف بضعفه ، وإنما يرجع ثبات هذا العلم إلى أن عبد القاهر هُدي حين استمده من اللغة ذاتها ، ومن خُصُوصيَّاتها في الكلام المصقول شعراً أو نثراً ، وهذه الخصوصيات لا تزال حية باقية في كل كلام مصقول ، لأنَّها أدوات اللغة ووسائلها في الإبانة ، فهي جزء من اللسان نفسه ، فأحوال التعريف والتنكير والتقديم والتأخير ، والفصل ، إلى آخره باقيةٌ بدلالاتها التي استخرجها عبد القاهر منها ، ثم هي كذلك في لساننا ، وهي كذلك في لسان الجيل الذي نزل فيه القرآن ، وليس معنى هذا أن عبد القاهر أتَمَّ بيان العربية ، وأنه بذلك رُفِعَتْ الأقلامُ وجَفَّت الصحف!! لا ليس هذا مما يَرِدُ ، لأن علم عبد القاهر يُدرَس في محورين ـ الأول : دراسة المسائل العلمية التي استخرجها .

وهو لا يزال مطويًا على كثير من الحقائق ، والكلام فيه متسع ، ثم إنه دل على بحث أسرار اللسان من هذه الجهة ولم يزعم أنه استخرج كل ما فيه ، بل إنه كان حريصًا في كل مسألة أن يقول : ودقائق هذا الباب لا تتناهى ، وإنما نبهناك ، والمحور الثاني : دراسة هذه الأحوال دراسة متجددة دائمًا ، وذلك في ألسنة الشعراء ، وأصحاب البيان ، فإذا كان التقديم في الدرس البلاغي محصورًا في مسائله ، فهو في الشعر والبيان المُثقَّف مُتَجَدِّدُ الدلالة ، لارتباط دلالته بالمواقف والأحوال ، ولهذا نجد له طابعًا عند كل شاعر ، وكل ذي بيان ، وكذلك طرائق التعريف ، والإيجاز ، وروابط الجمل ، ومعاني الحروف ، إلى آخر هذا مما لا يستهين بدرسه إلا مستهين بالمعرفة ، وليس هذا مجالاً تطبيقيًا كمجالات التطبيقات النحوية ، والصرفية ، بل والفقهية أيضًا ، لأن دراسة المسائل البلاغية في حقل الشعر والأدب جزء من المسائل البلاغية ، لأن التشبيه والطباق له في كل موقع مذاق ، وليس كذلك نصب المفعول ، ورفع الفاعل ، فنصب المفعول ورفع الفاعل في سورة البقرة كنصب المفعول ورفع الفاعل في « قفا نبك » وليس التنكير في البقرة كالتنكير في « قفا بنك » وهذا ظاهر ، ومن هنا كان الدرس الحي للمسائل البلاغية ليس في تحقيقات العلماء فحسب ، وإنما في متابعتها أيضًا في بيان أصحاب البيان ، وهذا هو الذي جعل الباحثين عن تذوق اللغة يَنْصَرِفُون عن الكتب المتسعة في التحقيق والتدقيق ، مثل الشروح ، والحواشي البلاغية ، ولم ينصرف المدققون في قواعد اللغة عن الشروح والحواشي النحوية ، لأن هذه الحواشي النحوية تزيد الدارس بصيرة بهذا العلم ، أمَّا البلاغة فإن البصيرة والبصر بها إنما يكون في تفتيش الأساليب . نعم إن الشروح

والحواشي البلاغية لها من حيث هي منهج في التفكير والمراجعة وإعمال العقل وتدقيق المعرفة لها من هذه الجهة قيمة لا يستهين بها أهل العلم ، لقد تعودنا أن نجمع بين كتابي عبد القاهر ، أسرارالبلاغة ، ودلائل الإعجاز ، وأغفلنا أن نفرق بينهما ، مع أن الفرق بينهما قائم ، فكتاب الدلائل يدور من أوله إلى آخره حول الإعجاز ، ومحاولة التعرف على الشيء الذي حدث في هذه الكلمات العربية الجارية في المصحف ، وصارت هذه الكلمات به كلامًا مُغايراً ، وقاطعًا للأطماع ، وقاهرًا للقُوى والقدر ، وعليه آمن الناس ، بينما لا نجد شيئًا من هذا ألبتّة في أسرار البلاغة ، وإنما نجد كتابًا يجتهد في الكشف عن أصول لنقد الشعر وتمييزه ، وإذا كان كتاب دلائل الإعجاز يمكن أن يعتبر كله حوارًا مع المشتغلين بقضية الإعجاز ، فإن أسرار البلاغة يعتبر كله حواراً مع المشتغلين بصنعة الشعر ونقده ، وهذا فارق جليل بين الكتابين ، ومع أن الإعجاز عنده ليس له طريق إلا طريق واحد وهو إحكام العلم بما يَفْضُل به كلام كلامًا ، وبما يعلو به كلام فوق كلام ، حتى يكون كلام يتجاوز كل كلام ، ويعلو طبقة وحده ، لا تقع منه ألسنة الناس على شيء ، أقول مع أن طريق الإعجاز عنده هو هذا ، وكتاب أسرار البلاغة يدور حول معرفة أصول نقد الشعر ، إلا أن هذا الاشتراك لم يلغ الفرق الواضح بين الكتابين في المادة والمنهج .

ولعل من أهم أسباب هذا الفرق مع الاشتراك في أكثر جوانب الموضوع هو أن مادة كتاب أسرار البلاغة ، وهي مباحث التشبيه ، والمجاز ، والبديع ، كان قد أكثر العلماء الكلام فيها ، ووسعوا أبوابها ، وأغزروا شواهدها ، وذكروا المستجاد منها وغيره ، حتى كأن هذه المباحث أوْشَكَتْ مادتها

العلمية على أن تقارب غيرها من علوم العربية ، مثل النحو ، والاشتقاق ، وغير ذلك من العلوم التي تكوّنت مادتها ، وليس شيء من هذا في دلائل الإعجاز ، لأنه يوشك أن يكون كله مادة ، ومنهجا من استخراج عبد القاهر .

ثم إنه لما كانت مباحث التشبيه والمجاز قد كثرت واتسعت قبل عبد القاهر ، رأينا عبد القاهر يتجه في دراستها اتجاهًا لم يتناوله أحد قبله ، وهذا أهم صفات منهج عبد القاهر وأبرزها ، إذ أنه لا يُقَدِّم لك علمًا يُمْكِنُك أن تتعلَّمه من غيره ، وهذا شيء لو التزمنا به ما كتبنا شيئًا ، ولو التزم به العلماء قبل وبعد عبد القاهر لغابت كتب كثيرة ، وبقي العلم غير منقوص ، وكان عبد القاهر من طبقة سيبويه وأبي الفتح وأبي حيان ، لم يكتبوا إلا ما تمليه عليهم خواطرُهم ، وما تُمْطِرهم به سحائبُهم ، ولهذا رأيناه في أسرار البلاغة يبحث بأناةٍ وشدَّة تيقظ ، ومراجعات متَّسعة ، في الشعر ، والكلام البليغ عن فروقٍ أغفلها من وسَّعُوا الكلام في هذه الأبواب ، فيبني كتاب أسرار البلاغة من أوله إلى آخره على بيان الفروق ، وبدأ بالفرق بين ضروب الاستعارة ، ووضع أساس تقسيماتها التي يَظُنُّ البعضُ أنها من صنع المتأخرين ، مع أن المتأخرين لم يُضيفُوا قسمًا واحدًا إلى الاستعارة . وكذلك أقسام التشبيه ، والفرق بينه وبين الاستعارة ، وهذه المباحث أغفلها الذين سبقوا عبد القاهر ، وكانت وحدها موضع دراسته ، ولم يُسْبَق فيما درسه بحرف واحد ، وإنما استخرجه كله ، وكان يضع بين يديه ما يستخرجه من الشعر ، ويحقق النظر فيه ، فيرى ضروبًا من الكلام « يجمعها الاسم الأعم كالتشبيه أو المجاز ثم

ينفرد كل منها بخاصة»[1]. ومن هذا الانفراد كان التقسيم لهذه الأبواب ، وهو تحقيق للفروق في صور الكلام ، وإغفال هذه الفروق إنما يكون «من قِصرِ الهمّة في طلب اللطائف»[2].

أهم غاية لهذا البحث هي البحث عن إجابة هذا السؤال ، كيف كان يستخرج عبد القاهر علمه ؟ وقد مهدت لهذا بما لا يجوز اختصاره .

وأول ما ترى في هذا هو مواجهته في أسرار البلاغة لقوم من المتأدّبين يرجعون بمزيّة الكلام إلى الألفاظ ، ويقف عبد القاهر عند هذه القضيَّة فيحلل الكلام نفسه ، ويتعرف على مكوناته ، ليصل إلى العنصر الذي يحمل الفكرة ، والمعنى ، ورسالة الخطاب ، ويقف عند هذا العنصر الذي يراه بمثابة الأم ، ويُعوِّل عليه ، ويجعله محور درسه وتحليله ، ونقده ، فالألفاظ التي يُعَوِّلون عليها لا تكتسب قيمتها في الكلام إلا بالضم ، وأن تُؤلَّف ضَرْبًا خاصًا من التأليف ، وهذا التأليف ، هو الذي به «يكون الكلام بيت شعر وفصل خطاب»[3] ولهذا رأى عبد القاهر أنه هو الأصل الذي يجب الوقوف عنده ، والتُّربةُ التي يجب البحث فيها ، ولكنه في أسرار البلاغة لم يقف عندها طويلاً ، إلا رَيْثما يُقَرِّرُ حقيقة يَبِّنَ بها فساد الفكرة الشائعة ، وهي أن مَزِيَّة الكلام ترجع إلى ألفاظه ، وإنما المزية حيث تنبعث الخواطر ، والمعاني ، والأحوال ، التي «تقع من المرء في فؤاده»[4] وكان عبد القاهر لطول تأمله ، وطول انقطاعه للفكرة وقدرته الغريبة على جمع نفسه حول

(١،٢) أسرار البلاغة ، ص : ٢٧

(٣،٤) المرجع السابق ، ص : ٤

المسألة ، ينفُذ من فكرة إلى فكرة ، ويهديه النظر في القضيَّة إلى قضية أخرى ، وهكذا ترى سلسلة من الأفكار تتولد ، وتتتابع ، وتتخلَّق ، بين يديه ، وهو مُمْعن ، ومستغرق كأنه في حالة من أحوال الكشف الروحي ، فقد هداه القول بأن جوهر الكلام هو الضمُّ ، والتأليف ، والنظام ، إلى مجال آخر نقل إليه النظر لابس فيه نَفْسَ مُبْدِع الكلام ، فبحث في نفس المنشئ عن أصل تأليف اللغة ، ونظامها ، وضم الكلم فيها إلى الكلم ، وهداه هذا التَّدسُّس في نفس المنشئ إلى (القول بأن اللُّغَةَ من حيث هي كلمات لَيْسَتْ إلا مظهراً صوتيًا للكلام ، وهي آخرمراحله ، بل إنها ليست من مراحل بنائه ، وإنما هي مرحلة عرضه ، وإرساله ، وجوهر الكلام وجذور بنائه ، يتم في صفحة العقل ، والنفس ، وتتراتب الكلمات هناك ، ويتمُّ نظمها ، ونَضَدَها ، فإذا كان الذي يجري به النطق حَاذِيًا حَذْوَ الذي جرى في النفس ، كان الكلام سَلِسًا ، حسنًا ، مبينًا ، مشرقًا ، لأنه لغة العقل ، والقلب ، ومنطق النفس ، والضمير .

قلنا إن طريقة التفكير ، والتَّدبُّر التي غَلَبَتْ على فكر عبد القاهر ومنهجه ، كانت تُفْضِي به من فكرة إلى فكرة ، وأنه انتقل من الكلام المنطوق مُتَّجهًا إلى داخل النفس ، ليلتقي بالكلام هناك ، وهو يُسَطِّرُ على صفحة القلب ، والضمير ، ثم وهو يعالج الصلة بين ما يجري به اللسان ، وما تجري به خواطر النفس ، ذكر أن ما تقدم في العَقْل يجب أن يتقدم في اللفظ ، يَعْني يجب أن يكون التقابل دقيقًا وموزونًا وزنًا ، فإذا اختلَّ هذا التقابل ، أو اهتز فقد الكلام ماءه . وقد هداه النظر في هذا ، إلى فكرة أخرى ، طرق بها بابًا من أبواب العلم في اللغات لم يتسع بعدُ وهي القول بأن أصول قواعد اللغة ، وأجروميتها النحوية ، انعكاس لطبائع الأقوام وعاداتهم ، فربط عبد القاهر

بين نحو اللغة ، وبين طبائع أصحابها ، وطرائق تفكيرهم ، لأن طبائعهم ، وطرائق تفكيرهم هي التي انعكست على طبائع اللغة ، وطرائق بيانها ، وكأنك تستطيع أن تعرف الكثير عن طرائق الأقوام في التفكير ، والتقاليد العقلية ، من خلال الأجْرومية النحويةُ ، وهذه اللفْتَةُ البارعةُ كانت وَمْضَة أشْرقت عند عبد القاهر ، ثم انصرف عنها ، بعدما قال « وهذا الحكم أعني الاختصاص في الترتيب يقع في الألفاظ مرتبًا على المعاني المرتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل ، ولن يُتَصَوّرَ في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير ، وتخصيص في الترتيب ، والتنزيل ، وعلى ذلك وضعت المراتب ، والمنازل ، في الجمل المركبة ، وأقسام الكلام المدوَّنة ، فقيل من حق هذا أن يسبق ذلك ، ومن صحة ما ههنا أن يقع هنالك ، كما قيل في المبتدأ والخبر ، والمفعول والفاعل ، حتى حُظر في جنس من الكلام بعينه أن يقع إلا سابقًا ، وفي آخر أن يوجد إلا مَبْنِيًا على غيره ، وبه لاحقًا كقولنا الاستفهام له صدر الكلام ، وأن الصفة لا تتقدم على الموصوف »(١) والمقصود من هذا النص قوله وعلى ذلك وُضِعَتْ المراتب ، والمنازل في الجمل المركبة إلى آخره لأن معناه (أن المراتب والمنازل التي هي قواعد بناء الكلام ، اشْتُقَّتْ من أحوال النفس ، وطرائقها في بناء المعاني المنتظمة فيها على قضية العقل ، يعني النظام الفكري العام للأمة والمسيطر على أفرادها والمكوِّن لهم والفاعل في توجيه طرائقهم . كلمة قضية العقل هنا فيها معنى الخصوصية الأم للتفكير العربي ، يعني أن نظام اللغة إفراز للخصوصية الأم لعقل الجماعة اللغوية (المنتظم فيها على قضية العقل) ثوابت النظام اللغوي من

(١) أسرار البلاغة ، ص : ٤

ثوابت العقل عند الأمة وتعليلات ابن جني وغيره تدخل في هذا ، فلما كان الاستفهام لا يقع في النفس إلا أولاً ، وجب أن تكون له الصدارة ، ولما كانت الصفة لا تقع إلا بعد الموصوف ، وجب أن تكون قاعدتها (أن الصفة لا تتقدم على الموصوف) ، وهكذا قياس قواعد اللغة كلها ، مشتقة من تقاليد أصحاب اللغة ، الذين ثَبَّتُوها وهذَّبوها ، وثَقَّفُوها ورَقَّقُوها كما كان يقول أبو الفتح .

قلت : إن عبد القاهر كان كلفا بالوقوف عند الفكرة ، يطرقها بعقله طرقات ، من بعدها طرقات ، حتى يستخرج منها خَبْأها ، والأفكار الحية ، كالمعادن الثريَّة تعطيك مع النصب ، وتمدك بالعطاء بمقدار ما تمدُها بالجهد ، والصبر ، وحسن التلطف ، وكان عبد القاهر كثيراً ما يكرر عبارات تدل على كفاح عقلي ، ونصب ذهني في معالجة المعرفة ، ويرى أن دقائقها ولطائفها لا تأتيك إلا بعد المكابدة وإطالة سفر الخاطر ، واقتداح العقل ، وما هو من هذا الباب الذي نراه أصلاً قام عليه استخراج علم عبد القاهر .

وقد ذكرت أن وقوفه عند النص يهديه إلى فكرة فيقف ، عندها يحاورها ، ويداخلها ، ويجوس في باطنها ، يسمع نَبْضًا هُنا ووَمْضا هناك ، يُتابعُ ذلك ، ويبحث فيه حتى يستخرج منه فكرة أخرى ، وهكذا ، وضربت لذلك مثالا ولو قرأت كتاب أسرار البلاغة ، ونظرت فيه من هذه الجهة لرأيت الكتاب قائمًا عليها ، وسوف أذكر شاهدًا آخر ظاهرًا لن يحتاج منا إلى عناء ، وذلك هو تفريقه بين التشبيه الصريح والتمثيل ، ولم يكن هذا علمًا معلومًا قبله وإنما كانت الصور كلها نوعًا واحدًا ، وكان عمل عبد القاهر هو التأمل النافذ في صور كثيرة مختلفة من الشعر هداه النظر إلى أن الصور « تجتمع

في جذْم ثم يذهب بها التشعب قبيلا بعد قبيل»[1] والجذم الأصل ، وهذا التشعب الذي يجب أن يُسجِّله العلماءُ لابد أن يكون ثمرة النظر المتلطف ، والبحث المُتقَصِّي ، ودراسة الصور وتحديد فروقها ، وعلى هذا الأساس يذهب بها التَّشَعُّب ، وقد اهتدى عبد القاهر إلى أن الشَّبه الذي يُعْقَدُ بين المتشابهات ، لا يقوم في طرق التشبيه على حَدٍّ واحد ، ولا يقوم على وجوه كثيرة ، وإنما يقوم على وجهين لا غير

١- أن يكون هذا الشبه قائمًا في الطرفين على وجه الحقيقة ، فتراه هنا كما تراه هناك .

٢- أن يكون قائمًا في أحد الطرفين على وجه من التأول ، فليس الذي تراه هنا هو الذي تراه هناك ، وإنما ترى هنا شيئًا يُشْبه الذي تراه هناك ، وليس في التشبيه الذي هو جُلّ كلام العرب قسم ثالث ، وبناء على هذا وجب تقسيم التشبيه إلى قسمين ، وكانت هذه النتيجة نقطة انطلاق في بحث طويل أضافه إلى الدراسة البلاغية ، ومضى تُسلمه الفكرةُ إلى الفكرة ، فرتب على النتيجة السابقة سؤالاً يقول أي القسمين أحق بأن يكون الأصل ، والآخر الفرع ؟ وأكد أن الاشتراك في الشبه على وجه الحقيقة ، كالاشتراك في الحمرة بين الخد والورد ، لابد أن يكون هو الأصل ، والاشتراك القائم على التأول كالاشتراك بين الكلام والعسل في الحلاوة لابد أن يكون هو الفرع ، ثم يترقّى بالفكرة مَرْقاة أخْرى ، ليقول إن لسان الإنسان حاك الصور الحسية في التشبيه الصريح قبل أن

(١) أسرار البلاغة ، ص : ٢٧

يحوك الصور العقلية في التمثيل ، لأن الصور الحسِّية أقرب منالا ، والصور العقلية لم يدركها الإنسان إلا بعد مرحلة من النضج ، وهكذا يدخل عبد القاهر بفكره في غيابة التاريخ البياني ، ويُنَبِّهنا إلى أن لغتنا الأم ، وأدبَنا الأمُ ، هو صور الحس فحسب ، وأن الصور العقلية جاءت بعدما استطاع العقل الإنساني أن يَثْقُبَ هذا العالم المحسوس ، لِيَنْفُذَ إلى ما وراءه ، ثم إن هذا ينطبق عند عبد القاهر على كلام العرب والعجم ، لأنه هداه منهج التأمل والاستبطان ، والصبر ، والمراجعة ، إلى أمر له بال ، ذلك أنَّه كان يرى أن في اللغة أحوالاً ، وصورًا هي انعكاسات لفطرة الإنسان ، التي فطره الله عليها لما علَّمه البيان ، وهذه موجودة في اللغات كلها على حد واحد ، لأن الإنسان بفطرته منعكس في لغته ، لا محالة ، وذلك كالتشبيه ، والمجاز ، والكناية وما هو من هذا الباب ، وهو علم مشترك بين الناس كافة ، وهو مستنبط من اللغات كلها ، وهو علم بلاغة الإنسان ، وهناك أحوال خاصة بلغة دون لغة ، وعلمها خاص ، كفروق الصِّيغ ، ودلالات حروف المعاني ، وغيرها ، ثم أعود إلى سلسلة الأفكار المترادفة عند الرجل في التمثيل ، بعدما هَدَتْهُ الفكرة إلى القول بأن اللغة الأم هي لغة الصُّور ، وقد دلَّنا على الطريقة التي نتذوق بها الشعر ، وذلك بأن تقرأ الشعر وتتأمله ، وتجتهد في أن تقيم الصور الشعرية ، التي قام بناء الشعر عليها ، في نفسك على الوجه الذي قامت عليه في الشعر ، وأن تُحسن هذا ، ولا يختلط عليك الأمر فيه ، ثم تحسن الوعي بما في الصُّور من أصْداء ، وإيقاعات ، ثم تَرقُبُ أثر ذلك

في نفسك وقد هيّأتْها للإصْغاء باليقظة ، والفطنة ، والشحذ ، والتركيز ، حتى تدرك ما تَزْخَرُ به الصور من أشكال ، وأنغام إلى آخره ، حين تَفعَلُ هذا تدرك أن الصور الحسية التي قام عليها تمثيل المعاني العقلية ، فيها ما ليس في غيرها ، وأنها أقْدَرُ على تحريك قوى النفس ، وأنّها تبعث من أقَاصي الأفئدة كوامن الإحساس ، وتُهزُّ جذور الطباع ، وتزلزلها ، وتنقلها إلى حيث يتوجه الشعر ، وقد أدرك هذا في الشعر قبل أن يحدثنا عنه ، ثم سأل لماذا يكون لهذا الضرب من الكلام هذا الأثر الشديد ؟ أي شيءٍ في التمثيل يخاطبُ النفس هذا الخطاب الرائع النبيل ، حتى يستثير من أقاصيها ؟ ويبعث كوامنها وهواجعها ، من أغوارها ؟ أي طاقة سحرية في اللغة تفعل هذا في الإنسان ؟ أي نفثة من نفثات الإلهام انطوى عليها هذا اللون من البيان حتى استَفَزَّ طباع أهل الرزانة ، والركانة ، وأقام في نفوسهم «ثورة الطَّرب» ؟

ولاشك أن هذه التساؤلات من أدق أبواب النظر في اللغة والبحث عن طاقاتها الهائلة الهاجعة في مضمر كلماتها ، والتي يستطيع اللسانُ الحر أن يوقع عليها بضرباته فيحدث في النفس الإنسانية أثرًا أي أثر ، وبعدما يجمع عبد القاهر صورًا كثيرة من هذا الضرب ، ويتأملها ، ويستخرج منها مع تنوعها ضروبًا من الصَّنْعة ، تجري في أكثرها ، يبدأ فيتحدّثُ عن علل تأثيرها ، واحدة،واحدة في باب جيد هو من أنفس ما كُتب في تحليل البيان، ونكتفي هنا بما قاله في العلة الأولى وهي أن التمثيل ينقل الأفكار والخواطر من عالمها العقلى المدرك بالبصيرة ، إلى عالم الحس والصور الحيَّة ، فترى

بصرك ما الأصل أن تراه ببصيرتك ، وهذا الانتقال لا يكون إلا بقوة النفس ، واكتمال أداتها ، ووسائل صنعتها ، وهذا وحده قيمة ، لأنك ترى فيه تفوق الخيال ، واقتدار اللغة على أن تَخْلُق الأشياء خَلْقًا آخر ، ولكن عبد القاهر لا يكتفي بهذا ، وإنما يترقى ، ويسأل لماذا تُحدث هذه الصور أنسًا في النفس ؟ ويقول إنك إذا نقلت النفس عن المدرك بالعقل المحض ، وبالفكرة في القلب إلى ما يدرك بالحواس . فأنت كمن يتوسَّل إليها للغريب بالحميم وللجديد الصحبة بالحبيب القديم»[1].

انظر إلى قوله «يتوسَّل» ، وكأنه يشرح دبيب اللغة في النفس الإنسانية ، واصطناعها لمختلف الوسائل والحيل التي تناغي بها هذه النفس ، حتى تستوفي غاياتها ، في الوصول إليها ، والتمكين منها ، وأن سلطان البيان الذي لا ينافسه على النفس الإنسانية سلطان إنما كان يتنوق في المداخلة ، ودقة الملابسة ، والخبرة الواعية ، بأحوال النفس واستغلال مشاعر الإلف والحنين ، وإحكام معرفة الصاحب والحميم ، حتى لا تدع اللغة وسيلة من وسائل التأثير على هذه النفس إلا اصطنعتها ، وأتَمَّتْ بها على النفس سلطانها . ورحم الله عبد القاهر فكم هداه صبره وتأمله وانقطاعه وحفاوته بهذه اللغة إلى نفائس من العلم وذخائر من حكمة البيان ..

ولم يستخرج عبد القاهر هذا العلم الشريف إلا بعد أن جعل كلام العرب بين يديه ، وصبر على دراسته ، ومراجعته ، وتفليته ، واستخلص الفروق التي أقام عليها كتاب أسرار البلاغة بعد الاستقصاء ، والنظر في الفروق ،

---

(١) أسرار البلاغة ، ص : ٩

والتقسيمات التي ذكرها تدل دلالة واضحة على أن كلامه مؤسس على الاستقراء ، لأن الأقسام التي ذكرها لم يستدرك عليه أحد فيها بإضافة أقسام جديدة ، قائمة في الكلام ، وأغفلها عبد القاهر ، فإذا كان يقول إن الاستعارة في الكلام على ضربين ضرب تجعل فيه الشيء الشيء ليس هو ، كأن تجعل الجواد غيثا ، وليس بغيث ، وضرب تجعل فيه الشيء للشيء ليس له ، كأن تجعل للشمال يدًا وليس لها يد ، وليس في الكلام قسم ثالث ومثل هذا لا يكون بتحليل جملة من الشواهد ، وإنما يكون بتحليل الكلام كله ، ولا تستبعد هذا ، ولا تجعل حال علمائنا قياسًا نقيس به أحوال هذه الطبقة المؤسسة ، ولنذكر أن منهج الاستقراء كان منهجًا قائمًا ، وشائعًا ، وعليه تأسس وضع أصول العربية في علومها ، ويستحيل أن ينتهي النحاةُ إلى القول بأن إنّ تَنصِبُ المبتدأ وترفع الخبر إلا إذا كانوا نظروا في كل ما وَصَلَ إليهم مما نطق به الموثوق بعربيتهم ، ونظروا في هذا الحرف في الكلام كله ، وهكذا ، وإذا كان عمل الأداة لا يطرد رأيتهم يقولون وقد جاء في بعض لغات العرب كقولهم إن أن المصدرية تنصب الفعل المضارع ، وقد جاء في الشعر مرفوعًا كقوله : «أن تقرآن على أسماء..» إلى آخر ما هو قاطعٌ بأن العلم تأسس على هذا الاستقراء ، وعبد القاهر يعلم هذا ، وأقام علمه عليه ، ولم يكن هذا أمرًا بعيدًا وإنما كان أمرا بعيدا عندنا للاختلاف الكبير بين ما نحن عليه ، وما كانوا عليه .

وكان غياب الوعي بالجهود التي بذلها العلماء حتى استخرجوا لنا العلم ، من أهم ما أشاع فينا نَزْعَةَ الاستهتار بتراث العلماء ، وقد تعودنا على أن نجد العلم في الكتب فنقرأ قبسة من هنا وقبسة من هناك ، وقد نضرب

واحدة بالأخرى ، وهذا حسبنا ، وحين يُقاسُ هذا بعمل العلماء لا يكون إلا « تهويشا » لا تتأصَّلُ به معرفة في نفس ، ولا يعرف صاحبه قدر العلم والعلماء ، ولهذا لا غير شاع القدح وحَشْوُ القبيح في وجوه الأئمة رضوان الله عليهم . وهذا أقوى شاهد على الهوان الذي نحن فيه . وكتاب دلائل الإعجاز أظهر في الدلالة على المنهج الغائب الذي نريد أن ندل عليه في إرث عبد القاهر ، وهو كيف كان يفكر وهو يكتشف أصول بيان العربية ويؤسس هذا العلم الشريف ؟

وقد ذكرت أن مادة دلائل الإعجاز قد استخرجها عبد القاهر من أولها إلى آخرها ، وأن مادة كتاب أسرار البلاغة قد وضع لها قسماتها ، وميزها ، وحدّدها ، وكانت غفلا من هذا التمييز ، وهذا التحديد ، وأن هذه الخطوط التي وضَعت للعلم ملامحه أساس فيه ، وأنها بيد عبد القاهر لا غير

وكتاب دلائل الإعجاز يدلك من أوله على أن له قصة طويلة مع صاحبه ، وأن قضيَّته لازمته في حياته كلها ، من يوم أن أدرك ، وأخذ في طلب العلم ، وأن شُغله بهذه القضية كان شُغْلاً مشوبًا بحميَّة ، وحَيْرة ، وقلق ، لأنه مُتَصِلٌ بدينه ، ومعرفة وجه الإعجاز في حجة النبي ﷺ ، وهذا أصل الدين وأن شيئًا تجدَّد بالقرآن ، فلما سمعه العربُ سمعوا به كلامًا لم يَسْمَعُوا مثله قط ، وأنهم رازوا أنفسهم ، ليأتوا بمثله ، أو بما يدانيه ، ويلتبس به ، فعجزوا عجزاً مطبقًا ، وكان هذا شيئًا عندهم ، لم يختلفوا فيه .

وقد استظهر الأستاذ محمود محمد شاكر أن كتاب دلائل الإعجاز كتبه عبد القاهر في آخر حياته ، وأنه كان يوشك أن يُعيد النظر فيه ، فأعجله أجله ، وقد أسس الأستاذ محمود شاكر كلامه هذا على نسخة وقع عليها ،

منقولة من مُسَوَّدة عبد القاهر ، كما قال ناسخها ، وفي هذه المسوَّدة تعليقات بخط عبد القاهر ، وبلغته ، وهذا يعني أنها مما عرض له بعد ما كتب المسوَّدة ، وأنه كان يوشك أن يَضَعها في متن كتابه ، لأنها أشبه بالمتن ، وقد أظهرها الأستاذ في هوامش دلائل الإعجاز ، وأضيف إلى هذا أن عبد القاهر قال في أول شغله بموضوع الكتاب :

« ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة[1] ... فدلنا ذلك على أن القضية شاغلة له منذ الطلب كما قلنا ، ثم قال في افتتاح الكتاب مما سماه مَدْخَلاً « وقد وصلت بأخرةٍ إلى كلام من أصغى إليه وتدبره تدبر ذي دين وفتُوة.. » إلى آخره ، وهذا يشير إلى أن الكتاب لم تفتح له مسائله وأبواب علمه إلا بآخره» وهذا واضح .

ويمكن أن نضيف إليه الفرق المتسع بين دلائل الإعجاز وبقيَّة مؤلفات عبد القاهر. وهذا الفرق لا يظهر عندك كفلق الصبح إلا بطول المراجعة ، لكل ما كتب ، وحين تراه ترى بونا لا شك فيه ، لا من حيث التنظيم ، والتبويب ، لأن دلائل الإعجاز أقل كتبه حظًا في هذا الباب ، فقد أعجله الموت عن إتمام هذا الجانب فيه ، كما استظهر العلامة محمود شاكر رحمه الله ، وإنما هذا البون في المادة العلمية ، واكتنازها ، وإصابتها ، وسدادها ، ودقتها ، وبعد مراميها ، لأنه في هذا الكتاب ارتقى إلى طبقة الشيوخ الأوائل ، من أمثال سيبويه والخليل والجاحظ ، وليس في مؤلفات القرن الخامس ما يرتقي إلى هذه الطبقة ، إلا هذا الكتاب ، لأنه أسس علمًا ، ولم يُؤسِّس

(١) دلائل الإعجاز ، ص : ٣٤

في القرن الخامس علم من علوم العربية إلا هو ، ومن أهم ما يتميز به كتاب دلائل الإعجاز هو أن عبد القاهر فيه شديد الاحتياط ، كثير التوقي ، كثير الحذر ، في تحرير المسائل العلمية ، وتدقيق صوابها ، يحاول دائمًا أن يؤكد لك ، ولنفسه بكثرة الاستشهاد ، والاحتجاج ، صواب ما يذهب إليه ، وكان يكرر وإذا أَرَدْتَ أن تعرف أن الذي قلناه هو كما قلناه ، فانظر إلى كذا وكذا ، ومما يعلم به ضرورة أن الأمر كذا ، هو كذا ، إلى آخر ما تراه في دلائل الإعجاز يشيع في الكتاب كله ، وليس منه شيء في أسرار البلاغة ، وعبد القاهر بهذا الحذر يذكرنا باستنباطات الفقهاء التي تقوم على التردد ، والحيطة البالغة ، لأن الفقيه إذا غفل يكون قد أدخل في دين الله ما ليس فيه ، أو أخرج منه ما هو فيه ، وكذلك كان عبد القاهر مع أنه مُوسَّعٌ عليه في الاجتهاد ، لأن الاعتقاد في إعجاز القرآن أصل من أصول الدين ، من شك فيه فليس من أهل القبلة ؛ لأنه مدلول عليه بصريح لفظ القرآن ، أما بيان وجه الإعجاز الذي يبحثُ عنه عبد القاهر فمن الذي يقع فيه الاختلاف ، ولا حرج في ذلك ، ولكن حذر عبد القاهر كان راجعًا إلى أنه كان يكتب أصول بيان اللسان العربي التي يفهم مراميه بها ويدقق فهمه في ضوئها ، ويستخرج الأحكام الفقهية بها ويفسر كلام الله وكلام رسوله ﷺ في ضوئها ، ومن هنا كان الحذر ، وكان سبب احتجاجه لصواب الفكرة بجملة من الحجج ، لأنه يُوثّق ويؤصل علمًا له خطره ، في فهم أسرار الكلام ، حتى إنك لتراه يجنح للفكرة ، وهو يعالج غيرها ، بما يستكشفه في الفكرة الجديدة مما يؤكد به الفكرة السابقة ، وكأن التوثيق والتأصيل أساس

المعرفة ، وهذا منهج جيد لأنك لا تحصل العلم ولا تصبر عليه إلا إذا كان علمًا فيه من الصواب ، والسداد ما يستحق بذل المجهود ، وليس علمًا من كُناسة مجالس العلماء أو من كناسة ثقافة البشر والكتاب كله مبني على الذي قلت .

وأشير أولاً إلى نُقْطة تعتبر ملحظًا نفسيًا ، وهي أن عبد القاهر عاش ما عاش وهو يحمل أثقال الفكر في البحث عن الشيء الذي تَجدَّد بالقرآن ، من عظيم المزية ، وباهر الفضل ، ولما فتح له باب العلم الذي أزال حيرته ، وحط على نفسه ما أعياها ، كان فرحًا بهذا ، وساقه في كلامه مساق من يزف للناس بشرى وخرج عن رزانته وركانته واستخفه ما فتح الله به عليه وطار به جذلانا يقوله مرة نثراً ، ومرة شعراً ، ولم يكن منه شيء من هذا في غير هذا الكتاب ، ولعله أدرك أنه وقع على الضالة التي نشدها علماء الإعجاز وعلماء البلاغة ، وهم من الأئمة الكملة رضوان الله عليهم ، وحسبك منهم حَمْد بن إبراهيم بن سليمان الخطابي اللغوي والمحدث ، قال عبد القاهر :

إني أقول مَقالاً لَستُ أُخفِيه ... ولستُ أرْهَب خصمًا إن بَدَا فيه

ما مِن سبيلٍ إلى إدراك مُعْجِزَةٍ ... في النظم إلا بما أصْبَحْتُ أُبْدِيه

تأمل قطعه أنه لا سبيل إلى معرفة الأمر الذي به أخرس القرآن الألسن ، «حتى لم يجر لسان ولم يَبِنْ بيان» إلا سبيل إليه إلا بما أبداه هو ، وقد ذكر الشيخ رشيد رضا أن هذا البيت دليل على أنه واضع هذا العلم ، ولعله أراد رحمه الله أنه لا يقول هذا بهذا القطع في بيئة جرجان التي فيها أكابر العلماء

إلا من كان قاطعًا بما يقول ، وتأمل قوله : « ولست أرهَبُ خَصْمًا » وهذا دال على قوة الاحتجاج والجدل في هذه البيئة ، وكأن العلماء وأهل الأدب يتحاورون حوارًا أشبه بالنزال والمناجزة ، وكانت خلافات الفرق كأنها مدارس كبرى تتمحَّصُ فيها الآراء ، وتُصهر في حرها الأفكار ، حتى يُنْفَي عنْها خَبَثُها ، وهذا جيد .

وأول ما يقع في نفسك وأنت تقرأ كتب عبد القاهر أنه عاش الزمن الذي كان فيه واستقبله بعقله وَوَعْيِه ، وعرف تَوَجُّهاته ، ومنازعه ، وسَبر طرائقه ، وفاتش عقولهم ، وما يجري فيها ، وقَبِل ما قَبِل ، ورفض ما رفض ، واحتفى بما احتفى ، كل ذلك بفهم ، وبصيرة ، وعلم ، واحتجاج ، ولم يُدر ظهره للحياة العلمية التي يزخر بها زمانه لحظة واحدة ، رغم أنه كان يعيش مع طوائف تشبه ما نسمّيهم الآن المثقفين ، وفيهم الصالح ، والطالح ، ثم إنه كان يجد من زمانه هو ونظراؤه ما وصفه بقوله ليس للعلم وأهله منه « إلا الشر صرفا والغيظ محضا »[1] أقول إنه لم يتراجع لحظة واحدة عن خوض غمار هذا الزمن الذي لم يجد منه إلا الشر صرفًا ، والغيظ بحتًا ، وإنما عاش حياة علمية خصبة ، قامت كلها على حوار هذا الزمن ، وحوار رجاله من المستقلين بالفكر والأدب ، وكان هذا طابع علمائنا في العصور كلها ، لم أعرف واحدًا منهم في أي فرع من فروع العلم كتب سطرًا إلا وهو يكتبه على جبهة اليوم الذي عاش فيه ، فترى في كل كتاباتهم وصفًا دقيقًا لثقافات عصرهم ، واهتماماته ، وطوائفه ، ولم أعرف في تاريخ أمتنا علماء أداروا

(١) دلائل الإعجاز ، ص : ٣٣

ظهورهم لما يجري في زمانهم كعلماء زماننا الذين صَمُّوا آذانهم عن ما يقوله الأحياء من حولهم ، وأمالوا صَغْوَهم إلى ما قاله موتاهم .

وكأنهم استيأسوا فاستأنسوا بموتاهم ، واستوحشوا من أحيائهم ، وهذا هروب من المناجزة كما كان يقول علماؤنا .

وكان في زمن عبد القاهر جماعات سماهم (طائفة) ووصف علمهم وسلوكهم وتظاهرهم ، فكانوا أشبه بعصابات (المهوشين) الذين تراهم في كل زمن يتنادون على ربواته كما تنادت ذئاب الخرائب في شعر هذيل . كان الشغل الشاغل لهذه (الطائفة) هو صرف الناس عن العلوم الشريفة ، التي أسسها الكملة من علمائنا رحمهم الله ، وتزهيد الناس في التوسُّع فيها ، وتوجيههم إلى الاكتفاء بمتونها ، ومجملاتها ، وملخصاتها ، وكان هذا الموقف الذي يُلحُّون عليه ، من أهم الصوارف التي صرفت الناس عن العلوم الشريفة ، ثم إن عبد القاهر واجه هذا بحكمة جليلة ، فسلك طريقًا هو الطريق الذي نبحثه في هذا البحث ، وهو محاولته أن يستكشف أغوارهم العلمية ، ليتعرف على العلة التي أوْرَثتهم هذه الخساسة ، وهي القدح في العلوم الشريفة ، وصرف الناس عن التزود بها موقنًا أن النفس الشريفة ، لاتَصْرِفُ عن علم شريف ، ولا تحط منه ، ولا تستهين بجهود علمائه ، وإنما يكون ذلك في نفوس سحقتها عوامل الضَّعة ، وأذلَّتها دونية من داخلها ، فلم تجد سبيلاً للعبارة عن هذه السخائم ، إلا هجو العلم ، وهجو العلماء ، بهذا الأسلوب الرديء المغلف بأغلفة ثقافية ، وهي الدعوى إلى الاكتفاء بالملخصات والمتون ، وأن الإفراط في التزوّد تَزيُّد لا حاجة إليه وعجيب جدا أن أحفاد هؤلاء الهلافيت لا يزالون فينا

قارب عبد القاهر عقول هذه الطائفة وسبر معارفهم فوجد في علمهم ضَعْفًا ، وليسوا مشغولين بتقويته ، لأن همهم أن يملؤوا الساحة من حولهم صخبا ، وأن تُسْمَع أصواتهم ، وأن يُحقّقُوا غلبة بالحق ، أو بالباطل ، وليس للعلم في صدرهم جلال ، وقد أغلقوا بأيديهم أبواب العلم في وجوههم لما ساء رأيهم في علمين شريفين من علوم اللغة ، هما النحو والشعر، وقد وقف عبد القاهر يناقش ما يمكن أن يَخْطُرَ على عقل طالب العلم من خواطر تصرفه عن الشعر والنحو ، ويحلل كل خاطر ، ويبين فساده ، وهكذا كانت عناية الرجل بما في زمانه ، حتى عنايته بجهل أهل الجهل فيه ، وهذه هي مسؤولية أهل العلم في كل جيل يعيشون فيه .

وبعدما فرغ عبد القاهر من بيان فساد عقل هذه الطائفة ، التي ديدنها الشغب والمغالطة والقدح في العلوم الشريفة ، وغايتها أن تتجه إليها الأنظار كما تتجه إلى الحُواة وأصحاب الألاعيب ، ولا يَعْنيها أن يقع الناس بها في عمياء ، أقول بعدما فرغ من شأنها ضرب عنها صفحا ، ثم اتجه إلى العلماء الذين علمهم العلم ، الذي يجب الوقوف عنده فوصف أول ما وصف لغتهم التي صاغوا بها علمهم ، وذكر أن محصول كلامهم في علم البلاغة كالرمز والإيماء والإشارة في خفاءه أو كالتنبيه إلى مكان الخبيء ليبحث عنه فيخرج»[(١)] وهذه اللغة المبهمة الغائمة هي لغتهم ، وكأنها خاصة بهم ، ولا شك أن لها محصولاً عندهم ، وأنه يَفْهم بعضهم عن بعض بها ، وكأن بَسْلاً حراما كما كان يقول أن يفصحوا عن حقائقهم بلغة أكثر بيانًا منها ،

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص : ٣٤

وهذه المشكلة كانت أول ما واجه عبد القاهر ، منذ بدأ يطلب العلم ، وقد استصفى من أقوالهم ما اجتمعوا عليه ، وحدده بقوله ووجدت المعول عليه أن ههنا نظمًا ، وترتيبًا، وتأليفًا ، وتركيبًا ، وصياغة ، وتصويرًا ، ونَسْجًا وتحبيرًا»[1] وكان استصفاء هذه الألفاظ أول خطوة خطاها في طريقه ، وظل يعالج غموضها زمانًا بعد زمان،وتذكر دائمًا أنه صادفها منذ خدم العلم، وكتب تحليلها «بأخرة» لأن هذا التذكر يهدينا إلى أن هذه الرموز ظلت في بؤرة اهتمامه طوال حياته ، وهو يحاول أن يجد لها بابًا يدخل منه ، ليتعرف على محصولها ، والمراد منها ، ويجدر أن نشير هنا إلى حالة من أحوال عقله ، ذكرها هو ، وهي أنه عقل لا يستوعب الشيء الغامض ، ولا يقر له قرار حتى يستبين ما يُشكل ، وينكشف أمامه ما يَخْفي ، وينحل ما ينعقد ، ويستظهر على الشبهة ، ويستبين له الدليل ، ويرى أن هذا في سوس العقل ، وفي طباع النفس إذا كانت نفسًا»[2] ولا شك أن هذا الذي ذكره أرفع ما توصف به العقلية العلمية ، ولننظر بعد هذا إلى الخطوة التي انتقل إليها ، ولابد أن تكون محاولة فهم هذا المعجم المبهم الذي يستحيل عند عبد القاهر أن تكون ألفاظه ألفاظًا فارغة ، لأنها كلام علماء يثق في فهمهم ، وعلمهم ، ولهذا عاشت كلماتهم في أعماق فكره ، يتدبرها حتى يستخرج منها خبأها ، وهذه الثقة في العلماء هي التي أوقفته مع كلامهم عمره كله ، وهى التي فتحت له باب العلم ، وهذا ما نحرص على تثبيته كجزء من أدب التعلم ، وهو لا يمنع المناقشة ، ولا يعني القداسة ، وإنما يعني رفض السَّفه والتطاول .

(٢،١) دلائل الإعجاز ، ص : ٣٤

رأى عبد القاهر أن هذه الكلمات تجري في الكلام على سبيل المجاز ، لأن النظم يعني نظم الدر في العقد ، والنسج يعني نسج الثوب ، والصوغ يعني صوغ الخاتم ، إلى آخره ، والمراد بها في الكلام لابد أن يكون شبيهًا بهذه المعاني الأصلية ، يعني لابد أن يكون في الكلام شيء يشبه نظم الدر ، وهو وضع الكلمة مع الكلمة ، لا كيفما اتفق ، وإنما بمقادير ، وحسابات ، وملاحظات ، تشبه وضع الدرة مع الدرة ، لأن هذا الوضع يُراعى فيه جملة اعتبارات ، من الشكل ، واللون ، والحجم ، والموقع إلى آخره ، كذلك الكلمة مع الكلمة .

وأظن أن إدراك هذا لا يحتاج إلى وقت ولا إلى عناء ، لأنه قريب كما ترى .

والذي استغرق من عبد القاهر هذا الزمن هو التعرف على هذا الشيء الذي به تلائم الكلمة الكلمة ، وتُؤاخيها ، وتؤانسها ، مما سمّاه معاني النحو ، يعني التنكير والتقديم والوصل إلى آخره ، وهذا هو الذي وصفه بأنه أسرار ودقائق ، وهو الذي أسس عليه مفهوم النظم ، بعد ما استخلص هذه الكلمة من الكلمات الثمانية التي استصفاها مما اجتَمَع العلماء عليه ، وجعل جَوْهَر معناها الفطنة في توظيف هذه الأحوال ، وفق غرض المتعلم ومقصوده ، وأن القدرة على إفعام هذه الأحوال بالمعاني ، والمرامى ، هو أساس المفاضلة في الكلام ، حتى إنه ذهب إلى أن أبرز ما يتميز به الشعر الجاهلي عن شعر العصور الأخرى ، هو قدرة الجاهليين على أن ينفثّوا في هذه الأحوال اللفظية أغراضهم ، ومقاصدهم ، وأن يَبُثّوا فيها حاجات نفوسهم ، فتراها في كلامهم

زاخرة مفعمة ، ترى التعريف ، والتنكير ، والوصل ، ومواضع الحروف ، في كلامهم مُبهرة ، بضياء المعاني ، مشرقة كأنها الشذرات اللغوية ، بينما تراك محتاجًا إلى مراجعة ديوان كامل للشعراء المولدين حتى تقع في شعره على شعر امتلأت أحوال ألفاظه ، وأشرقت بالدلالة ، كما تشرق متون كلماته ، وهذه إشارة إلى فصل جيد في هذا المعنى ، ولا أعرف في كلام علمائنا من حاول أن يُحدِّدَ الخصائص البلاغية التي يمتاز بها شعر الجاهليين إلا هذا الفصل الجيد في كلام عبد القاهر . وقد قرأت هذا الفصل على شيخنا محمود شاكر رحمه الله وكان قال فيما كتب أنه لم يقع في كلام العلماء على كلام يميز الشعر الجاهلي بخصوصياته المتفوقة وقلت له إني أرى هذا الفصل ميَّز الشعر الجاهلي بخصُوصِيَّته الظاهر وقرأت عليه فسكت ولم يعقب رحمه الله ، وكأنه لم يظهر له ما يرفضه به ولا ما يؤكده عنده فرأى الصمت خيرا من لا ونعم .

وأحسب أن هذه الأحوال التي سماها معاني النحو استخلصها في مرحلتين ، المرحلة الأولى : نظر في الكلام فوجد منه ما هو ثابت لا خيار للمتكلم فيه ، وذلك قواعد النحو ، أو ما يسمى علم الإعراب ، كرفع الفاعل ، ونصب المفعول ، وأحوال الاشتقاق ، وصيغ الجمع ، والتصغير ، والنسب إلى آخره ، وهذا الذي لا خيار للمتكلم فيه لا تتعلق به فضيلة ؛ لأنه قائم في الكلام كله على الصحة والتمام ، وكما ينبغي ، هكذا في القرآن ، والشعر ، جيده ورديئه ، ثم رأى في الكلام ما هو مُتخَيَّر ومتغيِّر ، كالتعريف بطرقه ، والتقديم ، والحذف ، والوصل إلى آخره ، وأن هذا المتغيِّر له دلالات ، هي

التي سماها معاني النحو ، فجواز التقديم ، أو لزومه أوْ منعه ، مقرر في علم النحو ، وكذلك جواز الحذف ، ومعنى الواو ، والفاء ، وثم ، وهكذا .

أما ربط هذه الأحوال بمقاصد المتكلمين ، وإفراغ الجزء الخفي من مقاصدهم فيها حتى كأن الألفاظ تحمل ما ظهر من هذه المقاصد ، وأحوال الألفاظ من تعريف وتنكير وصيغة الفعل وصيغة الاسم والتقديم والتأخير إلى آخره ، تحمل من مقاصد المتكلمين ما هو أخفى وأغمض وما به يفضل كلام كلامًا ، وقد أضيفت هذه الدلالات التي تدل عليها الأحوال إلى النحو وسميت معاني النحو .

ومن هنا أضاف هذه الدلالات المتغيرة إلى النحو ، واستخلص هذه الكلمة (معاني النحو) وجاء الزمخشري وحذف كلمة النحو ، وعرَّف كلمة المعاني ، وقال «علم المعاني بدل علم معاني النحو ، وكان أوَّل من قطع كلمة النحو وأبعدها عن المعاني ، كما صاغها عبد القاهر ، ومضت عند العلماء وغابت كلمة عبد القاهر

والمهم أن هذه المرحلة أيضًا لم تستغرق من عبد القاهر الزمن الأطول ، وإن كانت اتضحت له بها معالم طريقه ، وخاصة لما حصر أبوابها ، وضبطها في التقديم والتأخير والحذف والفصل وفروق الخبر إلى آخره .

أما المرحلة الثانية فهي التي شرح فيها هذه الأبواب ، وفصل الكلام في معاني التقديم وفروقه ، ومعاني التعريف ، وفروقه ، وهكذا وهذا هو الذي أسّس به علم المعاني ، وهو الذي سماه أسرارًا ودقائق وهو متعلق الإعجاز ،

وميزان يوزن به الكلام ، فيرجح بعضه على بعض ، وهذا هو الذي استغرق منه الزمن الأطول ، والجهد الأكبر ، وهو الذي وصل إليه بأخرة كما قال ، وكانت حواشيه ، وأعلاقه على مسودته ، التي أشار إليها الأستاذ محمود شاكر طيب الله ثراه قائمة على هذا ، ويعني هذا أن قلمه كان مغموسًا في هذه المسائل إلى أن سقط من بين أنامله ، رحمه الله وأثابه ، وألحقنا بهم في مستقر رحمته .

وسوف يقف هذا البحث عند بعض أبواب النظم التي أسسها عبد القاهر ليتبين كيف بناها فكرة بعد فكرة ، وأتبيَّن وسائله التي أعانته على ذلك ، والجهات التي وجه إليها فكره ، ووجد فيها قصده ، والمادة العلمية التي شغل بها ، حتى هُدِي إلى تأسيس ما أسّس .

وواضح ـ كما قلت ـ أنه ليس المقصود دراسة المسألة ، وإنما المقصود معرفة كيف اكتشفت أو كيف تخلقت وتولدت واستُخرجت هذه المسألة . وأبدأ بالتقديم الذي بدأ به ، وأسجِّل ملحوظة رأيتها شائعة في كلام عبد القاهر ، وهي أنه يبدأ الباب بالتنويه بأهمية معارفه ، ويكتب جملة سطور ، يشير فيها إلى أن كثيرًا من محاسن الشعر ترجع إليه ، وهذه المقدمات التي كتبها في التقديم والحذف والفصل والوصل تدلنا دلالة ظاهرة على أن عبد القاهر كان يَسْتقصى الحالة من أحوال الصياغة في كلام العرب ، وأنه كان يدرس ما يتتبعه من الكلام بغاية العناية ، وشدة اليقظة ، وحدّة التَّنبُّه ، وهو واجدٌ ـ لا محالة ـ من هذه الخصوصيات الفارغ المغسول والمُفْعَم المُضِيء ، وبينهما وسائط كثيرة ، فيها تنوع في الدلالة ، وتباين في

منازل الفضل ، وكلامه في هذا كلام من اعتصر هذه الخصوصيات اعتصارًا ، وكان يُردِّدُ أن الآفة العظمى أن تتكلم في الشيء قبل أن تقتله علمًا » .

يقول في أول التقديم هو باب كثير الفوائد جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية ، لا يزال يفترُّ لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعر يروقك مَسْمَعُه ، ويَلْطُفُ لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولَطُفَ عندك أن قُدِّم فيه شيء... »[1].

وواضح أن هذا الكلام دال دلالة ظاهرة على أن عبد القاهر كتبه ، وبين يديه الكثير من صور التقديم ، وأنه فكر في دلالات هذه الصور كثيراً ، ولم يشق عنها الحجب إلا بعد مراجعة ، تجد هذا في قوله ... « يَفتَـرُّ لـك عن بديعة ، ويفْضِي بك إلى لطيفة » وهاتان الكلمتان دالتان على أنه لم يقع على مقصوده من أول الأمر ، لأن المعاني المستنبطة من أحوال المباني غير المعاني المستفادة من متون الألفاظ ، وكثيراً ما وصف المعاني المستنبطة من أحوال المباني بأنها تأبى أن تبرز للضمير ، وأن تطوع للتَّبْيين ، وكلمة (يفتر) تفيد أن البديعة التي وراء هذا التصرف بقيت زمنًا ثم انحسر عنها حجابها ، وأنه رآها غضَّة لم يَمُط عنها لثامها إلا بعد ما جدَّ في طلبها ، ومعنى كلمة يفضي بك إلى لطيفة أن هذه اللطيفة دخل إليها مدخلاً بعد مدخل ، وأفْضى به طريق إلى طريق ، وأن اللطيفة كانت نهاية رحلة عقلية في أدغال البناء اللغوي الذي يشبه غابة مليئة بالأسرار ، وإذا تابعت شواهده التي حلَّلها في باب التقديم ، رأيته وهو يزيل القناع شيئًا فشيئًا حتى يكشف حُرَّ وجه

(١) دلائل الإعجاز ، ص : ٢٧

(البديعة) ، ورأيته وهو يجعل الفكرة مدخلاً إلى الفكرة حتى تفضي به الرحلة الممتعة إلى (اللطيفة) .

ثم إن في هذا النص شيئًا آخر وهو أهم مما سبق ، لأنه أصْلٌ في دراسة عبد القاهر ، وهو أن الأصل في التعرف على مواطن المزية في الكلام هو الطبع ، وإنما يأتي النظر ، والتدبر ، لبيان العلل ، وهذا يعني أن نقطة البدء ليست المعرفة البلاغية ، وإنما هي ما يجده الذائق للكلام ، وهذا ظاهر في قوله (وكثيرًا ما ترى شعرا يروقك مسمعه). يعني يروقك ثم تنظر لتعرف سبب أن راقك ، فأنت لا تنظر ليروقك ، ومثل هذا يقوله في مواطن كثيرة ، حتى كأنه هو الأصل عنده ، وهذا يعني أن هذا العلم لا يُغْنِي فتيلاً إلا إذا كان دارسه له طبع يعرف به ويُنكر ، وكثيرًا ما كان يقول (البصير بجواهر الكلام ، حساس ، مدرك لسر هذا الشأن ، ... إذا نبهته انتبه ..» وهذا الطبع الدرَّاك المواتي لا يتوفر للدارس إلا إذا طالت ملابسته لحر الشعر ، حتى يصير له طبع فيه .

هذا ، وأول خطوة في بناء موضوع التقديم بعد جمعه ، وتَتَبُّعه من كلام العرب ، واستقصائه فيه ، هو أنه استقصى ما قاله العلماء في التقديم ، يعنى أنه نفض تراث العلماء كلمة كلمة حتى استخرج زبدة ما قالوه في بيان دلالته ومعناه وسره ومغزاه ، فلم يجد إلا كلمة نفيسة استخرجها سيبويه وأحسن استخراجها ، وهي قوله « إنهم يقدمون الذي بيانه أهم ، وهم بشأنه أعنى» وقلت إنه كان يبحث عن ما قالوه في التقديم من حيث هو خصوصية لها دلالة ، ولها مغزى ، وسر يُحْسِنُ المتكلم الانتفاعَ به ، وتوظيفَه في بيان

مقصوده ، لا عن ما قالوه في التقديم مطلقًا ، لأن الكتب مشحونة بكلام لهم في تقديم الخبر ، والظرف ، والجار والمجرور ، ومعمول العامل ، وخبر إن ، والحال إلى آخره ، وهذا هو الذي رأى عبد القاهر أنه لا اختيار فيه ، وليس متعلق الفضيلة وأنه شرائط لصحة الكلام ، وأنه واقع في الكلام كله على الصحة ، والتمام ، وكما ينبغي .

وقد راجع كلمة سيبويه ووضعها بإزاء هذا التصرف الواسع لهذه الخصوصية في الشعر والأدب في المقامات المختلفة ، والدلالات المتنوعة ، فلم يجد كلمة سيبويه متوازية مع هذا الواقع في الاستعمال ، أعني وجد الفكرة العلمية قاصرة إذا قيست بسعة تنوع الخصوصية اللغوية في الشعر والكلام ، أو كما تقول وازن بين التنظير والإبداع فوجد فجوة واسعة هذه الفجوة هي التي وضع الباب ليملأها .

ثم إن عبد القاهر قد تابع كلمة سيبويه عند تلاميذه ، وشراحه ، ومن جاء بعدهم من شيوخ النحو إلى زمنه ، فوجد هؤلاء جميعًا لم يقفوا عند هذه الكلمة ، ولم يفتحوا فيها باب علم ، وإنما غاية ما عقّبوا به عليها أنهم ضربوا لها مثالاً ، .. وتركوها مبهمة على ما فيها من ثراء واتساع ، وتأمل ما وراء هذا كله لتدرك أن عبد القاهر كان يستقصي كلام العلماء استقصاء كاملاً ليجمع خواطرهم ، حول ما يشغل به خواطره ، وأنه لو لم يكن استقصاؤه كاملا لاستدرك عليه العلماء ، كما قلنا ، ثم أحكم إدراك ما نُريد الدلالة عليه ، وهو المكابدة ، والصبر ، والانقطاع ، ورشح الجبين ، مع الفطنة ، ولطف الإدراك ، وثقوب الرأي ، وما هو من هذا وأجل منه ، مما بذله الرجل .

وهو يؤسس معرفة ، لأن هؤلاء كانوا بناة تاريخ أمة ، وبناة علومها ، وحضارتها ، وليس هذا كله بالأمر الهيِّن ، ولهذا ومثله رفع الله الذين أوتوا العلم درجات ، وأحسب أن يد الله لا تمتد لترفع أهل الفضل في درجات الفضل إلا إذا كانوا كذلك ، وسبحان من لا حرج على فضله .

ثم كان من خبره مع كلمة سيبويه أنه أخذ يتأملها من جهة ، ويتأمل فيضًا من صور التقديم ، كان قد تقصاه من كلام العرب كما بيَّن هو حين قال : (وسبيلنا في بيان هذا العلم هو استقصاء كلام العرب) [1]. فرأى في كلمة سيبويه إجمالاً شديدًا وعليه أن يفتح طريق تفصيل هذا الإجمال وبعد مداورة طويلة مع الكلمة ومع شواهد الشعر رأى أن العناية والاهتمام علة شاملة لصور التقديم الذي بين يديه في الشعر ، وكل شاهد مع هذا يختلف عن الآخر لأن سياق المعنى فيه مختلف ، وسياق المعنى هو التُّربَةُ الثَّريَّةُ التي تُستَنْبَطُ منها دلالة الخصوصية اللغوية ، ومن هنا وجد أن فتح عبارة سيبويه الجيدة إنما يكون من هذه الجهة ، وهي أن نبين وجه العناية والاهتمام ، في كل تقديم قُدِّم ، لأن وجه العناية مختلف لا محالة ، ومن إغفال أسرار الكلام أن نكتفي بهذه العلة الشاملة من غير أن نقتحم المعنى في كل تقديم ، ونحلله تحليلاً كاشفًا ، يضيء جوانبه ، وخوافيه ، حتى نتبين بهذا التحليل وهذه الإضاءة وجه العناية والاهتمام ، وهكذا فتح أكمام كلمة سيبويه ، وأسقط منها لآلئها ، وكانت مجموعة صور التقديم التي بين يدي عبد القاهر مُعينة على ذلك ، لأنه أحسن استغلالها في كشف الطريق إلى

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص : ٢٧

هـذه العبـارة ، فصـنفها ، فهنـاك تقـديم في الاسـتفهام ، وتقـديم في النفـي ، وتقديم في الخبر المثبت ، وكله للعنايـة والاهتمـام ، وكلـه مختلـف ، وكـل شاهد له نظر وحده ، ووجه العناية فيه مغـاير ، وأؤكـد أن عبـد القـاهر وإن كان ذكر شواهد كثيرة فإنه قد جمع كـل صـور التقـديم في الكـلام والشـعر الذي بين يديه ، ودليل ذلك أنـه اسـتخرج مـن التقـديم صـوراً نـادرة ، وهـي تقديم النفي ثم المسند إليه الضمير ، ثم الخبر الفِعْلي من مثل ما أنا فعلت ، وذكر شاهداً له من شعر المتنبي من قصيدته :

أرَى ذلـــك القـــرب صـــار ازْوِرارا وصـــار طويـــل الكـــلام اختصـــارا

والشاهد هو :

ومـــا أنـــا أســـقمت جســـمي بـــه ولا أنـــا أضـــرمت في القلـــب نـــارا

وهذه من الصيغ التي لا تجرى في اللسان إلا في حـالات نـادرة ، لكثـرة ضوابطها ، ولم يذكر المعقبون ، ولا الملخصون ، ولا الشراح ، شواهد لهـذا الباب ، وإنما وجدتـه في بعـض كتـب السـنة ، ونـوادر الأشـعار ، وهـذا مـن الاستدلال على استقصاء الشيخ للأشعار كاف إن شاء الله ، مـع أن كـثيراً مـن تحليلاته العلمية دال على هذا الاستقصاء ، من ذلك أنه قرر قاعدة تقول : إن المقصود بهمزة الاستفهام وما يتفرع عنها من تقرير وتوبيخ إلى آخـره هـو ما يليها ، وأن هذا هو أصل بناء الكلام كله ، ثم يقول : وقد نجد هذه الهمزة داخلة على الفاعل والمراد الفعل ، وهذا في حالة خاصة ، هي أن يكون هذا الفعل لو وقع لا يقع إلا من فاعل واحد ، وهكذا يستثنى حالة واحـدة ذات خصوصية خاصة ويستخرجها من الكلام كله .

وكان عبد القاهر يشعر بحرج شديد وهو يقدم ما اكتشفه من حقائق ، لأنه يخاف أن يقدم من العلم ما لم يُقرّه التوثيق ، ويؤكده التأصيل ، وهذه هي الروح العلمية الصادقة ، وهذا طبعها ، وكان علماؤنا إذا قال أحدهم إن هذه المسألة مِمَّا استخرجناه باجتهادنا ، لا يقول هذا ليُمدح عند القارئ ، وإنما ليُنَبِّه إلى أن هذه المسألة ليست من العلم الذي أقرّه العلماءُ بعدُ ، وإنما هي من العلم الذي يجب أن يوضع موضع النظر ، والتدقيق حتى يُسْتَخْرج ما فيه مما يرجح به ، أو يَضْعُف ، وهذه أمانة العلم ، وكان هذا عند عبد القاهر متوافرًا جدًّا ، تراه لما استخرج من الكلام أن تقديم المحدَّث عنه على الخبر الفعلي يفيد فَضْل توكيد ، وأن قولك أنا فعلتُ آكد من قولك فعلت أنا ، وزيد قال آكد من قال زيد ، إلى آخره يقول «ويشهد لما قلناه».. أنا إذا تأملنا وجدنا هذا الضرب من الكلام يجيء فيما سبق فيه إنكار منكر»[1] إلى آخر ما ذكر من مقامات تقتضي فضل توكيد ، وأن مجيء هذا التركيب فيها في كلام مختار دال على مراده ، وهو في هذا يدلك على أنه يستخلص قاعدة ويضع بين يديك أدلتها من كلام من يحتج بكلامهم في دلالات الصيغ .

وواضح أن دراسة أبواب النظم التي هي التقديم والحذف والوصل إلى آخره ليس فيها مادة علمية إلا من هذا الضرب ، يعني أن تنظر في الفرق بين باسط ويبسط ، والتقديم في «فلو إذ نبا دهر» والبناء للمجهول في وقيل يا أرض ، إلى آخر هذا وهو علم أسرار العربية ، وعلم البحث في

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص : ١٢٣

صنعة الشعر والكلام ، وهو جوهر البلاغة، وهو دراسة دقيقة للمعاني ، وتحليل لابد أن يكون زكيا ومعمقًا وشاملاً لجذور المعانـي وفروعـها ، وما يحيط بها ، وكان عبد القاهر لا يستخلص المعنى من الحالة من أحوال المبنى إلا إذا نظر في هذا كله ، ومن كلامه : إنك لا تشفى الغُلَّة حتى تتجاوز حَدَّ العلم بالشيء مجملاً إلى العلم به مفصلا ، وحتى لا يُقْنِعُكَ إلا النظر في زواياه ، والتغلغل في مكامنه ، وحتى تكون كمن تتبّع الماء حتى عرف منبعه ، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه إلى أن يعرف منبته ، ومجرى عروق الشجر الذي هو منه»[1].

هذه الروح العلمية التي كان يتقصّى بها ما يجد في الكلام ، ويتغلغل في جوانب المعنى ، وفي مكامنه ، ويتتبّع أصوله في النص حتى يصل إلى منبعه ، ويعرف مرماه وأصوله وفروعه ، ومنعرجاته ، وحزونه ، وسهوله ، إلى آخر ما هو من هذا الباب ، وبهذا لا غير تتضحُ حقائق الشعر ، والكلام كله ، وقد أعد لهذا كله نَفْسًا حسَّاسة ، يقظة ، درَّاكة ، أعدها بالعزلة ، والانقطاع ، وطول الممارسة ، وكان يعوِّل على مراجعتها ، ويَسْتَقْصِي التأمل لما يجده فيها ، وكان له معها شأن ، فقد تراه يُحْدِثُ تغييرات في الصّيغ اللغوية للعبارة الواحدة ، ويُمَرِّرُ هذه التغيُّرات على نفسه ، وكأن هذه النفس جهاز حسَّاس يَرْصد بدقة ما حدث من (استجابات) للعناصر اللغوية التي يُجدِّدها ، ويُنَوِّعها ، وكان هذا شغلاً شاغلاً له ، وكانت بعض صفحات كتاب دلائل الإعجاز ليست إلا تسجيلاً لهذه المراقبة النفسية ، بعد إحداث

(١) دلائل الإعجاز ، ص : ٢٦٠

التغييرات اللغوية ، واقرأ باب الحذف فلن تجد في أكثره إلا هذا ، وكانت بعض العناصر اللغوية تثير في نفسه لُمَعًا ما إن يراها حتى يفتقدها ، وما إن يُثْبِتُها حتى ينفيها ، وما إن يعرفها حتى ينكرها ، وبعض العناصر تحدث في نفسه نبضًا خفيًا ، كالهمس أو كمسرى النَّفس في النفْس على حد تعبيره ، ويقول معبرًا عن هذه المعاناة ، وعن طبيعة المادة التي يعالج درسها ، (ليس في جملة ، الخفايا والمشكلات أغرب مذهبًا ، في الغموض ، ولا أعجب شأنًا ، من هذه التي نحن بصددها ولا أكثر تَفَلُّتًا من الفهم ، ولا انْسِلالاً منها»[1]. انظر إلى قوله تفلتا وانسلالا ، ولهذا كان عبد القاهر يتلمس من كلام أهل العلم ما يسْتَأنس به ، وهو في معمعة هذا الغموض ، وكان شديد التنبيه لما في كلامهم مما يمكن أن يعوّل عليه في هذا الاستئناس ، فقد تجد الكلمة لسيبويه ، أو لأبي علي الفارسي ، قد راجعها خلق كثير من العلماء ، ثم يراجعها وهو مُفْعَمٌ بالبحث عن ما يستأنس به ، فيلمح فيها لَمْحًا تراه بعيدًا ، ويراه قريبًا ، ثم يشرح هذا اللمح ، ويحلله ، حتى تراه قريبًا ، وتقتنع به ، وكان يرى أن لغة العلماء يَقْصُر فيها اللفظ ، ويطول فيها المعنى ، وأنهم إن قاربوا في النزع فقد أبعدوا في المرمى ، وكان هذا مما يغريه بالصبر ، وكما كان يضرب في حزون الشعر حتى يستخرج منه أسرار غوامضه ، ويَقْدح لغته حتى تومض بوارقه ، أقول كما كان يفعل هذا في الشعر ، كان يفعل مثله في كلام العلماء ، لأن اكتناز حقائق العلم في عبارات الملهمين من العلماء كاكتناز حقائق الشعر في عبارات الملهمين من الشعراء ، وكان يذكر

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص : ٢٥٠

أن العلماء أعني الملهمين منهم لهم لغة خاصة بهم ، تحمل (شفرات) لا يفهمها إلا من كان في طبقتهم ، وأن هذه (الشفرات) يزداد غموضها ، إذا عالجوا ما خفي ، ودق ، من حقائق المعرفة التي يعالجونها ، يقول « كأن تلك الطباع اللطيفة ، وتلك القرائح والأذهان ، قد تواضعت فيما بينها على ما سبيله سبيل الترجمة ، يتواطأ عليها قوم فلا تعدوهم ، ولا يعرفها من ليس منهم »[1].

قلت إن توثيق (المعلومات) التي يستخرجها كان أمرًا شاغلاً له ، فلا يَضَعُها بين يدي القارئ إلا بعد أن يحيطها بالحجج التي تؤكدها ، والقول بإفادة التقديم التوكيد ، مع أن الإحالة على الشعر تؤكده ، كما بيّنا إلا أنه أخذ يتلمس له من كلام العلماء ما يؤكده أيضًا ، وقد أصاب ذلك في كلمة لسيبويه نرى فيها ما يؤكد زعمنا من أن عبد القاهر كان يحلل لغة كبار العلماء ، كما كان يحلل لغة كبار الشعراء ، ويستخرج من كلام العلماء المعاني البعيدة التي لا يزال يُوضّحها ، ويقربها ، حتى تصير قريبة من القارئ لا ينكر ما استُخْرِج منها .

قال سيبويه في المفعول به المقدم مثل : عبد الله لقيت ، إذا رفعه المتكلم بالابتداء وأعمل الفعل في ضميره ، فقال عبدُ الله لقيته « وإنما قلت عبد الله فنبهته ثم بنيت عليه الفعل وَرَفَعْتُهُ بالابتداء »[2]. وما زاد سيبويه على هذا ، ولم يستخرج العلماء الذين قرؤوا سيبويه قبل عبد القاهر من هذه العبارة إلا

(١) دلائل الإعجاز ، ص : ٢٥٠

(٢) المرجع السابق ، ص : ١٣١

معناها القريب المتبادر ، ولكن عبد القاهر وهو مشغول من رأسه إلى قدمه بفكرته ، فطن إلى ما في قول سيبويه (فنبهته) وأدرك أن فيها ما يصيب غرضه ، وشرح التنبيه بأن الأصل فيه أنه لا يؤتى بالاسم معرًى من العوامل إلا إذا كان القصد الإخبار عنه ، وبذلك يكون تقديمه منبهًا السامع إلى أن هذا الاسم سيسند إليه خبره فيأتي الخبر والسامع متنبه له ، ومتهيئ لسماعه ، وهذا التنبيه ، وهذه التهيئة هي التوكيد ، وليس إيراد الكلام بعد التهيئة له والتنبيه إليه ، كإيراد الكلام غفلا من هذا ، ثم إن هذه التهيئة ، لا تكون من المتكلم إلا إذا كان له فضل حفاوة بالخبر ، فيحرص على توكيده ، ثم أخذ عبد القاهر يتلمس نظائر التقديم في الأساليب ويُجري عليه فهمه ، لكلمة سيبويه ، ليزيد نفسه يقينًا بأن الذي قال كما قال ، فيذكر ضمير الشأن ، والقصة ، ويقول إن العلماء وصفوه بالفخامة ، والنبل لأنك حين تذكر ضمير الشأن تُنَبّه السامع ليدرك ، ما يأتي بعده مما هو مفسر له ، فإذا جاءت الجملة المفسرة ، تلقاها السامعُ ، وهو متشوف لها ، فيقع الكلام في نفسه موقعًا جيدًا ، وهذا معنى فخامته ونبله .

ونكتفي بهذا في باب التقديم لنوجز كلامًا في باب القصر ، وكان مدخل عبد القاهر إليه حديثًا في غموض المعاني التي يعالجها ، وأنّها كذلك عند الخاصة أيضًا ، ثم فصّل الكلام في إنّ التي خَفيت على الكندي ، وسوّد في خفاء دلالاتها اثنتى عشرة صفحة ، ثم أشار إلى أن تتبعها في الشعر تَغْزُرُ به غوامضها ودقائقها ، ثم نقل الكلام إلى إنّ إذا اتصلت بها ما ، وبذلك دخل باب القصر الذي كشف طرائقه وغوامضه ، وقد هُدِي إلى نص لأبي علي في الشيرازيات لم يُمحّضْه الفارسيُّ لبيان فكرته ، وإنما دَلّ القارئ به على

طريقة استخراجه للقاعدة ، وترى النص يصف لك تجربة عالم له أُذُن ترقب اللغة كما ترقب عين الخبير مادة الدراسة في المعامل العلمية .

سمع أبو علي ناسًا من النحويين يفسرون قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ (الأعراف:٣٣) بقولهم معناه ما حرَّم ربي إلا الفواحش ، ففسروا إنما بمعنى ما وإلا ، هكذا قال أبو علي وذكر (ناسًا من النحويين) فأشار إلى أنه سمع ذلك من مغمورين ، ومن هم في طبقة صغار تلاميذه ، ومع هذا عَلِقَ هذا السماعُ بأذنه ، ليتبيَّن فيما تسمعه الأذن من كلام العلماء ، وشعر الشعراء ، صواب هذا الكلام الطائر أو خطأه .

ثم قال أبو علي وأصبت ما يدل على صحة قولهم في قول الفرزدق .

« وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي » وكان الذي قاله الفرزدق دالاً على صحة قولهم من جهة أنه فصل الضمير وقال يدافع أنا ، مع إمكان الاتصال وأن يقول أدافع أنا ، وهذا الفصل مع إمكان الوصل لا مساغ له في اللغة إلا عند إرادة الاختصاص وإيقاع الضمير بعد إلا ، وقلنا ما يدافع إلا أنا وهذا يعني أن قول الفرزدق ، إنما يدافع أنا جاء على ما يجيء عليه « ما يدافع إلا أنا » ولا يكون هذا إلا إذا كانت إنما بمعنى ما وإلا

أرأيت كيف التقطت أذن الفارسي الإصابة التي شُغل بها في زحام وغموض ودقة هذه القواعد ، والأصول النحوية ؟! وكيف كان كلام (نحاة) هكذا بالتكير شاغلاً له وكيف جعله معلقًا بين الصواب والخطأ مثل الفرض العلمي حتى يقع في اللغة على ما يُثْبته أو يَنْفيه ، وأقطع أن عبد القاهر إنما نقل هذا النص لأنه يصف طريقة استخراج أبي علي لهذه « المعلومة » ولو

كان مقصوده «المعلومة» لاكتفى بأن يقول يقولون إن إنما متضمنة معنى ما وإلا وكان هذا شائعًا في زمن عبد القاهر الذي جاء بعد الفارسي بزمن .

وعند انتهاء اجتهاد الفارسي بدأ عبد القاهر اجتهاده ، وقد جمع بين يديه فيضا من الشعر الذي وردت فيه إنما ، وما وإلا ، ورأى ما رأى في كل باب أسسه . رأى الفرق بين الأصول النظرية ، لهذا الباب ، وبين متصرفات الشعر ، وأصحاب البيان وأن الأول ليس مستوعبًا للثاني،وأن ما بين يديه مما استقرأه وتتبعه في كلام العرب الذي بنى على هذين الحرفين ، فيه من دقائق الأحوال المتباينة ، ما يحتاج إلى أن يُستخرج ، ثم نظر في كلمة الفارسي التي ركزًها في نهاية طريقه ، وأخذ يقلبها في ضوء ما لحظ من فروق في تحليل فيض شواهد الشعر ، ففطن إلى أن هناك فرقًا بين أن يكون الشيء متضمنًا معنى الشيء ، وأن يكون الشيء الشيء ، وأن الفارسى لما قال إنما متضمنه معنى ما وإلا ، كان يدرك هذا الفرق القائم بين الحرفين ، وأشار بهذه العبارة الحصيفة إلى هذا ، وهذا مما تركه الأول للآخر .

وقد أكد عبد القاهر المغايرة بينهما من جهة الاستعمال ، فقد تأتي إنما في صيغ لا يأتي فيها النفي والاستثناء ، تقول إنما هو دينار لا درهم ، ولا يصح أن تقول ما هو إلا دينار لا درهم لأن «لا» النافية لا تجامع النفي والاستثناء ، كما يأتي النفي والاستثناء في صيغ لا تصح فيها إنما ، تقول ما أحد إلا وهو يقول كذا ، ولا يصح أن تقول إنما أحد يقول كذا ، لأن أحدا لا تأتي إلا في النفي ، وهكذا أكد عبد القاهر ما ذهب إليه ، وهو أنَّهما ليسا سواء ، ثم أخذ يُسَلْسِلُ هذه الفروق من جهة المعنى ، ويَعْرِض الشواهد ، وتُسْلِمه الفكرةُ إلى الفكرة ، وتَهدْيه الحقيقةُ إلى حقيقة ، ثانية

وثالثة ، حتى ترى سلسلة من المعلومات الجديدة ، حول هذين الحرفين تتابع وتتسلسل ، وتتماسك ، في إحكام رائع ، وجهد صادق ، وتجد النسيج الذي ينسج منه هذه الحقائق تداخله إشارات نحوية ، عرف بذكائه ، وصَبْره ، وانقطاعه ، كيف يوظفها ، ويُحوِّلها إلى أداةٍ من أدواته المبدعة ، وكيف صارت (المعلومة) النحوية المبتذلة في كتب النحاة شذرة ، وضيئة ، لمَّا أحكم وقعها ، والتوقيع عليها . وكان بحث القَصْر في كتب المحققين والمحصلين من المتأخرين بعض ما ساقه هو في هذه الرحلة الفذّة ، لأنه يقوم في الكتب على الفروق بين طرق القصر ، وأوْسَعُها الفرق بين إنما ، وما وإلا

وليس من مُهمَّة هذا البحث أن يدل عليه ، لأنه يراجع في كتاب عبد القاهر وكتب المتأخرين وإنما مهمتي في هذا البحث أن أقِفَ عند نُقْطة انبجاس هذا الفكر ، وأن أتبيَّن كيف انبثق ، واندفع ، وتسلسل ، واتسق .

وبقي بعد ذلك حديث موجز في الفصل والوصل والتعرف على مَخْرجه عند عبد القاهر ، وكيف كشف مسائله ، واستخرج قضاياه ، وأمْرُه في هذا مختلف ، لأنه لم تكن بين يديه مقالة جعلها مقدمة لاجتهاده كمقالة الفارسي في القصر ، ولم تكن بين يديه جملة مكتنزة جعلها موضع نظره ، وحواره واستنباطه ، كجملة سيبويه ، في التقديم وإنما هو باب لم يفتحه إلا التفقُّد الشديد لمعاني الكلام ، والبحث عن روابطه ، والوقوف عند معاقده ، ومقاطعه ، وكان عبد القاهر في تفقده هذا يدرس الكلام جملة جملة ، ويُحكم فهم معنى الجملة ، ويَسْتوعبه بكل ملامحه ، وشياته ، ثم يحكم معنى الجملة التي تليها ، ويستوعب هذا المعنى ، ويتفقده ، بكل ملامحه ،

وشياته ، ويثبت مَعْدِنَهُ وطبْعَهُ ثـم ينظـر في الجملـتين ، ليتـبين العلائـق بـين المعنيين ، ويزن هذه العلائق وزنًا ، فيعرف ما فيها من تشـابه ، أو تشـابك ، أو تلامح ، أو تغاير ، وما مقدار ذلك كله ، وهـذا لا يتـأتى إلا بـالنظر بعـد النظر ، والتغلغل بعد التغلغـل ، ورفـض لمـا يقـع في أول الخـاطر ، إلا أن تحكمه المراجعة ، وكان عبد القاهر كلفا بعمل العقل ، وجهده ، وتركيـزه ، وكان يَبْلُغ في ذلك جَهْدَه ، حتى إنه كان ليجهد الكلام معه ، من كثرة تقليبه وتفليته ، والنظر فيه من جهات تشابكه ، وجهات تخالفه ، وجهات تلامحه ، وراجع ما قاله في آيات أول سورة البقـرة ، وآيـة يوسـف ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (يوسف:٣١) لترى أن الذي قلنـاه هـو كمـا قلنـاه ، ثـم راجع وصفه لما يجب أن تكون عليـه القـراءة . مـن مثـل قولـه انظـر « نظـر المتثبت الحصيف الراغب في افتداح زناد العقل ، والازدياد في الفضل ، ومَنْ شأنه التَوْقُ إلى أن يعـرف الأشـياء علـى حقائقهـا ، ويتغلغـل إلى دقائقهـا ، ويربأ بنفسه عن مرتبة المقلد ، الذي يجري مع الظاهر ، ولا يعدو الذي يقع في أول الخاطر »[1]. بقيت في هذا الباب إشارات لعبد القاهر فتح بهـا بـاب البحث في أبواب نافعة في فهم معاقد الكلام ، ومقاطعه ، ومداخله ولم يفتح الكلام فيها وإنما أشار ونبه إلى أنه موضع يجب أن يستقصى ثم بقيـت هـذه الإشارات في كلامه كما كتبها لم تناقشها أقلام الكاتبين .

وقد حدد عبد القاهر سبيله الذي سلكه في هذا الباب ، بعد مـا أشـار إلى غموضه ، وحاجة فهم أفكـاره إلى صـفاء الـنفس ، وذكـاء القلـب ، ومرجـع غموضه كما قال إلى أنه مستنبط من صنعة خفية عالية ، لا يُدْخِلُها في نسج

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص : ١٧١

الكلام إلا الأعراب الخُلَّص ، والأقوام طُبِعُوا على البلاغة ، ولم يذكر في مقدمات الأبواب الأخرى - الأعراب الخُلَّص والأفراد المطوعين - وإنما جاء هذا هنا فقط ، لأن وزن الكلام من جهة علاقات معانيه ، ودرجات هذه العلاقات ، وما يتصل فيها بنفسه ، وما يحتاج منها إلى واصل يصله ، ليس بالأمر يدرك بالهوينا ، وإنما هو باب غامض ، تستطيع أن تدرك غموضه لا من خلال قراءة بحث عبد القاهر فيه ، لأنه طوَّعه وقرَّبه ، وإنما تدرك هذه الصعوبة إذا قرأت الشعر ، ونظرت إليه من هذه الجهة ، وتَفَقَّدت معانيه تَفقُّد الحصيف المُتَثَبت ، ونظرت في روابطه ، حتى ترى المعاني وهي تتنامى ، على وجوه من الاتساق ، والضبط ، يحاول عبد القاهر أن يضع لها الأُطُر العامة ، فيذكر لواحق المعاني التي تنبثق من سوابقها ، والمعاني التي تتوالى ، وتتكامل ، وتتصاعد وهي في جوهرها وفحواها ومرجعها تتعاضد ، وتتآزر ، حتى كان ثانيها ، يكرر فحوى أولها ، مع انفراده بمعنى جديد ينمو به الكلام ، ويمتَدّ ويَتسعُ ، وهو في الوقت نفسه يرتد على المعنى الأول ، بالتقرير ، والتوكيد ، أو البيان ، أو التفسير ، وكأن الجمل هنا دوائر تنطلق الثانية من قلب الأولى ، ثم تتسع حافاتها ، فتضيف أرضًا جديدة ، وميادين جديدة ، وترى ضُروبًا أخرى من المعاني كأنها الأغصان الملتفة المتداخلة ، فالجملة تتكون من جُملَة من الجمل ، وكأنها غُصْن توالد ، وامتد ، وتشعَّب ، وتهدَّل ، ثم تدخل هذه الجملة بكل امتدادها ، وتَشَعُّبها ، وتهدُّلها ، في قلب جملة أخرى ، وتقع في حيِّزها ، ثم تتصل ، أو تنفصل ، بجُمْلة جُمَلِها الممسكة بها ، على جملة أخرى كأنها قاطرة جرَّت وراءها جملا على حد ما ترى في طريقة الجاحظ في تكوين جمله ، أو أبي العلاء ، أو الرافعي أو عبد القاهر نفسه حيث ترى فنونًا من التشابك ، والتداخل ، فهذا شرط ،

وهذا جوابه ، وهذا اعتراض بينهما ، وهذه جملة حال من فاعل فعل الشرط ، وهذه الجملة صفة لمفعول في جملة الحال ، وتلك معطوفة عليها بالفاء ، وهذه مفصولة عنها ولكنها داخلة في إطارها ، من حيث هي تفسير ، أو توكيد ، وهكذا ترى اللغة تَقْفُو أثر المعنى ، والمعنى يفيض من ينبوعه ، ويتداخل ، ويتغازر ، ويتسع ، ويُشْبِعُ بعضها بعضًا ويأخذ بعضها بحجزة بعض ، وعبد القاهر يتابع هذا ، وما هو أوسع منه بحذق ، وفطنة ، وصَبْر ، وبصيرة ، وانقطاع ، وهو وَحْدَه الراعي لهذه الحركة في اللغة ، ليس في رفقته كلمة واحدة تفتح له بابًا يدخل منه هذه الغاية البالغة الثراء .

قلتُ إن عبد القاهر عكف على تأمل الكلام من جهة روابطه ، ومعاقده ، ومقاطعه ، وأنه كان يستقرئ كلام العرب ، ويدعو القارئ إلى أن يستقري معه ، حتى يكون رفيق دَرْبه ، وصاحبه في رحلة استكشافه في أدغال اللغة ، وغاباتها الموغلة ، التي تَطْوِي في شعابها وسهولها ، وحزونها فنونًا من طبع الإنسان .

ولما عظم الكلام عند عبد القاهر من هذه الجهة ، ورأى فيها بابًا مشرعًا من أبواب بلاغته ولم يجد في كلام العلماء ما يعين على فهمه ، وتخطيطه ، وبيان حركة السير فيه ، نظر فوجد سلسلة المعاني الجارية في فنون الألفاظ لابد أن يكون لها اتساق واحد ، وأن يكون حال الجملة مع الجملة ، هو ذاته حال الكلمة مع الكلمة ، وأن تجاور الجمل خاضع لنظام تجاور المفردات ، وهذا مقتضى الحكمة التي بني عليها اللسان ، وكانت هذه الفكرة هي الضوء الذي كشف له الطريق ، فمضى ينظر في المفردات ، فوجد بعضها يعطف ، وبعضها لا يُعْطفُ ، وتأمل ذلك فوجد أصله في قول النحاة إن العطف

يقتضي المغايرة ، وأن التوكيد ، والنعت ، والبدل ، والبيان ، لا عطف فيها ، لأن الشيء لا يُعْطَفُ على نفسه ، فالصفة عين الموصوف وهكذا .

وكان قد رأى في الجمل ما يُشْبه أن يكون ماضيًا على هذا ، فمن الجمل جمل منزلة ، من التي قبلها منزلة التوكيد من المؤكد ، ومنها ما ينزل منزلة التفسير ، والبيان ، وهكذا ، ورأى أن هذا الضرب من الجمل جاء في الكلام غير موصول بوصل ظاهر ، فقال إن ذلك راجع للعلة القائمة في المفردات ، وأنك إذا ذكرت الواو بين الجملة المفسرة وما جاءت تفسيرًا لها ، تكون كمن يعطف البدل على المبدل منه وهذا خارج عن كلام الناس .

ثم رأى أن روابط الجمل فيها من التنوع ، والاختلاف ، والتقارب ، ، والتباعد ما تكاثر ، بين يديه ، وتشارد عليه ، وأن تناولها هكذا من غير تحديد يستحيل معه ضبط المنهج .

فأخذ يحدِّد ما لم تُسْبق دراسته ، فذكر الجمل التي لا محل لها من الإعراب ، والعطف بالواو خاصة وكانت الجمل التي لها محل من الإعراب قد فرغ النحاة من دراستها ، لأن حكمها حكم المفرد ثم إن الفاء وثم لكل منها معنى يصح أن يكون مدخلا لدراسة الأسرار ودقائق الدلالة ، أما الواو فإنها لمطلق الجمع ، وبيان ما يجوز فيه الجمع ، وما لا يجوز ، لم يتكلم أحد فيه وبهذا تحددّت حدود هذا البحث ، وضاقت ، ثم عمقه وصبّره نظرا في الشعر والأدب من هذه الجهة المهمة ، وهي تماسك النص ، وتآزره ، وتتابع معانيه ، ومنطق تَسَلْسُلِه وضبط حركة هذه المعاني ، وتحليلها ، وكان شديد التمسك بضرورة قوة التلاحم ، والتماسك ، في بناء الكلام ، وكان يردد

العبارة المشهورة التي رَدَّدَها العلماء قبله وبعده وهي وصف الكلام بأنه أخذ بعضه بحُجْزة بعض .

وقد درس درجات التشابك ، واستخرج من الشعر شعرًا كأنه أُفْرِغَ إفراغًا واحدًا وحلل أدوات هذا التشابك ، وهذا الربط ، وهو بحث جيد ، وحسبنا أن نقول إن هذا الباب من أفضل ما كتب ، وأنه لا تزال خمائره التي أودعها فيه عبد القاهر كما أودعها . هذا والله أعلم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

عُلماؤنا وتُراثُ الأُمَم[1]

الحمدُ لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على رسوله الذي اصطفى ، وبعد .

فإن قضية موقفنا من تراث الأمم وآثارها ، وجملة ما أبدعته ، فيما اصطُلح على تسميته بـ « العلوم الإنسانية » ـ قضيةٌ قديمة ، وقد طال الجدلُ حولها في أوائل القرن الماضي ، وقد أثيرت منذ بداية الصدام الحضاري والفكري بين الأمة الإسلامية والأمم الأوربية المسيحية ، وذلك بعدما مَرّت عليها قرونٌ من الغفلة والتهاون ، استيقظت فيها أممُ الغرب وقطعت أشواطًا في مختلف المعارف الإنسانية .

ولا أعرفُ أن مثل هذه القضية قد أثيرت في تاريخ الأمم ، وتاريخ الصراعات الحضارية والفكرية بهذا الحجم ، وهذه الإطالة ، وهذا الإلحاح ، الذي شغلت به مساحات زمنية وعقلية في تاريخنا الحديث وفي واقعنا المعاصر .

---

(1) أصل هذا البحث محاضرة ألقيت في النادي الأدبي بالقصيم . ثم نشر على نفقة ـ من لا أعرف ـ ووُزّع مجانًا على طلاب العلم بالمملكة العربية السعودية ثم نشرته مجلة الوعي الإسلامي بالكويت .

وكان ما كُتب جديرًا بتركها لكثرته وشيوعه ، ولكنه حدث أن نَبَتَتْ فينا نابتةٌ هذه الأيام ، أعادتها بعناد وإصْرار واسْتِفزَاز ، وألبستها ثوبًا من ثياب الزُّور ، هو ثوب (التنوير) .

وقد عمدت هذه الطائفة إلى إخراج جانب من جوانب الحوار القديم يخدمُ أغراضَها ، دون أن تكونَ أمينةً في عَرْضِها فزوّرت تاريخ علومنا وقد وجب علينا أن نقدم موقف علمائنا من تراث الأمم حتى يكون القارئ على بيّنة ويرى الرأي الآخر ، ويكملُ لديه طرفا الحوار .

ثم إن الجيلَ الذي تُنْقلُ إليه الآن الأمانةُ ليست لديه خبرةٌ بما حدث ، ولم تكتمل عنده الأدوات التي تعينه على معرفة الزيف فيما فيه زيف ، ولهذا رأيت أن أكتب في هذا الموضوع حتى لا يظل أبناؤنا يسمعون القضية من جانب واحد وأحرص أشدَّ الحرص على ألا ألقي الله وأنا غاش لهذه الأمة لأن السكوت عن الحق في مثل هذا الموقف من غش هذه الأمة .

وقد رأيتُ أن أعرض مواقفنا المختلفة من علومنا وتراثنا ومن علوم الآخرين وتراثهم ، وأن أشير إلى ما يتصل بهذه المواقف ، ثم أجعلُ موقفَ علمائنا من تراث الأمم نورًا نهتدي به في يومنا وفي غدنا ، وموقفُهم جديرٌ بأن ننظر فيه وأن نهتدي به ، لأن أجيال علمائنا هم الذين أقاموا حضارتنا التي غلبت وسادت أزمنة متطاولة ، وأحرزت بهم الأمة كثيرًا من الانتصارات ، وكثيرًا من التقدم ، ثم إن التلازُمَ بين الحياة الفكرية والحيوات الأخرى في الأمة الواحدة حقيقةٌ ثابتة لا ريب فيها ، ففي الزمن الذي عاش فيه المتنبي شاعر العربية الأكبر كان يعيش معه أبو الفتح ابن جني الإمام اللغوي ، وكان

العصر عامراً بشيوخ الفقهاء والمفسرين والمحدِّثين ، والأفذاذ من قواد الجيوش ، وانتصارات سيف الدولة ووقائعه بالروم ، كلُّ ذلك مرتبطٌ بعضُه ببعض قوةً وضعفًا ، وصِحَّةً وزَيْفًا ، فإذا رأيتَ اختلالاً في باب من أبواب الحياة ، فاعلم أنه قائمٌ في باب آخر ، وإن كانت عينُك لا تراه .

وكل هذا يؤكدُ أن موقفَ علمائنا من تراث الأمم في هذا الزمن الزاهر من تاريخنا كان موقفًا مدروسًا في حركة حياة لم يكن فيها للعشوائية مكان .

والذي يجري في ساحتنا الآن حول مجموعة العلوم العربية والإسلامية ، وهي التي أعنيها في بحثي هذا ، يتلخصُ في مواقف ثلاثة :

الموقف الأول : هو الموقف الذي يُلِحُّ في دعوتنا إلى أن نَصْطنعَ علوم الآخرين ، وأن نتعلم ما يتعلمون ، ونفكر كما يفكرون ، وأن نعيش كما يعيشون ، وأن نتقلب في الحياة كما يتقلبون ، ولا يجوز أن نفرق بين علومهم وسلوكهم ، لأن العلوم هي الأصل النظري للسلوك والسلوك هو الجانب التطبيقي للعلوم ، والعلوم مجموعة قيم فكرية وأخلاقية ، ولهذا كان السلوك نابعًا منها ، وهذا الجانب ألحَّ عليه رجالٌ لا تزال أسماؤهم تُذكر ، وهي موصوفةٌ بصفات عاليةٍ تُغري الآخَرين بالأخذ عنهم ، وقد تطرفَ بعضُهم وجاهر بما يضمره غيرُه من نظرائه ، فقال : يجب أن نترك الحديث عن خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب والجاحظ والمتنبي ، ويكفي ما قلناه فيهم وما ذكرناهم به ، وما أخذوه من وقتنا ، ولننقل الحديث إلى كانط وديكارت وهيجل ونظائرهم من أهل الفكر الحي الذي صاغ شعوبًا حَيَّة[1].

(١) ينظر في هذا طه حسين وسلامة موسى

وقد انْبَثَقَ من هذا الاتجاه الهجومُ الشرس على علومنا وعلمائنا وفقهائنا وشعرائنا ، فالنحو علم استُخْرِجَ من لغات الصحراء والخرائب ، ومن أفواه قيس وتميم ، وتلك أمّة قد خلت ، ويجب أن تخلو لغتها ونحوها كما خَلَت ، وأن نستخرجَ نحونا من لغاتنا نحن ، وأن نعود إلى ألسنتنا ، كما تستخرجُ الأممُ الأخرى نحوها من ألسنتها المتحركة في أفواهها ، وليس من ألسنة هُذيل وثَقِيف[1].

والبلاغة علم بلغ حد اليأس ، ويجب أن يدفن في تربة طَيِّبة وأن نغرس في رفاته غرس البنيويين والأسلوبيين ، وأما نقد الشعر وتذوقه ومعرفة أسراره فالذي عندنا منه كالذي عند حلاق القرية من علم الطب ، والذين يأخذون عن علمائنا علم صناعة الشعر ويتركون (منجزات العصر) كالذين يذهبون إلى حلاق القرية ويتركون الطبيب المتخصص[2].

أمَّا شعراؤنا فقد كانوا في الجاهلية يمثلون موكبَ النفاق حول ارستقراطية قريش (هكذا) ، ثم في الإسلام ما لبثوا بعد عصر النبوة أن تحولَ ركبُهم وتحولت مزاميرُهم إلى ارستقراطية بني أمية ثم بني العباس ، ومن طول ممارسة الشعراء للنفاق جهلت ألسنتُهم مسالكَ الصدق ، فلما تكلموا في الطبيعة عجزوا عن وصفها ، لأنهم اعتادوا على النفاق لا غير .

والفقهاء لم يسلموا من هذه الحملة الباغية ، فقد كتبوا الفقه وهم مرعوبون من السيف ، أو طامعون في المنائح ، فانحرفوا بالفقه لصالح مَن في يده السيف والذهب[3].

---

(١) ينظر في هذا دراسات الدكتور سعيد بدوي

(٢) ينظر في هذا كتابات لطفي عبد البديع وصلاح فضل

(٣) يراجع في هذه المسألة عبد القادر القط في كتاب : إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين

وأعتقدُ أن تاريخَ الأمم كلها لا يعرفُ كُتَّابًا حملوا أقلامَهم لهدم علومهم وحضارتهم ورجالهم وتاريخهم كما فعل هؤلاء .

وأصْلُ هذا الاتجاه لا يُرَدُّ ـ كما يُقالُ ـ إلى التأثر بالفكر الغربي ، لأن التأثرَ بالفكر الغربي يُفْضِي إلى عكس هذا ، والذي يكتبه الأوربيون إلى شعوبهم مؤسَّسٌ على تأصيل ثقافتهم وعلومهم ، وتحليل هذه العلوم وتجليتها ، ولا يزالون يشرحون أفلاطون وأرسطو وهوميروس وأريستوفان ، ويضعونهم في مكانة عالية للشعوب الأوربية كلها ، ومكانتُهم عند هذه الشعوب لا تقل عن مكانتهم عند اليونان الأقدمين ، ومهما كانت اتجاهات الكاتب فإن تأصيلَ المعرفةِ مما لا يجوزُ الحيادُ عنه .

ولا تزال كتبُ النقد تكتبُ فصولاً مطولةً عن أفلاطون وأرسطو وغيرهم ، ولا تزال الأقلام تَنْفَحُ تراثهم جدة وحفاوة وتجلية ، وتُدَبَّجُ حولهم أكثر مما تدبج حول النقاد المعاصرين ، ثم ترى الكاتبَ يتجه إلى تأكيد النواحي الإيجابية في تراث رجال قومه ، ويبعثُ هِمَّةَ القارئ ليراجع ويعاود قراءة هؤلاء الشعراء ، والنقاد والمفكرين ، فإن كان كاتبًا إنجليزيًّا رأيته شديدَ الحفاوة والاعتزاز بالشعر الإنجليزي ورجال أمته ، وإذا كان فرنسيًّا رأيته شديدَ الحفاوةِ بمجد بلاده وعزها القومي كما يقولون .

وهكذا ترى الكاتب مُتَّجِهًا إلى جمهور شعبه وجنسه وكأنهم بنو أبيه ، يبثُّ فيهم حبَّ المعرفة ، ويغريهم بالإقبال على رجالهم ومفكريهم وشعرائهم وأهل العلم في تاريخهم كله ، وهذه هي الرسالة الحقيقية لحملة الأقلام : تثقيف الشعوب وصقلها بثقافتها وعلومها ، وشحذ روح الانتماء

والولاء للأمة وتاريخها ورجالها ، وبث ذلك كله حتى يَسْطعَ في كل كتاب يتوارثه الأبناء عن الآباء ، وبهذا تنهض الشعوبُ وتسيرُ قدمًا إلى الأمام .

ولا يمكنُ أن نعتقدَ أن الذين يهدمون علومَنَا بهذا الحقد الأسود ، ويشيعون في علمائنا وشعرائنا ورجالنا مقالةَ الزِّراية والقَدْح ، لا يمكنُ أن نعتقدَ أنهم في ذلك متأثرون بالكُتَّاب الغربيين ، الذين يسيرون في أممهم سيرةَ الشيوخ في أمتنا ، ولو كانوا فينا لكانوا شيوخًا محافظين ، لم تعرفْ هذه الأمم شاعرًا فذًا ولا مفكرًا مبدعًا ولا نابهًا نبغ في شعر أو نقد إلا وهو عظيم لارتباطه بثقافته وتاريخه ورجاله ، وبمقدار تفوقه يكون تشبثه بما نسميه الأصالة والتراث ، وهذا ظاهر ظهورًا لا يلتبس ، ويعرفه من قرأ مختصرات فكر هذه الأمم .

قلت إن هذا الاتجاه الغريب الذي يضربُ علومَنَا وتاريخنا ورجالنا لا يمكنُ أن يكونَ ثمرةَ قراءة لما تكتبه الأقلام الحرة في أي أمة من الأمم ، وإنما نجدُ علاقةً واضحةً بَيْنه وبين كتابات أخرى ليست من باب العلم في شيء ، وإنما هي من باب السياسة ، هذه الكتابات هي ما كتبه رجال من الأروبيين غَمَسُوا أقلامَهم في تراثنا وعلومنا ، وهم فرع المستشرقين الذين كانوا يعملون في مؤسسات التبشير التابعة لوزارات الاستعمار ، وكانوا مستشارين في شؤون الشرق الأوسط .

وبَدِيهةُ العقل تقولُ إن نتائج دراسات وتوصيات هذا الفرع ليست لصالحنا ، وإنما هي موظفة لصالح أمته وأهدافها في استعمار بلادنا والسيطرة عليها ، وليس في هذا مجال لما نسميه الحياد الفكري ولا المنهج

العلمي ، وكانت توصيات هؤلاء وتقاريرهم تؤكدُ حقيقةً واحدةً يُجْمِعُ عليها أولُهم وآخرُهم ، وهي ضرورة ضرب الحضارة الإسلامية وتفتيتها والقضاء عليها لأنها هي أساس الوحدة الجامعة لأمة الإسلام على اختلاف شعوبهم وأجناسهم وتباعد ديارهم ، وإن تفريق المسلمين شعوبًا وأقطارًا ، بتجزئة بلادهم هذه التجزئة التي فرضها علينا المستعمرون بعد الحرب العالمية الأولى غير كافية في فَصْم العُرْوة التي تجمعُ أبيضَهم وأسودَهم .

والحضارةُ الإسلامية لها عُمُدٌ وأركان قامت عليها وهي علوم العربية والإسلام ، وعلوم العربية جزء من العلوم الإسلامية ، والرابطة بين العلوم العربية والإسلامية رابطةٌ عضوية كعلاقة اليد باليد ، وبها صارت هذه العلوم وحدةً واحدةً ، إذا أسقطوا منها عِلْمًا تَدَاعَتْ له سائرُ العلوم ، لأننا لا نتصورُ دراسةَ فقه بعيدة عن اللغة ، كذلك لا يقومُ النظر في التفسير ولا في الحديث إلا على اللغة ، والضربُ في العلوم الإسلامية يستفزُّ المسلمين ويهيجهم ، ولكن ضرب علوم اللغة بما يسمُّونَه (منجزات العصر) الذي هو الفكر الغربي يسعى نحو الهدف من غير ضجيج وتحت أسماء مُغْرية مثل : التحديث ، التطوير ، الإحياء ، التجديد .. إلى آخره .

وبهذا يُنْقضُ الأساسُ الذي بُنِيت عليه الحضارة الإسلامية ، وهذا شيءٌ مما كانت تقومُ عليه توصيات وتقاريرُ المستشرقين الذين يعملون في مؤسسات الاستعمار منذ بداية القرن التاسع عشر وربما قبله ، ولا يزالُ هذا الأصلُ قائمًا في علاقات القوم بنا ، وهو حاضر في نفوسهم لا يغيب عنها وخاصة عند من لهم صلة بشؤوننا من رجالهم ، ثم إن انقطاع هذا الفرع من

المستشرقين لدراسة علومنا ومجتمعاتنا أكد لهم أمرًا يجب أن يكون حاضرًا في نفوسنا ، وهو أن هذه العلوم هي الجانب التحليلي والفقهي لدين الله ، لأننا لا نستطيع أن نعبد الله كما أمرنا أن نعبده إلا بالنظر في كلامه سبحانه ، وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، والنظر في كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه لا يقوم إلا بمعرفة أصول هذه العلوم ، وبهذا يؤول الأمر إلى أن يكونَ ضربُ علوم العربية الذي يلحُّ عليه الصغارُ منا والكبارُ مُفْضيًا إلى العجز عن النظر في كلام الله ، وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وبهذا يدخلُ الفسادُ في الدين ، ويَسْقطُ من أيدينا حبل الله المتين .

ولا تعترض عليَّ بأن هناك أممًا إسلامية لا تعرفُ اللسانَ العربي ولا علومه ، لأني أردُّ اعتراضَك هذا بأنهم يأخذون عنا نحن أصحاب اللسان فَهْمَ الدين ، وقد أدرك أعداؤنا أن الحضارة الإسلامية التي هي مجموعة علوم ومعارف وقيم ، والتي طبعت سلوك المجتمعات الإسلامية بطابع خاص - هي التجسيد الفقهي والثقافي والحضاري لدين الله ، وأن ضرب هذا الدين من جهتها هو الغاية الحقيقية ، وكان هذا ظاهرًا أيضًا في تقارير هؤلاء المستشرقين وتوصياتهم للجهات التي تستهدف السيطرة علينا وتسلك السبل إلى غاياتها بالدراسة والفهم والعلم .

وبهذا يظهرُ أن الهجومَ على علوم العربية والذي ذكرنا إشارات موجزة دالة عليه ، وقلنا إنه أمرٌ غريب في تاريخ الأمم وتاريخ العلوم ، أقول هذا الهجوم خارجٌ عن دائرة البحث العلمي ، وداخلٌ في باب سياسة استعمارية قديمة ، ولا تزال أصولُها قائمةً في صدور ورثة هذه السياسة في الأمم الأخرى .

ويجبُ بجانب هذا أن تتعرفَ على تاريخ الرجال الذين كانوا من أوائل من تكلموا في هذا الاتجاه منا ، ويكفي أن أذكر إشارةً موجزةً هي أن من أكابر رجال هذا الاتجاه من كانوا أعضاء أوائل في الأحزاب الشيوعية العربية ، ومنها الحزب الشيوعي المصري الذي أسَّسَه يهوديٌّ صهيوني ، وقد خرج هذا الحزب قبل سنة ١٩٤٨م في شوارع قاهرة المعز يطالبُ بإنشاء وطن قومي لليهود ، فخرج عليهم العامةُ يريدون الفتكَ بهم ، وكان منهم سلامة موسى ، وهو رجلٌ وثيق الصلة بكثير من الرواد ، وكل رائد من الرواد يجتهدُ أن يصل حباله به وإلى الآن .

وهذه الصَّواعقُ المرسلةُ الآن على علومنا ، والتي يقومُ بها من يوصفون بأنهم دعاة التنوير ، هي في الحقيقة بأيدي بقايا من دراويش هؤلاء (الحرس الشيوعي القديم) . ولا أعرفُ واحدًا يدعو إلى ما يدعون إليه وفي صدره إيمانٌ بغيب يدلُّ عليه كلامٌ أو فعل ، ثم إنهم في أوساطهم العلمية معروفون بالمجاهرة في مخالفات أصول الآداب الإسلامية ، وإنهم جميعًا يجاهرون بالفطر في رمضان ، ويجبُ أن يُضافَ هذا كله بعضه إلى بعض لتظهر صورة الحقائق الغائبة ، وقد تقفُ معي حائرًا حين ترى وسائل التوجيه الثقافي والفكري في كثير من أقطارنا في أيديهم ، وإنما ذكرتُ فِطْرَهم في رمضان لا لأن أرد آراءهم بذلك ، وإنما لأُعِينَ على معرفة حقيقتهم .

ثم إني على يقين من أن بعض الأغْرَار من الغلمان الذين يحطِبُون في هذا الوادي ليسوا منظومين في هذا السلك الخبيث ، وإنما هم تلاميذٌ عجزوا عن فَهْم علومنا ، وليس عندهم طاقةٌ ليصبروا عليها ، فاختصروا الطريقَ بالهجوم عليها ، ووضعوا في أفواههم متونًا من معارف سَطْحية على غير بصيرة ، وقد

استهواهم أن يُقَال عنهم : إنهم حداثيون ، وإنهم غير جامدين ، وإنهم أحرار متنورون ، مثقفون ، إلى آخر هذا اللغو ، ولو علموا أن الحداثة فرع من الماركسية ، التي تلتقي مع الصهيونية في أرومة عدائية واحدة ، لهالهم ذلك ولرجعوا عن هذا العبث ، ولأدركوا أنهم كالأطفال الذين تسللوا في غَفْلة أمهاتهم إلى أمكنة محظورة ليعبثوا في أنابيب الغاز ، أو في صيدلية الدواء ، وهؤلاء الأغْرَارُ المضللون يتكاثرون في هذه الأيام ، لسبب واحد هو سقوط وسائل التوجيه الثقافي والإعلامي في أيدي عصابة أحفاد الحرس الشيوعي القديم ..

ويقابلُ هذا الموقف الرافضَ للتراث رفضًا كليًّا موقفٌ آخر انْكَفَأ على التراث انكفاء كاملاً ، وأغمض عينيه وسَدَّ أذنيه عن كل ما يدور حوله لاعتقاده أنه فساد ، واكتفى عامةُ هذا الاتجاه باستيعاب العلوم وشرحها للأجيال ورياضتهم على دروب فهمها وتفهيمها ، وهذا عملٌ جيدٌ جدًا ويعني استمرار وتواصل هذه المعارف حتى لا تنقطع سلسلةُ توارثها ، أمَّا ما وراء ذلك من الاجتهاد في نَفْث الروح في هذه العلوم وإحيائها ونقلها من صيغ العصور القديمة إلى العصر الذي نعيشه ، على وجه مدروس ، يحفظُ لها جوهرها وصفاءها ، ويجلي تجلياتها ، ويدنيها من فكر الجيل الحاضر كما كان يفعل علماؤنا في الأطوار التاريخية المختلفة ، كل ذلك قَصَّرَ فيه هذا الاتجاه ، إلا بعض الأعمال المتناثرة التائهة في بحر الركود الذي ترانا فيه غرقى .

وقد كان كل جيل من أجيال علمائنا يكتب هذه العلوم كتابة جديدة مجتهدة ، ويقدمها لجيله ، يُفرغ فيها نفسه وعقله وعصره وروح زمانه الذي

عاش فيه ، ولم يكتفِ جيلٌ بالذي كتبه الجيل السابق ، وإنما تابعوا واستدركوا وحَقَّقُوا واستخرجوا وهَذَّبوا ورجحوا وناقشوا ، وكلُّ جيل وضعَ بَصْمَته على هذه العلوم . ترى ابن هشام يكتبُ النحو الذي كتبه سيبويه وكتبته أجيال بعد سيبويه ، ومع هذه الكثرة وهذا التنوع تجد كتابات ابن هشام متميزةً بروحه وروح زمانه ، تراه يقدم المادة النحوية تقديمًا آخر ، لم يطالب طلاب العلم في زمانه أن يحصلوا النحو من شروح كتاب سيبويه ، وإنما كتب كتابات فيها لُمَعٌ وإضاءات وفيها نَبْضُ الزمان الذي يعيشه ، ثم هذه الكتابات تأخذُ بيد الطالب خطوةً على طريق المراجع الأم ، ولا يزالُ الطالبُ ينتقل من زمنه إلى الزمن الذي سبقه حتى يلتقي كتاب سيبويه ، وهو قادرٌ على فَهْمِه .

وهكذا تَخَرّجَ العلماء وهكذا فعل غيرُ ابن هشام ، ترى أجيال الفقهاء يتبعُ بعضُهم بعضًا جيلاً بعد جيل ، وكلُّ جيل يأخذُ معارفَ من سبقوه ويقدِّمُها لزمان بلغته هو وإضافته هو ، ويثيرُ غوامضَها ويبسطُ مجملها ويشرحُ مبهمها ، ونرى المادة العلمية التي كتبوها وإن كانت تلتقي في الأصول والثوابت مع من قبلهم ، إلا أنهم وضعوا عليها ميسمهم وميسم زمانهم ، وقرّبوها من جيلهم ونفّثوا فيها من أرواحهم وفُهُومهم ، إلى آخر هذا الباب المتسع الذي يشرحه لك . أن تتأمل كيف صاغ الفارسيُّ علمَ سيبويه ، وكيف انتقل به من طور إلى طور ، أو تتأمل ما صنعه الخطيبُ القزويني في كتاب المفتاح ، واحذرْ أن تنظر نظرًا سطحيًا فتستهين بما لا يُستهانُ به .

ثم إن هذا هو الطريق الذي سلكه علماءُ الأمم كلها ، وقد سبق أن ذكرتُ أن كُتّابَ الأمم الأوربية الذين ترجعُ أصولُ حضارتهم إلى الأصول اليونانية ، لا يزالون يتواترون على شرح أفلاطون وأرسطو وسوفيكليس وهوميروس وأريستوفان وغيرهم ممن وضعوا علومَ اليونان ، ولم يكتفِ جيلٌ بشرح الجيل الذي سبقه ، بل لم يكتفِ كاتبٌ في زمن بشروح الكُتّاب الذين يعيشون معه ، وإنما كلٌّ له مَلْحَظٌ وله بصيرة وله فهمه ولُمَعُه ونفحاته وتجلياته ، وبهذا تتكاثرُ المعرفةُ ، وتعظمُ ، وتتنوعُ ، وتعيشُ في قلب الزمن الحي ، ولم تعدْ تراثًا تاريخيًّا ، وإنما فكرٌ حاضر ، يؤثرُ ويتأثر ويحيي العقول الحية وتحييه العقول الحية ، يعيش في حوار مع العقل الحي جيلاً بعد جيل ، يغذيها وتغذيه ويزدهر بها وتزدهر به ، ويشرق فيها بعَبَقِه القديم ، وتشرقُ هي فيه بسخائه الحاضر .

ولهذا وغيره قلت إن صياغةَ المعرفةِ بروح العصر ليست مهمةً سهلةً وليس كما يتصوره الذين يعيشون مستريحين بعيدًا عن معمعان الصراع ، حيث يَحْسبون أن المسألة تنتهي بأن تضعَ الكتابَ القديم بين يديك وأن تتقن أسلوبه يعني تفهمه وتلخصه ، أو تكتب مادته كما هي بأسلوب سهل ، لا ليس هذا مما نحن فيه ، لأن نقلَ المعرفة من طَوْر إلى طَوْر لا يَتَأتّى إلا لأفراد الزمان ، وهم الرجال المنقطعون الصابرون المثابرون ، وقد أصبح هذا واجبًا علينا وهو فرضٌ في أعناق القادرين عليه ، لأن الطَّفْرة الاجتماعية التي نعيشها باعَدَتْ كثيرًا بين جيلنا والصيغ القديمة ، وكان جيلُ ابن هشام أقدرَ على قراءة من سَبَقَه من جيلنا هذا ، الذي أصبح ترويضُه على معرفة علوم أمته وأصول حضارته أمرًا محتاجًا إلى جهاد ومكابدة ، ولا ينهضُ بذلك إلا

أهلُ العلم ، ولأجل ما فيه من مشقّة ومكابدة وحاجته إلى صبر وانقطاع فضَّلَ الله الذين أوتوا العلم درجات ، ولو كان الأمرُ سَهْلاً رَهْوًا كما نظنُّه لما كان هناك وَجْهٌ لهذا التفضيل .

قلت إن جيلنا لم يَقُمْ بهذه الفريضة ، واكتفى بالمحافظة على علومنا يَفْهَمُها ويُفَهِّمُها لأنه رآها في قلب عاصفة من جهنم تكتسحها اكتساحًا وتجتثها اجتثاثًا بوحشية ، وبروح بربرية لا تقيمُ للعقل ولا للحق ميزانًا .

وهناك اتجاهٌ ثالث جاء وَسَطًا بين هذين الاتجاهين ، وهو ما يراد بالأصالة والمعاصرة ، ويتمثل في إضافة مختارات من الفكر الغربي إلى مقالة علمائنا ، وترى عبد القاهر وكروتشة وابن جني وتشومسكي وسيبويه ، إلى آخر ما ترى .

ثم إنك ترى كثيراً من رجال هذا الباب يضعون المقتبسات الغربية موضعَ الشاهد والدليل ، فإذا وافقتْ هذه المقتبسات كلامَ علمائنا صَحَّ بهذه الموافقة كلامُهم ، وإذا خالفتْ سَقَطَ بهذه المخالفة كلامُهم .

وهذا الاتجاه صار الآن غالبًا ، ويتبعه نفر كثير من الباحثين والأساتذة ، ويَسْتروحُ له جمهورٌ متسع من طلاب العلم والناشئين ، وخصوصًا حين يصادفون نصوصًا غربية تُشَابه كلامَ علمائنا ، ويشعرُ القارئ حينئذٍ بنَشْوة مُمْتعة ، لأن شيوخنا الأوائل كان عندهم علم (بالتناص) مثلاً ، ولغلبة هذا الأمر رأيت بعضَ الباحثين الفضلاء كتبوا كُتُبًا ليس لهم فيها دراسات وإنما هي اختيارات من نصوص علمائنا ، وضعت لها عناوين من قضايا الفكر الغربي ، أو هي نصوص شابهت كلامَ النقاد الأوربيين ، أو تراءت نارها لمن يطل عليها من القباب الرومية .

وليس من السهل أن تهاجمَ هذا الاتجاه إن كنت ترى فيه اختلالاً ، لأن أتباعَهُ ليسوا من الماركسيين ولا ضُلال نصارى العرب ، ولا ملحدين كأتباع التيار الأول ، وإنما هم مؤمنون بأهمية التراث ، ويرون في هذه الخطرات المتشابهة مع فكر الآخرين إشارةً إلى بقايا الحياة في بقايانا ، وهذا طاردٌ لليأس وفقدان الثقة الذي طالما ألح على تثبيته الاتجاهُ الأول ، ثم إنه يمكننا إحياء علومنا بإضافة هذه المقتبسات إلى ما عندنا ، وهذه المقتبسات شاهدُ صدق ، ودليل لا يتطرق إليه شكٌ على صحة ما قاله علماؤنا ، لأنها من كلام الأمم المتقدمة ، وهذا حسبها .

وهناك فكرةٌ تُذْكرُ كشاهد لتثبيت هذا الاتجاه ، وهي أن علماءنا في العصر العباسي نقلوا علومَ اليونان وأفادوا منها في تصانيفهم ، لأنها علمتهم التبويب والتنظيم والمنهج ، وكانت علومهم كأنها أكوام من المعرفة لا يُعْرف منها رأسٌ من قدم ، وهذه فكرةٌ غريبةٌ ومَشْبُوهةٌ ، وقد ملأت الكتبَ ، وألحَتْ على عقول أبنائنا ، وفي مراحل التعليم الأولى ، حتى تثبت ولا يسهل زحزحتها أو التشكيك فيها ، ولم أعرف أن علماءنا أشاروا إليها ، وهم الذين نقلوا العلومَ وهم الذين أفادوا وهم الذين تعلموا التبويب والتصنيف ، لم أجد كلمةً واحدةً شاردةً ولا واردة لعالم منهم لا في عصر الترجمة ، ولا في القرون التي بعده إلى زماننا هذا تدلُّ على أن علماء المسلمين تعلموا التصنيفَ والتبويبَ والمنهجَ من ثقافة اليونان . ولا يتصورُ عاقلٌ أن تكون العقولُ التي أبدعت المعرفةَ وصنَّفتها واستخرجتها عاجزةً عن تبويبها وتصنيفها .

أقول هذه فكرة غريبة وشاذة وغير معقولة ، وإنما أشاعها في هذا العصر من أرادوا أن يقنعوا العقل الإسلامي بالأخذ عن الآخرين ، وباهتزاز الثقة في علمائه وحضارته ، وأن يوحوا إليه أن آباءه الأولين لم يستطيعوا أن يسلكوا دروب المعرفة إلا وهم محمولون على عكاز يوناني ، وكذلك نحن الأحفاد علينا أن نهتدي بعقول أحفاد من اهتدى آباؤنا بآبائهم

أَبُوكَ أَبُو جَهْلٍ وجَدُّكَ مثله ولستُ بخَيْر من أبيكَ وجَدِّكَ

وما دام الأمر كذلك فلا يكن في صدرك حرج أن تنير عقلك بنور هؤلاء الأحفاد ، فقد نوَّر آباؤهم آباءنا في سالف الدهر

وإذا وضعت بإزاء هذا ما نقرؤه من الإلحاح على أن العقلية الإسلامية غير قادرة على أن تتخطى أسوارَ المجهول ، وأن قدراتها لا تتجاوزُ الحركة في المعلوم ، وهي عقليةٌ شارحة ومعلقة وليست مبدعة ، ولابد أن يكون بين يديها من المعرفة مَتْنٌ من وضع غيرها ، لتعمل فيه وليس في إمكانها أن تصنعَ لها مَتْنًا ، وأن علومها قامت على شرح علوم اليونان ، وأن أرسطو لم يكن معلمًا للعرب في الفلسفة والأخلاق فحسب ، وإنما كان معلمَهم في البيان أيضًا .

ثم إن القول بأن التراث الإسلامي من ألفه إلى يائه غيرُ قادر على تكوين عقلية علمية ، وغيرُ قادر على تكوين حِسٍّ أدبي ، وأن من يقرأ الأدبَ العربي وحدَهُ لا أدبَ له .

أقول إذا وضعتَ هذا بإزاء الكلمة الغريبة والشاذة عن التَّرْجمة في العصر العباسي ، وجدتَ الكلامَ بعضه من بعض ، وكأنه خرج كله من مخرج واحد ،

وأنه كله يُلقي ظلالاً من فقدان الثقة في علومنا وعلمائنا ، وإذا تـذكرت مـع هذا مقالة المستشرقين في ضرورة تدمير الحضارة الإسلامية بزلزلة قواعـدها التي هي علومها ، رأيتَ هذا امتدادًا لذاك ، وتأكَّدَ أن كثيرًا من الأفكار الدائرة في زماننا حول عقليتنا وعلومنا محتاجةٌ إلى فَحْص وأن كثيرًا منها ملوث .

وإذا عرفنـا أن هـذا الكـلام شـاع في الكتـب والمقـالات والمحاضـرات ، وطُرِحَ في كل مطرح ، وصار يُتلَقى به أبناؤنا في مراحل التعليم المختلفـة ، إذا عرفنا ذلك رأينا أمورًا تستوجب الوقفة ، ولا يجوز أن يمرَّ عليها العاقـلُ مرورَ الكرام ، لأن هذا الشأن ليس فيه مجالٌ لحسن الظن .

وأخيرًا إذا وضعت مذهب الوسط هذا بجوار ذلك كلـه وجدتـه متصـالحًا مع كل هذا ومُتوَافِقًا معه .

وإذا كان الاتجاهُ الأول اتجاهًا مدمِّرًا لحضارتنا ، فهـذا الاتجـاه أشـدُّ منـه ضَرَاوةً ، لأنه مدمِّرٌ ، ولكن بطريقـة هادئـة لا يسـمع فيهـا النـاس انقضـاض حصونهم فيستيقظوا ، ثم هو يدمِّرُ فكرة فكرة ، لأن الفكر الغربي في داخـل هذه المؤلفات لا يُسَالمُ الفكرَ الإسلامي ، لأنه دخل دخـول المُسـْتعلي الـذي يملكُ أن يشهدَ للفكرة العربية بالصلاحية ، فتبقى الفكرة ، وهي مَدِينةٌ لهـذه الشهادة ، أو يشهدُ عليها بالتخلف والفساد فيخلعها من باب العلم ويرمي بها في أودية الجهالة والسَّذاجة والسَّطْحية .

ولهذا ترى هذه المؤلفات وكأنها لم تُبْنَ على حوار الفكـر ، وإنمـا بُنِيَـتْ على الصِّراع الذي ينتهـي دائمًـا لصـالح الفكـر الآخـر ، وراجـع قـراءة هـذه المؤلفات وقد تجد بعضها بُنِيَ على ذكر صـفحتين متقـابلتين : صـفحةٍ مـن

الفكر الإسلامي وصفحةٍ من الفكر الغربي مثل كتاب (فن القول) لأمين الخولي ، ويقولُ المؤلفُ في أسفل الصفحة المأخوذة من كلام علمائنا : انظر لترى وجهًا شاحبًا معروقًا ، وفي أسفل الصفحة المأخوذة من الآخر : انظر لترى وجهًا حيًّا وحيويًا ، وكأنها إعلانات دعاية وليست كتبَ علم .

وهذا الاتجاه الذي كثرَ تابعُوه كما قلت ، ليس له نظيرٌ في علوم البشر ، ومن قرأ أن أمة أحيت علومها بإدخال علوم الآخرين في شرايينها فليدلنا على ذلك ، ومن رأى كتابًا في مشرق الأرض ومغربها قام على أمثال هذه التركيبة ، والتوليفة الشاذة ، فليخبرنا بذلك ، ورحم اللهُ الدَّمامِيني الذي قال حين احتَجَّ المخالفون على رأي برأيٍ لسيبويه قال : إنه لا يُحْتَجُّ برأي على رأي ، وإنما يُحْتَجُّ بصريح العقل وصريح النظر ، وقوة البرهان ، وصواب الدليل ، وهذا كلامٌ مستقيم جدًّا ، وقد أورثنا الكسلُ العقليُّ رذيلةً في تحصيل العلم وهي متابعة ما عليه جمهورالناس ، من غير مراجعة ، مع أن العلم في جوهره مراجعةٌ ، وتدقيق ، وليس فيه شيءٌ يحصله المرء وهو مُغْمَضُ العينين ، وقد انتهى بنا الكسل العقلي إلى أن صرنا كأسراب الطير يتبعُ بعضنا بعضًا ، وتعجبُ حين تجد أفكارًا كثيرة فاسدةً وشائعةً عند جمهرة الكاتبين ، حتى إنك لتترددُ وتتخوفُ من مصادمتها ، ولو كان فسادها عندك بيِّنًا كفلق الصبح إلا أن تقوى عزيمتك بما تستيقنه من حق وصدق ، وما تستشعره من أمانة العلم فلا تعبأ بالوقوف في وجه التيار مهما كانت كثرته ، ومهما كان سلطانه وعُنْفه ، ومهما كانت (نجومية) رجاله ، لأنه في يقينك باطل والباطل زَهُوق .

وأمرٌ آخر مَكَّنَ لهذا الاتجاه ، هو أنه في غيبة الوعي العلمي شَكَّل هذا الاتجاه الفاسد منهجًا قام عليه الدرس في كثير من معاهد العلم ، وقام عليه إعداد أجيال بعد أجيال ، وأصبح عند هذه الأجيال التي ربيت عليه أصلاً صحيحًا غير قابل للمناقشة ، ومَكَّنَ له الاتجاه الأول البغيض ، والذي تبنَّاه الماركسيون وضُلَّال النصارى العرب ، كما مَكَّنَ له أيضًا ركودُ الاتجاه الثاني واكتفاؤه بالتحصيل والفهم والتفهيم للمعرفة المكتوبة في المتون والشروح ، والتي لم يجاهد علماء العصر في نقلها إلى الصور الذهنية الملائمة لإيقاع الزمن ، مع المحافظة الكاملة على جوهرها وعلى نقائها

أقول كلُّ هذا وغيرُه مكَّن لهذا الاتجاه فاتّسع ، ومضت إليه الأجيال وهي معصوبة العينين ، وهو خطر كله وفساد كله ، وليس فيه شيءٌ من الصواب يدعو لمهادنته ومساكنته ، وهو خطر على نفوس طلاب العلم الذين يتلقونه بنفوس طَرِيةٍ غَضَّةٍ ، لأن الطالبَ يرى ماضيه وتراثه وتاريخه من خلال هذا النص الشاحب المعروق على حَدّ عبارة أمين الخولي ، وهذا قتلٌ لهذه الذات وتدميرٌ نفسي لا يرحم ، ومن الوِجْهة الأخرى يخلقُ في أنقاض هذه النفس المحطمة شعورَ المهابة والتوقير للفكر الآخر .

ولا أعرفُ علماء أمة ربَّوْا أجيالها على هذا الأصل الدنيء الظالم ، ومن أخطر آثاره أنه يُورثنا الكسلَ العقلي ، وينسينا الكدْحَ الحر بالعقول الحرة ، لأنك تستطيع أن تكون عَلَمًا من أعلامه ، وأن تكون مُجَدِّدًا وصاحبَ نظرية بقراءة متن من متون علومنا ، مثل أن تقرأ في النحو (أوضح المسالك) وأن تقرأ في البلاغة شرح المختصر ، ثم تقرأ متنًا من متون علم اللغة أو علم

الدلالة أو النقد الأدبي في لغة أخرى ، ثم تؤلفُ من المتنين توليفة ، وأنت مُتمدِّدٌ على أريكتك تَحْتسِي قدحًا من الشاي ، وبذلك تكون قد جددت النحو أو البلاغة وتكون صاحب نظرية ؛ وما دام حولك بعض تلاميذك المدربين على صنع الدعاية ، فإن هؤلاء سيتحدثون عن نظريتك في دروسهم ويكتبونها في بحوثهم ويشيعونها بين الناس ، حتى تدخل ما دخل عليه النهار .

وهؤلاء التلاميذ يعرفون حقيقةَ هذا التجديد ، وحقيقة هذه النظريات ، إن لم يكن اليوم فغدًا حين تتوافر معارفهم ، وسيسلكون الطريقَ نفسَه ، ويصنعون ممن حولهم تلاميذ لهم ليقوموا بما قاموا به من قبل ، ثم يقرؤون متنًا من هنا ومتنين من هناك ويصنعون نظرية جديدة ، وهكذا يتكاثرُ المجددون وتتكاثرُ النظريات ، والعلوم تتراجع بدلاً أن تتقدم وتخبو بدلاً أن تَسْطع .

وليس هذا من خُلُقِ العلم وأهله في شيء ، وللعلماء طريق واحد في كل الأمم وفي كل الأجيال ، هو الكد والدأب والانقطاع والشغل الدائم الدائب لخواطر النفس بما يعالجون من مسائل ، وتلاميذهم من حولهم يرونهم وهم في معمعان الجد والصدق يحملون الأمانة حمل الأوفياء البررة ، ويطرِّقون طرقَ المعرفة بأنفس ما يملكون من عُمْر وعافية وكد ، ويسلكون في شعابها وأدغالها يشقون صعوبات بعد صعوبات نحو غايات نبيلة ، ومن ورائهم تلاميذهم يروْن ما يَرَوْن من جدهم وصدقهم وجهدهم ، فتعظم في نفوسهم أمانة العلم والصدق والحق ، يمضون على هدي شيوخهم الذين هم

كأنهم أوتاد الأرض وهم القوم كل القوم ، وهم الهداة وهم الحُداة ، وأمثالُ هؤلاء جديرون أن يكونوا صالحين مصلحين ، وهم حملةُ التنوير الحق ، وهم الذين تَعْمرُ بهم البلاد ، ويقتدي بهم العباد ، وهم الذين أسَّسُوا العلومَ وأقاموا الحضارات ، وهكذا كان علماؤنا وكان علماء غيرنا ممن أفرغوا في بلادهم نوراً ، وأضاءت بهم الظلمات ، ورفعوا للعلم المنارات ، وهم المجددون والرواد في عالمنا المتخلف وفي زماننا الرديء ، وقد كثُرَ المجددون وكثُرَ الرواد وكلٌّ شيء على ما هو عليه ، لا تجديد ولا ريادة ، وإنما هو تكثُّر ومُزَايدة في سوق (التهويش) القائم في بلادنا

وأكثر هؤلاء يَذهبُ كلُّ شيء بذهابهم ، ويدخلُ معهم قبورَهم ، ويُدفنون مع كل زَيْف عاشوا له ، إلا أن يَرَوْا في بقائه حيًّا مصلحةً لمجدد حيٍّ يربطُ حبالَه بمجدد ميت .

وقد أطلتُ الكلامَ في هذا لأنه كله دائرٌ حول علاقتنا بتراث الأمم ، وقد جعلته مقدمةً لعلاقات علمائنا القدماء بتراث الأمم ، وأضعُ هذا بإزاء هذا لدى الجيل الحاضر ، وأضع ما عليه علماؤنا اليوم في هذه القضية المهمة ، وما كان عليه علماؤنا بالأمس .

وأقول إن النظر التفصيلي لموقف علمائنا من تُراث الأمم يحتاجُ إلى جُهود ومراجعة في كل باب من أبواب العلم ، وفي كل أصل من أصول المعرفة ، وفي كل فرع من فروعها جهود تبيِّن وتفصِّل جَلِيةَ هذا الأمر الذي دخله لَبْسٌ كثير ، وإنما تكون هذه المراجعات من المتخصصين في كل هذه

العلوم ، لأنهم يعرفون نَشْأَةَ كلّ مسـألة ، وقصـة نموهـا وتكاثرهـا ، وكأنهـا كانت تتحرك بين أيـديهم طـوراً بعـد طـور ، يعرفـون هـذا بإحكـام وبيـان ، ويعرفون كيف كانت تأتيها موجات قوية مـن التفكير والنظـر ، في أطـوار معينة ، فتنمـو وتزدهـر ، وكيـف كانـت تتقطـع عنهـا هـذه الـدفعات فتقـف وتتجمد ، ويعرفون مصادرَ هذا ، وما إذا كان من داخلـها أو مـن خارجهـا ، وما إذا كان هذا الخارج من خارج هذا العلم ولكنه من عائلة العلوم العربيـة الإسلامية ، كأخذ النحاة من الفقهاء ، أم أن هذا الخارج وافدٌ مـن علـوم أمـم أخرى . على فرض أن ذلك قد كان ، لا يستطيعُ أن يقضِيَ قضـاءً عـادلاً في مسيرة كل علم وكل مسألة منه ، إلا أفرادُ علمائه الذين عاشـوا لـه وانقطعـوا وراجعوا ورجعوا وقبلوا ورفضوا وأخذوا وأُخِذ عنهم ، وهؤلاء قِلةٌ قليلة في كل عصر ، وهم في كل زمان يشبهون أنبياءَه ، لأنهم الورثة الذين جاء فـيهم الخبرُ الشريف .

مـن غـير أن أدخـل في قصـة العلـوم عِلْمًـا عِلْمًـا ، وربمـا أشـرت إلى خصوصيات ظاهرة في طبيعة بعـض العلـوم تجعـل القـولَ بالاسـتمداد مـن خارج اللسان في تأصيل معارفها قولاً باطلاً ، وإن كان قد شاع كـالقول بـأن البلاغة ذاتُ أصول يونانية ، وأن أرسطو كان معلمَ العرب فيهـا ، ومثـل هـذا وإن كان لا خلاف عنـد أهـل التـدقيق في فسـاده ، لا يـزال يكـرره علمـاء ، ويعلمونه تلاميذهم ، لأنهم أخذوه عن غير أهل التحقيق ، وهـم في سـنوات الطلب ولم تتوافر لديهم الوسائل العلمية التي تعينهم على بيـان جَلِيـةِ الأمـر فيه .

ثم إنه لا كلام لنا في عِلْمَي الفلسفة والمنطق لأنهما ليسا من عائلة العلوم العربية والإسلامية ، التي يَعْرِفُ العلماء أنها أصولُ الحضارة الإسلامية ، ولأنها شرحٌ وتحليلٌ لكلام الله وكلام رسوله ﷺ ، وبيان الحلال والحرام ، وأكررُ أنها السبيل الذي لا نعرفُ سبيلا سواه لفهم دين الله ، وأن الضربَ فيها يعني قطعَ الطريق الواصل إلى فهم حقيقة دين الله ، والنحو في ذلك كالفقه ، الذي هو علم الحلال والحرام ، والبلاغة والتفسير والعقائد كل ذلك سواء بخلاف الفلسفة وعلم المنطق فإنهما لا شأن لهما في هذا الباب .

وقد شغلت الفلسفةُ حيِّزًا محدودًا في تراث المسلمين ، وظلت محصورةً في دائرة محدودة ، وقد هاجمها كثيرٌ من علمائنا ، ورفضوها وجرَّحُوا عقائدَ من طالت ممارستُهم لها .

ومن الحقائق الظاهرة التي يجبُ أن نستصحبَها ونحن نتكلمُ عن علاقة علمائنا بتراث الأمم شيوع روح الحذر والاحتياط والبعد عن التزيد في استنباط أصول المعرفة عند علمائنا ، فقد كانوا يتوقفون ويراجعون ، حتى تتوافر لديهم الشواهد والبراهين التي تؤكد لهم الحقائق التي يؤصلونها ، لأنهم يعلمون أن خلاف هذا التأكيد والتوثيق وإقامة الحجة بعد الحجة يفضي إلى الاختلال في فهم كلام الله ، لأنها ليست أصولاً لغوية يكونُ الخطأُ والصوابُ فيها في دائرة اللغة فحسب ، وإنما هي وسيلة لفهم كلام الله ، والخطأُ فيها ينتقل إلى الخطأ في فهم كلام الله ، فإذا قلنا إن : « إنَّ» تُفيدُ التوكيد ، فإن هذا يعني أننا نقول : إنها في هذه الجملة القرآنية تفيد التوكيد ، يعني أن التوكيدَ هنا مرادٌ من مُرَاداتِ الحق جلَّ جلالُه ، وهذا كلامٌ لا يجترئُ عليه إلا من تَثَبَّت واستيقن .

وهذا الأمر وحدَه يكفي في صَرْف علمائنا عن إدخال أي فكر من علوم الأمم الأخرى في هذا الباب .

وقد أفادوا من الفقهاء ومنهجهم ، وكان ابن جني يقول : إنه بنى كلامه في أصول اللغة على كلام الفقهاء في أصول الفقه ، وعلمُ الفقهِ في تراثنا هو العلمُ الأعلى ، وليس عند الأمم الأخرى مثلُه ، وقد قام النظر فيه على أصل من الاحتياط والضبط في الاستنباط والقياس ، وقد تميز بهذا ، وصار علمًا له منهج رفيع ومتقن ، حتى إنك ترى هذا العلم وحدَه قادرًا على تكوين عقل حي يتحلى بأدق أصول المنهج ضبطًا ولمحًا ونفاذًا ، وأصل هذا كله مستمدٌّ من رسول الله ﷺ ، وطريقة بيانه للقرآن ، ومن علماءِ الصحابة رضوان الله عليهم الذين أخذوا عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد أفادت العلومُ العربية من هذا المنهج وأمدَّها بكثير من مزاياه ، فقام منهجه على التقصي ودقة النظر وذكاء الملاحظة ، وسلامة القياس وتوفُّر المراجعة والاستدلال ، وغير ذلك مما يقتضيه الضبط والسداد ، ومن أراد أن يتعلم المنهج فلينظر إلى كلام الفقهاء ، لا ليحصل المسائل التي يذكرونها فحسب ، ولكن ليرى حركةَ عقولهم وهي تحاورُ النصوصَ وتستنبطُ وتستخرجُ وتأخذُ وتدعُ وترجعُ إلى آخر ما في هذا من حيوية عقلية بالغة الدقة والملاحظة ، ومن لم يقرأ كتبَ الفقه ببصيرة فلا يجوز له أنْ يتكلم في تراث المسلمين .

ولهذا قلت إن القول : « بأن الترجمة في العصر العباسي أفادت المسلمين المنهج وعلمتهم التبويب والتصنيف » من الكلام الذي لا يروج عند من عرف دقَّة النظر عند الفقهاء الذين كانوا هم المعلمين الحقيقيين لعلماء الأمة .

ولا أشك في أن علماءنا كانوا يقرؤون من تراث الأمم كلَّ ما يتاحُ لهم أن يقرؤوه ، لأن طبيعة ، العقل المشغول بالمعرفة تدعوه إلى أن ينظر في ثمار العقول ، وأن يتعرف على تجارب العلماء والأمم ، وأن ينظرَ في كل ما يتاحُ له النظر فيه ليعرف كيف يفكر الآخرون ، وماذا يقولون ، وهذا أمر في طبع النفس وفي طبع العقل ، لا أستطيع أن أتصور أن يكون التراث اليوناني أو غيره منقولاً إلى لغتنا وفي مكتباتنا وعلماؤنا المنقطعون للبحث والدرس عازفون عن النظر فيه ، لأن هذا يخالف الطبائع التي تغلب على أهل العلم لأنهم أهل التَّوق الدائم إلى المعرفة ، وقد علمهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن المعرفة لا وطن لها ، وأن الكلمة الحكمة ضالةُ المؤمن ، يعني هي كضالته التي يَنْشُدُها في كل مكان يظن أن تكون قد ذهبت إليه ، والضالة لا تفرق بين أرض الكفر وأرض الإسلام ، وهكذا الكلمة الحكمة لا وطن لها ، ثم إن الباحث عن ضالته التي فيها متاعه وطعامه وشرابه يبحث عنها بعناية شديدة ويصرفُ إليها كل هَمِّه ، وكذلك القلبُ الحيَ في بحثه عن الكلمة الحكمة المتضمنة هَدْيًا ورشادًا ، يبحث عنها بوَلَعٍ وحب وتوق وصبر وترقُّب وانقطاع ، وهذا وصفٌ رفيع للمؤمن ، ولو أن الأمم الإسلامية أشاعت بينها هذا المعنى النبيل المتضمن في تلك الكلمة الجامعة من كلامه صلوات الله وسلامه عليه لكانت مجتمعاتنا على حال غير الحال التي نحن عليها ، لأن التخلف ليس له دواء إلا دواء واحدًا يطب له ، وهو القراءة والبحث الصادق عن الكلمة الصادقة ، ووصف الكلمة في الأثر الشريف بالحكمة يبتعد بالعقلية الإسلامية عن الخوض في الزيف والأباطيل ، والمعرفة المدسوسة والقائمة على التلبيس والتدليس والتهويش ، إلى آخر

ما يمكن أن يكون في عالم الكلمة إذا زاغت وانحرفت وضلت وتركت سبيل الحكمة .

إن علماءنا الذين انقطعوا لطلب العلم وذاقوا حلاوته ولزموا أبوابه فتحوا كلَّ آفاقهم لكل علم نافع ، وكلَّ فهم صحيح ، وكلَّ فكر عالجه أصحابه بصدق وجد وأمانة ، ولكنهم مع هذا كله لم يذكروا شيئًا من هذا الفكر الآخر في معالجتهم لعلوم العربية ، وإنما اقتبسوا علمها بالمنهج الذي وصفناه من دلالات اللسان العربي نفسه ، وما نطق به أصحاب اللغة ، فإذا قالوا بوجوب تقديم الاستفهام فلأن أصحاب اللسان أوجبوا تقديمه ، وإذا قالوا بوجوب حذف الخبر في موطن كذا فلأن أصحاب اللسان فعلوا ذلك ، وتأمل أصولهم تجدها قد تأسست على طرائق العرب في بناء كلامهم على وفق مقاصدهم ، تأمل قول سيبويه : « كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعْنَى » تجده مقتبسًا من طرائق القوم ومذاهبهم ، وما أسسوا عليه كلامهم ، وهذا يعني أن علماءنا وهم يستخرجون علومنا لم يكن أمامهم في هذا الشأن لا تراث اليونان الذي قالوا : إن البلاغة اقتبست منه ، ولا تراث الهنود الذي قالوا : إن النحو اقتبس منه ، وإنما بين أيديهم بيان العرب عن معانيهم وطرائقهم في التلطف إلى هذه المعاني ، وهذا أمرٌ ظاهر لكل صاحب نظر علميّ جاد ، وليس من مقاصده اتهامُ العقلية الإسلامية ولا الدفاع عنها ، وهذا الذي جعل علمهم صالحًا ورشيدًا وهاديًا إلى معرفة أسرار هذا اللسان إلى يوم الناس هذا ، وإلى ما بعد هذا اليوم ، ما دامت الألسنة جارية بهذه اللغة الشريفة ، لأن العلم ما دام قد اقتبس منها واستنبط من أحوالها ، فلن يتغير ولن يحول .

وكان من ثمرة هذا التوفيق في استمداد أصول اللسان أن تحقق لعلمائنا ما أرادوه مما هو نتيجة طبيعية لهذا المنهج ، وهو تثبيت أحوال اللسان عند هذا المستوى الذي وصلت إليه العربية في زمان نزول الوحي ، حتى يظل كلام الله مفهومًا وكلام رسوله ﷺ مفهومًا .

وقد كان ذلك ، ولا يزال عامة المسلمين في مجتمعاتنا المختلفة يسمعون كلامَ الله سبحانه فتخشع له قلوبهم ، ويسمعون كلامَ رسوله صلوات الله وسلامه عليه فتنفعل به نفوسهم ، ولو اهتزت هذه الضوابط وتغيرت بتغير الأزمنة والأحوال ، وانتقل استمداد شواهدها وأصولها من اللسان الذي نزل به القرآن ، وتكلم به النبي ﷺ لانتهى الأمر مع تغير الأزمنة والأحوال إلى ضعف الصلة بيننا وبين كلام الله سبحانه ، وهذا لن يكون لأن الله سبحانه تعهد بحفظ القرآن ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) وهذا الوعد متضمن حفظ اللسان ، لأنه يستحيلُ أن يحفظ القرآن وتضيع لغته ، لأن معنى الحفظ أن يظل مقروءًا مفهومًا في الأمة ، ولن يكون كذلك إلا يبقاء لغته تدور بها ألسنتنا وتسمعها آذاننا .

ولننظر في تراث محمود بن عمر الزمخشري لنرى إمامًا في البلاغة والنحو واللغة والغريب والتفسير والحديث والفقه ، وغير ذلك مما ألف فيه ، ولندع كلامه في العقائد ، لأن علماءنا قاموا بواجب مناقشته وردِّه ، وإنما ننظر إلى تراثه من هذه الجهة التي نحن فيها ، وأنت واجد تراثًا لغويًا حافلاً ، يخلو خلوًا كاملاً من أي إشارة إلى أي فكر أعجمي ، وإنما اللغة مُسْتقاةٌ من أفواه أصحابها وما تكلموا به في بواديهم وما خطبوا به في نواديهم ، وما تَرَاجَزَ به الأعرابُ وهم يَمْتحون الماء من آبارهم ،

والنحو مقتبسٌ من صلب اللسان ، والبلاغة مقتبسةٌ من مذاهب القوم ، وما أودعوه في لغتهم من رقائق المباني التي أودعوا فيها دقائق المعاني .

لا تستطيع أن ترى شيئًا في كلام الرجل من هذه العلوم يدلك دلالة ما على أن الرجل له علم بعلوم الآخرين ، ثم إنه كتب كتابًا ضخمًا سماه (ربيع الأبرار) جمع في هذا الكتاب شيئًا كثيرًا من حِكَمِ الفرس واليونان والهنود وغيرهم من الأمم ، وهو مشحون بأسماء الأعلام البارزين في تاريخ كل أمة من هذه الأمم ، فيه شعراء وحكماء ومؤرخون ومفكرون وفلاسفة وقواد جيوش وملوك ، وهذا الكتاب كأنه خلاصة تجربة الإنسانية وحكمتها ، وقد بُنِي على كلام الأعاجم ، وهو دال دلالة قاطعة على أن الزمخشري لم يطلع على تراث الأمم فحسب ، وإنما تدبَّره ووعاه وتمثله وقيَّدَه في دفاتره واختار منه هذا السِّفرَ الضخم ، ومن المؤكد أن الزمخشري لم يستخرج هذه الآداب وهذه الحكم من تراث الإنسانية إلا بعد أن قرأ تراثهم في اللغة والشعر والتاريخ والوقائع ، وقد ذكر من كلام سقراط وأفلاطون وأرسطو حِكمًا وآدابًا ، وهذا قاطع في أنه قرأ تراث هؤلاء الثلاثة ، وهم أعيان العلم وأعلامه في أمتهم ، ومع هذا يخلو تراثه العلمي في اللغة والنحو من أي إشارة إلى أي معلومة أعجمية تكون قد سقطت في لسانه ، وهو في معمعة البحث والتنقيب ، وقد كتب هذا الكتاب ليستروح به الذين يقرؤون الكشاف من عَنَاء النظر ومشقة المتابعة ، وقد كتب الكشاف في آخر حياته رحمه الله ، وكتاب (ربيع الأبرار) كُتِب بعده ، وهو كما قلت : سيل يَهْمِي من الحِكم والآداب والتجارب ، لا تتوافر مادتُه الغزيرة إلا لمن عاش زمانًا بعد زمان يراجع ، وكأنه نفض له تراث الأمم .

وتسميةُ الكتاب لها دلالةٌ ، لأنه نظر إلى ما فيه جانب السهولة والعذوبة والغزارة فسمَّاه (ربيعًا) لنضارته وغَضَارته ، ثم ذكر (الأبرار) للإشارة إلى طلاب العلم المبتدئين في قراءة الكشاف ، وكان الكتاب الذي هوالكشاف مع امتلائه وتنوعه ومشقة تحصيله ، لا يزال في متناول المبتدئين .

وبالمناسبة أذكر شيئًا في هذا يذكرنا بما قلته من أن علماءنا كانوا ينظرون إلى الأجيال ويجتهدون في تقريب المعرفة العربية والإسلامية إليهم ، وكانت مسألة انتقال العلم إلى الجيل الثاني الممَثَّل في التلاميذ مسألة أساسية لم يغفلوا عنها أبدًا ، أقول بهذه المناسبة إن حمزة بن يحيى العلوي لما بدأ يقرأ لطلابه كتاب الكشاف وجدهم قد ضعفوا عن حمله ، وكان قد مضى على زمن الزمخشري ما يقارب قرنين ، فكتب لتلاميذه الذين يدَرِّسُ لهم كتابَ الكشاف كتابه (الطراز المتضمن لعلوم البلاغة وحقائق الإعجاز) ، ليحصِّلوه أولا ، ثم ينتقلوا إلى كتاب الكشاف .

وقد جعلتُ هذا معترضًا لأشير إلى هموم أهل العلم بالأجيال اللاحقة وبمسألة توريث العلم لهم وإعدادهم لتنتقل إليهم المعارف والعلم الشريف ، وعمل ما يلزم لهذا وملاحظة التطور الزمني والتغير الثقافي يفعل فعله في الأجيال .

وأعود إلى المسألة وأقول : إن الزمخشري كان عالمًا بالفارسية لأنها لغته ولغة من حوله ، ولم يكن الزمخشري من سلالة عربية وإن كان عربي القلب واللسان ، وإنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، وبعدما نزلت كلمة الله في العرب لم تبقَ العروبةُ جنسًا ، وإنما صارت دينًا ولغةً وثقافةً وأدبًا وحضارةً ، ومن دخل في دين الله وجَرَى لسانُه بهذه العربية الشريفة وثَقِف شعرَها

وأدبها وعلومها ، وجَرَت خواطره على مذاهبها فهو عربي ، وفي الأثر « من تكلَّمَ بلسان العربية فهو عربي» ، وإنما قال : بلسان العربية ، ولم يقل : بلسان العرب ، لأن العربَ قد يَخْتلُّ لسانُهم عن عربيتهم الشريفة العالية فجعل العربية الشريفة التي نزل بها القرآن ، وتكلم بها النبي ﷺ ، هي الجنس ، ثم إن آية الأحزاب ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ (الأحزاب:٦) نَسَبَتْ المؤمنين إلى بيت النبوة لأن رسول الله ﷺ أولى بهم وهو أب لهم كما في بعض القراءات ، وهم أبناء أمهات المؤمنين ، وهذا يلتقي مع ما في سورة الحجرات ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠) وهذا كلُّه يجعلُ هذا الدين هو الأم والأب وهو الجنس ، ولهذا لا يُسْتَسَاغُ أن نقول : إن عبد القاهر الذي علَّمنا كيف نذوقُ العربية أعجميٌّ ، وكذلك أبو علي الفارسي وأبو الفتح الرومي ومحمود ابن عمر الخوارزمي ، نَعَم هو فارسيٌّ ولكنه عربي ، وهذا رومي ولكنه عربي وهذه مسألةٌ أشرتُ إليها لأن كثيرًا من الكتب تحبُّ أن تذكرَ طبقات من علمائنا وتسَمِّيهم الأعاجم ، وأنهم أفسدوا العربية لفقدانهم ذوقها ، وهو كلام محتاجٌ إلى أن يُدقق لأن العُجْمة معناها عَدَمُ الإبانة ، وليس المرادُ بها الجنسَ المغاير للعرب ، وقد ذكر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن سلمان الفارسي من أهل البيت .

وكان الزمخشري بحكم الفارسية يعرفُ علومَها وطرائق اشتقاقها وأصول نحوها وبلاغتها ، وقد قرأت كتابه (ديوان الأدب) وهو مخطوط ورأيته مكتوبًا باللغتين العربية والفارسية ، سطرٌ مكتوب بالعربية وترجمته في السطر الذي يليه بالفارسية ، وهكذا . وكان كل هذا جديرًا بأن يغري الرجل

بأن يذكر ولو من باب الموازنة قاعدة فارسية في النحو ، أو في البلاغة أو في أي باب ، ولكن تراثه خلا خلوًا كاملاً من أية فكرة أعجمية ، لحرص هؤلاء الكملة رضوان الله عليهم على ألا تهجن هذه اللغة وأن تظل عروبتها نقية خالصة ، وكان يوغل في البداوة في اقتباس شواهده فيلتقطها من أفواه الأعراب الخلص ، ويوغل حتى يأتي بها من قَرَاضِبة نجد وسماسرة تهامة ، كما كان يقول هذا خبر الزمخشري .

وكان ابن جني روميًّا يونانيًا ، وكان قريبَ العهد برروميته ، وكان التراث اليوناني مطروحًا في كل مطرح حول أبي الفتح ، وكانت حداثة عهده بروميته جديرة بأن تغريه بأن يقتبس منه قبسةً من هنا أو قبسة من هناك ، وكان في العربية مجتهدًا ، انتقل بتراثها إلى طور جديد رفيع ، وكان حين يَنْغلُّ في دقائقها تعظُم في نفسه ، وكان في بيئته علماء لغات ، وكان شيخه أبو علي الفارسي من المتمكنين في غير العربية ، وكان أبو الفتح يتوقُ إلى الموازنات بين العربية في رقائقها ودقائقها وما تنطوي عليه اللغات الأخرى في أصول بيانها ، وكان يفاتح الشيخ أبا علي في هذه الموازنات فيذكر له الشيخ أن من أحكم العربية وعلم غيرها لا تصح عنده هذه الموازنات ، لأن العربية اختصت بحكمة في مبانيها ، ولا يوجد شيء من هذه الحكمة في غيرها من اللغات ، مع أن الفارسية التي كان أبو علي متبحرًا فيها كانت لغة حضارة ومُلك ورياسة ودواوين وكُتَّاب وشعراء ، وكانت متسعة ، وكانوا يقولون : إن العربية المقتبسة من أفواه الأعراب وقَرَاضِبة الخرائب ، أرفع منالاً وأعز سلطانًا وأغزر بيانًا وأدق حكمة (والقَرَاضِبة هم اللصوص وإنما اقتبسوا من أفواههم لأنهم يوغلون في البداوة) .

هذه الكوكبة من علماء اللغات الذين كانوا في بغداد وكانت بغداد بهم كأنها مجمعٌ علمي لشتى اللغات والثقافات والحضارات ، كل هؤلاء لم يُدْخِلوا في تراثهم الذي كتبوه في العربية وعلومها فكرةً واحدةً مما علموه في لغاتهم وعلومهم ، وذلك للسبب الذي قدمناه .

وقد أدخل هؤلاء العلماء أنفسهم مقتبسات من علوم العربية في دراساتهم للغة الفارسية ، حتى صارت البلاغة الفارسية كأنها بابٌ من أبواب البلاغة العربية ، وحين تُنْقَلُ هذه البلاغة الفارسية إلى العربية تراها مختصرًا من بلاغة العربية ، وليس هذا مغايرًا لما قلناه من أن البلاغة مستخرجةٌ من صلب دلالة اللسان العربي، لأن الجزء الذي نُقِل إلى الفارسية كان في البديع والتشبيهات والمجازات ، مما تشترك فيه اللغات ، وأما علمُ المعاني الذي هو جوهرُ البيان وجوهرُ صناعة الشعر فذلك شيء آخر وهو خاص بالعربية لا يُنْقلُ إلى غيرها .

وهناك عالم من علمائنا يفرض نفسه فرضًا على من يفتح باب الحديث في صلة علمائنا بتراث الأمم ، هذا العالم هو القاضي الأكرم جمال الدين القفطي وكنت كتبت عنه بحثًا بعنوان (القفطي وتراث الأمم) وهو أشمل مما ذكرته عنه في هذه المحاضرة ورأيت أن يكون بديلاً لما ذكرته عنه فيها .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

القفطي وتراث الأمم

كان من أهم ما دفعني إلى أن أكتب عن القاضي الأكرم جمال الدين علي ابن يوسف القفطي هو أنه بثرائه وسعة معارفه وشدة حفاوته بعلوم الأمم الأخرى يبرز الصورة الحقيقية لما كان عليه سلفنا من العلماء، وموقفهم من تراث العقل الإنساني في مجالات إبداعه. ثم حرصهم على ألا يفرغوا شيئًا من ذلك في علومنا، ولست من الذين يولون وجوههم نحو الأمس، تاركين اليوم الذي يعيشونه تتحرق ناره على جانبيه، لأن فطرة الحياة هي أن نعيش الزمن الذي نعيشه، وليس الزمن الذي عاشه غيرنا، ومن حاول أن يعيش الزمن الذي عاشه الآخرون فقد كلف الحياة ضد طباعها وعاش يصطرع مع الوهم.

نعم إننا نقرأ الماضي بدقة صابرة لنستلّ منه شعاعًا يضيء لنا الدرب الذي نسلكه، فتوجهنا إلى الماضي إنما هو من أجل الحاضر وتفتيشنا في فكر من غبر إنما هو من أجل من بقي، وتقليب الأمس على وجوهه إنما كان من أجل ألا ينكفئ اليوم على أنفه، ومن قضايانا الحاضرة الخلاف الدائر منذ زمن حول موقفنا من الفكر الذي صاغه الآخرون، وكدوا وثابروا في استخراجه، وإبداعه، هل نولّيه ظهورنا، ونتجاهل وجوده ؟ أم نقبل عليه ؟

وإذا أقبلنا عليه هل نعطيه كل كدنا ووكدنا إلا ما قل مما يتيح لنا أن نقرأ بهذا الأقل أبجديَّات علومنا ثم نملأ أوعيتنا من هذا الفكر حتى تفيض ؟ وحتى نُغَطِّي المساحات العلمية ، والفكرية ، والأدبية ، وقاعات الدرس ، وأروقة البحث ، وتصير الأبجديات التي حصلناها من علومنا ضئيلة في نفوسنا ، شاحبة زاوية ذابلة ؟

أم أن الدرس والبحث تدور رحاه وتلتقي حلقتاه على علومنا ، وإرث علمائنا ثم نَدْرُس كل ما يتاح لنا أن ندرسه من كلام الآخرين لنعرف كيف يفكرون وكيف يعالجون القضايا التي نعالجها ليكون ذلك زادًا مذخورًا في داخل عقولنا التي بها نفكر في علومنا ونستخرج منها ونستنبط ونعيد الصياغة والنظر ونأخذ وندع كما تكون القوة في الساعد المُعافَى الذي غُذِي غذاء صالحًا متكاملاً ليمشي بقوته هذه على دربه هو ويضرب بساعده في تربته هو ويَسْتَنْبِت بذوره هو .

لا شك أن هذا هو الذي كان عليه علماؤنا وهو الذي عليه علماء الأمم كلها .

وذلك لأن الحياة العقلية بكل سعتها في كل أمة تتلخص في أنها صورة الحياة العقلية والنفسية لهذه الأمة ، فصورة الحياة العقلية تتمثل في أصْنَاف العلوم والشرائع والنظم والأفكار والفلسفات ، وما يدخل في هذا الباب . وصورة الحياة النفسية هي الفنون والآداب وما يساوقها في طبيعة المعرفة وقولهم « المرء بأصغريه عقله ولسانه » هو ما نقوله من أن الصور العقلية والنفسية هي محصول الأمة لأن اللسان الذي هو الأصغر الثاني إنما يسكن

في الفؤاد وليس في الفم لأن اللغة نفسها تصاغ في العقل والقلب ، واللسان بضعة من اللحم يحركها الضميرُ وقد أصاب الأول حين قال :

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسانُ على الفؤاد دليلا

وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك بلا ريب ، كان تراث الأمم هو نفس الأمم ، من حيث هي حيٌّ ناطق كما أن إرث العالم هو نَفْسُ العالم ، وقد قلنا ما هو أخص من ذلك حين جعلنا أسلوب الرجل هو نفس الرجل ، لأن الأسلوب في الحقيقة هو الصور العقلية والنفسية التي أجراها صاحب الكلام في كلامه ، وحين نفصل من الإنسان الصور العقلية والنفسية لا يبقى إلا اللحم والعظم ، وهذا قاسم مشترك بين مخلوقات الله ناطقها وصامتها ، وما دام تراث الأمم هو ذات الأمم ، كان من الواجب أن يقوم الدرس في كل أمة على إرثها الذي استخرجه علماؤها من أصلاب عقائدها ، وثقافاتها ، وحضارتها ، وطباعها ، ولحمها ، وعظامها ، ولأن تراثها هذا فيه ذاتها بكل ما في الذات من نوازع وهواجس ، فيه هُداهَا وضَلالُها ، وخَيْرُها وشُرُّها ، وبِرُّها وفجورها ، وتلك مجمل خصائصها ، وبمقدار إصابة الدرس يكون تأصيل هذه الخصائص وتمييز الأمم .

وإذا كانت الأفكار تتلاقى وتتهادى وترسم في كثير من الأحوال خطًّا واحدًا يهتدي به الإنسان أبيضُه وأسودُه ، فليس مرجع ذلك إلى تعميم من الفكر يجعل من الممكن الاكتفاء بفكر زيد عن عمر ، وبعقل هذه الأمة عن تلك ، وإنما مرجع التلاقي في الفكر الإنساني إلى طبيعة الإنسان ، وأنه لا يزال بقية من إرث أبيه آدم ، تجري في الجنس كله ، وتنبض في القاع

السحيق من كهوف النفس نبضًا قويًا ، يسمعه الكل ، وتخلق لغةً واحدة يتفاهم بها الخلق جميعًا ، ولا يرتاب مُدقق في أن سيطرة فكر أمة على أمة هو نفسه سيطرة هذه الأمة على تلك ، وأن مَحْق تراث الأمم ، هو عينه محق للأمم نفسها ، من غير تجاوز في اللفظ ، وأن إراقة الفكر ضرب من إراقة الدماء ، وأن هدم معاقله وصروحه هو هدم للقلاع والحصون ، وأي تقدير تراه في نفسك لهذا الإنسان الصَّدَى الذي يفكر بعقل غيره ، ويقيسُ بغير قياسه ، ويَهْجِسُ بغير هواجسه وينبض بغير قلبه ، ويرى بغير عينه ، ويَنْطق بغير لسانه ، أي مَسْخٍ تُمسخ به الأفراد ، وتُمْسَّخْ وتُنْسَخُ به الأمم أبشع من هذا المسخ وهذا النَّسْخ الذي نتشيَّع له ونجِدُّ في سبيله .

لقد آن لنا بعد هذه اللأواء التي كابدناها من السَّيْر في هذا الطريق الذي أتعبنا منذ أوائل هذا القرن أن نبحث عن الطريق الذي نخرج به من سراديب التِّيه التي أدخلنا أنفسنا فيها طواعية ومُغْتَبِطين ، وحَسْبُنا هذه التمزقات التي نعيشها وهذا التخلف الذي ركب ظهورنا ، والذي نُعِدّ له ظهور أبنائنا لأننا نُربيهم على المنهج البشع الذي رُبِّينا عليه ، وهو إدارة ظهورهم لذواتهم الممثلة في تراثهم وعلومهم وحضارتهم ، وأن يعيشوا كالفراش الحائم حول منابع أضوار الآخرين ، يحترق به من يحترق ويبقى ضعيفًا متهافتًا من يبقى ، ومن لم يَرْبطْ تخلُّف الإنسان العربي وقهره والاستبداد به وتَسَلُّط النُّظم السياسية الفاسدة عليه من لم يربط هذا بفساد الحياة الفكرية فقد أضَلَّ نفسه ضلالاً مبينًا ، وليس هناك مجتمع قوي راجح لا يقوم على حياة فكرية صحيحة وراجحة .

وكلما قرأت في آثار عالم من علمائنا الذين حفظوا علوم الآخرين وظلت مادة الدرس عندهم عربية خالصة يكابدون حولها ويكابدون بها كلما قرأت في آثار عالم من هؤلاء ثارت في نفسى هذه الخواطر لأني مستيقن يقينًا لا يخالجه رَيْب أن ذُلَّ التبعية الفكرية هو الذُّل المَقِيتُ البَشِعُ وهو أبشع وأهول من التبعية السياسية ؛ لأن ذل العقول والقلوب والخواطر هو الذل في مُسْتَقَرِّه وصميمه ، وإذا سقطت الأوطان في مستنقع التبعية استخرجتها العقول الحُرة الأبيّة ، الآبية أما حين تَسْقطِ العقول نفسُها في مستنقع التبعية فإنه لا منجاة لها من هذه التهلكة إلا بجهاد أشد من الجهاد في استنقاذ الأوطان .

وهذه الحقائق الناصعة ينكرها كثير منا وليس هذا غريبًا لأننا ربينا في غير حجور آبائنا ، وارتضعنا من غير ثُديّ أمهاتنا ، فأنكرنا آباءنا وأنكرتنا آمهاتنا وأنكر بعضنا بعضًا

وكل كاتب في كل أمة يَرمي بوهج فكره لِيُضيءَ جانبًا من جوانب حياة أمته ويجعلك إن كنت منها تزداد وثوقًا بها وحُبًّا لها وانتماء . وتتحرق في الزود عن كيانها وشموخها وعزتها وإبائها ، وإن لم تكن منها عطفك عليها وأفرغ في يقينك واجب احترامها ، وتقدير عطائها ، والاعتراف بأياديها البيضاء على مسيرة الإنسان وتاريخ تَحَضُّره .

حتى اليهود أبناء القردة والخنازير كلما قرأت لهم كتابًا في فكرهم العِبْرَانِي وجدت فيه ريح ولد إسحاق من يوم أن جاءوا أباهم عشاء يبكون ، كما تجد فيه الرنين الأسيف الذي يعزفونه حول مسيرة حياتهم واضطهاد الأمم لهم مع أنهم الشّعب المتفوق المختار .

وهكذا كلما ازدَدْت قراءة للكُتَّاب الإنجليز ازددت احترامًا واقترابًا من أمة الإنجليزي ، وكلما ازددت قراءة للكُتاب الألمان ازددت اقترابًا واقتناعًا بهذه الأمة لأن رسالة الكاتب كما قلت ليست صنع دعاية ، وإنما تجلية جوانب العظمة والشموخ في حياة الأمم .

وإذا ما تناولت كتابًا من الكتب التي يكتبها إخواننا المتنورون وجدت أمرًا غير ذلك ، وجدت وصف العقلية العربية بالسطحية والتهويش ، فالفكر مشوش ليس له منهج ولا ضابط ، وسطحي بدائي ، يَتّسِمُ بالنظرة الجزئية وهو كسيح لا يستطيع أن يَرْقى إلى الأطر النظرية . والشعر زفة نفاق في مواكب الطواغيت ، وإذا رأيت شاعرًا مشرقًا فلأن أصوله رومانية أو يونانية ، وإذا رأيت عالمًا ذا فَهْم فلأنه سرق فكر أرسطو كما سرق الفلاسفة العرب فلسفة اليونان وعاشوا كالبهلوانات يحجلون على شواطئها

وهكذا تجد الحَلَقَة مُغْلَقةً في وجهك فلا يَسَعُك إلا أن تزدري نفسك وأمتك واليوم الأسود الذي ولدت فيه من أصلاب هؤلاء الهمج ، ومد يدك إلى ما شئت ولو كانت مذكرة يكتبها مبتدئ لمبتدئ .

وإذا أردت أن تعرف مصدر هذه المادة العلمية القبيحة والغريبة والتي لا تجدها عند أمة من الأمم كما لا تجد شيئًا منها عند علمائنا الذين كان لهم اضطلاع على علوم الآخرين ومناهجهم ، ربما كان أوسع وأعمق وأخصب من اضطلاعنا ، أقول إذا أرَدْتَ أن تعرف مصدر هذا الفكر البشع والمدمر لكياننا وكيان طلابنا وأبنائنا من بعدنا فاقرأ رسالة الطريق إلى ثقافتنا التي كتبها الأستاذ محمود محمد شاكر الذي تنبَّه إلى هذا منذ زمن بعيد وحذّر من خطره وقد أعذر بكشْفِ مصادره في هذه الرسالة العظيمة

ليحيا من يحيا عن بينة ويهلك من يهلك عن بينة ، ولولا خشية طول الكلام قبل اللقاء بالقاضي الأكرم لذكرت قصة هذا ، وإن كنت أعتبر هذا مدخلاً ضروريًا للحديث عن القاضي الأكرم الذي اخترت من جوانبه هذا الجانب ، وهو دراسته وخبرته الواسعة بعلوم الأمم الأخرى وأنه ليس بِدْعًا في ذلك ؛ لأن كثيرًا من شيوخنا الأجلاء كانوا يكتبون كتبهم بأكثر من لسان ، والزمخشري الذي قيَّد علمه مما تراجَزَتْ به الأعراب على أفواه القُلُب كان من حفاظ آداب الأمم ، واقرأ له كتاب ربيع الأبرار وقَلَّ أن تجد فيه صفحة من تراث العرب ، وإنما هو تراث الفرس واليونان والهنود وغيرهم من الأمم ذات الآداب والحضارات ؛ ثم لا تجد قطرة واحدة من هذا البحر الزاخر من الأعجميات في معالجته لمسألة من مسائل العربية لغة ونَحْوًا وبيانًا وتفسيرًا ، وحديثًا ، حتى كتاب الأمثال الذي كان مَظِنَّة أن توجد فيه ، وإنما هذا ماء وهذا ماء ، نعم إن سعة علمه وغزارة مادته كانت كما قلت قوة في عقله ونفسه يعالج بها ما يعالج من مسائل العلم ، وهذا شيء وتفسير المعرفة في ضوء الأعجميات شيء آخر ، أما وضع الأعجميات مكان المعرفة الإسلامية فهذا هو البلاء الماحق الذي قدمنا الكلام فيه .

ولن أفصل القول في حياة القفطي والزمن الذي عاش فيه لأن موضع ذلك هو أروقة الدرس ، وحسبنا أن نشير إلى أنه ولد في أحد ربيعي ستة وستين وخمسمائة بمدينة قِفط ، وقد وصفها بقوله «من الصعيد الأعلى إحدى الجزائر الخالدات حيث الأرض الأربعة وعشرون في أول الإقليم الثاني وبها قبر قِبْط بن مِصْر بن سام بن نوح عليه السلام»[1].

---

(١) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ١٥/١٧٨ ، ١٧٩

وينتهي نسب الشيخ إلى تَيْم بن شَيْبان بن ثعلبة بن عكابة بن صَعْب ابن علي بن بكر بن وائل ويُلَقَّب بالقاضي الأكرم . جمال الدين علي ابن يوسف القفطي ، ويُلَقَّب والده بالقاضي الأشرف ، وكان أبوه كاتبًا منشئًا ، وكانت أمُّه بدوية من عرب قُضَاعة ، وكانت حَسَنة العبادة وذات صفاء ودين ، وكان إذا أراد سفرًا أعَدَّتْ له حاجته وهي تبكي وتنشد :

أجَهِّزُ زيدًا للرَّحيل وإنَّني ... بتجهيز زيد للرحيل ضنينُ

وقد اتفق في أيام صباه أن ارتقى سطح الدار لبعض شغله فوقعت عينه على جاريتين للجار كانتا مذكورتين بالجمال والدلال وقال في وصفهما كانتا من أحسن بنات الأرض ، فشغل خاطرُه بهما وفي الوقت الذي تَمَّ فيه ذلك أنشدته والدته قول الأحوص :

ثِنتان لا أرْضَى انتِهَاكَهُما ... عِرْسُ الخليل وجَارَةُ الجَنْبِ

فلما سمع ذلك كأن ماء قد صُبَّ على نار كما قال فلم يَرْقَ السطح بعد ذلك أبدًا وكان يحتمل حر الصيف ولا يَرْقَى .

وكان يرحل إلى القاهرة للأخذ عن علمائها ثم إلى الأسكندرية وأقام زمنًا في حلقة أبي طاهر السِّلفي ، ولقى محمد بن محمد بن الأنباري وأجازه في رواياته .

وصحب أباه في سفره إلى بيت المقدس وكان والده واليًا عليها من قبل الملك العزيز ، ثم رحل بعد ذلك إلى حلب وأقام بها زمنًا ، وكان زاهدًا في خدمة الملوك مؤثرًا البقاء في قعر داره كما كان يقول ولُوعًا بقراءة الكتب

واقتنائها مُتبحِّرًا في علوم كثيرة ، وله رسائل أدبية ذكر ياقوت منها ثلاثًا أملاها القاضي عليه ، ولغته متميّزةٌ يسهلُ على الباحث أن يُحدِّد سَمْتَها ، بُنيتْ على صنْعة في البلاغة لطيفة تخالطها فصاحة ونصاعة . وبداخلها تعمُّل وتكلف ، ترى فيها مَيْلاً ظاهرًا إلى السجع كما ترى فيها فصوصًا من كلمات وجمل فيها بقيَّةٌ من الطبع المتمكن من البيان يُردّدُ المعاني ويُقلِّبها على وَجْهَيْها فيكثر في كلامه الطباق والمقابلة ، وكان يكثر من المشاكلات اللفظية التي تورث الكلام تشابهًا في الرنين وسهولة في المخرج وعذوبة في السمع ، وذلك مثل قوله : ودعا عدوّه لعوده وأيّدَ ساعده ومساعده ... رَبُّ المملكة ومالكها .. كامن كمون الكميِّ في كمينه ... وسكن سكانها ... وكَتَتْ في كنانتها .

وقد كان والده يكاتب القاضي الفاضل والقاضي يكاتبه ، وهناك شبه بين طريقة القفطي وطريقة الفاضل .

وشعره ضعيف وهو قليل ، وقد رَوَى ياقوت منه مقطوعات قليلة ، وقد ذكر ياقوت عناية القاضي باقتناء الكتب . قال : «لم أر مع اشتمالي على الكتب وبَيْعي لها وتجارتي فيها أشد اهتمامًا منه بها ولا أكثر حرصًا منه على اقتنائها وحصل له منها ما لم يحصل لأحد»

وهذا الذي ذكره ياقوت واضح في كتابات القاضي الأكرم ، فقد كان يذكر رسائل العلماء ومقالاتهم وما فُقِد منها ويذكر سعيه الدائب للوصول إلى ما يمكن أن يصل إليه منها ، وقد حصل له من ذلك ما لم يحصل لغيره

فكانت مكتبته عامرة بنوادر المخطوطات من تراث العرب والعجم ، وهناك مقالات لأرسطو وبطليموس وغيرهم فقدت من خزائن اليونان وقد اجتهد في تحصيلها ، وكانت مصر والشام من مراكز الثقافة اليونانية والرومية ، وكان تراث اليونان يكون في مكتبات مصر والشام كما يكون في بلاد اليونان .

ومؤلفات القاضي تغلب عليها كتب التاريخ ولا يخلو من الدراسات اللغوية والإسلامية ويمكن تصنيفها على هذا الأساس :

١- مؤلفات في تاريخ الأمم وهي :

أ- تاريخ مصر من ابتدائها إلى الملك صلاح الدين في ست مجلدات .

ب ـ تاريخ المغرب .

جـ ـ تاريخ اليمن منذ اختطت إلى الآن .

٢- مؤلفات في تاريخ الأسر الحاكمة وممالكهم وهي :

أ- تاريخ محمود بن سُبُكتين وبنيه إلى حين انفصال الأمر عنهم .

ب ـ أخبار السلجوقية منذ ابتداء أمرهم إلى نهايته .

جـ ـ الإيناس في أخبار آل مرداس .

٣- مؤلفات في التراجم وهي :

أ- أخبار المحمدين من الشعراء .

ب ـ الدر الثمين في أخبار المتيّمين .

جـ ـ كتاب من ألوَت الأيام إليه فرفَعَتْهُ ثم التوت عنه فوضعته .

د ـ الأنيق في أخبار ابن رشيق .

هـ ـ المفيد في أخبار أبي سعيد .

و ـ أخبار المُصَنِّفين وما صَنَّفوه .

ز ـ أخبار النحويين .

ح ـ أخبار الحكماء .

ط ـ مشيخة زيد بن الحسن الكندي .

٤- مؤلفات في اللغة :

أ- الاستيعاب في وجوه كلا ه

ب ـ الإصلاح لما وقع من الخَلل في كتاب الصِّحاح للجوهري .

جـ ـ شرح المُفُصَّل .

د ـ كتاب الضاد والظاء ما اشتبه خَطُّه واختلف لفظه .

٥- مؤلفات في السنة :

أ- الكلام على الموطأ

ب ـ الكلام على صحيح البخاري .

٦- مؤلف في العقائد :

أ- الرد على النصارى وذكر مجامعهم .

وأخيرًا كتاب نهزة الخاطر ونزهة الناظر في أحسن ما نُقِل ، من على ظهور الكتب .

ولم يطبع من هذا التراث فيما أعلم إلا كتاب إنباه الرواة في أخبار النحاة ، وكتاب أخبار الحكماء ، وقد ذكر المرحوم أبو الفضل إبراهيم أن أخبار المحمدين من الشعراء منه نسخة مصورة بدار الكتب رقم ٢٢١٧ تاريخ تيمور وأصل النسخة كانت بالأزهر موقوفة على رواق الصعايدة والموجود منها من أول ترجمة محمد بن أحمد الحوفي إلى ترجمة محمد بن سعيد البغدادي ، وكتب العلامة أحمد تيمور على ظهر النسخة « ولا يدري أكتب المصنف شيئًا بعد ذلك أم ضاعت بقية النسخة ، لأنه أحال في مواضع على أسماء بعد هذا الحرف»[1].

وهذه المؤلفات واضحة الدلالة على سعة علم القاضي ، وهي وإن كانت من المؤلفات التاريخية ، وكان علم التاريخ عند الأوائل بمثابة دائرة للمعارف العربية والإسلامية ؛ لأن المؤرخ محتاج إلى علم الشعر لأن جزءًا مهمًّا من التاريخ جاء في الشعر ، والعلم بالشعر يقتضي العلم باللغة والنحو ، وكذلك لا محيد للمؤرخ عن العلم بالعقائد لأن العقائد كانت أساس الاختلاف بين الفِرَق ، وهذه الفِرَق شغلت حيزًا مهمًّا في التاريخ الإسلامي ، وهكذا كانت المادة التاريخية توشك أن تكون مزيجًا فكريًا متكاملاً ، فلا يستطيع المؤرخ أن يكتب تاريخ المأمون مثلاً إذا لم يكن مستوعبًا لقضية خلق القرآن وحادثة الإمام أحمد بن حنبل ، ولا يستطيع أن يكتب التاريخ الإسلامي ، من يجهل عقائد الشيعة والخوارج والإباضية والجهمية والقدرية ، ولذلك نعد القفطي المؤرخ من علماء الإسلام بمعنى أنه من علماء اللغة والعقائد

---

(١) مقدمة إنباه الرواة ص ٢١

والتفسير والحديث والفقه بل والطب والهندسة والرياضة وعلوم الهيئة لأنه أرخ لعلماء هذا الشأن ، وقد ذكر هو أن المرزباني من اللغويين وإن لم يكن قد تخصص في النحو والصرف لأنه كتب في أخبار جامعيها ومصنّفيها والمتصدرين لإفادتها[1].

قال ياقوت : كنت ألازم منزله ويحضر أهل الفضل ، وأرباب العلم فما رأيت أحدًا فاتحه في فن من فنون العلم كالنحو واللغة والفقه والحديث وعلم القرآن والمنطق والأصول والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل وجميع فنون العلم على الإطلاق إلا قام به أحسن قيام وانتظم في وسط عقدهم أحسن انتظام»[2].

هذا العالم السني السلفي المتبحّر والذي ترى وصف ياقوت له لا يرى الاضطلاع على علوم الأمم الأخرى ضربًا من الرفاهية العقلية وإنما يرى البحث في علوم الأمم الأخرى ضربًا من ضروب العبادة يرجو الباحث بها المثوبة له ولقارئها ، مع أن المكتوب والمدروس منه فلسفات وثنية وآراء إلحادية ، يقول في مقدمة كتاب أخبار الحكماء بعد ما بيَّن مراده بالحكمة وأن أركانها هي المنطق والطبيعي والإلهي يعني علوم الطبيعة والفلسفة والإلهيات ، وعلوم الطبيعة نعني الفلك والطب والرياضة والهندسة يقول : وقد عزمت بتأييد الله على ذكر من اشتُهر ذكره من الحكماء من كل قبيل وأمة قديمها وحديثها إلى زماني وما حفظ عنه من قول انفرد به أو كتاب

(١) إنباه الرواة ٣/١٨٠

(٢) معجم الأدباء ١٥/١٧٩

صنَّفه أو حكمة عليَّة ابتدعها ، ونُسِبَتْ إليه ، فإني رأيت ذلك من الأمور التي جُهِلت ، والتواريخ التي هجرت وفي مطالعة هذا اعتبار بمن مضى ، وذكر لما سلف ، وهو اعتبار أرجو به الثواب لي ولقارئه إن شاء الله تعالى »[1].

وقد أوغل في التاريخ القديم وذكر حكماء عاشوا قبل الطوفان وبدأ كتابه بنبي الله إدريس وهو أول من علم الحكمة وكانت إلهامًا لأن النظر في الهيئة والأفلاك لا يُهتدى إليه إلا بإلهام هكذا قال ، وقد اختلف في مولد إدريس عليه السلام هل ولد في مصر ؟ أم ولد في بابل ؟ وماذا كان يُسمّيه المصريون ؟ وماذا كان يسمّيه البابليون ؟ وعن من أخذ ؟ وكيف حكم الأرض ؟ ومن هم ولاته ؟ وكيف كانوا ؟ كل ذلك تكلم فيه القفطي وهو في هذا التاريخ القديم يعول على الروايات والحكايات وكثيرًا ما تداخلها الأساطير ، وكان يأخذ ماله مُرَجّح يُرجّحه ويترك ما لا يوافق العقل .

يقول وهو ينتقد أخبار إسقلبيوس أحد من حكّمهم هِرْمس الذي هو إدريس (وله أخبار عند النصارى ، وفي كتبهم تجري مجرى الأسماء لا يلائمها العقل ، فأضربت عن ذكرها »

وقد أكثر من الحديث عن إسقلبيوس وحكمته وعلمه بالطب ، وكان يستأنس في هذا بمرجحات تاريخية مثل أن يجد في كتاب العهود تعظيم بقراط لإسْقلبيوس وأنه كان يقرن اسمه باسم الله في قسمه لتلاميذه ويقول : أقسم عليكم معاشر الأولاد بخالق الموت والحياة ، وبأبي وأبيكم إسقلبيوس ، وإسقلبيوس كان تلميذًا لنبي الله إدريس الذي كان يسميه

---

(١) المقدمة ص١

المصريون هرمس واليونانيون أرميس ، وقد كان أحد النجباء من تلاميذ إدريس عليه السلام وبرع في الحكمة وطرّق طرق صناعة الطب ، ووضع لها ما يشبه الميثاق وكان لا يُعَلِّم الطب إلا لأهل الطهارة والعفاف والتُّقى ولا يعلم الأشرار ولا أصحاب الأنفس الخبيثة ، وقد ذكر عنه بقراط ذلك .

وكان القفطي يؤرخ ـ أحيانًا ـ للعلوم من خلال تأريخه للرجال ، وقد وقف عند علم الطب ليؤرخ له ، وأشار إلى أن هذا من المسالك الصعبة وأن الناس اختلفوا في نشأته ، وقد ذكروا أن إسقلبيوس هو أول من استبطه وأنه كان بَيْنه وبين جالينوس خاتم الأطباء الثمانية خمسة آلاف سنة ، والأطباء الثمانية هم : إسقلبيوس الأول ، ومينس ، وغورس ، وبرمافيذس ، وإفلاطون الطبيب ، وإسقلبيوس الثاني ، وبقراط ، وجالينوس ، ومدة ما بين ظهور أولهم ووفاة آخرهم خمسة آلاف وخمسمائة وستون سنة .

وقد ذكروا أن بقراط من نسل إسقلبيوس واعترض القفطي على ذلك لأن إسقلبيوس كان قبل الطوفان ولم يبق بعد الطوفان إلا ذرية نوح عليه السلام .

وكان الأطباء اللاحقون مفتونين بإسقِلْبيُوس وقد تَطَرَّفُوا في الاعتقاد فيه حتى روى أن بمدينة رومية صورة يسألونها في الطب فتكلمهم بعلم إسقلبيوس .

وقد ترجم القفطي لبقراط وأثنى عليه وقال كان فاضلاً متألهًا ناسكًا يعالج المرضى احتسابًا ، طوّافًا في البلاد وجوّالا عليها ، وكان قد نشأ في مدينة حمص بالشام وكان يقصد إلى غياض دمشق وكانت له صُفَّة يعلم فيها تلاميذه ، ولا تزال تعرف في الشام بصُفَّة بقراط . وذكر القفطي مؤلفات

بقراط وقد قام جالينوس بشرحها ، وذكر القفطي من ترجموها وهي كتب في الكَسْر والجراحات والأخلاط والماء والهواء ومنها مقالات في الأمراض الحادة وجراحات الرأس .

وذكروا أن أزدشير ملك الفرس قد مرض في زمن بقراط ودعاه لمعالجته فأبى بقراط لأنه كان عدوًا لليونان ، ولما اشتد عليه المرض بذل لبقراط ألف قنطار من الذهب فأبى ، وقد عالج ملوك اليونان وأقام عندهم مدة مَرَضهم ثم تركهم بعد العلاج تنزهًا عنهم وعن دنياهم .

وقد جاء جالينوس بعد بقراط بنحو ستمائة سنة ، وهو الذي شرح كتبه وجدّد علمه ، ولم يكن أحد في زمانه أعلم منه بالطب ، وكان إمامًا في علم البرهان وله أكثر من مائة مؤلف ، وكان أبوه ماسحًا ولم يكن في زمن أبيه أعلم منه في علم المساحة ، وقد ذكروا أن جالينوس كان في زمن المسيح ، وأنه قيل له إن رجلاً في آخر دولة قيصر ببيت المقدس يُبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى فخرج لملاقاة المسيح فأدركه الموت في جزيرة صقلية هكذا روى القفطي ، وقد ذكر في موضع آخر أن جالينوس كان بعد المسيح بمائتي سنة ، وهذه روايات كان القفطي يكتبها في مواضع متفرقة من كتابه وقد يقف ليحلل وينقد ويراجع .

وقد أحصى القفطي كتب جالينوس نقلاً عن ابن النديم وذكر ترجماتها ومنها ما ترجم ثلاث ترجمات .

وقد ذكر جالينوس ما يدل على أنه زار صعيد مصر وحكى أنه رأى بعض أهالي النوبة على عادات طبية خاطئة في المعالجة والفصد ، ولم يرتب

القفطي كتابه على أساس الموضوعات ، فلم يذكر طبقات العلماء في الفن الواحد ، كما لم يُرتِّبْ ذكر الحكماء على أساس تاريخي ، وإنما كان الترتيب الأبجدي هو الأصل ، فذكر بختيشوع وهو طبيب مشهور في خلافة بني العباس بعد بقراط وقبل جالينوس ، كما أنه لم يفرد علماء اليونان وإنما كان يذكر العرب والعجم مع اختلاف الأزمنة والأمكنة ما دامت الأبجدية تقتضي ذلك ، وهذا وإن كان وجهًا يسهل استخراج ترجمة ما يراد ترجمته إلا أنه يقوم على تمزيق التسلسل الزمني لفنون الحكمة ، ومن أراد معرفة تاريخ علم أو تحديد طبقات علماء فن واحد في زمن واحد أو أزمنة متتابعة فعليه أن يفعل ذلك بنفسه وأن يستخرجه من الكتاب ، وقد كان كذلك في كتاب أخبار النحاة ، وقد ذكرنا أنه لا يكتب تراجم الأطباء إلا من له علم بالطب ولا يكتب تاريخ علماء الرياضة إلا من له علم بعلوم الرياضة وهكذا .

والقارئ لكتاب أخبار الحكماء وكتاب أخبار النحاة يتأكد من أن علم القفطي بعلوم الحكمة التي هي المنطق وعلوم الطبيعة والرياضة والفلك والهندسة والهيئة وعلوم الفلسفة والإلهيات يتأكد أن علم القفطي بِدُرُوبها ومصادرها وتاريخها كعلمه بمصادر النحو واللغة والشعر .

وكان يُعْني بأسانيد الكتب في هذه العلوم ، وقد ذكر أن كتاب إقليدس المهندس النجار الذي يُسميّه العرب الأصول لم يكن من وضع إقليدس وإنما ألفه مؤلف يوناني قديم اسمه أبلينيوس النجار ، وقد وجد كتاب أبلينيوس هذا في خزانة ملك من ملوك اليونان وأن الذي فَكَّ رموزه وشرح غموضه

هو إقليدس ولم يَستطع ذلك غيره من أهل زمانه فنسب الكتاب إليه ، وكان الكتاب في خمس عشرة مقالة ، وقد شرح إقليدس منها ثلاث عشرة مقالة وقد عثر أحد تلاميذ إقليدس على المقالتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، وقد شرح أبو الحسن بن الهيثم هذه المقالات وذكر شكوكًا فيها وأجاب عن هذه الشكوك ، ثم قال القفطي « ورأيت شرح المقالة العاشرة لرجل يوناني قديم اسمه (بليس) وقد خرجت إلى العربية وملكتها بخط ابن كاتب حليم ، وهي عندي والحمد لله ، ورأيت شرح العاشرة للقاضي أبي محمد ابن عبد الباقي البغدادي الفَرَضيّ المعروف بقاضي البيمارستان ، وهو شرح جميل حسن مثل فيه الأشكال بالعدد وعندي هذه النسخة بخط مؤلفها »[1].

وكان القفطي ناقدًا للأخبار وروايات المؤرخين في تاريخ رجال يونان وكأنه واحد من أبناء هذه الأمة معرفة واستيعابًا وتدقيقًا

يقول في تاريخ بطليموس الفَلَوذِي صاحب كتاب المجَسْطي الذي انتهى إليه علم حركات النجوم ومعرفة أسرار الفلك .

« ومن الناس من يدعي المعرفة بأخبار الأمم يُخليه أو قبال يُحليه بالهاء المهملة أحد البطالسة وربما قيل البطالمة اليونانيين الذين ملكوا الإسكندرية وغيرها بعد الإسكندر ، وذلك غلط بين وخطأ واضح ، لأن بطليموس ذكر في كتاب المجسطي في النوع الثامن من المقالة الثالثة منه الجامعة لجميع حركات الشمس وأرصادها ، وسائر أحوالها أنه رصد في سنة تسع عشرة من

(١) أخبار الحكماء ص ٩٥

سنى إذرَيانوس إلى آخر ما قال واستخرج من كلام بطليموس بالفهم الصحيح أن بطليموس كتب كتاب المجسطي في علم الهيئة بعد عهد أوغسطين ملك الروم الذي تغلب على فلوبطره كما يقول يعني كيلوباتره ، بأكثر من مائة سنة ، وهذا قاطع في أن بطليموس هذا لم يكن من البطالة .

ويصحح وهما آخر في سيرة بطليموس الذي كان يصفه بأنه إمام كامل فاضل ، هذا الوهم هو الزعم بأنه أخذ عن أبرخس الذي كان يرصد النجوم ، ويؤكد القفطي أن بين رَصْد بطليموس ورصد أبرخس مائة سنة .

ويقول عن بطليموس إنه حصيلة علم اليونان والروم وأنه اجتمع عنده ما كان متفرقًا من هذه الصناعة عند أهل الشق الغربي من الأرض وبه تجلى غامضها ، وما أعلم أحدًا بعده تعرض لتأليف مثل كتابه المعروف بالمجسطي ولا تعاطى معارضته»

ثم قال «ولا يعرف كتاب أُلف في علم قديمها وحديثها فاشتمل على ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب أحدها كتاب المجسطي هذا في علم الهيئة وحركات النجوم ، والثاني كتاب أرسطوطاليس في علم المنطق ، والثالث كتاب سيبويه»[1].

ويصف كتاب الأصول لإقليدس وصفًا قريبًا من هذا ويقول : كتاب جليل القدر عظيم النفع أصل في هذا النوع لم يكن ليونان قبله كتاب جامع في هذا الشأن ولا جاء بعده إلا من دار حوله ، وقال قوله، وقد عني به جماعة

(١) ص ٩٧

رياضي يونـان والـروم والإسـلام فمـن شـارح لـه ومشـكل عليـه ، ومخـرج لفوائده ، .. ولقد كانت حكماء يونان يكتبون على أبواب مدارسهم لا يدخلنَّ مدرستنا من لم يكن مرتاضا يعنـون بـذلك لا يـدخلنها مـن لـم يقـرأ كتـاب إقليدس[1] هذه صورة مختصرة أشد الاختصـار لدراسـة القفطـي في ميـادين علوم الطب والهندسة والهيأة أو الرياضة .

وكان بعد غور القفطى في ثقافة أمتـه وكثـرة محصـوله مـن علومهـا أثـر واضح في دراسته لهذه الأعجمات ، فقد ألقى أردية الفكر العربـي الإسـلامي عليهـا وأجـرى فيهـا صـيغ المعرفـة الإسـلامية ورموزهـا ، وأشـرب هـذه الأعجميات من سلسال البيان العربي فاستعربت وصِـرْتَ كأنـك تقـرأ أثـرًا عربيًّا لولا أسماء الأعلام التي لا حيلة له فيها ، فإقليدس إمـام فاضـل وكـان بقراط تقيًّا عفيفًا وَرِعًا ، وأفلاطون كان من أبوين شريفين ، وأمه فلانـة بنـت فلان الذي كان من أيامه في قومه أنه ذو أنفة وأنه كان منه كذا وكـذا ، وهـذا أمر مهم يرتبط بالذي قلته أول هذا الكلام مما اعتبرتـه مـدخلاً ، وتسـامحت فأرسلت الكلام فيه ، ولسـت مـن الـذين يصـرفون وجههـم عـن اليـوم الـذي يعيشون فيه كما قلت ، والغد الذي يُعدُّون له ، إلى الماضي الذي غبر وغـبر من فيه ، وإنما أعيش في أعماق تراث السلف من أجل اليوم والغـد ، ولـيس من أجل الأمس لأن الأمس قد فات وما فات مات ، ولا يتعلق بالأمس الذي مات إلا من عجز أن يعيش اليوم الذي يحتدم بالحياة والأحياء .

---

(1) ٩٣

وتراث هذا السلف يقول إن من ثبتت أقدامه في علوم قومه كان قادراً على أن يُعَرِّب علوم الآخرين وتعريبه لها ليس أن ينقلها إلى ألفاظ العربية ، وإنما أن يجعل الفكرة نفسها فكرة عربية .

وأن من ارتعشت ساقه وضعف في علوم قومه اختل عنده كل شيء ، وقد استعجمت علوم العربية في كتبنا ومحاضراتنا وبحوثنا ومجلاتنا حتى شرح الشعر الجاهلي استبهم واستعجم وصرنا نقرأ البحث الذي يُحَلِّلُ « قفا نبك » فنفهم قفا نبك بفطرتنا ولا نفهم شيئًا من الكلام الذي يُحلِّلُها لأنه فكر أعجمي مرٌّ بعقل ضعيف كتبه بحروف عربية وأبْقَى عجمته مبهمة ، ثم إنه أفقد هذا الفكر حيويته ونبضه الذي كان ينبض به في منابته الأولى .

وهكذا قل في غير الشعر من الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية صار كل ذلك أعجم شاحبًا ؛ لأن من كتبوه عجزوا عن أن يُجْرُوا فيه سلسال البيان العربي الذي يداخل الفكرة نفسها ويُعرِّبُ جوهرها .

وقد قرأت كلمة شريفة للطبيب الأديب الدكتور يحيى الرخاوي أستاذ علم النفس في القصر العيني الذي لا يزال قلعة من قلاعنا ندعو الله أن يحفظه بنجبائه ، قال هذا الرجل الشريف وهو يتكلم في سياق تعريب الطب « عَرِّبُوا العربية أولاً » لأنكم تدرسون اللغة العربية بعلوم أعجمية وأن هذا الحشد من الأعجميات الذي زحف حول العربية واحْتل قاعة بحثها ودرسها وشعرها ونحوها ولغتها وفقهها ونقدها ، هذا الحشد غير الكريم هو الذي أضعفها وجعلها تَخْتَلّ في أفواه أجيالنا

ورأس الداء هو الضعف في علومنا ، والذين يُشْعلُون النّارَ في هذه العلوم ويتراقصون حولها لم يفعلوا ذلك إلا لجهلهم بها وإحساسهم بصعوبة الخوض فيها وتجشُمُ مشقة المعرفة المُتَقَنَةِ لها .

وإنما يكون قدر الباحث والمؤلف والعالم بمقدار فقهه لعلومه وتراثه ، وقدرته على أن يَخُوض عباب هذه العلوم ، وأن يُمْسِكَ بأعنّتها ، هكذا الحال في الأمم كلها ، ترى النابغين من علماء الأمم هم أشد الناس التصاقًا بخصائص أمتهم وأكثر ولعًا بدقائق معارفها وخفايا نفوسها وخواطرها المودعة في آدابها وفنونها ، وادرس من شئت من رجالات الأمم ومدى استيعابهم لآثار أممهم الفكرية وغير الفكرية ، وتأمل إلى أي مدى يكون انتماؤهم لهذا التاريخ وهذه الأمة وهذه الحضارة ، وكل ذلك تراه يزداد عمقًا بمقدار زيادة النبوغ والتفوق وكأنهم لم ينسلوا من أصلاب آبائهم وإنما انسلوا من أصلاب هذا التاريخ وهذه العلوم وهذا الشعب صانع هذا التراث ، وكأن هذه الأرض وهذا الشعب وهذا التاريخ هو أم لهم وأب ، ولم أقرأ لعالم مذكور في قومه استهانة بعلوم قومه وتاريخ قومه إلا من ذكروا فينا بأنهم كبار وأشعر أنه يسيئ إليّ وأنا أقرأ له لأن الإساءة إلى عطاء قومي هي إساءة إليّ وكأنه وهو منا يتكلم عنا بلسان عدونا ، والأمر ليس كذلك عند النابهين في العلوم والآداب وإنما كل النابهين من أبناء الأمم يستوي في ذلك العالم والقائد المحارب والسياسي النابه كل هؤلاء لا يكونون من ذوي الشأن في أممهم إلا بقوة الوعي لها ولتاريخها وقوة الانتماء لماضيها وحاضرها ومستقبلها ولكل الذي عليها حتى المدر والحجر ، فإذا رأيت كبيرًا يُقتّل أبناء وطنه فاحذر أن تتوهم لحظة أنه مخلص لهذا الوطن لأن المخلص للوطن

يحامي عن كل من فيه ويضم كل من فيه ويجمع ولا يفرق ويشيع الحب والتآخي وليس البغضاء والتحريض على أي فصيل من أبناء البلاد ، والمخطئ له طريق واحد هو القضاء الذي لا ريب في نزاهته وليقض فيه القضاء بالذي هو قاضٍ ، والناس يقولون للقضاة العدول هذا قضاء الله إذا قضيتم ، أما أن تشيطن من يخالفك وتتهمه بالخيانة لتبرّر خطفك الأمر من يده فليس هذا من الوطنية في شيء ، ومن يتوقع خيراً من أصحاب هذا الخلق فهو كما يقول أبو العلاء متطلب في الماء جذوة نار .

وأعود إلى القاضي الأكرم والكتابة عن الكرام تجد النفس لها وفيها غبطة ، كما أن الحديث عن القتلة المدمرين لشعوبهم تجد النفس لها وفيها حسرة وغُصّة لأن الله فطر الناس على الحب والصدق والوفاء والبر وعمل الخيرات والصالحات ، كان القفطي شاعراً وكاتبًا ومتذوقًا للشعر والأدب وقد أملى على ياقوت أدبًا كثيراً وكان يتأنق في أسلوبه ويحرص على فصاحته ورونقه ومائه ، ومع تبحره في اليونانيات لم يقف عند دراسة أرسطو لشعر اليونان ولم يلفت إلى بلاغة اليونان ، وكان شديد الحفاوة بأرسطو وذكر أكرم شعراء اليونان هوميروس صاحب الإلياذة وهي من الأدب الإنساني الرفيع ، ولم تكن عناية القفطي بهذا القسم من تراث أرسطو كعنايته بغيره من تراث اليونان ، ويلاحظ أن القفطي ولد بعد عبد القاهر بأكثر من مائة سنة ولو قيل في زمانه أن عبد القاهر أفاد من بلاغة أرسطو لتكلم في ذلك ولو لحظ هو أي أثر لأرسطو في علوم العرب لتكلم في ذلك ولو لحظ أن التراث اليوناني كان له أثر في إنضاج الحركة العلمية وأن ترجمته أفادت العرب لتكلم في ذلك ، وكل هذا يؤكد أن القول في أثر الترجمة في الحركة العلمية عندنا

كلام من أكاذيب الاستعمار ، والقفطي أحد كرام المؤرخين لهذه الأمة ، وما كان له أن يسكت عن شيء كهذا لو كان قيل في زمانه ، أو قبل زمانه والغريب العجيب أنه بقي منا من يقول إن البلاغة العربية يونانية وأن ترجمة علوم اليونان كان لها أكبر الأثر في الطفرة التي كانت عليها علومنا بعد الترجمة ، وكل هذا قيل زمن سيطرة الاستعمار على بلادنا وصانعه رجال منا وصفوا بأنهم كبار وأنهم رواد النهضة التي لم نعرفها إلى اليوم .

وكان أفلاطون قبل أن يلتقي بأستاذه سقراط شاعرًا وكان مذكورًا بالشعر ، ولما سمع رأي سقراط في الشعر هجر الشعر وجمع كتب الشعر وأحرقها ، وقد حدثت له حادثة مزلزلة بسبب شهرته بالشعر وذلك أن طاغية جبارًا غلب على صقلية وكان أفلاطون يذهب إليها لشراء الكتب لأنها كانت مركزًا ثقافيًا في زمن أفلاطون وكان بعض الشعراء منقطعين لمديح هذا الجبار الطاغية وينافقونه ، فلما علم هذا الطاغية بوجود أفلاطون في مدينته دعاه وطمع في أن يدمحه وجرى حوار بينه وبين أفلاطون ، وكان أفلاطون قويًا وصريحًا وشديد المحافظة على مبادئه وأخلاقه وكاشف الطاغية ورفض مدحه فغضب الجبار الطاغية الجاهل وأمر أن يباع أفلاطون وأن يُصبح عبدًا . فاشترى أفلاطون رجل يعرف مكانته ليبعده عن بطش هذا الطاغية ، ثم ذهب رجل آخر محب للحكمة لما علم بهذا الأمر الشنيع ليشتري أفلاطون ويعتقه ، فلما كلم الرجل الذي اشتراه قال له الرجل أعتقته حكمته ، وهكذا لا تزال ترى في الناس جهلة طواغيت يملكون أمر الناس ويستعبدون الحكمة ثم ترى في الناس كرامًا يفكون الأغلال عن أعناق الحكمة ، وكان أفلاطون قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسة قرون والطغيان لا يزال هو الطغيان وإن

كان قد انقرض الكرام الذين يفكون الأغلال التي يفرضها الجهلة الطواغيت على عنق وعقل وقلب الحكمة .

وكان سقراط شديد الحفاوة بأفلاطون وكان قد رأى في منامه أن طائرًا أبيض قد سقط على حجره ، فلما حضر أفلاطون مجلسه فسّره بهذا الطائر الأبيض ، وقد ذكر القفطي قصة رحلة كتب اليونان إلى العالم الإسلامي وأن المأمون كان قد رأى أرسطو في منامه ووصفه كما وصفته الكتب التي لم يقرأها المأمون وأن المأمون سأله ما الحَسَنُ ؟ فقال أرسطو : ما حسّنه العقل ، فقال المأمون ، ثم ماذا ؟ فقال أرسطو : وما حسّنه الشرع ، فقال المأمون : ثم ماذا ؟ فقال أرسطو : ثم لا ثم ، وكانت هذه الرؤية هي سبب طلب المأمون من ملك الروم أن يرسل إليه كتب اليونان . ولما وصلت رسالة المأمون إلى ملك الروم بحث ملك الروم عن كتب اليونان فلم يجدها ـ فضاق الملك بذلك وقال يطلب مني ملك المسلمين كتب آبائي فلم أجدها ، فجاءه راهب مغمور وكان الملك سأل كل الرهبان فلم يعرفوا ، والأصل في المسألة أنه لما دخل الروم في المسيحية في القرن الأول المسيحي خافوا على عقيدتهم من كتب اليونان لأنها تمثل فلسفة وثنية فجمعوا كل كتب اليونان ووضعوها في هيكل كانوا يتعبدون فيه واتفقوا على أن كل ملك يحكم عليه أن يضع قفلاً على باب الهيكل إمعانًا في حبس هذا التراث الوثني وحرصًا على سلامة المسيحية منه ، ثم نسي الناس هذا وجرى في الناس اعتقاد أن الذي في الهيكل ذهب وأن كل ملك مطالب بوضع قفل على بابه ليثبت نجاحه في إدارة أحوال البلاد الاقتصادية ، وأنه لم يمد يده إلى هذا الذهب ، والذي كان يذكر هذا كله هو الراهب المغمور الذي ذهب

إلى الملك وقال له كتب اليونان في هذا الهيكل ، ولما فتحوا الهيكل وجدوا الكتب فيه حمل مائة بعير كما قال القفطي وقال الملك للرهبان هل عليٌّ من حرج لو أعطيت هذه الكتب لملك المسلمين ؟

فقال له الراهب : أيها الملك هذه الكتب ما دخلت على دين قوم إلا زلزلت عقائدهم فأعطها لملك المسلمين وأنت مأجور غير مأزور ، قالوا : وكانت الكتب في الهيكل غير مرتبة والذي حملوه إلى المأمون منها كان غير مرتب ، وكان أجزاء غير مكتملة وكان القفطي واحدًا ممن جدوا في البحث لاكتمال ما وقع عليه من هذه الكتب وكانت كلها مخطوطة ، يعني أن حمل المئة بعير التي كانت في الهيكل كانت مخطوطات ، وهذا معلوم وإنما نذكر به لنزداد وعيًا بهذا التراث اليوناني القديم وبحجمه وكيف استطاعت هذه الأمة الوثنية التي لم ينزل فيها كتاب أن تُنْتج بعقولها التي لم يهدها وَحْيٌ كل هذا العطاء ، وكان القفطي مقدرًا لتفوق ونفوذ أرسطو ولكنه لما خاض بحر الإلاهيات ضَلَّ لأن الإلاهيات لا يُهْتَدى في بحارها إلا بوحي ، والعجيب أن القاضي الأكرم ابن القاضي الأشرف كان إذا حدّث عن علم يونان كأنه واحد منهم ويروي حكايات طريفة لا يرويها في أدب قوم إلا الذي أعطى هذا الأدب حقه من المدارسة والمراجعة ، وهذا بخلاف من يضطلع على أصوله العامة ، من هذه الروايات الطريفة أن شاعرًا يونانيًّا مغمورًا كان في زمن هوميروس وقد عاب هوميروس ببطء إنتاجه وقلة شعره ، فقال له هوميروس إن امرأة في أنطاكية عابت اللّبْوة بطول حملها وقلة ولدها فقالت لها اللبوة نعم أنا بطيئة الحمل وقليلة الولد ، ولكنني ألد أسدًا .

وقد ذكر القفطي الخمسة الذين كانوا يوصفون بأنهم أساطين الحكمة وترجم لهم وأن منهم من أخذ الحكمة عن نبي الله إدريس ومنهم من عاش في زمن داود عليه السلام ومنهم من أخذ عن لقمان بن عاد الذي آتاه الله الحكمة .

والذي يدلك على ما أردت أن أدلك عليه وهو سعة علم القاضي الأكرم باليونانيات هو أن تقرأ كتابه أخبار الحكماء لأنك سترى القاضي في كتابه هذا من أوسع علماء اليونان بعلوم يونان ، والمقصود الأهم هو ما بعد ذلك وهو أن كتابات القاضي في علومنا ولغتنا وأدبنا ورجالنا وتاريخنا ليس فيه حرف واحد من هذه اليونانيات ، وإذا قرأت تراثه العربي الإسلامي ولم تكن اضطلعت على أخبار الحكماء لا يقع في نفسك أبدًا أن له علمًا بغير علومنا ، وهذا هو شأن الكبار الذين يحرصون علي بقاء العلوم غير مهجنة .

هذا والله أعلم

* * *

موقف العقَّاد من التراث البلاغي[1]

معشر المفكرين والعلماء والأدباء في مصر والوطن العربي كله ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وحيَّاكم الله وحيا لقاءكم على هذه الأرض التي أنبتت عظيمًا من عظمائنا ، وحيَّا الله كل تراب في وطننا العربي يُنْبِتُ العظماء ، فقد صارت الأمة في أشَدّ الحاجة إلى العظمة الحقيقية الصادقة القائمة على أصول من الفكر الملهم واللَّقانة العبقرية ، وقد بَشمَتْ الأمة من هذه العظمة الزائفة التي يَصْنَعُها صِغَارٌ لصغار ، هؤلاء العظماء الحقيقيون يَحْدُونَ ركب الأمة نحو النهضة الحقيقية وهي موفورة العزة ، وهؤلاء العظماء المزيفة عظمتهم يسوقون الأمة سوقًا إلى حتف بعد حتف ، ومن ورائهم الكذبة من أهل النفاق يزيفُون ويضللون ، حيًا الله ترابًا أنبت الأولين وأذل الله وأخزى أرحامًا ولدت الآخرين ... وبعد :

فقد حدَّدت هذا الموضوع لبحثي في هذه المناسبة وهو : « موقف العقاد من التراث البلاغي » وأنا أعلم أنه يصعب على الباحث أن يحدد موقف العقاد من التراث البلاغي ، كما يَصْعُب عليه أن يحدد موقف العقاد من التراث النحوي والفقهي وإرث المفسرين والمحدثين والأصوليين وغيرها من مجموعة العلوم التي تمثل أصول ثقافة الأمة وحضارتها ، ومرجع ذلك إلى

(١) ألقي هذا البحث في جامعة قنا سنة ١٩٨٩م بمناسبة احتفالها بمرور مائة عام على ميلاد العقاد .

أن الأستاذ العقاد لم يَتَّجه إلى هذه العلوم اتجاه المحْتَشِد لها ولم يكتب في قضاياها ولا عن رجالها ، مع أن مجال الكلام فيها مُتَّسع ، ومَجال القول في رجالها رَحْبٌ فسيحٌ ، وباحث مثل العقاد له غَوره وله نَفَاذُه كان يمكن أن يستخرج من هذه المعارف ـ فيما يتناوله منها ـ حقائق رفيعة ، بل وأصولاً شاملة . وقد وصف العلماءُ الذين عالجوا هذه المعارف وحللوها وأضافوا إليها أصولَ مصادرها وذكروا أنها لم تُبْسِط القضايا بسطًا ولم تشرح الأصول شرحًا كافيًا ، وإنما كان أكثر الكلام رمزًا وإشارات في خفاء ، أو كالتنبيه إلى مكان الخبيء ليبحث عنه ويستخرج ، ثم إن هذه العلوم لا تزال كذلك مطويَّة على ودائعها محتاجة إلى أقلام قوية جَذْلة وعقول رائعة فحلة حتى تَسَتَنْبِطَ ودائعها وتَسْتَخْرِج كنوزها

ولا يكون ذلك إلا إذا تواترت طبقات من النابهين قادرة على أن تهزَّها هَزًا تربو به وتَسْخُو بل وأن تزلزلها زلزالاً تتهاوى به جوانبها الواهيات وتبقى ثوابتها الحيَّةِ .

غريب في تاريخ الأمم وتاريخ المعارف الإنسانية : أن يَنْبُغَ في الأمة رجال لا تخوض أقلامهم في أصول العلوم التي بَسَطَتْ سلطانَها على عَقْلِ الأمة ، هذا الزمان المتطاول وعصمتها وعصمت حضارتها وثقافتها في وسط أمواج عاتية من المحن والفتن .

هذا غريب ولا نعرف له نظيراً في تاريخ الأمم قديمها وحديثها ، وإنما نعلم أن النابغين في هذا الزمن هم أبناء النابغين في الأمس ، وأن الفكر يتناسل في أجيال المفكرين وبهم طبقة بعد طبقة ، وجيلاً بعد جيل ، وأن

النباهة والنبوغ والتفوق يدفع أصحابه إلى مزيد من التعرف على ينابيع المعرفة في الأمة ، وأنه يوشك أن يكون هناك تلازمٌ : فبمقدار حظ المفكر من التفوق يكون حظه من الإقبال على هذه الأصول ، حتى إننا نرى كاتبًا مثل «ريتشاردز» يقول في مقدمة كتابه «مبادئ النقد» : إن هذا الكتاب نسج جديد لخيوط قديمة . ولم يكن ريتشاردز متجاوزًا حين قال هذا ؛ لأن عقله الذي أبدع هذا الكتاب إنما هو عطاء هذه الثقافة القديمة .

نعم إن فكر الأمم الحديثة الذي ركب عقول الأمم بما فيها عقولنا إنما قام على تحليل التراث القديم واستنبات قضاياه وعلومه ومعارفه في تربة هذا التراث القديم بعدما روّتها عقول النابغين من أبناء الأمم الحديثة وتقاطرت سحائبهم عليها ، فأخرجت منها ماءها ومرعاها ، وهذا هو السبيل الذي لا محيد لنا من أن نسلكه ولن نصل إلى غاياتنا لو تجافيناه وسلكنا ألف سبيل آخر سواه .

نعم ، لقد كتب الأستاذ العقاد عن ابن الرومي ، وأبي العلاء ، وبشار ، والمتنبي ، كما كتب عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي .. وغيرهم ، ولكن هذا شيء والذي نريده شيء آخر ، كم كان مفيدًا أن يقرأ الدارسون والعلماء دراسة للأستاذ العقاد عن الخليل بن أحمد الذي وضع ثلاثة علوم في آنٍ واحد ، هي : النحو ، والعروض ، والموسيقى . وعجيب أن تشرق في رأس واحد بواكير علم النحو وعلم الموسيقى ، وأي رابط كان بين هذين العلمين؟ وكثير منّا ـ معشر الشيوخ ـ لا يعرفون حرفًا واحدًا في علم الموسيقى .

كم كـان مفيـدًا أن يقـرأ النـاس للأسـتاذ العقـاد دراسـة عـن عبـد القـاهر الجرجاني الذي كان يذوق اللغة بلحمه وعظامـه وكـان كـل شـيء فيـه حـي يستجيب لأصداء الرنين اللغوي استجابة كاملة ومبهرة .

كـم كـان يـكـون مفيدًا لـو قـرأ الناس للأستاذ العقاد شيئًا عــن محمـد ابن إدريس الشافعي الذي كان منهجًا متفردًا في فهم البيان ، وكـان يسـتخرج مـن الجملـة مـن القـرآن أو الحـديث دلالات شـاردة يقـدحها بعقـل رائـع ، توحشك في أول النظر غربة الدلالة عن الجملة ولكنه ما يلبث أن يضع يدك على مخرج الدلالة وأن إغفال هذه الدلالة الشـاردة إهـدار لجـزء مـن معنـى الكلام ، ورسالة الشافعي منهج متميز في القراءة لا أعني قراءة الفقـه ، وإنمـا أعني القراءة مطلقًا التي هي مفتاح المعرفة كلها ، والقراءة هي التي يتميز بها الناس ، وبمقدار استيعابهم وتمثلهم وتركيـزهم ووعـيهم يكـون حظهـم مـن التمدين والتقدم .

والشعوب التي تعرف كيف تقرأ هـي الشـعوب المتحضـرة ، ولا أعـرف كتابًا يُعلِّمُ الناس كيف يقرءون كما يعلمهم كتاب « الرسالة » للشافعي ، ولم يذكر في الكتاب لفظة واحدة يعلم القارئ كيف يقـرأ ؛ وإنمـا معالجتـه هـو للقراءة بطريقة عملية حية ورائعة ، وهذا فوق كل كلام في هذا الباب .

وكتاب الرسالة تتجاوزه عيون المفكرين والكُتَّاب ؛ لأنـه كتـاب في الفقـه وهو علم الشيوخ ولا شأن لنا به ، وهكذا يضيع منَّا هذا الكنز الرائع .

أقول : كان من المفيد أن يقرأ الدارسون وطلاب العلم رسائل ومقالات وبحوثًا للأستاذ العقاد تهديهم إلى ما في هذه العلوم من علم نافع وحيوات عقلية منظمة حية زاخرة .

وكتابات الأستاذ العقاد تتميز بأنها عقل حِيٌّ يصول بقوة وجزالة داخل سطوره ، وله سلطان على قارئه وسيطرة بالغة ، وقد فتح أمام القارئ نوافذ كثيرة ، وأغراه بمعارف ورجال كثيرين أمثال غاندي ونيتشه ودانتي وشوبنهور وباكون وغيرهم ممن لفت القارئ العربي إليهم ، وهذا حسن ، وكان يكون أحسن أيضًا لو لفت إلى الليث ، وأبي بكر بن السراج ، والآمدي ، والأخفش ، وقدامة .. وغيرهم من تلك الأسماء التي غُيِّبت عن ساحاتنا الفكرية ، وظُلِّلتْ بالظلال الشاحبة وصارت من علم الشيوخ وحدهم ، وقد صورهم الإعلام بأنهم ـ أي الشيوخ ـ يَحْدُون الحياة إلى الموت ويفتحون أبواب الدنيا بمفاتيح القبور ويقرعون أبواب الأمل بأكفان اليأس ، وانعكس هذا كله على هذه العلوم . وتأمل ما وراء ذلك .

ولم يكن هذا موقف الأستاذ العقاد وحده ، وإنما هو موقف العصر كله ، هكذا كان الدكتور طه حسين مع زيادات ضارة ، والدكتور هيكل ، والأستاذ الزيات .. وغيرهم من جملة النابهين الذين أنبتتهم أرض مصر دفعة واحدة ، وكأنها كانت تخرج آخر ما في الرحم من عماليق ؛ لأن الحياة الاجتماعية والسياسية بعد ذلك لم تسمح للناس أن يفكروا في شيء مما نقول ، وإنما استدارت العقول صوب جهات أخرى صاغتها أوضاع سياسية عمياء وأنظمة بربرية فاسدة ، تضغط على عقول الناس فلا يفكرون إلا في رغيف الخبز ؛

يدفعون به عن أنفسهم المسغبة لا غير . نعم هناك جماعة متخمة بالثروة حوَّلت البلاد إلى سحابة وطفاء تهمي عليهم وحدهم ، ولكن هؤلاء غلاظ القلوب لا شأن لهم بالثقافة وهمومها

لقد عُزلت أصولُ المعرفة العربية والإسلامية عن ساحة التأثير في الحياة الفكرية عزلاً شرسًا بغيضًا ، وصارت عند الناس علوم الآخرة والموت وليست علوم الحياة والأحياء ، ونسي الجيل أنها هي التي أسست أزهر حضارة وأنبلها وأثراها ، وأنها هي التي ربطت على قلب الأمة في هذا التاريخ الطويل ، وواجهت بها المحن والكروب ، ولم تفن كما فنيت الأمم ؛ لأن الثقافة الواحدة التي أصلها هذه المنظومة من العلوم العربية والإسلامية قد حفظت الإنسانية وحفظت الروابط وأبقت الناس كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا. نعم نحاول أن تقوم نهضتنا الفكرية على أساس عزل هذه المعرفة والاكتفاء بالمقتبسات والملخصات والمتون التي يتيسر لنا اقتباسها من الأمم الحديثة ، وهذا ضرب من الدوران حول الوهم ؛ لأننا لن ننهض بعلوم غيرنا ولن نحلِّق بأجنحتهم ولن نفكر بعقولهم ، هذا مخالف لطبائع الأشياء ، لابد أن تتحرك هذه المعارف التي عزلناها، ولابد أن تعود حاضرة على الساحة تؤدي في يومها ما أدته في التاريخ كله ، وأنا لا أعني حضور متون هذه العلوم ، وإنما أعني حضورها مادة استنباط واستلهام واستخراج ؛ لأننا ابتلينا في هذا العصر بقوم كانوا بمثابة الكارثة العقلية التي نزلت بنا ؛ وهي أنك ترانا نختلف عمن نأخذ عنه : آلقديم أم الجديد ؟ وكأننا اقتنعنا بدور الآخذ المتلقي ، والخلاف فقط في جهة التلقي : هؤلاء يحفظون المعرفة التراثية بمتونها وشروحها وكفى ؛ وهؤلاء يقتبسون من المعارف

قبسة من هنا وقبسة من هناك وكفى ، والفريقان يلتقيان في قاعة الحفظ والتلقين ، أما قاعة التأمل والاستخراج والابتكار والإبداع فقد أغْلِقَتْ في ديارنا منذ زمن بعيد وطارت العنقاء بمفاتيحها ، ونحن نناغي الإبداع الذي ضُرِب بيننا وبينه بسور له باب ، فنخرج مجلات نسميها «الإبداع» ونكتب كتبًا نسميها «الرؤية الجديدة أو الرؤية الإبداعية» ، فإذا أمعنت في هذا وذاك وجدت هذه العناوين لا تعدو أن تكون حنينًا يناغي هذا الشارد البعيد .

وأنا أحترم جهود العلماء وأقدِّر هذه الأنامل التي عاشت تحمل الأقلام وأوزارها وتخوض في قلب الأشياء ، تخطو فيها خطوة أو خطوتين ، ولكنني على يقين من أنكم متفقون على خلوّ حياتنا الفكرية من الإبداع والابتكار في عالم الفكر المتنوع وفي عالم المعرفة كلها ، إلا أن يكون ذلك لا يعدو هوامش وأعلاقًا ، تشبه فأفأة الناشئ المُتَلَعْثِم وأين هذا من الأصوات الصادحة في كل يوم بجديد والتي تهزنا هزًا وتزلزلنا زلزلاً

والمؤسف أن تجربتنا في هذا تجربة خصبة وأرضنا بها عامرة وكنوزنا مواتية ، ولكننا لم نبلغ أشُدَّنا ونستخرج كنزنا

عودوا قليلاً إلى الوراء وافتحوا كتاب «الخصائص» لأبي الفتح عثمان ابن جني ، تجدوا كتابًا تصدح كل صفحة منه بفكر جديد ، وتصدح أيضًا بأنها مُستَنْبَطَة من فكرة لسيبويه أو لأبي علي الفارسي أو لما شاء ابن جني أن تكون من شيوخه وإرث سلفه .

أقول : لا محيد لنا من حضور هذه العلوم على الساحة الفكرية ؛ لأنها هي طرائق الإبداع المُغيَّب عن أجيالنا ، وأكرر : أني لا أدعو إلى حضور

متونها وشروحها وأن نحفظها ونكررها كما يتسرع البعض في تشويه عقول الشيوخ ؛ وإنما أعني الحضور الذي له صورة حيَّة في تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، أعني حضورًا كحضور تراث سيبويه بين يدي عبد القاهر ، وهو يستل منه خيوط كتاب «دلائل الإعجاز» ويا بعد ما بين كتاب «دلائل الإعجاز» و«كتاب سيبويه» ؛ وأعني حضور علم أبي حنيفة بين يدي أبي يوسف وهو يشتق منه صيغًا فقهية جديدة ، ويمد منه جانبًا هنا ، ويلخص منه جانبًا هناك ، ويكشف جانبًا هنا ، ويبسط مجملاً ، ويدفع استدراكًا هناك ... وهكذا تجد حوارًا حيًا رائعًا يَخْلُق معرفة جديدة حرمنا منها منذ عزلنا هذه العلوم ووقفنا نحن الشيوخ عليها نحرسها حراسة كحراسة القبور .

وأؤكد : أننا إن لم نفعل فسوف نظل نركض وراء الوهم ، مهما تنطس المتنطسون وأكثروا في ضرورة قيام حياتنا الفكرية على أصول المعرفة عند الآخرين ، ولابد أن أضيف هنا بيانًا يدفع اللبس ؛ هذا البيان هو أننا لا نقبل الدعوة إلى عزل المعارف العربية ؛ لأن التاريخ لم يحدثنا عن ثقافة عاشت في عزلة ، لأن عزلة المعرفة أمر يتعارض مع طبائع الأشياء ، ولأننا مُسْتيقنون أن الحوار بين الثقافات عملية حتمية وباعثة للحيوية والتجديد والمراجعة ، كما أن تنوع المعرفة وتعدد مناهجها وطرائق تناولها يُخْصب العقل الدارس ويفتح أمامه مجالات الاستنباط ويعطي المعارف التي بين يديه مزيدًا من العمق والخصوبة ؛ لأن كثيرًا من شرائح المعرفة تعطي من العمق والسعة والخصوبة بمقدار عمق القارئ وسعته وخصوبته ، والدارس له دوره الأساسي في خلق المعرفة المفيدة في الكتاب الذي يقرؤه ، وقد فتح

الرسول (ﷺ) كل نوافذ المعرفة أمام العقل الإنساني الإسلامي حين قال : «الحكمة ضالة المؤمن» ، والضالة : هي الراحلة التي ضلت في الشعاب ، يبحث عنها صاحبها في الآفاق كلها ، وفي المظان كلها ويفتش عنها في كل سهل وحزْن ، وهكذا الكلمة الحكمة ؛ أي الكلمة الراشدة ، والفكرة الحية ، والكتاب الرائع .

وبهذا التوجيه النبوي الكريم تصير كل معارف الدنيا تحت بصيرة العقل الإسلامي : ينتقدها ويختار رشادها وهداها ، وبالطبع لن يصل إلى رَشَادها وهداها إلا إذا قرأ غيَّها وضلالها وسبر أغوار الغيّ حتى يستيقن أنه غيٌّ ، وبهذه السعة وهذا العمق يبدع العقل الإسلامي معارفه ويفتح آفاقه وينوع مناهجه ، يتوارث كل هذا بتمامه جيل بعد جيل ، وبهذا تنمو المعارف وتتسع وتغزر وتَتَنَزَّل من سحائب الأمة ومن صوب عقول علمائها ، وليس بالتحصيل والخطف من هنا وهناك ... هذا هو السبيل ، وهو سبيل صعب فيه لأواء لا يطيقها إلا أفراد العلماء ؛ لأنهم هم بناة الفكر والحياة ، وهذا يطرح عن الحياة الفكرية كثيرًا ممن اقتحموا ساحتها وهوَّشوا في مساحات كثيرة منها ولو خَبَرْت ما عندهم وجدته أشبه بالذي عند الباعة في الأسواق ، وقد صار وصف «المفكر» عندنا وصفًا شائعًا نُرسِلُه إرسالاً على من نَشَاء من خلق الله .

وبعد .. فإن الأستاذ العقاد وإن لم يكن تكلم كلاما مباشرًا يشرح لنا موقفه من التراث البلاغي ، فإننا نستطيع أن نستخلص من كلامه ما يبيِّنُ لنا أين يقع فكره من هذا التراث . ويمكننا ذلك مبتدئين من نقطتين ؛ الأولى : هي مقياس جودة الشعر والكتابة ، والثانية : هي ما تناوله تناولاً سريعًا من

مسائل اشترك فيها مع البلاغيين ، مثل القول بأن الشعر ليس لفظًا ومعنى فحسب وإنما هو تصوير بالألفاظ ، سواء كانت جارية على الحقيقة أو على المجاز وتحليله لأبيات :

ولما قضينا من منى كلَّ حاجةٍ ومسَّح بالأركانِ مَنْ هو ماسِحُ
وشدَّتْ على دُهْمِ المَهارَى رِحَالُنا ولم يَنْظُرِ الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

فقد طابقت طريقته في تحليل هذه الأبيات طريقة عبد القاهر مطابقة لا تختلف إلا فيما لا يلتفت إليه .

أما مقياس جودة الشاعر عند العقاد ، فهو مقدار ما استوعبه الشعر من صور الحياة وصور النفس ، واقتراب عقله وقلبه ووجدانه مما في الأشياء من عقل وقلب ووجدان ، الشاعر الفحل : هو الذي يقدح الأشياء ويستخرج بقدحه منها سِرْها المُبْهم ، يضرب منها موطن السر فيبعث فيها أرواحها وأسرارها ويوقظ عوالمها الغافيات .. الشاعر الفحل هو الذي يقرأ السطور المبتسرة والتي كتبتها يد الأزل في ضمير الأشياء وجعلتها طَلْسمًا ، فاغمًا لا يعرف لحنه إلا من أُوتوا منطق الأشياء وعلموا لُغَاها .

هذا شق من قياسه للشاعر الفحل ، والشق الآخر : هو أن يكون الشاعر قد نسج من شعره فلسفة له ومذهبًا خاصًا به ، وصار له منزع ينزع نحوه وقاعدة من النظر العقلي يرجع إليها ويصدر عنها

يقول الأستاذ العقاد :

« وحَدُّ الشاعر العظيم عندي : هو أن تتجلى في شعره صورة كاملة للطبيعة بجمالها وجلالها ، وعلانيتها وأسرارها ، أو أن يستخلص من

مجموع كلامه فلسفة للحياة ومذهبا في حقائقها وفروضها ، أيا كان هذا المذهب وأيا كانت هذه الغاية الملحوظة فيه .

فإذا اتجه الشاعر العظيم إلى الطبيعة وجد الذي يسمعك الخليقة الأولى منقولة في لفظ ، والسماوات والأرض منظومة في لحن ، ويُنْبِيك من هذه الدنيا الإلهية نبضات أغوارها ، وصَدْح أفلاكها ، وما توسوس به ، وما تزمجر من نغمات رضاها وغضبها ، وطلاسم صلاتها وتعاويذها ؛ يستوعب ذلك كله ألغازًا مبهمة ثم يرسله من خاطره المُتوَهج أرواحًا هائمة ، وشياطين جاثمة ، وعرائس ترقص ، وطيرًا تغرد ، وزهرا يتضوّع ، ومعاني يمتلئ بها جو هذه الدنيا حياة وركزا ، ويزدحم بها جوُّ النفس شعورًا وأملاً .. ويُسْمِعك أصداء النفس الإنسانية في جهرها ونجواها ، وفي شوقها وانقباضها ، وحين ترتفع في معارج الخير ، وحين تتردى في مهابط الشر ، ويترجم ألغازها وكتاباتها ، فإذا هي كلمات صريحة مأنوسة ، ويجمع أشتات هواجسها وأعشار تجاربها فإذا هي قوالب صحيحة ملموسة »

انتهى كلامه ، وهو كما نرى فيما وراء لسان الشاعر ، يعني في المعالجة الروحية ومراحل تخلقه في داخل النفس ولم يتكلم عن اللغة وعمق الشاعر فيها وكيف يستخرج من كهوفها المهملة بنية حية خاصة به .

وأريد أن أضع بإزاء هذا مقالة عبد القاهر شيخ البلاغيين في المسألة نفسها ، أعني فحولة الشعر والشعراء ، وقد وجدت مقابلة واضحة بين الموقفين تفسر هذه المقابلة ، الأمر الذي من أجله اتجه العقاد في نقده إلى تحليل صيغ الفكر ، واتجه عبد القاهر في نقده إلى تحليل صيغ اللغة .

يرى عبد القاهر أن فحولة الشاعر إنما تقاس بقدرته على إثراء الخصوصيات والأحوال اللغوية حتى تبدو هذه الخصوصيات والأحوال مفعمة بهواجس النفس وخواطرها وكأنها في شعر الشاعر خلقت خلقًا جديدًا ، وليس لهذا الجانب اللغوي أصلاً إلا ثراء المعاني التي اعتلجت في نفس صاحب البيان .

وإذا كانت الفحولة عند الأستاذ العقاد تعني القدرة على قدح الأشياء والأفكار ، فإن الفحولة عند عبد القاهر تعني القدرة على قدح اللغة واستخراج مكنون طاقتها ؛ حتى ترى في سطور الشاعر وكأنها شذرات مضيئة تتوهج بوهج فيه إشراقة الميلاد ، وكأن الخصوصية اللغوية لم تعرف إلا هنا ، وبمقدار ما في شعر الشاعر من هذا التوهج اللغوي المبهر الذي لا يوجد إلا لغزارة المعاني والخواطر يكون حظه من الفضل .

وكان عبد القاهر كثيرًا ما يستعمل كلمة القدح هذه ويرى أن استخراج دقائق اللغة والكشف عن الروابط والعلاقات القائمة إنما يكون بما يقتدحه العقل من زناده ليطابق ما يجده المرء في فؤاده .

وهذا المقياس اللغوي عند عبد القاهر ليس أساسًا في تمييز شعر الشاعر فحسب ، وإنما هو أساس في تمييز شعر العصور ، ولم أجد في تراث العربية من حاول وضع مقياس يقاس به الشعر الجاهلي ويميزه عن غيره إلا عند عبد القاهر ، وكان ذلك على هذا الأصل اللغوي فحسب ؛ لأن موضوع إثراء الخصوصيات اللغوية من أشق ما يكابده الشاعر ، لأنه - كما قلت - نفض الإلف العالق بالكلمات وبعث وهج جديد فيها ، وهذا أمر لا يطيقه إلا

من أوتوا فنًّا في بناء الكلام هم فيه أفراد ، وهو ضالة الشعر أو هو الشعر الخالص الصافي الذي لا يداخله شيء غير الشعر

وقد ذكر عبد القاهر في مواضع مختلفة أن البحتري أشعر المحدثين ، وذكر أن قدرته على إثراء الخصوصيات اللغوية فوق قدرات جمهرة الشعراء بعد الجاهليين ، ومع هذا قد تحتاج إلى أن تقرأ له القصيدة الكاملة من أجل أنه تعثر على تلك الشذرات المضيئة والتي تراه قد استطاع أن يفعم اللغة ؛ أي يملؤها بالدلالة التي تشرق في أحوال الألفاظ : من تعريف أو تنكير أو تقديم أو تأخير ، وليس الأمر كذلك في الشعر الذي ترى فيه هذه الفروق والوجوه تتكاثر عليك حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل ، وحتى تقول حين تقع عليها : هذا هذا . وما كان كذلك فهو الشعر الشاعر والكلام الفاخر والنمط العالي الشريف والذي لا تجده إلا في شعر الفحول البزل ثم المطبوعين الذين يلهمون القول إلهامًا . انتهى كلام الشيخ ، وأحسب أنه أراد شعراء الجاهلية .

هذا هو موضع الاهتمام عند عبد القاهر ، وهذا هو قياس الفحولة ، ولهذا احتشد في دراسته إلى تحليل اللغة : إفرادًا وتركيبًا وبحث فروق الصيغ وما تنبئ عنه هذه الفروق من خواطر وبوارق زخرت بها نفس المتكلم المبين ، وقد اتجه الأستاذ العقاد في الأصل الذي ذكره في بيان ماهية الشاعر العظيم إلى دراسة الأفكار والفلسفات وحظ الشعر الذي بين يديه من هذا الباب ، وكان ذلك مطردًا في نقده كله ، وتراه في الأحوال كلها يدع الشعر من حيث هو بناء لغوي وصيغ وأنغام ويحدثنا عن الشعر من حيث هو بناء

فكري تتشخَّص فيه رؤية الشاعر للأشياء ، ويرى أن شعراء الأمم الفحول ليسوا أئمة النهضة الفكرية فحسب ، وإنما هم قادة النهضات العلمية أيضًا وروّادها ؛ ليس لأن الشعر كالناقوس المنبه للأمم والحادي الذي يأخذ بزمام ركبها فحسب ، وإنما لأن مكانهم في تاريخ تقدم الأمم لا يُعفّيه ولا يَغُضُّ منه مكانهم في تاريخ الآداب والفنون .

وكان علاج العقاد لبعض المسائل اللغوية في الشعر صادرًا عن هذا الأصل الذي استحكم عنده واطرد ـ كما قلت ـ ؛ فكلامه في التشبيه يرجع إلى هذا الأصل الذي هو مصدره في النفس .

وتراث العقاد من أول كلمة نشرها إلى آخر ما كتب ـ رحمه الله ـ يمضي مطردًا على نسق واحد آخره كأوله ، إلا ما يكون من سعة الثقافة وعمق النظر ، ولم ينقض في مسيرته الحيَّة والزاخرة حرفًا أثبته يومًا ، وهذه أمارة التمكن والسيطرة والاقتدار .

وبعد : فإن النظر المدقق يرى أن كلام الشيخين : (عبد القاهر والعقاد) يرجع إلى أصل واحد ، وأنهما وجهان لحقيقة واحدة أو مدخلان يدلفان وينتهيان إلى شيء واحد : فدراسة العقاد دراسة لرجع الحياة وأصدائها في النفس الشاعرة ، دراسة للخواطر والبوارق والمنازع التي أودعها الشاعر في شعره والتي تشخَّص في النهاية روحًا هي روح الشاعر ، ووسما هو وسمه ، وطبعًا هو طبعه ؛ هي دراسة الشعر من حيث هو صور نفسية وحركة زاخرة جياشة داخل البناء اللغوي ، والأستاذ العقاد يدخل من هذا البناء اللغوي بسرعة إلى داخل هذا العالم الزاخر في الشعر، ولا يقف عند هذا الجسد

اللغوي يجسه ويَفْحَصُه ويتأمل نسجه ؛ ولذلك تراه وهو يتكلم في المجاز يشير إلى أن السامع أو القارئ يتخطى هذا الشكل اللُّغوي بسرعة من غير أن يتريث عنده أدنى ريث لما هو وراءه من معنى مراد لأن هذا المعنى هو لب الشعر والأدب أو هو عطاء النفس المدركة وهو ضالتنا وليس عطاء اللسان الناصع الذي لا يلتفت إليه العقاد .

وعبد القاهر يدخل هذا العالم نفسه ولكنه لا يَثِبُ من هذا المدخل اللغوي وثبة الجريء الناهض إلى ما وراءه ، وإنما يقف طويلاً يلامس اللغة ويسائل كل خيط فيها وكل نسج جرى في مجاريها ، يستخرج من كل ذلك أطياف النفوس وأهواء القلوب ، ويعلم أن حقل اللغة وترقيق لطائفها إنما هو من أجل المعاني ، فصقل حواشي اللغة إنما هو صقل حواشي المعاني وترقيق لطائف اللغة إنما هو للعبارة والإبانة عن رقائق المعاني . وقد وصف عبد القاهر طبيعة المادة التي يدور حولها درسه وقال مخاطبًا من جفا طبعه ولم يفطن إلى طبيعة هذه المادة وصفه بأنه لا يعلم « أن ههنا دقائق وأسرارًا طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ؛ وخصائص معان ينفرد بها قوم هُدُوا إليها ودلُّوا عليها ، وكُشِف لهم عنها ، ورفعت الحجب بينهم وبينها ، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام ووجب أن يفضل بعضه بعضًا »[1].

تأمل هذا الكلام وهو ظاهر الدلالة على أن بيضة الدرس في علم البلاغة هي تلك الخواطر الدقيقة والأسرار التائهة في ضباب اللغة وأنها لا تكشف

(١) دلائل الإعجاز: ص (٧) .

سرها ولا ترفع الحجاب دونها إلا لأقوام قد هُدوا إليها ودُلوا عليها ، والبناء للمفعول هنا يشير إلى أنهم أهل اللقانة وأنهم القوم الذين لهم في هذا الباب طبع طبعوا عليه ولهم هادٍ من نورالبصيرة مركوز في نفوسهم يدلهم عليه وأنهم :

من النفر البيض الذين إذا اعتزوا وهاب رجال حلقة الباب قعقعوا

وعبد القاهر يعلم أن الفكرة الحية المتوهجة لا تحفظ حياتها ووهجها إلا لغة حية متوهجة وأن أبكار المعاني تقتضي دائمًا صيغًا أبكارًا عُربًا ، وأن بلاغة الألفاظ لا يقام لها ميزان إلا بمقدار ما وراء تلك الألفاظ من ثراء العقول وودائع القلوب ، وأن العارفين بجوهر الكلام قد يتسامحون في لغتهم التي يُبيِّنون بها الكلام فيذكرون اللفظ الأنيق وهم إنما يريدون المعاني. قال : إذا رأيت البصير بجوهر الكلام يستحسن شعرًا أو يستجيد نثرًا ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق وحسن أنيق وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوي ، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده .

مرد الأمر عند عبد القاهر إلى الأفكار التي تقتدحها العقول والمعاني التي تزخر بها الأفئدة ، وبذلك نرى العقاد قد وقف على الربوة التي وقف عليها شيخ البلاغيين ، والفارق هو ما قلته ، وهو أن العقاد اقتحم البناء اللغوي اقتحام من لا يعبأ به ، حتى إنه قال : إن عظمة الكاتب والشاعر هي أن يبقى أدبه عظيمًا بعد ترجمته ، أي بعد أن نَهدِمَ بناءه وأنغامه ، ونقيم لهذه الأفكار

بناءً وأنغامًا بألسنتنا نحن ، ويقول عبد القاهر : إن أقل اهتزاز في بناء العبارة اللغوية مُذْهِبٌ لمضمونها ومحدث فرقا هائلاً بين صورها كهذا الفرق الذي نراه في قول العامة : الطبع لا يتغير . وقول المتنبي :

يُـــرَاد مـــن القلـــب نِسْـــيانكم وتـــأبى الطبـــاعُ علـــى الناقـــل

لا تقل : إن قوله : « وتأبى الطباع على النّاقل » هو قولنا : الطبع لا يتغير ؛ لأن هذا شعر حر ، وذاك كلام شائع مبذول ، ويا بعد ما بينهما . قلت : إن العقاد يلتقي مع شيخ البلاغيين على الربوة التي تنفجر عندها ينابيع المعاني في الشعر والأدب ، ثم يظل العقاد واقفًا على هذه الربوة يتأمل هذا التدفق غير ناظر إلى المدخل الذي دلف منه إليه ، بينما نجد عبد القاهر يتأمل كيف سلكت هذه الرؤى والأطياف ينابيع في اللغة والنفس ، وكيف تلاقت ، وكيف تناسقت حتى أفعمت هذا النبع الصافي الرقراق الذي هو قالبها اللغوي ، شعرًا كان أو نثرًا .

وأرى أن الدرس البلاغي لا محيد له من أن يضع الأمرين في يده ، يضع في يمينه التحليل اللغوي ، بل ويوسعه ويزيده عمقًا ، ويكشف عن الكثير من جوانبه التي لا تزال وراء الحجب ، لأننا لم نضف إلى الآفاق التي فتحها عبد القاهر أفقًا جديدًا ، وذلك لأن هذا التحليل اللغوي تناوله المتأخرون ونظموه وبوبوه وجعلوه علمًا من علوم البلاغة الثلاثة ، هو علم المعاني ، وهو من أجلّ علوم اللسان وأقدرها على الكشف عن طاقاته وأعونها على تحليل الشعر والأدب ، ومع هذا قد أدارت له جامعاتنا ظهرها ، وبقي شاحبًا في أروقة الأزهر الشريف الذي رمته مصر في سنواته الأخيرة بكل الأدواء

وكل الأرزاء ، حتى إنه أوشك أن ينقض ، وعلماء مصر ومفكروها وأدباؤها وكتابها وساستها يرون هذا الشريف ينزع روحه الغائرة في تراب مصر منذ أكثر من ألف عام ، وهم صامتون صمت من لا يدري ؛ لأن وسائل الإعلام ـ لأمر مريب ـ حرمت نعيه للأمة ؛ لأنه يراد له أن يموت في صمت ويبقى جسدًا محنطًا ، نخدع بجسده هذه الأمم الإسلامية بأننا بلد الأزهر الشريف ، وهذا شيء أحببت أن أنبهكم إليه ؛ لأن ذكره أمانة لكم في عنقي ، حيث أراه كل يوم يذبح ذبحًا من بعد ذبح ، ويقتل قتلاً من بعد قتل ، ولو مات عِيرٌ في الحي لشغل به الناس .

أقول إن هذا العلم الفذ الرائع لم تبق منه إلا صور شاحبة في الأزهر المذبوح ، وحال هذا العلم كحال غيره من علوم الفقه والتفسير والحديث ومنظومة علوم الأمة سيتم نعيها يوم يسمح بنعي الأزهر الشريف . وأقول هذا ونفسي تتساقط حسرات ولا مفر من بيانه لكم وأنتم حراس الحرمات وحماة المعاقل ، وكلكم يعلم خطر الأزهر ولم يتحرك قلم واحد لدفع الغوائل عن هذا الشريف الذي طالما دفع عن مصر الغوائل . وهذا استطراد لابد منه ، وأهميته تدعو إلى التماس المناسبة لسوقه .

أقول إن الدرس البلاغي لا محيد له من أن يضع في يمينه التحليل اللغوي ويزيده سعة وعمقًا ثم يُولِي عناية أكثر لهذا العلم الزاخر الذي يسكن هذا البناء اللغوي والذي وقف عنده العقاد ، وأشهد أن هذا العلم الزاخر الثاوي في الكلمات وإن كان مقصود الدراسة البلاغية إلا أنه في الدراسة المتأخرة لم يجد حيزاً كثيرًا يشغله حتى يتعرف عليه الدارس ويتذوقه ويألفه ؛ لأن له

أشكالاً وألوانًا وسيما هي أشكال الشعراء وألوانهم وسيماهم ، وأن أنساق اللغة وإن تشابهت كما يقول الأستاذ العقاد فإن أنساق الأفكار لا تتشابه ألبتة ، وهذا هو خير ما نقتبسه في بحثنا هذا ، وندعو إلى المزيد منه في الدراسة البلاغية ، وليس إلى الإفراط فيه ؛ لأن الدرس البلاغي درس لغوي قبل كل شيء وبعد كل شيء .

وبهذا يتحقق الدرس البلاغي كما أراده عبد القاهر الذي أنكر بلاغة الأشداق وأسس دراسته على بيان بلاغة القلوب والعقول ، والعبرة ليست بما تسمعه الأذن وإنما بما يعيه القلب ، وسلسلة الترابط اللغوي إنما هي تجسيد لسلسلة ترابط الكلام في النفس . فالفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة كل ذلك تمت صياغته داخل النفس قبل أن يتحركِ اللسان بلفظه ، إنما جاء ترتيب الألفاظ في النطق على وفق ترتيب المعانى في النفس ، وإن الكلام لفي الفؤاد ، والبلاغة كذلك في الفؤاد ، وهو ما يقوله الأستاذ العقاد الذي يميل ميلاً شديدًا عن الحفاوة بالألفاظ وتهذيبها إذا أهمل الشاعر الحفاوة بالأفكار واستخراجها ، أما إذا كانت العناية باللفظ بقدر العناية بالمعنى فلا أحسب العقاد ينكر ذلك ؛ لأنه كان حفيًّا بلغته وبصقلها وتزويقها وتوقيعها ، ولكن تيار الفكر المتدفق فيها ينسينا ذلك ويشغلنا عنه .

بل إن العقاد نبه إلى مسألة مهمة هي في فطرة ذوي النفوس السليمة ؛ وهي أنهم يعنون بلغتهم بمقدار عنايتهم بأقدارهم ، وأن من يَسْتَشْعِر من نفسه السقوط والدونية لا يحفل بلغته ، ولذلك يربط صقل الكلام والارتقاء بالمستوى اللغوي بهذا الجانب الاجتماعي والنفسي ، وأن كثيرًا ممن تسمعهم

يتكلمون لغة سوقية هم في قرارة نفوسهم سوقيون ، ووشاح أهل القدر الذي يرتدونه كذب ومسروق . وهذه لطيفة من لطائف العقاد . وقد جاء في كلام العقاد كثير من الفقر في موضوعات مهمة ، وهي تتلاقى في مضمونها مع كلام عبد القاهر ، وذلك راجع إلى ما ذهبنا إليه من أن الرجلين يلتقيان في النهاية على ربوة واحدة مع استقامة الفكر وصحة الطبع ودقة النظر ، وهذا كله يقود إلى التشابه ، وسأسوق هنا قليلاً من كثير .

وأبدأ هنا بمسألة لطيفة ؛ هي أن حوارًا جرى بين الأستاذ العقاد وبعض علمائنا المحافظين ـ كما كانوا يوصفون ـ حول عجمة بعض أساليب الكتاب ، وذكر المشتغل بالعلوم القديمة أن مظهر العجمة هو حذف واو العطف كثيرًا ، وبناء الجمل المتواترة من غير عاطف ؛ لأن هذا من طرائق لغات الفرنجة . ولم يقبل الأستاذ العقاد هذا وقال : إنه يرى أن حذف الواو أو ذكرها يرجع إلى أمور ذهنية وملاحظات عقلية تلحظ صلات الأفكار بعضها ببعض .

وهذا الذي استخرجه العقاد بتفقده لصيغ الكلام ليس بعيدا عن الذي قرره عبد القاهر فيما سماه كمال الاتصال ، يعني أن الفكرة موصولة بالتي قبلها اتصالاً من ذات نفسها يغنينا عن ذكر الرابطة التي هي الواو .

هذه واحدة .

والثانية : أن العقاد ذكر «أن الجمال لا يقوم بالأشكال المفرغة من المعاني ولا ينجلي للحس وحده دون القريحة بل الشكل الجميل هو أداة المعنى إلى الظهور ، وشأنه أن يتلاشى ساعة يبرز لك معناه وأن ينسيك نفسه كل النسيان حين يخلص بك إلى ذلك المعنى المجرد . فأحسن

الأشكال وأوفقها هو الشكل الذي تتخطاه إلى دلالته ، وعالم الفن هو عالم المعاني المجردة لا عالم الأشكال الملموسة»[1]

وهذا النص ليس بعيدا عن قول عبد القاهر : «قد فرغنا الآن من جنس المزية وأنها ليست لك حين تسمع بأذنك ، بل حين تنظر بقلبك وتستعين بفكرك وتعمل رويتك وتراجع عقلك وتستنجد في الجملة فهمك»[2]

والمزية في كلام الإمام هي الجمال في كلام العقاد ، ووظيفة الشكل في كلام العقاد هي أن يبرز لك معناه وأن ينسيك نفسه كل النسيان . وقد عبر عبد القاهر عن هذا حين ذكر ما سماه **«معنى المعنى»** في المجازات والكنايات وأن فضلها إنما يكون بمقدار ما فيها من صفاء يشف عما وراءها من معان حتى ينفذ الذهن من هذه الصور إلى المعاني التي وراءها من غير أن يتعثر وأن يسفر الشكل بينك وبين المعنى أحسن سفارة ..

عرض الأستاذ العقاد موضوع السهولة في الأدب والحزونة فيه ، قال : «وإنما تمدح السهولة في الأدب ثم تدل على النبوغ والمقدرة إذا أدى بها الأديب المعاني التي يؤديها غيره بمشقة واعتساف ، أما إذا ضرب صفحًا عن تلك المعاني فلم يشعر بها ، ولم يعالج نظمها وتصويرها ، وتعداها إلى غيرها مما لا يصعب نظمه وتصويره ، فأي فضل في سهولته وأي مقدرة له في اجتناب المأزق الذي تختبر فيه المقدرة»

---

(١) مطالعات في الفنون والآداب : ص ٤٦١ .

(٢) دلائل الإعجاز : ص ٥١ (رشيد رضا) .

والعقاد يرفض الأدب السهل الذي يراد به التسلية وشغل الفراغ ، ويرفض أن يكون الأديب مروحًا عن الناس بأدبه كما يروح الخادم عن مخدومه . وكلامه ظاهر في هذا . وهو يلتقي مع عبد القاهر الذي يقيس الأدب بمقدار ما يحوج من الفكر والمعاناة والمكابدة ، ولو كان الأدب العالي لا يحوج في استنباطه إلى الفكر وكد القريحة لكان الناس عامتهم وخاصتهم على قدم واحد في فهم الشعر ، ولاستوى بيت من الشعر العالي ونداء الباعة في الأسواق . ثم يقول : ولا ترى فضيلة حتى يكون في الأمر مصنعًا ، أي مجهودًا مبذولاً ، ثم يذكر المواهب التي تخفى في شعرها كدها وما أنفقته من مجهود في ترقيق المعاني وتدقيقها وبناء ثانيها على أولها حتى ترى الشعر وقد خلا مما كان يسميه ابن قتيبة « رشح الجبين » .

وإذا تأملت وراجعت وجدت المجهود والكد ودقائق الصنعة ؛ لأن المعاني الشريفة لابد فيها من بناء ثان على أول ورد تال إلى سابق ، ثم يذكر عبد القاهر « أن البحتري قد برع في هذا الباب الذي هو تذليل المعاني الصعبة وسوقها لك سهلة وإنه ليروض لك المهر الأرن حتى يعنق من تحتك إعناق القارح المذلل ، وينزع من شماس الصعب الجامح حتى يلين لك لين المنقاد الطيع » .

وهذا هو قول العقاد : « إنما تمدح السهولة في الأدب ثم تدل على النبوغ إذا أدى بها الأديب المعاني التي يؤديها غيره بمشقة واعتساف ، يعني يروض لك المهر الأرن حتى يعنق من تحتك إعناق القارح المذلل . والفرق بين الكلامين في نحت اللغة ونحت الصور ، وكل له في هذا طريق ومذهب .

قال العقاد في تحديد ماهية الكاتب : «الكاتب من تَشَخّص له في كتابته روح يتجلى فيها نهجه ومذهبه وسياق أفكاره ، وهذه الروح هي السمة التي تُميّز بين قلم وقلم ، فإذا كانت تتضاهي أنساق الأيدي ، فأنساق العقول لا تتضاهى إلا إذا كان منحاها فيها التقليد لا الابتكار» وهذا جيد ولكنه شديد الإجمال والإبهام ، ومتى نستطيع شرح نهج الكاتب ومذهبه وسياق أفكاره ؟ ليس في كل الذي بين أيدينا من دراسات دراسة عن كاتب واحد شرحت وسم هذا الكاتب الذي يتميز به شرحًا يجعل وسمه لا يلتبس بوسم غيره.

وهذا بتمامه في كلام الشيوخ الأوائل وإن كنا نعدُّه من أثر اتصالنا بالفكر الحديث لأن كلام الشيوخ غائب ومُغيّب.

قال أبو بكر بن الطيب ، وهو رجل كتب في النبوات والعقائد ولم يكتب في اللغة والأدب وكان قليل الاطلاع في هذا الباب ، قال وهو يذكر نقده الكلام وأصحاب الصنعة : «ولا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سبك أبي نواس من سَبْكِ مسلم ، ولا نَسْج ابن الرومي من نسج البحتري ، وينبهه ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه وبديع رونقه وبهجة كلامه إلا فيما يسترسل فيه فيشتبه بشعر ابن الرومي ويحركه ما لشعر أبي نواس من الحلاوة والرقة والرشاقة والسلاسة حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم . وكذلك يميز بين شعر الأعشى في التصرف وبين شعر امرئ القيس ، وبين شعر النابغة وزهير ، وبين شعر جرير والأخطل ، والبعيث والفرزدق ، وكل له نهج معروف وطريق مألوف .. إلى آخر ما قال .

وهو يقطع بأن العارف بجوهر الكلام لا يلتبس عليه شعر بشعر ؛ لأن كل شعر فيه وسم صاحبه وفيه صنعته وفيه رصفه وسبكه ، وقد يشتبه الطريقان في بناء الشعر ؛ لأن أحدهما بمثابة الراوي للآخر والمحتذي به ، ولكن هذا اللبس لا يجعل التميز محالاً بل صعبًا ، وخصوصًا إذا ظل الشاعر زمنًا يحوم في بناء شعره حول بناء غيره ويجعل شعر غيره قدوة له ، هذا أيضًا لا يخفى على العالم بهذا الشأن ، بل يعلمه كما يعلم البزاز أن هذا الديباج صنع بتستر وهذا لم يعمل بتستر . وهي مدينة من كور الأهواز فتحها أبو موسى الأشعري في عهد عمر رضي الله عنهما وكانت بها مصانع للثياب والعمائم .

وبهذا الحسم أبان القاضي هذا الأمر وظل كلامه هذا جاثمًا في مكمنه وطيَّرنا نحن مقالة الآخرين في أن الأسلوب هو الرجل واقترن ذلك بأسماء أعجمية عرفها عندنا نساؤنا وعجائزنا ، وظل اسم أبي بكر بن الطيب في ضباب النسيان ولو أن العقاد قرأ هذا لوقف عنده .

وأتجاوز هذا لأقف عند مسألة مهمة ؛ هي مقالة العقاد في التشبيه وأبدأ حديث العقاد في التشبيه بكلمة قالها الدكتور عبد المحسن بدر في مجلة ألف التي تصدرها الجامعة الأمريكية وذكر فيها أنه اطلع على نسخة الأستاذ عبد الرحمن شكري لديوان بولدير « أزهار الشر » ولحظ علامات تدل على عناية الأستاذ شكري ببعض أفكار الديوان ومقدمته . وبمراجعة دواوين الأستاذ عبد الرحمن شكري وجد هذه الأفكار ، ومنها مسألة التشبيه التي ذكرها في مقدمة ديوانه ، وقد أخذها الأستاذ العقاد ونفخ فيها من روحه

القوية فأشاعها على الحد الذي نراه . وهذا مني اختصار مخل لكلام مبسوط في هذا البحث . والمهم في سياقنا هو أن الأستاذ العقاد ذكر ما ذكره عن التشبيه وهو بصدد الإبانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة . وهذا سياق يوجب التدقيق في مراجعة ما يكتب عن القديم ، وقد جاء ذلك في كتاب الديوان الذي هو بمثابة عاصفة أُرسلت على شعر شوقي ومن وصفهم العقاد بالمقلدين ، وهذا شيء آخر يغري بالحذر ومزيد المراجعة . ثم إن العقاد ذكر في مقدمة الديوان أنه إقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما . ومراده بالعهدين : المذهب الجديد في الشعر والنقد ، والمذهب القديم ، وأن غاية هذا الديوان هي تحطيم الأصنام إلى آخر ما يؤكد ما ذهبنا إليه من ضرورة مزيد من المراجعة لأفكاره .

وقد ذكر الأستاذ العقاد ـ تعليقًا على قصة ابن الرومي لما سمع بعض تشبيهات ابن المعتز ، ومنها في وصف القمر :

انظر إليه كَزَوْرقٍ من فضّة ... قد أثقلته حُمُولة من عنبر

ومنها :

ونسيم يُبشّر الأرض بالقَطْر ... كَذَيلِ الغُلالةِ المَبْلُول
ووجوه البلاد تنتظر الغَيْث ... انتظار المُحِبّ رجع الرسول

فقد قال ابن الرومي : واغوثاه !! إنما يصف ماعون بيته ، أما أنا فإني أحسن أن أقول في وصف الخباز ، وذكر أبياته .

قال الأستاذ العقاد : وقد تَصِحُّ هذه القصة أولا ولكنها على الحالتين تدل على رأي شائع في التشبيه بين الذين كانوا يتعاطون الأدب في عصر

ابن الرومي وبين الذين يتعاطونه في هذه الأيام ، فلابن المعتز تشبيهات كثيرة أبلغ من هذه التي مرت في القصة وأجمل وأنقى في المعنى والديباجة ولكنهم لا يختارون له في مقام التحدي والتعجيز إلا هذه الأبيات وأمثالها ؛ لظنهم أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه به ، وأن الغرض من التشبيه إنما هو مضاهاة أبيض على أبيض وأصفر على أصفر ومستدير على مستدير ومستطيل على مستطيل ، مما يرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، فالشاعر الذي يصف النجوم ويشبهها بالجواهر والحلي هو الشاعر غير مدافع ، هو المثل الأعلى في هذه الصناعة ثم يليه الشعراء على حسب الأسعار في سوق المشبهات .. إلى آخر ما قال ، رحمه الله وعفا عنا وعنه .

ومع صرف النظر عن أن العقاد هنا يقعقع وراء شعراء العربية وعلمائها بعصاة رومية استلها صاحبه من مقدمة ديوان بولدير ، إلا أنـي لم أر للعقاد كلامًا يداخله الخلل كما في هذا الكلام ؛ وذلك لأن وصف ابن المعتز للقمر لم يقل أحد إنهم اختاروه له في مقام التحدي ، وأين التحدي هنا ؟ إنما هو مثال من بين عشرات ومئات الأمثلة التي يسوقها البلاغيون لبيان وشرح أصولهم ، والمسألة التي ذكر فيها هذا البيت مسألة محدودة جدًا وضيقة جدًا ، حتى إن الجهل بها لا يضر ، ومع ذلك جعلها أصحابنا سبيلاً إلى التشهير بالبلاغة كلها ، وبالبلاغيين جميعًا ، وبالشعر كله ، وبالشعراء جميعًا ، وهذا عجيب لو صدر من أصاغرنا فكيف وقد صدر من أكرم وأكبر كتابنا ؟

المسألة هي بيان المركب الخيالي من التشبيه ، وهو ما كان مكونًا من عناصر حقيقية ولكن صورته النهائية ليس لها وجود في الواقع ، فالزورق

موجود والفضة موجودة والعنبر موجود ولكن زورق الفضة المُثقل بحمولة من عنبر ليس موجودًا وهذا كل كلام البلاغيين في هذا البيت ، وقد يذكرون من هذا السياق أمثلة مؤلفة مثل : بعير له رأس ثور ، أو حسناء لها جناح يمامة ، وهكذا كما تقول في النحو : ضرب زيد عمراً ، وهم في مثل هذا يصفون الجنس لا النوع ، بمعنى أنهم يقولون إن الشاعر الذي يضيف صوراً غير موجودة يكون جهده في صنعته أكبر ممن يقتبس الصور المعروفة . وهذا كلام يمكن أن يناقش ، ويقبل أو يرفض ، أما أن نقول إنهم اختاروا لابن المعتز في مقام التحدي قوله في وصف الهلال ، وأن ذلك راجع إلى فساد في أذواقهم ، فهذا من الخطأ المحض الذي لم يَشْتم ريح الصواب . وكأن الله سبحانه يرينا آياته في الإنسان وأن بلوغه الغاية في القوة والتمكن لا يمنع أن تراه قد تعثر في الذي لا يتعثر فيه الصغير الوهنان ، فاحذر أن تأخذ عن الكبار وأنت معصوب العينين وتأكد أنني لا أستطيع أن أحصى لك ما أخذته من العقاد .

وقول الأستاذ العقاد : هذه القصة قد تصح أو لا تصح ، تشكيك في قصة سبق التشكيك فيها ، وأحسب أنه قال هذا ليحتاط في هجومه على صورة استحسنها ابن الرومي إلى حد أنه صاح عند سماعها وقال معتذراً عن عجزه عن مثلها : واغوثاه ، إنما يصف ماعون بيته . وابن الرومي عند العقاد صاحب ملكة في التصوير يسبق بها شعراء العربية قضبهم وقضيضهم ، بل يسبق بها شعراء الأمم ، ولو كان قد نبغ في أُمة ذات عناية بالتصوير لكان من فحولة هذا الباب ، هكذا قال العقاد . ومع تفوقه في تذوق الصور هذا التفوق فقد شهد لهذا البيت وجعله أثراً من آثار رفاهة العيش ، وقد كان

شوقي يعيش قريبًا منها ، وهذا مأزق أراد العقاد أن يفسحه بقوله : وقد تصح هذه القصة أو لا تصح .

ثم إن الأستاذ العقاد وصف الشعراء والمتذوقين للشعر في زمن ابن الرومي بأنهم يظنون أن نفاسة التشبيه تقاس بنفاسة المشبه به ، وأن الغرض من التشبيه مضاهاة أبيض على أبيض وأصفر على أصفر ومستدير على مستدير مما يرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، إلى آخره .

وهذا النص غريب ، وكأنه يتكلم عن خلق آخر غير الذين نعرفهم ، وعن شعر آخر غير الذي نعرفه ، وزمن ابن الرُّومي زمن الأئمة الأعيان والعلماء الأعلام في اللغة والشعر والرواية والعلوم كلها ، والوصف الذي ذكره الأستاذ ينفي عنهم صفة العقل ؛ لأن من يعتقد أن نفاسة التشبيه تقاس بنفاسة المشبه به لا يكون صاحب عقل يميز به ، ومن يعتقد أن همك وسدمك من الكلام أن تضع أبيض بإزاء أبيض وأصفر بإزاء أصفر ومستدير مع مستدير ، لا يكون إنسانًا يُكلَّم ، فضلاً عن أن يكون له تراث يُقَيِّده العقلاء ويتدارسه العلماء .

هذا كلام ينصب على أزهى عصور العربية ويقطر سخرية على رءوس أعيان علمائها ، وهو باطل كله ، فلم نقرأ حرفًا واحدًا لعالم من علمائنا في زمن ابن الرومي وغيره يثبت كلمة واحدة مما قاله الأستاذ العقاد وإنما قرأنا ما ينقضه نقضًا كاملاً ولا يبقي منه شيئًا .

وهذا طرف من كلامهم :

« ليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمرًا تستدعيه حال المتمثل له وتستجره إلى نفسها فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك

القضية .. وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا : أجمع من ذرة ، وأجرأ من ذباب ، وأسمع من قراد ، وأجرأ من جرادة ، وأضعف من فراشة ، وآكل من سوس .. انتهى كلامهم .

فهل يصح لمن اطلع على هذا أن يقول إن نفاسة التشبيه تقاس بنفاسة المشبه به ، وأن من يشبه بالجواهر والحلي هو الشاعر غير مدافع ، وهو المثل الأعلى في الصناعة ، ثم يليه الشعراء على حسب الأسعار في سوق المشبهات وإذا لم يكن اضطلع على هذا فهل يصح أن يتكلم فيما لا يعلم ؟ وهل يليق بالعقاد أن يتكلم فيما لا يعلم ؟.

ثم إن الناس عامتهم وخاصتهم يسمعون الكلام العالي وفيه تشبيه بالحجارة وبالكلب إن تحمل عليه يلهث وبالحمار يحمل أسفاراً وبالبعوضة فما فوقها وبالذباب الذي يسلبهم شيئًا .. إلى آخره ، والقرآن لا يعلم الناس الدين فحسب وإنما يعلمهم اللغة والعبارة الرائعة .

وأما القول بأن همَّهم أن يَضَعُوا لونًا إزاء لون وشكلاً بإزاء شكل من غير نظر إلى أنه أحس وتخيّل .. إلى آخره ، فقد تكرر هذا في كلام العقاد وقد ذكره في موضعين مختلفين في نقده لقصيدة شوقي في رثاء فريد :

كُلُّ حَيٍّ على المَنِيَّةِ غادِ ... تتوالى الركابُ والموتُ حادِ

ذهب الأولون قرنًا فقرنًا ... لم يدم حاضرٌ ولم يبقَ بادِ

هل ترى منهم وتسمع عنهم ... غير باقي مآثرٍ وأيادي

وذكر العقاد في نقده لقول شوقي :

تطلع الشمس حيث تطلع صُبْحًا وتُنحَّى لمنجل حصاد
تلك حمراء في السماء وهذا أعوج النصل من مراس الجلاد

قال : إن التشبيه جريرة لم يجنها على لغة العرب إلا زغل الصناعة لاجزى الله صانعيها خيراً ، جعلوا التشبيه غاية ... ولم يتوسلوا به إلى جلاء معنى أو تقريب صورة ، ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به ، كأن الأشياء قد فقدت علاقاتها الطبيعية إلى آخر ما قال . وذكر بعض تشبيهات ابن المعتز وسخر منها ، ثم مضى به الكلام حتى جاء إلى قول شوقي في القصيدة نفسها بذكر الجنازة :

لو تركتم لها الزِّمَامَ لجاءت وحدها بالشّهيد دار الرشاد

وفي تعليقه على هذا البيت قال كلامه المشهور :

«اعلم أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزيته أن يقول لك ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به ، وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا في أشواط البصر والسمع ، وإنما همهم أن يتعاطفوا .. إلى آخر ما جاء في هذا النص ، وهو نص جيد وحافل وفيه علم نافع وفكر سديد .

ولكن الذي يجب أن يقال هو أن العقاد في كثير مما ذكره في فساد التشبيه عند شوقي على حد ما رأى قد ربط بين تشبيهات شوقي وتشبيهات القدماء وأنها هي الأخرى فاسدة وأن القوم كان همُّهم أن يضعوا لنا لونًا بإزاء لون وشكلا بإزاء شكل ، وما دام قد اتفق لهم ذلك فلا يعنيهم ما يقع في

النفس الحساسة من نبوّ وإيحاش بسبب ما ينطوي عليه أحد الشكلين من ظلال باعثة لهذا النبو وهذا الإيحاش ، فلا مراعاة مطلقًا للسياق النفسي ما دام التشبيه قد أبان عن الوجه الجامع المحسوس .

وهذا الكلام قد طار به الكاتبون في كتبهم وبحوثهم ومقالاتهم حتى دخل كتب صغار التلاميذ في مدارسنا وصار أبناؤنا المبتدئون يتحدثون عن فساد ذوق القدماء وأنه يتسم بالحسية وفقد الإحساس بالموحيات النفسية والرقائق الوجدانية ، والمهم عندهم أبيض مع أبيض ومستدير مع مستدير .

ونقرأ كلام العقاد هذا مع تحريفات تقصد إلى مزيد من وصف أذواق البلاغيين بالبلادة والتوحش وكذلك الشعراء ، وهو في الكتب لم يَعُدْ يُنْسَبُ إلى العقاد وإنما يسوقه زيد وعمرو موهمين بأنه من استنباطاتهم أو أنه من المقررات العامة مثل رفع الفاعل ونصب المفعول . وقد تجد هذا النص ، وهو أكثر جهارة بالمنادات على فساد أذواق القدماء ، في كتب رجال انتفخت أوداجهم لكثرة ما وصفوا به من التفوق وسعة الذرع وبسطة العقل على الفكر الإنساني كله ، يغترف من أي ينابيعه شاء . والواجب على أهل العلم خلاف ذلك ، واجبهم أن يراجعوا وأن يقبلوا ما يقبله صريح العقل وأن يَرُدُّوا ما يردُّه ، ولا غضاضة أبدًا أن نرد على الأستاذ العقاد بعض مقالته ولا ينقص ذلك ذرة من قدره ؛ لأن مذهبه مذهب العلماء الكبار : يأخذون ويدعون ، وينقدون ويحللون ، ولم أر الأستاذ العقاد في سطر واحد كتبه محصلاً لمعرفة وإنما رأيته في كل سطر سطره ناقدًا للمعرفة ، وبهذا كان من العلماء ، وقديمًا قالوا : إن العالم من أخذ وأُخِذ عنه ، وردَّ ورُدَّ عليه ، وناقش ونوقش . وردُّ مقالة العالم اعتبارٌ له كأخذها من غير فرق . وقد قال

مالك «كل ذي كلام يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ»، وقد استدرك عليه العلماء وقالوا إلا صاحب هذا القبر فيما أمر ببلاغه عن ربه، أما حين يتكلم بعيدا عن البلاغ فإنه يؤخذ منه ويرد عليه وهذا هو المنهج الذي ربّى العلماء وهو صالح حتى تقوم الساعة لتربية العلماء؛ لأنه يعني تربية العقل الناقد وليس العقل المحصِّل، ومن المؤسف أن هذا الأصل القريب قد تاه منا وصار نقد الرأي يعني عند الكثيرين المغاضبة والمهاجمة، وهذا بكل قياس جاهلية في سوق العلم. وفتح باب الخراب في سوق السياسة وأخشى أن نظل في هذه الجاهلية نتحرك إلى الخلف والعالم بالعلم يتحرك إلى الأمام وسوف يبقى هذا الأمر المخيف حتى يبسط العلم سلطانه على ربوع الكنانة وحتى يدرك الكل أنه هو الحلّ.

أما أن البلاغيين كان لا يعنيهم من التشبيه إلا أن يجدوا مطابقة في الألوان والأشكال، فهذا خطأ محض؛ لأن كلامهم مشحون بخلافه؛ وكثيرًا ما وقفوا يردون الأشكال والمزية الحسية، وقد قدمت قولهم، وهو مجمع عليه: «إن المزايا ليست لك حيث ترى بعينك وتسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك وتستيقن بفكرك وتُعمِل رَوِيَّتك وتراجع عقلك وتَسْتَنْجِدُ في الجملة فهمك».

وكانوا كثيرًا ما يتمثلون بقول الأول:

إذا لم تُشَاهِدْ غيرَ حسنِ شياتها وأعضائها، فالحسنُ عنك مغيب

وهذا كلام جيد وأصل يتسع فيكشف عن ذوق رفيع في التعرف على مجالي الجمال، فليس الجمال في حسن المنظر وبهاء الأعضاء وإنما يسكن

الجمال وراء ذلك ، من لم يتفقده ببصيرة حية فهو مغيب عنه ، فكيف تصف مَنْ يتَمثّلُ بهذا الفهم المتحضر بأن همهم وسدمهم أن يروا مستديرًا بجانب مستدير وأصفر بإزاء أصفر وأنهم أمة يذوقون الجمال بحواسهم وأنوفهم ، هذا غريب وأغرب منه أن يشيع في الكتب وأن تكون هذه الكتب الحاملة لهذا الافتراء وهذا الباطل موسومة بأسماء رجال بلغ السماءَ مجدُهم وثناؤهم . وأعجب من العجب أن نجد لذة في القدح في آبائنا وأن نسخر منهم ، هذا لم أجده في كلام خلف عن سلف ولو في أمة واق الواق أو يأجوج ومأجوج .

وأما أن البلاغيين يستحسنون سوق المشبه في غير سياقه النفسي غير منتبهين إلى ما يكون وراء ذلك من صدم للشعور ونبوٍّ لأحوال النفس لأن ذوقهم الحسي المادي الخشن أجفى من أن يفطن إلى ذلك ، فهذا كلام يجب فيه فضل البيان ، وذلك لأنه ليس بلازم في كل تشبيه أن يكون وراءه معنى نفسي وأن يكون الشاعر قد قصد فيه إلى أن يطبع في نفس سامعه صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسه ، فليس كل معنى موجبًا لذلك ولا كل سياق بمقتضيه وإنما هو لازم وضروري في المقامات المقتضبة والمواقف المفعمة ، وقد يقتضي السياق مجرد البيان المنوط بالشكل الحسي من غير ملاحظة شيء وراء ذلك ، وقد جاء هذا في شعر العقاد ، وسأقرأ مقطوعة من شعره يصف فيها هذا ، وذاك :

قال يصف الغمائم :

حي الغمائم في السماء كأنها طير سرت في مستهل ربيع

بيضـاء ترتـع في فضـاء شاسـع ... صافي السرَّاة علـى السـنا مرفـوع
طـورا لتمسـيح الـذيول وتـارة ... كـالرغو بـين مُفَـرَّق وجـميع
والدوح مهـدول الأرائـك سـاهم ... كالعاشـقين هُنَيْهَـة التوديـع
والـماء كالـممـرور في وسواسـه ... يشـجوك منـه تـرنُّم المفجـوع

إلى آخره وأي وجدان انطبع في نفس الشاعر وأراد أن يطبعه في نفس قارئه في تشبيه الغمائم بالرغو بين مفرق وجميع ، إنها الصورة الحسية التي هي البياض والخفة فحسب ، وكذلك في قوله « طوراً لتمسيح الذيول » وحسب التشبيه أنه أبان ما يراد به . وأنا لا أعيب هذه التشبيهات ، وإنما أقول إنها حسنة رَغْم تخلف ما اشترطه الأستاذ العقاد في قبول التشبيهات .

وقد وجدت في الكلام العلي كثيراً من التشبيهات التي لا يراد بها إلا شرح وبيان أحوال حسية ، من ذلك قوله تعالى في شأن يهود لما ردُّوا تعاليم التوراة ورفع الله فوقهم الجبل فخرَّ كل يهودي على جانبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من سقوطه ، وهم كذلك يسجدون إلى الآن ويقولون إنها السجدة التي رفع الله بها عنهم العذاب ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ (الأعراف:١٧١) . ومعنى نتقنا : أي رفعنا . والظلة : ما أظلك من سقيفة أو سحاب .

التشبيه هنا لا شيء فيه أكثر من التصوير الحسي لرفع الجبل حتى صار على رءوسهم ، وهذا حَسْبُ البيان ؛ لأن المراد معقود على ذلك لا غير ، وخاصة أن المشبه أمر غريب ، وهو اقتلاع الجبل وصيرورته فوق رؤوس الأقوام ، ولما كان هذا مما لم تجر به العادة ألحق بما جرت به العادة وهي الظلة .

وقد يقرن التشبيه العالي بين طرفين يختلفان في الإيحاء النفسي ، كما في قوله ﷺ : « مثل المؤمن كالأترجة : ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المنافق كالريحانة : ريحها طيب وطعمها مر »[1] والفرق متسع بين ما يقع في النفس عند ذكر المنافق وما يقع في النفس عند ذكر الريحانة ، ولكنه ﷺ ساق هذا ليبين إلى أي مدى يتفنن المنافق في إخفاء حقيقته وتجميل هيئته حتى لتكاد القلوب تصغو إليه ، ولأجل هذا المعنى النبيل جاءت الريحانة في غير سياقها النفسي .

والتلاؤم النفسي الواجب توافره بين المشبه به والسياق الوارد فيه ليس فكراً جديدًا ، وإنما كان كذلك لما عزلنا علومنا وأدرنا لها ظهورنا وأخذنا عن الآخرين أفكارًا طار بها رجالنا وهي في تراث أمتهم على طرف الثمام كما يقول الأستاذ العقاد . وأنا لا أتكلف استخراج هذه الحقائق في كلام القدماء ؛ لأني أكره هذه الطريقة وأراها من بنات النقص لو تكلفتها ، وقد برأني الله من هذا ؛ وإنما أذكر لكم نصوصًا ملخصة من كلام شيخين من الشيوخ الأوائل عاشا في زمن واحد ، من غير حاجة إلى أقل تأويل في النصوص :

جاء في كتاب أبي علي الحسن بن رشيق الأزدي في بحث كتبه في التشبيه وفي القسم الذي ذكر فيه التشبيهات المعيبة ، ذكر فيه قول الشاعر يصف الروض :

كأن شقائق النعمان فيه ... ثياب قد رُوِينَ من الدماء

(١) هذا من شيخنا الأغر رواية بالمعنى وليس رواية باللفظ (الناسخ) .

قال : « فهذا وإن كان تشبيهًا مصيبًا فإن فيه بشاعة ذكر الدماء ، ولو قال من العصفر مثلاً أو ما شاكله لكان أوقع في النفس وأقرب إلى الأنس»، انتهى كلامه . ولا معنى للبشاعة إلا نبوُّ السياق النفسي كما نقول وأن الثياب المروية بالدماء وإن طابقت أحمر بأحمر إلا أنها أغفلت الوقع النفسي لذكر الدم ، وليس السياق سياق حرب وإنما هو سياق ذكر الروض .

وقال في قول أبي عون الكاتب :

تلاعبها كَفُّ المزاج محبّةً ... لها وليجري ذات بينهما الأُنس

فَتَزْبِدُ من تيه عليها كأنها ... غريرة خدر قد تخبطها المس

فلو أنْ في هذا كل بديع لكان مقيتًا بشعًا ، ومن ذا يطيب له أن يشرب شيئًا يشبه بزبد المصروع وقد تخبطه الشيطان من المس .

ويقول في غيره إنه وإن كان مصيبًا لعين الشبه فإنه غير طيب في النفس ولا مستقر على القلب . ثم يرجع بملاحظته هذه إلى الزمن الأبعد ويقول عاب الأصمعي بين يدي الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها ... نظر السقيم إلى وجوه العود

على أنه تشبيه لا يلحق ولا يشق له غبار ولم يجد فيه المطعن إلا بذكر السقيم ، فإنه رغب عن تشبيه المحبوبة وفضل عليه قول عدي بن الرقاع العاملي :

وكأنها وَسْطَ النساءِ أعَارها ... عينيه أحورُ من جآذر جاسم

وسنانَ أقْصَدَه النُّعاسُ فرنّقَتْ ... في عينه سنة وليس بنائم

وأجرى الناس هذا المجرى قول صريع الغواني على أنه لم يقع لأحد مثله وهو :

فلَطَّمْتَ بأيديها ثِمَارَ لحورِهَا   كأيدي الأسَارَى أثقلتها الجوامعُ

فهذا تشبيه مصيب جدًّا إلا أنهم عابوه بما بيَّنْتُ ، وإنما أشار إلى قول النابغة :

يَخْطُطْن بالعيدان في كل مَنْزِل   ويخبأن رمان الثديِّ النواهد

ومثله أبي مِحْجن الثقفي في وَصْف قَيْنة :

وَترْفَعُ الصوتَ أحيانًا وتَخفِضُه   كما يَطِنُّ ذباب الرَّوْضَة الغَرِدِ

فأي قينة تحب أن تشبه بالذباب ، وقد سرق بيت عنترة وقلبه فأفسده . فهذه تشبيهات أصابت شواكل الصواب في المطابقات الحسية وقد أسقطها العلماء لأنها لم تلاحظ ما يجب ملاحظته من ملاءمة الجو النفسي أو السياق النفسي الجاري في البيت ، والمسألة ترجع إلى الأصمعي وهو لغوي راوية وليس من أهل الصنعة ، كما أن ابن رشيق يقول في كل شاهد : فهذا تشبيه مصيب جدًّا إلا أنهم عابوه فيضيف عيبه ونقده إلى من هم أعلم منه .

فهل يصح بعد هذا أن نملأ كتبنا ورؤوس أبنائنا في مدارسنا وجامعاتنا بأن القدماء ما كان يعنيهم إلا أن يضعوا أصفر بإزاء أصفر ومستدير بإزاء مستدير ، وكأنهم قد انطفأت بصائرهم وعُمُوا وصَمّوا فلم يروا في بيان الشعر إلا هذا . هذا باطل يجب دحره .

قلت إن التلاؤم الواجب توافره بين المشبه به والسياق الوارد ليس فكرًا جديدًا مقتبسًا إلا عند من أداروا ظهورهم لعلوم أمتهم واكتفوا برميها بكل

قذع . وإنما هذا الفكر مغروس في قلب كلام القدماء ، وذكرت من ذلك واحدًا .

والثاني : هو عبد القاهر الجرجاني الذي وقف عند بيت النابغة المشهور :

فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومراده أني لا أستطيع أن أفلت منك لأن سلطانك واصل إلى كل مكان ، فهو كالليل لا يستطيع أحد الهروب منه . قال العلماء : فلا يصح أن يقول فإنك كالنهار ؟ وأجابوا بأن ذلك لا يصح لأن الليل يتناسب مع سياق سخط النعمان عليه وخوفه منه واعتذاره له ، ولهذا قال غيره يصف النعمة :

نعمة كالشمس لما طَلَعَتْ بثت الإشراق في كل بلد

وأراد انتشارها وشيوعها في كل الأمكنة فشبهها بالشمس في الوصول إلى كل مكان،ولا يجوز هنا أن نشبه النعمة بالليل وإن كان يصل إلى كل مكان؛ لأن الشمس هي التي تناسب السياق الذي تذكر فيه النعمة ، وهذا صريح في هذا الباب . وأكتفى بهذا والله أعلم .

وأشكركم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

محمود محمد شاكر والفجر الصادق

أفضى المرحوم محمود شاكر إلى ربه ، وانقطع عما نحن فيه ، وأصبح الذي نحن فيه لا يضره ولا ينفعه ، ولا معنى لأن نكتب عنه إحياء لذكراه ، ولا عرفانًا لفضله ، لأن كل ذلك لغو يلغو به الأحياء أما من جاءته سكرة الموت بالحق ، وكشف عنه غطاؤه ، فليس من هذا الذي نحن فيه في شيء .

والقضية قضيتنا نحن الأحياء ، وقضية مَن بَعْدنا من وارث يرثنا ، ويرث هذه الأرض ، وهمومها ، وتاريخها ، وصراعاتها الدائرة فيها ، والدائرة عليها ، والدائرة حولها

وإنما نكتب عن رجالنا لنتعرّف على حقائق قضايانا ، وكيف كانوا يَرونْها ، ويرون حلولها ، ويرون مخاطرها ، وكل هذا لنا ، ولمن بعدنا ، ودراسته فرض واجب ، لا محيد لنا عنه ، ولا يجوز التفريط فيه ، لأنه جزء من تاريخنا ، وجزء من ثقافتنا ، ومعارفنا ، ثم هو جزء من قضايانا التي نعيشها ، وصراعاتنا التي نُكابدها ، مع من حولنا من أمم الأرض في زمان غلب فيه الصراع على الحوار ، وغَلَبَتْ فيه القوة على الحق ، ورجعت بنا هذه الحضارة إلى عوائد الجاهلية ، التي وصفوها في مثل قولهم : «مَنْ عَزَّ بَزّ ، ومَنْ غَلَبَ سَلَبْ».

وقليل هم في زماننا الذين عاشوا هموم الوجود العربي الإسلامي ، ومن هذا القليل الأستاذ محمود محمد شاكر الذي انقطع لهموم العرب والمسلمين

وجعل هذا الهمَّ شاغله في ليله ونهاره ، وفيما يكتب ، وفيما يقرأ ، وفيما يحدث به مَنْ يَرْتَادُونَهُ ، وكأن هذه الأمّة العربية الإسلامية مع تنائي أقطارها ، واتساع ديارها ، واختلاف أجناسها ، إنما هم أبناء أمه وأبيه ، وهم أهله ، وعشيرته ، الذين يقوم لهم ، ويقعد لهم .

وقد درس تاريخ الإسلام ، والصراعات التي دارت في دُوَله ، سواء كانت هذه الصراعات في داخل ديار الإسلام ، كما كان يحدث بين الأجناس المختلفة المتصارعة في دولة الخلافة ، من الفرس ، والترك ، والعرب ، أو كان هذا الصراع بين دولة الإسلام والأمم الأخرى ، وخاصة الأمم الأوربية منذ بداية الحروب الصليبية ، ثم فتح القسطنطينية ، وتوغل جيوش المسلمين في قلب أوربا الشمالية ، ثم الاستعمار الحديث ، وحملاته ، وجهاد المسلمين له ، تَوَسَّع في دراسة كل ذلك ، وتَعمقه ، وفرغ له ، حتى يُخيَّل إليك وأنت تقرأ ما كتب أنه عاش الأحداث التي يحدثك عنها ، وداخل الأشخاص الذين يَصنَعُونها ، وكأنه كان يعيش مع رهبان أوربا وملوكها وقادتها وهم يُجَيِّشُون جيوش الصليبية ، وكأنه كان يعيش في قلب وعقل الجنود ، وكأنه كان يعيش مع المستشرقين ، ورجال التبشير ، والاستعمار ، وهم يُعدُّون العُدَّة في الزمن بعد الزمن وفي الجيل بعد الجيل لتدمير دولة الإسلام .

وكان رحمه الله يَعتَقِدُ اعتقادًا جازمًا أن الثقافة العربية الإسلامية المتكاملة ، والمتشاربة ، والمتداخلة ، والحية ـ كما كان يصفها ـ والتي انبثقت أصولها وتسلسلت ينابيعها من النظر في كلام الله وفي كلام رسوله صلوات الله

وسلامه عليه ، هي أصل هذا الوجود العربي الإسلامي ، وهي أصل قوته ، وهي الرباط الجامع لوحدته ، والقوة الحيَّة المتحركة في ضميره ، وأن هذه الأمة خاضَتْ معاركها مع الأمم ، والشعوب ، والعقائد ، والأديان ، والثقافات ، والحضارات ، وانتصرت ، وسادَتْ ، وعمرَّت الأرض ، بهذا الدين العظيم ، وهذه العلوم التي هي شارحة له ، ومستنبطة من النظر فيه ، ودائرة حوله .

وكان علماء الصحابة رضوان الله عليهم هم الذين مَهَّدُوا لهذه العلوم ، وطرَّقوا طُرُقها ، وفتحوا أبوابها ، بما سمعوه من رسول الله ﷺ ، الذي كان مَثَلُه فيهم كَمَثَل الغيث أصاب أرضًا ، ثم جاء التابعون ومَنْ بَعْدهم ، وأجيال العلماء ، جيلاً من بعد جيل ، الكل يراجع ، ويُنَقِّح ، ويستنبط ، ويُضيف ، ويَكْشِف ، ويشرح ، حتى أقاموا أصول هذه العلوم العربية الإسلامية ، والتي قامت عليها حضارة الإسلام ، وشرحت للناس دين الله ، وصانته من التبديل ، والتحريف ، والتغيير ، ودسائس أعدائه ، الذين كانوا يمكرون في فقهه ، كما يمكرون في أرضه ، وبقي بها الحلال حلالاً ، والحرام حرامًا ، إلى يومنا هذا ، كيوم أنزله الله .

ويرى الأستاذ محمود محمد شاكر في كل ما كتبه أنه من المحال ، أن تجد هذه الأمة سبيلاً إلى النهوض ، إلا بأن تنهض علومها ، التي هي عقلها ، وقلبها ، وذات نفسها ، وأن النهضة تبدأ من نقطة واحدة ، وهي نهضة العلوم التي تمثل الثقافة العربية الإسلامية المتكاملة ، وأي محاولة تتجاوز هذه النقطة ، هي محاولة باطلة ، وأن علماء الأمة أدركوا ذلك لما تَنَبَّهُوا إلى ما أصاب المسلمين من الوَهَن ، الذي يصيب الأمم كلها ، وذكر الشيخ

خمسة من العلماء الأعلام ، سنذكرهم فيما بعد ووصفهم بقوله «أحسُّوا بالخطر المُبْهم المُحْدقْ بأمتهم فهبُّوا بلا تواطئ بينهم ، كانوا رجالاً أيقاظًا مُفَرَّقين ، في جنبات أرض ، مترامية الأطراف ، متباعدة أوطانهم لا يجمعهم إلا هذا الذي توجسوه في قرارة أنفسهم ، مُبْهمًا ، من خطر مُحدق ، أحسُّوا الخطر فراموا إصْلاح الخلل الواقع في حياة دار الإسلام ، خلل «اللغة» ، وخلل «العقيدة» ، وخلل «علوم الدين» ، وخلل «علوم الحضارة» ، وبأناة وصَبْرٍ عملوا وألَّفُوا وعَلَّمُوا تلاميذهم ، وبهمَّةٍ وجِدٍّ أرادُوا أن يدخلوا الأمة عصر النهضة نهضة دار الإسلام»[1] وذلك في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري وكان الأستاذ رحمه الله يواجه بهذه الحقائق ، هذا الزيف الذي ضَلَّل العقل العربي الإسلامي ، وغَرَسَ في الأجْيال الناشئة الاعتقاد بأن النهضة بدأت باجتياح الغزو المسيحي لهذه الديار ، وانتهاب ثرواتها ، وتدمير حضارتها ، وسفح دمائها ، وتخريب بُنْيانها ، وقد صدّقنا ذلك ، وكَتَبْنَاهُ من كُتبنا ، وصار من العلم الذي نَخْرجُ به من الظلمات إلى النور ، ويقول الشيخ إن هذا عكس الحقيقة التاريخية لأن هذا الزحف المسيحي أو الزحف المسيحي المُقَدَّس كما كان يسميه الأوربيون أنفسهم ، والذي يحقق لهم أهدافًا روحية كما قالوا ، أيضًا ، إنما كان لتدمير اليقظة التي بدأت في القرنين الحادي عشر ، والثاني عشر الهجري وهو يقابل نهاية القرن السابع عشر ، إلى نهاية الثامن عشر ، أعني أوائل التاسع عشر ، وفي هذين القرنين

(١) الطريق إلى ثقافتنا ص ٨١ .

ظهر خمسة من الأعلام سماهم الشيخ صناديد النهضة ، واليقظة الإسلامية ، وهم [1]:

١- عبد القادر البغدادي صاحب الخزانة المتوفى ١٠٩٣هـ الموافق ١٦٨٣م.

٢- الجبرتي الكبير المتوفى ١١١٨هـ الموافق ١٧٧٤م .

٣- الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفى ١٢٠٦هـ الموافق ١٧٩٢م .

٤- المرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس والمتوفى ١٢٠٥هـ الموافق ١٧٩٠م .

٥- الشوكاني المتوفى ١٢٥٠هـ الموافق ١٨٣٤م .

ومعروف أن الذي توجه إلى إحياء اللغة هو البغدادي ، والزبيدي ، والذي توجه إلى علوم الحضارات هو الجبرتي الكبير ، الذي كان يُدِّرس في الأزهر علوم الصناعات ، والهندسة ، وكان يَحْضُر دَرْسَهُ طلابٌ من الفِرنْجة كما قال ابنه المؤرخ[2].

والذي توجه إلى إصلاح خلل العقيدة هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب والذي توجه إلى إصلاح خلل علوم الدين أعني الفقه هو محمد بن علي الزيدي الشوكاني .

وادرس تاريخ هؤلاء الرجال ومؤلفاتهم وما أحدثوه من يقظة لتتأكد أن الزحف العسكري المسيحي في هذا التاريخ ـ حملة نابليون على مصر كانت

(١) راجع ما كتبه الشيخ عن هؤلاء الأعلام في كتاب رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص٨٠ وما بعدها .

(٢) راجع النص في رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ٨٣ وما بعدها .

سنة ١٧٩٨م - إنما كان لتدمير هذه اليقظة وكانت المسافة بيننا وبينهم في هذا الزمن قريبة تُدْرَك بقليل من الجد.

وهذا المعنى أكده الأستاذ محمود شاكر تأكيدًا قاطعًا، بما رواه من أحداث ثورة القاهرة الكبرى على الوجود الفرنسي، وكان ذلك في ١٠ من جمادى الأولى ١٢١٣هـ ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨م، أي بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض مصر، فارتكب في قمع هذه الثورة من القسوة، والتدمير، وذبح الرجال والنساء وسفح الدماء الغزيرة ما ارتكب، ونذر وأوفى بنذره أن يذبح عند شروق كل شمس خمسة أو ستة «تقطع رؤوسهم ويطاف بها في أنحاء القاهرة»، ويقول الشيخ «ولا شك عندي أن هؤلاء الخمسة، أو الستة، هم من طلاب العلم في الأزهر، ومن المُحرِّضين على مقاومة هذا الغازي المنتهك لحرمة ديار الإسلام، وأن الاستشراق هو الذي كان يقدمهم لهذا الجزَّار، وأنه كان يتخيرهم له لأنه كان على معرفة سابقة بهم، وأنَّهم كانوا من الطلبة النابهين من ورثة الجبرتي الكبير، والزبيدي، أي أنهم كانوا من طلائع اليقظة التي جاءت الحملة الفرنسية قبل كل شيء لوأدها في مهدها»[1].

ويكرر الأستاذ هذه الفكرة وهي أن وَأْدَ اليقظة في ديار الإسلام كان من أهداف الحملات العسكرية على دياره، وأن الاستشراق كان وراء ذلك وأنه، خبر هذه الديار، وعاش فيها، وعرف ما يجرى، وأفزعه ما رآه، من يقظة، فكتبوا إلى دولهم، وحرّضوهم على الانقضاض على هذه اليقظة، قبل أن

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٠٤

تَشْتَدُّ ، وتاريخ هذه الكتابات بدأ مع تاريخ اليقظة ومنهم من كان يحضر دروس الجبرتي في الهندسة وعلوم الصناعات ، ويسخر الأستاذ سخرية مُرّة من هذا الفساد المُخجل الذي نعيشه حين نَقُول إن غزو نابليون لمصر هو بَدْءُ النهضة ، ويقول رحمه الله بعدما بين تخريب مدينة القاهرة ، التي كانت من أحْسَن مدن العالم ، بعمارتها ، وفنونها ، وبركها ، ومُتنزَّهاتها ، وبعدما خرجت جيوش نابليون منها .. « ولكن صار هذا التدمير في عين حياتنا الأدبية الفاسدة هو رسولَ الحضارة الذي جاء ليخرجنا من ظلمات الجهل إلى عصر النور والتنوير ، لا تضحك ولا تبك ، ولكن أطْرِق إطراقة الخِزْي ، والمهانة ، والعار »[1].

ولم يقف الخطأ عند هذا الخزي وهذه المهانة وهذا العار الذي دل على جهلنا بتاريخنا ، ورجالنا الذين أسَّسُوا لنهضتنا ، ووَضَعُوا لها المنارات وسلكوا الطريق ، ونبَّهوا ، وأيقظوا ، وأحَسَّ عدُوهم بخطرهم ، وأنه عُمِّي علينا وجهلنا كل ذلك ، وجعلنا تاريخ وأْدِ هذه النهضة ، هو بداية النهضة ، أقول لم يقف الأمر عند هذا ، وإنما تجاوزه إلى ما هو أبشَع منه ، وأشْنَعُ وهو طريق النهضة نفسه ، إذْ تركنا الطريق الصحيح ، الذي بدأه الخمسة الأعلام ، وسقطنا في أخطر ما سقط فيه عقل أمة ، وهو الاعتقاد ، بأن سبيل النهوض ، هو السير وراء هؤلاء الذين دَمَّرُوا نهضتنا ، والأخذ عنهم في المعارف ، والثقافات ، والآداب ، والفنون ، وبَدَأَ إغْرَاءُ العقل الإسلامي بالثقافة الأوربية المسيحية ، وآدابها وفنونها ، وَجَهِلْنا أن الثقافات والآداب ،

---

(١) الطريق إلى ثقافتنا ص ٩٦

والفنون ، وكل فصيلة العلوم الإنسانية ، كُلّها مُتدفقةٌ من قلب العقائد ، وآية ذلك ثقافة الإسلام وآدابه ، وفنونه ، وأن الإسلام يداخل كل هذا ، وكثير من المسلمين أيام الفتح الإسلامي ، دخلوا في هذا الدين بعدما عاشوا ثقافته لأن المسلمين لم يُكْرِهُوا أحدًا على الدخول في دين الله لأن الله حرّم هذا فبقي كثير من الناس على دينهم ولما انغمسوا في ثقافة الإسلام دخلوا فيه ، وهكذا فعل المسلمون في الأندلس لم يُلْزِموا القوط باعتناق الإسلام وإنما خلُّوا بين الناس وما يريدون ولما بدأ القوط يتساقطون في حب الثقافة العربية والإسلامية فَطِنَ القساوسة إلى هذا الخطر، وقالوا لهم لو غلبتكم ثقافة العرب المسلمين فلن تعود إليكم بلادكم .

لاشك أن الثقافة ومنها الفنون والآداب وما يتبعها من معارف إنما هي تجسيد للدين ، وأن هذه النهضة الكاذبة دَفَعَتْ بِنَا دَفْعًا في هذا التيار ، فغيّبت عنا علومنا ، وآدابنا ، وتاريخنا ، التي هي القوة الفاعلة ، والقادرة على تغييرنا ، وإحداث اليقظة ، والنهضة ، وعشنا تحت سيطرة ثقافة مسيحية ، وثنية ، تقتلع جذورنا ، وتدفعنا دفعًا في تيَّار التبعية ، ومضى على هذا الحال أكثر من قرنين ، ولا نزداد في طريق النهضة الخادعة إلا تعثُّرا ، وضلالاً ، لأنه من المخالف لفطرة الأشياء أن تنهض أمة بعقل أمة ، وأن يَعْتقد المُغَيَّب النائِمُ الذي يَنْتفِعُ بعلوم المُسْتَيْقظِين أنه استيقظ ، وحين يُردّدُ كلامَ المُجتَهدِينَ يَعْتقِدُ أنه اجتهد ، وكذلك حين يقول مقالة المُجَددّين أنه جدّد ، كل ذلك وهو نائم ، وهذا هو جوهر النهضة المضللة التي قطعنا فيها قرنين ونحن كما ترى ، وتأمل هذا جيدًا لأن مُصيبتنا تكمن فيه ، أقْرأُ كلام المُجددّين

فأجده كلام الآخرين نَقَلُوه ، وأسأل نفسي بأي عقل اعتقد هؤلاء أنهم مجددون ، هل يمكن أن يجدد النائمون؟!!

ولما بدأت النهضة بفجرها الصادق ، الذي رفع مناراته الخمسة الذين ذكرهم الشيخ أحدث هذا الفجر الصادق أثرًا قويًا في النفوس ، لأنها بدأت من ذات النفس ، لأن علومنا ، وتاريخنا ، وآدابنا ، كل ذلك له رنين خَفِيٌّ في داخل نفوسنا ، وهو قطعةٌ منها ، وهي قطعة منه ، ولا يزال صدى هؤلاء الأعلام يتردد ، ويَفْعَلُ فِعْله ، ليس هناك دارس للغة إلا ونفث البغدادي في قلبه وعقله ، ومثله المرتضى الزبيدي الحسيني ، وليس هناك دارس للسنة إلا واهتدى بهدي الشيخ ابن عبد الوهاب[1] ، ومثله الشوكاني ، ولو قارنت عطاء واحد من هؤلاء بعطاء جميع الرُّوَّاد الذين ولدتهم النهضة الكاذبة ، والذين لقبوا بالروَّاد لمزيد من الإقْنَاع بالخداع ، والباطل ، والذين قام عملهم على ارتضاخ الثقافة المسيحية الغربية لوجدت اختلافًا لا تصح مَعه المقارنة ، وشرط هذه الموازنة أن تكون من القادرين على قراءة مثل الخزانة ، لأن قراءة هذه الكتب تحتاج إلى أدوات . ولم يعط الأستاذ محمود شاكر قضية من القضايا ما أعطاه لهذه القضية ، من دراسة ، وعرض ، وتحليل ، بل وتكرار أيضًا ، وكأنه كان يتعمَّدُ تكرارها في كل ما يكتب ، حتى في اللقاءات الصحفية ، لأنها هي قضيته الأم ، ولا يجوز الحديث عنه في غيبتها

---

(١) ولا يخدعنّك ما تسمعه في أيام الضباب التي نحن فيها من أن ابن عبد الوهاب من الذين يدعو فكرهم إلى الإرهاب ومثله ابن تيمية ، أقول احذر هذه الأضاليل ولو سمعتها من ذوي العمائم واللحى ، واعلم أن العمائم ليست هي العمائم ، وأن اللحى ليست هي اللحى ، وأن الإرهاب هو الابن غير الشرعي للقهر والظلم والاستبداد والكذب وتلفيق التهم للأبرياء .

وقد سمعته يضيق بابتعاد الدكتور عبد العزيز الدسوقي عن هذه القضية حين كتب عن كتاب المتنبي ، الطبعة التي كتب الأستاذ فيها فساد حياتنا الأدبية ورد الأستاذ على الدكتور عبد العزيز الدسوقي في مقالاته القيمة «المتنبي لَيْتَنِي ما عرفته» وكان يخوض في مقالاته في لجج هذه القضية ، وكان الصديق العزيز الدكتور عبد العزيزالدسوقي يكتبُ في قضية التذوق ، والتشكيل عند المتنبي ، وما قاله الأستاذ في الدكتور طه حسين ، ويبتعد عن أصل القضية ، وهي فساد حياتنا الأدبية ، وكان ذلك في مجلة الثقافة التي كان يرأس تحريرها الدكتور الدسوقي ، والكلام في فساد حياتنا الأدبية يدور حول نقطتين : الأولى : هي تغييب علومنا ، وإسدال الستار عليها ، في جامعاتنا ، ومدارسنا ، وأنديتنا ، وصحافتنا ، وكل وسائل التثقيف ، ثم شغل هذا كله بمقتبسات من الثقافة الغربية المسيحية ، وقد نُدْخل على هذا الاقتباس شيئًا من التحوير ، أو التعديل ، أو ما نسميه التّمصِير كما كان في المسرح ، والقصّة ، وهذا هو الفساد الوبيل كما كان يصفه رحمه الله . وما سماه الأستاذ « محنة الشعر الجاهلي » كانت رؤية منه لرأس هذه القضية ، وهي تُطِلُّ في قاعات الدرس الجامعي لأول مرة ، فَصَدَمَتْهُ وهو في السابعة عشرة من عمره ، وكان نافذًا نفاذًا غريبًا إذ أدرك هذا وهو في هذه السنة ، ونفذ من وراء ضجيج الدكتور طه حسين إلى جوهر ما وقع الرجل فيه ، ولم يَخْدَعه عن ذلك شيء .

وليست المشكلة أن الدكتور طه ذهب إلى أن الشعر الجاهلي شعر صنعه الرواةُ في الإسلام ونحلوه الجاهليين ، وإن كان هذا من الخطأ المحض ، لأن الناس في العلم يخطئون ويصيبون ولو أن الدكتور طه حسين اجتهد بعقله

هو ، وراجع بعلمه هو ، وانتهى به الرأي إلى الذي قاله ، صوابًا كان أو خطأ ، لما كانت هناك ما سماه الأستاذ « محنة الشعر الجاهلي »

ولو أن الدكتور طه عرض الذي عرض على طلابه مُسْندًا إلى مَصْدره ، وحافظ على ما تجب المحافظة عليه من أسانيد المعرفة ، وقال هذا كلام مرجليوت لم تكن هناك محنة حتى لو قال وأنا مقتنع به .

ولما قرر المرحوم محمود شاكر ترك الجامعة بسبب هذا وجاءه وفد من العلماء وأهل الرأي ومنهم أساتذة في الكلية من المستشرقين ليعود إلى الكلية طلب منهم شرطًا واحدًا ، يعود به إلى الكلية ، وهو أن يقول الدكتور طه حسين لطلابه إن هذا الذي قلته في الشعر الجاهلي هو كلام فلان ، وكان الأستاذ جويدي المستشرق الإيطالي يعلم أن ما قاله الدكتور طه هو مقال مرجيلوت ، ولكنه كما قال الأستاذ لما سمع منه هذا ، طالبه على عادته بتوقير أساتذته ، وراغ من جوهر القضية[1].

كانت المحنة إذن أننا نُحدِّثُ طلابنا ، بمقالة أعدائنا في علومنا ، وأدبنا ، وتاريخنا ، ونُوهِمُهم أن هذا علم استخرجناه بالبحث ، والنظر ، والمنهج ، والاستنباط ، ومثل هذا مِمَّا يَجْعَلُ له تَوْقِيرًا في نفوس الطلاب الأغرار ، مع أن هذا الذي نأخذ عنه علمنا أعْجَمٌ لَيْسَ عنده من أدوات النظر في العربية ، وإدراك أسرارها ، ما يجعل لرأيه قيمة ، وهذا أمر يرجع إلى الطبيعة فليس اللسان لسانه ، وليس الأدب أدبه ، وليس التاريخ تاريخه ، هذا فضلاً عن فساد طويته ، ومقصوده من دراسته ، وهذا الفساد يفسد منهجه ، ولا يريد هو من

---

(١) يراجع فساد حياتنا الأدبية مقدمة كتاب المتنبي ص ١٩

وراء هذه الدراسة إلا تشويه ، وإفساد ، ومسخ الفكر العربي ، وتاريخه ، وكان مرجليوت مُغَاليًا في هذا الإفساد ، ومغاليًا في حقده على العرب ، والمسلمين ، وهو يهودي يَقْطُر حِقْدًا ، وكأن آية التوبة نزلت فيه وحده ، وقد رد مقالته هذه التي سطا عليها الدكتور طه حسين سطورًا عُرْيانًا على حد عبارة الأستاذ محمود شاكر، بعضُ المستشرقين ومنهم الأستاذ ليال ، الذي حقق كتابًا من أوسع الكتب وأفضلها ، وهو المفضليات ، وكتب مقدمة جيدة عن الشعر الجاهلي ، ورفض كلام مرجليوت ، واعْتَبَره خارجًا عن المعقول ، والمفضليات التي بين أيدينا مختصرة من هذا الأصل ، اختصرها الفاضلان أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، والأصل الذي حققه «سير ليال» موسوعة في اللغة والأخبار ، والشعر ، ومن المؤسف أن التحقيق المختصر اهتمت به دار المعارف ، وأكثرت من نشره ، وغطِّيَ على هذا الأصل النافع .

وقد أقحمت هذا لأن شرح ابن الأنباري الأصلي من العلم النافع الذي غاب ، كانت المحنة كما رآه الأستاذ رحمه الله ورضي عنه أننا صرنا لا نكتفي بتغييب آدابنا وعلومنا وتاريخنا وفكرنا ، ومناهجنا ، وإنما نُصوِّر لكل ذلك في قلوب أجيالنا صورةً هي من تصوير العدو ، الذي يجاهر بأن هدفه هو تدمير هذه العلوم ، وهذه الحضارة ، وهذا التاريخ ، ثم نطبعها بأيدينا في قلوب أبنائنا ، ونوهمهم أنها من كلامنا نحن ، ونحن أمناء على تاريخنا ، وعلومنا ، ولسنا موضع تهمة ، عند هؤلاء الطلاب ، وليسوا أحْرَص على هذه العلوم ، وهذا التاريخ منا ، وليس وراء هذا هاوية أبْشَع ولا أشنع منها يمكن أن نُسْقِط فيها أبناءنا بأيدينا ، وراجع هذا حتى نتصورالحجم المُفْزِع للتدليس ، على العقول ، الغضة ، المُبتدئة ، وكيف يُدَمِّر تاريخهم ، في ذات

(م ١٤ : من الحصاد القديم)

نفوسهم ، أو قل كيف تدمّر ذاتُ نفوسهم ، لأن تدمير علوم الأمم ، هو تدمير ذات الأمم ، ومن يشك في ذلك يكون النهار عنده محتاجًا إلى دليل ، وأنا لم أوفِّ الشناعة حقها ، لأنها أهول من البيان الذي أخاطبك به ، والقضية قضيتك ، أنت أيها القارئ ، كما هي قضيتي ، وكما كانت بالأمس قضية الراحل الوفي طيَّب الله ثرى قبره .

واضح أن الأستاذ محمود شاكر الذي كان في سن الثامنة عشرة لم يكن مُتسرّعًا حين اتخذ قراره الحاسم بترك الجامعة ، حتى يَفِرَّ بعقله قبل أن يدمَّر كما قال ، وأنه نَفَذَ في هذا السِّنِّ إلى البشاعة المُتَسَتِّرة وراء طنين الأستاذية ، والمنهج ، والجامعة ، وعالمية الثقافة ، وغير ذلك مما تهالكت ولا تزال تتهالك فيه الأجيال .

وكان القرار صعبًا ملأ قلبه بالمرارة ، كما وصف ، وكما كرر الوصف ، لأنه كان شابًّا يستقبل العمر ، ويحلُم بالمستقبل الزاهر ، ويمُدُّ في أحلامه تفوق ظاهر ، ونبوغ ، ونشأة في بيت من أكرم بيوت العلم ، يرتاده أشراف الناس ، وسادتهم ، وأهل الرأي ، والعلم ، كما كان مَعْقِلاً مِنْ معاقل الوطنيّةِ . ولكن صدق النفس ، والوفاء لما يَجِدُه المرءُ في قلبه غلب عليه ، وصنَع أعْظم صنيع في تاريخ الثقافة العربية ، ولفت أبين لفت إلى خطر هذا التحول الذي هو « جذر قضيتنا » كما كان يصفه رحمه الله .

وقد وصف هذا التحول بعد خمسين سنة مُفكرٌ عاش يدعو إلى الثقافة الغربية المسيحية وأن هذا التحول يُفْضي بنا إلى أن نكون خبرًا من أخْبار التاريخ ، هذا المفكر هو الدكتور زكي نجيب محمود ، فقد رأى أن غيْبة

العلوم العربية والإسلامية في مدارسنا ، وجامعاتنا وبحوثنا ، ومؤلفاتنا ، وأنديتنا ، ثم حضور الفكر الغربي الأوربي مكانها في هذا كله ، يؤدِّي بنا إلى أمرين خطيرين .

الأمر الأول : هو نَقْضُ عقائدنا ، لأن هذا الفكر الأوربي يقودنا إلى أن نأخذ « بوجهة نظر أصحابه في الإنسان والعالم » يعني أن نعتقد عقائدهم في ذلك ، « ووجهة النظر في الإنسان » في الفهم الإسلامي أنه مخلوق لله رب العالمين ، وأنّ مَرَدّه إلى الله ، وأنه يعيش في هذه الدنيا ، وعليه رقيب وعتيد ، يكتبان في صحيفة أعماله كل ما يكون منه ، من خير وشر ، وأن صحيفته هذه تُنْشرُ يوم البعث ، وأنه إما أن يأخذ كتابه بيمينه فيقول « **هاؤم اقرؤوا كتابيه** » أو يأخذه بشماله فيقول « **يا ليتني لم أوت كتابيه** » وهكذا العالم في الفهم الإسلامي ، مخلوق لله رب العالمين ، وله سبحانه ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ، وما تحت الثرى ، وأن هذا العالم له نهاية تكون « **إذا السماء انْشَقّت ، وأذنت لربها ، وحُقت ، وإذا الأرض مُدَّت ، وألقت ما فيها وتخلّت** » كل هذا ينقضه الفكر الأوروبي المسيحي الوثني في نفس المسلم ويُرسِّخَ مكانه وجهة النظر المسيحية الوثنية . الأمر الثاني : هو أن هذا الفكر الأوربي المسيحي الذي تفرد في تكوين الأجيال يُفضِي بنا إلى فقدان الذات ، هكذا يقول الدكتور زكي نجيب محمود يَعْني أننا نَفْتَقِدُ وجودنا ، من حيث إننا عرب مسلمون ، ونصير خلقًا ممسوخًا ، تابعين لأصحاب هذه الحضارة التي صِرْنا من خدمها ، وبهذا نصبح خبرًا من أخبار التاريخ .

يقول الدكتور زكي نجيب محمود وهو يشرح غلبة الفكر الأوربي قديمه وجديده وسيطرته على عقول الآلاف المؤلفة من المثقفين العرب ، وغيبة الفكر العربي الإسلامي عن هذه الآلاف المؤلفة ، حتى كانت مذاهبه ، وأعلامه ، تتراءى لهم كأنها أشباح طافية على سطور الكاتبين .

« فهو واحد من ألوف المثقفين العرب ، الذين فُتِحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد ، حتى سَبَقَتْ إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه ، لأن عيونهم لم تفتح على غيره ، ولَبِثَتْ هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعوامًا بعد أعوام ، الفكر الأوربي دراسته ، وهو طالب ، والفكر الأوربي تدريسه ، وهو أستاذ ، والفكر الأوربي مسلاته ، كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ ، وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء ، مفككة ، متناثرة ، كالأشباح الغامضة يَلْمَحُها وهي طافية على أسطر الكاتبين »[1]

هذا النص يصف ما يذكره الأستاذ محمود شاكر من تفريغ الأجيال من ثقافتها العربية الإسلامية المتكاملة والمتداخلة ثم ملء هذا الفراغ بالفكر الأوربي المسيحي .

ويبين الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود خطر هذا وأثره في تشكيل رؤيته حتى إنه دعا يومًا إلى بتر التراث بترًا ، وأن نسلك في حياتنا مسلك أصحاب هذه الحضارة ، فَنَجِدّ كما يَجِدُّون ، ونَلْعَبُ كما يلعبون ، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون ، قال رحمه الله وهو يعتذر عن هذا الرأي الذي قال به أيام أن كان أصحاب هذه الحضارة يحتلون بلادنا .

---

(١) تجديد الفكر العربي ص ٥

«بدأتُ بتعصب شديد لإجابة تقول إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة، إلا إذا بترنا التراث بترًا، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علمًا، وحضارة، ووجهة نظر إلى الإنسان، والعالم، بل إني تمنَّيتُ عندئذ أن نأكل كما يأكلون، ونجد كما يجدون، ونلعب كما يلعبون، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون»(١)

ويكرر الدكتور أن هذا الشطط الذي ذهب إليه إنما كان مرجعه «جهلي بالتراث العربي جهلاً كاد أن يكون تامًّا، والناس - كما قيل بحق - أعداء ما جهلوا».

ثم قال: «ثم تغيّرت وقفتي مع تطور الحركة القومية، فما دام عَدُوُّنا الألد هو نفسه صاحب الحضارة التي توصف بأنها معاصرة، فلا مناص من نبذه، ونبذها معه، وأخذت أنظر نظرة التعاطف مع الداعين إلى طابع ثقافي عربي خالص، يحفظ لنا سِمَاتِنَا، ويَرُدُّ عنَّا ما عساه أنْ يَجْرفنا في تياره فإذا نحن خبر من أخبار التاريخ، مضى زمانه، ولم يبق منه إلا ذكراه»(٢).

والتراث الذي دعا الدكتور زكي نجيب محمود إلى بتره، هو التفسير، والحديث، والفقه، واللغة والشعر، وعلوم الكتاب، والسنة، والأعلام، الذين كان يراهم أشباحًا طافية هم مالك، والشافعي، وأحمد، والخليل، وسيبويه، والجاحظ، والتوحيدي، وطبقات المفسرين، والمحدّثين، والمؤرخين.

(١،٢) تجديد الفكر العربي ص ١٣

وكل كلام الدكتور يحتاج إلى مراجعة ليس موضعها هنا ، لأنه من العجيب أن تَدْرُسَ آلافٌ مؤلفة فكرًا يزلزل عقائدها ويمحو ذواتها ويصيّرها خبرًا من أخبار التاريخ وهم لا يَفْطِنون إلى ذلك ؟ والدرس تمحيص ويقظة ؟ ثم كيف يجهلون أنها ثقافة العدو الألد والاحتلال قائم والشَّعْب يَنْتَفِضُ في مطاردته ؟ ثم كيف يسبق إلى ظنونهم أنه لا علم سواه ؟ والمعارك دائرة بين حماة الثقافة العربية الإسلامية ، الذين يَنْبِذُون العَدُوَّ وثقافته وبين دُعاة ثقافة العدو ، والذين يعيشون في ظله ؟ وكيف يجهل من يعيش في مصر علوم العربية والإسلام ، وهي بلد الأزهر موئل هذه العلوم وكعبة طلابها من أقطار الأرض ؟ ، كل هذا غريب وأغرب منه أنه لا يُنَبَّهُ إلى هذه الحقيقة المفزعة والتي تُصَيِّرُنَا خبرًا من أخبار الماضي إلا الحركة القومية التي تجهَّمت في وجه كل ما هو أوربي بحكم توجهها الاشتراكي وهل نَبذ المرحوم فكر العدو الألد مع نبذه لهذا العدو ؟[1]

كم اقتنعنا بسراب حسبناه فكرًا ، ورحمك الله يا شيخ الفلاسفة كم في إرثك الذي تركت لنا من غوامض ؟ وكم فيه من متعة ؟ ولا يجوز أن أدع هذا الموضوع من غير أن أضع بين يدي القارئ شهادة أخرى لعلوم الإسلام ، وعلماء الإسلام ، الذين أسَسُّوا حضارته ، شهد هذه الشهادة فيلسوف مثل الدكتور زكي ، ولكنه ليس واحدًا من المثقفين العرب ، وإنما هو الألماني «نيتشه» قال في كتابه «المضاد للمسيح» وهو ينْتَقِدُ الحضارة الأوربية التي

(١) مقتبس من مقالة كتبها الدكتور يعقوب زكي بعنوان محمد إقبال وترجمها المرحوم يحيى حقي ونشرها في مجلة المجلة يونيو ١٩٦٩م .

تجاهلت حضارة المسلمين ، في الأندلس ، وأنها كانت أقرب إلى الروح الأوربية ، من حضارة أثينا ، وأنها وهذا هو المهم « بَلَغَتْ شأواً لو قيست به حضارة القرن التاسع عشر لظهر إملاقُه وفقرُه » انتهى كلام نيتشه . يعنى أن هذه الأشباح الطافية في نفوسنا نحن العرب كانت أسست حضارة تجاوزت القرن التاسع عشر ، ودخلت القرن العشرين .

والذي وصفه الدكتور زكي نجيب محمود لا يزال قائمًا كما وَصَفه ، ولا تزال طاحونة السَّحْق تدور وتسحق الآلاف المؤلفة ، ونحن نرى ونسمع ، ونَدْفَعُ أنفسنا بأنفسنا لنكون خبراً من أخبار التاريخ مضى زمانه ، ولم يبق إلا ذكراه ، ولم يقف أهل الرأي الوقفة الحاسمة لتحويل هذا التحوّل ، الذي فرض علينا وأمرنا ليس بأيدينا ، ولا مَحِيدَ لَنَا مِنْ تغييره ، وعودة الأمر إلى نصابه ، ووضع أجيال الأمة على طريقي الصحيح طريق علومها ، وتاريخها ، وحضارتها ، حتى تنشأ النشوء الطبيعيَّ الذي تنشؤه أجيال الأمم كلها .

وقد ذكرت أن الشيخ رحمه الله كان يضيق بالصمت عن هذه القضية التي ليست قضية فكرية ، فحسب وإنما هي قضية كيان ، وكان يحرص على ذكرها في كل ما يكتب ، ليُنَبِّه الغافلين ، ولتعلم الأجيال الجديدة على أي أرض تقف ، وكيف نَقْبَلُ الصمت ، والمداهنة ، والخلود إلى الدَّعة ، وإيثار الراحة ، ونحن نُعِدُّ أبناءنا لمستقبل يعلم الله ما يُخبئه لهم ، وقد سكنت في ديارهم حية من أخبث الحيات ، « في أنيابها السُّمُّ ناقع » « لا يُشْفَى لَديغها » وصار الأمر أمر جد ، وهذا كله يوجب علينا أن نراجع كل شيء بصدق قَصْد ، وصريح عقل ، ورحم الله من كان هذا أكبر همه . ورحم الله الدكتور زكي نجيب محمود فقد شهد شهادة صِدْق من يكتمها فإنه آثم قلبه .

وكنت أقرأ بعض ما يكتب عن الشيخ بعد وفاته رحمه الله وأجد أنفاسًا صادقة ، وكان حظ هذه القضية أقل من القليل وقد شغل البعض بذكر صبوة قديمة عاشها الرجل في شبابه ، وكتم أمرها ، أو كلامًا في أخبار «خَوْلَة» أخت سيف الدولة ، وكان الذين شغلوا بهذا قادرين أن يَقْتَحِمُوا هذه القضية الأم ، وقد عنى الأستاذ رحمه الله عناية شديدة بدراسة مؤسسات الاستشراق والتبشير والاستعمار ، وهي ذات أصل واحد ، واحتشاد هذه المؤسسات من أجل دفع هذه الثقافة المسيحية الغربية وفرضها على قلوب المسلمين ، وعقولهم ، ثم مطاردة علومهم ، وأدبهم ، ولغتهم ، وتاريخهم ، وحضارتهم ، وأن هذا لم يكن لصالح الأمم الإسلامية ولا لتنويرها ، ولا لتطويرها ، ولا لإدخالها في عصر النهضة كما تقرأ وتسمع ، وإنما كان لتدميرها ، وتشتيت شملها ، وإفراغها من كل ما تتماسك به ، ومن كل ما يشد كيانها ، كالبنيان المرصوص حتى تواجه التحدِّيات التي فرضتها عليها الحضارة الأوربية المسيحية نفسها . ولا شك أن إحكام السيطرة على العقل والفكر ، هو ذاته إحكام السيطرة على الأرض .

وفرق ساطع بين العلوم التي نتكلم عنها ، وهي عندنا العلوم العربية والإسلامية التي تُطَارَدُ بشراسة وجهل ، لِيَحُلَّ مَحَلَّها نظائرها أو ما يسد فراغها من علوم النصرانية ، فرق بين هذا وبين العلوم البحتة ، كالرياضيات ، وعلوم الطبيعة . لأن هذه ملك مشاع أو هي كما يصفها الأستاذ رضوان الله عليه : «تراث إنساني ، وإن كان زَيَّفَهُ المزيفون ، فأدخلوا في مفهوم العلم شيئًا ليس منه» الأولى تتناقَضُ تناقضًا صريحًا مع عقائد المسلمين وهي التي احتشدت أجهزة التبشير لإقحامِهَا في الأمم الإسلامية ، وهي خطر على

العقيدة ، وخاصة إذا خلا العقل من علوم الإسلام التي تدفع عنه غوائل هذه الوثنية النصرانية ، وقد قرأت منذ قليل ما أحدثته هذه العلوم في ذات نفس الدكتور زكي نجيب محمود ، وفي نظرته إلى الإنسان والعالم ، بل وفي جدِّه ولعبه ، وأكله وشربه ، ولم تُفْلته من غوائلها شدة ذكائه ، وسلامةُ طويته »(1).

وقد وصف الأستاذ المرحوم محمود شاكر هذا التناقض الصارخ بين هذه الثقافة وعقيدة الإسلام ، وذلك في رده على صديقه « محمد عودة » الذي كتب في جريدة الجمهورية كلمة طيبة في « القوس العذراء » وذلك في يوم ٢٠ من صفر ١٣٨٥هـ الموافق ٢٠ من يونيو ١٩٦٥م وقد وضع فيها الأستاذ محمد عودة صاحبَه في منزلته بين علماء الأمة ، ثم ذكر أن بعض ما يكتبه الأستاذ محمود شاكر يترك في النفس « حزًازا من الوجد حامِزًا » مثل هجومه على الثقافة الغربية وكأنها فقط كتابات المستشرقين والمبشرين المعادين للإسلام .

قال الأستاذ رحمه الله « وكيف غاب عنه أنني بطبيعة نشأتي في هذه العربية الشريفة ، وفي سرارة هذا الدين الذي لا يقبل الله من عباده سواه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لا من عاميّ ، ولا من مُتعلِّم ، ولا من مفكر ، ولا من عالم ، ولا من نبي من الأنبياء ، كيف غاب عنه أنني بطبيعة ذلك عدو للثقافة الغربية لأنها نابتة في مدارج نموِّها في بيئة وثنية ، مسيحية ، أنكر عقائدها ، وأرفضها ، وأعتقد بطلانها ، كل البطلان ، لمخالفتها للذي طالبنا به ربنا ، وخالقنا ، والمنعم علينا بآلائه ونعمه ، من عقل ، وبيان ، وإذا

(1) أباطيل وأسمار ص ٤٩٧ .

أنا دَاهَنْتُ من ذلك أقل مداهنة فإني على يقين من عذاب الله ، الذي لا يغني عنه في دفعه ثناءُ صديقي الأستاذ عودة ، ولا إعجابه ، ولا مودته ، فإن الله يقول لنبيه ﷺ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (القلم:٧-٩) فإذا فعلتُ فإني رهين بعذاب بئيس[(١)].

وهذا الموقف هو موقف علماء الإسلام أعني أن كل علماء الإسلام يقررون التناقض بين الإسلام وثقافة النصرانية ، ولم يتردد العلماء في تحذير المسلمين من أن يدخلوا في هذه الحضارة ، أو يَردُوا حياضها ، وقد سبقت إشارة إلى مثل هذا من الجانب الآخر ، وهو تحذير قساوسة القوط الأسْبَان لأقوامهم من أن يَدْخُلوا في ثقافة الإسلام ، لأن كل علماء الأرض يعلمون أن الثقافة والعقائد كالفرع والأصل ، وأن الأولى تجسيد للثانية ، نعم ، هناك من ضَعَفَةِ العلماء من دَاهنوا هذه الحضارة ، مثل رفاعة الطهطاوي ، الذي يقومون به ويعقدون ، لا لعلم ، ولا لفضل وإن كان ذا علم وفضل ، وإنما لأنه داهن هذه الحضارة ، ودعا المسلمين لتقبلها ، وكان هناك شيوخ أجلاء في زمن الطهطاوي ، يعرف هو علمهم ، وفضلهم ، رفضوا ما ذهب إليه ، وكان شابًا حدثًا في سن تلاميذ المراحل الجامعية ، لم يدرس من علوم الإسلام إلا مفردات المناهج التي يدرسها الطلاب ، وإنما يتكون العلماءُ بعد ذلك ، وقد سافر بعد تخرجه وَخُدِعَ . والشيخ محمد عبده أُضِيفَ إليه ما لم يقله ، ثم إن العلماء رفضوا ما ذهب إليه ، وأنكروا صَوْته ، واتهموه ، وكان

---

(١) أباطيل وأسمار ص ٤٩٨ .

رجال الاستعمار يدعون أقوامهم إلى تَبَنِّي حركات الإصلاح التي تكون على شاكلة مدرسة محمد عبده ، لأنها تدعو إلى تَقَبُّل الحضارة الغربية ، وبالطبع لم يكن هذا لصالح الإسلام ، وكل الأصوات التي عارضت الطهطاوي ، ومحمد عبده ، حُبست لسيطرة هذه الاتجاهات ، ومن غير أن ندخل في لجاجة حول هذه المسألة والتي سماها الدكتور زكي نجيب محمود «نحن والغرب» أعود إلى ما نقله الشيخ من كلام رؤوس المبشرين وكيف كانت تتفق كلمتهم على أن السيطرة الفكرية ، والثقافية على العقل الإسلامي هي أخْطَرُ طريق لتدمير ديار الإسلام ، وأن تثبيت الأفكار الغربية المسيحية في ديار الإسلام ، خطوة حاسمةٌ في تحقيق أهداف إرساليات التبشير ، وأن تفتيت هذه الحضارة التي تقوم على مجموعة العلوم العربية والإسلامية أمر لازم ، حتى يتم المقصود من التجزئة السياسية ، التي فُرضت على العرب والمسلمين ، بعد سقوط الخلافة ، واستطاعت وحدة هذه العلوم ، وهذه الثقافة أن تفقد هذه التجزئة قيمتها . وسأكتفي بكلمات قصيرة قالها مسيو شاتليه أحد رؤوس المبشرين في سنة ١٩١١م يوصي رجاله وصايا تُعينهم على تمكنهم من «قضاء لُبَانتهم من هَدْم الفكرة الدينية الإسلامية» هكذا يقول بوضوح شديد ، وأهم هذه الوصايا التي تعين على قضاء هذه اللُّبَانة هي «تثبيت الأفكارالأوربية في ديار الإسلام»[(١)] وأن هذه الفكرة الدينية الإسلامية المراد هدمها «يجب أن تُحاط بأفكار أوربية» وأن تُطوَّقَ بها ، ثم

---

(١) ينظر كتاب الاتجاهات الوطنية للمرحوم محمد حسين ٣٢٨/١ وقد أشار إلى عدة مصادر وتقارير ودراسات أوربية توصي كلها بتبني اتجاه مدرسة محمد عبده .

قال « إن هذه الفكرة الدينية الإسلامية لم تَحْفَظ كيانها إلا بعُزلتها ، وانفرادها »[1].

ولاحظ أننا بغفلة شديدة غرسنا هذه الأفكار في داخل العلوم العربية والإسلامية ، وزَرَعْنا ثقافة أعجمية مسيحية في قلب الثقافة العربية الإسلامية واعتقدنا أن هذا تطوير لعلومنا ، وصرنا نقرأ كتبًا في اللغة والأدب لا نعرف هل هي عربية ، أم أعجمية ، ودنّسنا الفكر العربي الإسلامي ، بالفكر الوثني المسيحي ، وهذه مصيبة ثانية ، ولما طالب بعض الناس بتعريب الطب ، قال الطبيب الأديب الدكتور يحيى الرخاوي ساخرًا عرِّبوا علوم العربية أولاً

ومعنى كلام هذا الرأس المدبّر (شاتليه) أن الفكر الأوربي إذا ثبت في عقل المسلم ، وقلبه ، وليس في هذا العقل ، والقلب ، من علوم الإسلام وحقائقه ، وأصوله ، ما يعصمه من غوائل النصرانية المتضمنة في هذا الفكر ، استطاع هذا الفكر المتَفَرِّدُ في هذه النفس أن يُهيئها لقبول النصرانية ، وهذا هو معنى تدمير الفكرة الإسلامية بتثبيت الأفكار الأوربية ، وأن أعداء الإسلام يقضون لبانتهم بهذا التدمير .

وراجع كلام المرحوم زكي نجيب محمود تجده رحمه الله يصف ما غلب على نفسه لما كان الفكر الأوربي هو مادة علمه الذي لا مادة عنده سواه ، وأنه رحمه الله دعا أن ننظر إلى الإنسان والعالم كما ينظرون وأن نكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون ، وهذا تأكيد عملي لفكر هذا الرأس المدبر وهو أيضًا معنى قول الشيخ رحمه الله في وصف الثقافة الغربية إنها ثقافة

---

(١) أباطيل وأسمار ص ١٨٦

نابتة في مدارج وثنية مسيحية وأنه يرفضها كل الرفض ، ويُنَاقِضُها كل المناقضة ، وليس معنى هذا رفض الاطلاع على تجارب الأمم وماذا يقولون ؟ ومعرفة علومهم ، وآدابهم ، وطرائقهم في النظر ، لأن الحكمة ضالّة المؤمن ينشدها في كل أرض ، والعقل الحَيُّ كالطائر الحُر لا يُحْبس عن قراءة ما يتاح له ، لأن حب الاطلاع شيء في سوس العقل ، وفي طبع النفس ما دامت نفسًا ، كما كان يقول علماؤنا رحمهم الله ، ولكن لابد أن تدور رحى البحث ، والدرس ، على علومنا ، وأن يُغْمس الجيل فيها ، ويُصْبَغَ بها ، حتى تَدْخل في لَحْمه وعظمه ، وأن تحيا هذه العلوم فينا ، وأن نحيا نحن بها وفيها ، وأن تَتَقَلَّبَ بنا ، وأن نتقلّب بها ، وأن نَسْتَخْرِجَ منها خبأها ، وأن تستخرج هي منا خَبْأنا ، وأن تَزْدهِرَ بنا ، وتنمو ، وتسطع ، وأن نَزْدهر نحن بها ، وننمو ، ونسطع ، وأن نحافظ على صفائها ، وخصوصياتها ، ونقائها ، كما تحافظ هي أيضًا على صفائنا ، وخصوصياتنا ، ونقائنا ، لتظل هي بنا عربية إسلامية خالصة ، ونظل نحن بها ، عَرَبًا خُلَّصًا مسلمين غير مُهَجّنين .

وهذا ما يفعله علماء الناس كل الناس ، يحتفظون بخصوصية معارفهم ، وثقافاتهم ، ومناهجهم ، وآدابهم ، ليحفظ ذلك كلُّه خصوصية الإنسان ابن هذه الثقافة ، وابن هذه الآداب ، وابن هذه المناهج ، راجع كلمة الدكتور زكي نجيب محمود واعكسها تصب ، قال رحمه الله : أنه هو وآلاف مؤلفة فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد ... الفكر الأوربي دراسته وهو طالب وتدريسه وهو أستاذ ومسلاته كلما أراد التسلية ، اجعل هذا للفكر العربي الإسلامي ، وهذا هو الذي يحدث في كل شِقٍّ من الأرض ، وقوله « وكانت

أسْماء المذاهب والأعلام في الفكر العربي لا تجيئه إلا أصداء ، كالأشباح الغامضة ، يَلْمحها طافية ، اجْعَل هذا لفكر الآخرين ، ليس من الأوربيين فحسب ، وإنما أيضًا لبقية أمم الأرض ، ذات الحضارات ، والعلوم ، والآداب ، ولا تَنْفَتِحْ على العدو الألد وحده ، نحن لم نراجع فكر إيران ، ولا علومها ، ولا آدابها ، إلا في حَيِّز المتخصصين ، وقل مثل ذلك في اليابان ، والصين وأمم الشرق الأقصى .

وكان علماؤنا يقولون لا يَجوز للمبتدئ أن يقرأ كلام المخالفين إلا بعد أن يحكم المذهب ، وأن يُحكِمْ أصوله ، وفروعه ، فإذا تقرَّر في نفسه ، وقويت عنده حججه ، واستنارت في عقله ، فله أن يقرأ ما يشاء . ولا شك أن كثرة المدارسة لباب من أبواب العلم تكشف فيه خفايا ، وتستخرج من تحت ألفاظ أيمته ، وشيوخه ، معاني وأفكارًا ، لم يكن لها أن تُسْتَخْرَجَ إلا بطول الملابسة ، وهذا وجه جيد من وجوه التجديد ، ثم إن كثرة المدارسة أيضًا لباب من أبواب العلم يولد في النفس خواطر جديدة ، حول هذا الباب ، وإنما بقيت علومنا راكدة لأن عقولنا لم تَتَلَبَّسْ بها بالقدر الكافي ، غابت عنها ، على حد ما وصف المرحوم زكي نجيب محمود ، ولا يكفي أن تتوفَّر عليها طائفة ، وإنما الأمَّةُ كلُّها ، تجعلها قُطْبَ رحى الدَّرْس ، والبحث ، والتأليف ، وكتابة المقالات .

ومن فعلوا ذلك وتوفروا على علومهم هذا التوفر ، يقرؤون من ثقافات الأمم ما شاءوا ، وهكذا كان حال علمائنا في تاريخنا . ألَمُّوا بتراث الإنسانية ، وجعلوا طحينهم وحده تحت رحاهم ، وهكذا كان المرحوم محمود شاكر ،

وقد اعتبر وصف صاحبه له بالتَّقْصير في معرفة الفكر الأوربي سخفا وقال : «هل يتفضل الصديق باطلاعي على شيء من كلامي يتضمن هذا المعنى السخيف»[1].

وهناك فرق شاسع جدًّا بين أن تقرأ كلام الآخرين لتعرف كيف يفكرون ؟ وبين أن تقرأه لتُفكَر كما يفكرون . وكذلك فرق بين أن نقرأ كلام الآخرين لتعرف ماذا يقولون ؟ وأن تقرأه لتقول ما يقولون ، أو شبه الذي يقولون ، أنت في الحالة الثانية ضعيف مقلِّد ، وفي الحالة الأولى عالم متمكن ، والتقليد خليقة مرذولة ، وقد قال علماؤنا أن المقلِّد أذَلُّ من العَنْزَةِ الجَرْباءِ تَحْتَ الشَّمأَلِ البَلِيل ، يعني الذي يقرأ كلام الآخرين ليفكر كما يفكرون ، وليقول مثل الذين يقولون ، ليس هو هذه العنزة الجرباء تحت المطر الشديد البرد ، وإنما هو أذل منها ، فهل يُمْكن لهذا العنز الأجرب أن يُطَوِّرَ عُلومًا وأن يُحدث نهضة ؟!!

وأعطيك مثلاً قريبًا للفرق الهائل بين القراءتين :

قرأ المرحوم محمود شاكر مقالة «نشأة الشعر العربي» التي كتبها مرجليوت وقرأها الدكتور طه حسين .

عرف الأستاذ محمود شاكر ما قاله مرجليوت ثم أهمله ، والدكتور طه حاضَرَ به طلابه ، وسكت عن مصدره ، وأوهم أنه مما استخرجه بالمنهج الجديد . هذه واحدة ، وأمر آخر هو أنك تجد الأستاذ محمود شاكر رحمه الله مع سعة علمه ، بالأعجميات لا يَرْتَضِخُ فكرة أعجمية واحدة ، وهو

---

(١) أباطيل وأسمار ص ٤٩٦

يتناول أي دراسة ، لشعر ، أو لغير شعر ، ولا يُقْحم نَفَسًا أعجميًا واحدًا في كلام عربي ، وهذه دراساته المتسعة والمتعددة . ونقد الشعر الذي صار أعجميًا ويوشك أن يكون كامل العُجْمة ، ليس في كلام الأستاذ محمود فيه حرف واحد مع أنه قادر على أن يتناوله تناولاً أعجميًا خالصًا ، ويحرص كثير منا على أن يتكثَّر بهذه الأعجميات ، حتى ولو كان قد خطف كلمة من هنا ، وكلمة من هناك .

وقد اتضح الآن الفرق بين معرفة ما عند الآخرين ، والاحتفاظ بصفاء علومنا ، والله أعلم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

على هامش منتدى إحياء التراث البلاغي[1]

المقالة الأولى

من المسلمات أن إحياء التراث البلاغي يُوجِبُ علينا أنْ نَدْرس نشأة العلم الذي نتكلم عن إحياء تراثه ، وأن أهم ما نهتدي إليه في دراسة هذه النشأة هو معرفة الأصول العلمية التي نشأ منها هذا العلم ، واسْتَخْرج العلماء مادّته ، ولا تزال قِصّةُ العلامة عبد القاهر مع هذا العلم وكيف أنشأه ومن أين استخرجه وما هي أدواته التي استخرجه بها كل ذلك لا يزال مَطْويًّا على خبايا لم تُعرف ، ويكفينا في سياقنا هذا سطر واحد ذكره عبد القاهر ، بيَّن فيه مَعْدِن هذا العلم الذي نتكلم في إحياء تراثه وأن مَعْدِنهُ الذي عليه المعوَّلُ فيه هو عِلْم الشعر وأن الذي كان عاملاً مساعدًا على استخراجه من علم الشعر هو علم الإعراب الذي كان كالنَّاسِب لعلم البلاغة الذي يَنْسُبُهُ إلى أصُوله ويُنمْيه لها ، ويُبَيِّن فاضلها من مفضولها[2]. وهذا قاطع في أن دارس

(١) «الذي أقامته كلية الدراسات العربية والإسلامية للبنات بالقاهرة» نشر في مجلة الأزهر شوال ١٤٣٧هـ يوليو ٢٠١٦م .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧، ٨ .

علم البلاغة لا يجوز أن يُرَى إلا وهو مستصْحِبٌ لهذين العلمين اللذين هما علم الشعر وعلم الإعراب ، لأنهما أصل علم البلاغة ، فإذا انفصل الدارس عنهما فكأنه انفصل عن أصل العلم الذي يدرسه ، وصارت دراسته له معلقة في الهواء ، هذا فضلاً عن الذي يتصدى لإحياء تراثه ، وقد ذكر الشيخ عبد القاهر أن الذي عوّل عليه في نشأة هذا العلم هو استقراء كلام العرب ، وهذه الكلمة الجليلة كررها شيوخ العلم الذين جاءوا بعد عبد القاهر كالسكاكي ، والخطيب القزويني ، وهذا يعني شيئًا أساسيًّا لا يجوز أن يغيب عن درس البلاغة ، وهو أن هذه البلاغة ليست إلا طرائق الشعراء في الإبانة عن معانيهم وأنك لا تجد في البلاغة مسألة إلا وهي داخلة في هذا الباب الذي يدلك على طرائق العرب في الإبانة عن معانيهم ، وأن التفاضل بين كلام وكلام هو في الوعي الأكثر والأدق بهذه الطرائق ، وكان عبد القاهر شديد الحرص على بيان هذه العروة الوثقى التي تربط هذا العلم بالشعر ، وهذه الرابطة بين هذا العلم والشعر كانت تستعين في كل مرة بمعاني النحو وليس لها من سبيل في ربط البلاغة بالشعر إلا معاني النحو هذه ، فإذا قرأت في مطالع بحوث كتاب دلائل الإعجاز مثل قوله : « ترى شعراً يروقك مَسْمَعُه ويلطف لديك موقعه ثم تسأل عن سبب أن راقك ولطف عندكِ فتجد لفظًا قدّم عن موضعه أو نكّر ، أو حُذِفَ إلى آخر ما قال »، وهذا التقديم الذي أنتج تفوق العبارة أو هذا التعريف إلى آخره هو معاني النحو وليس هو النحو وهذا باب آخر ، والمهم هو أن هذا يعني أن الشعر هو النبع الذي تستقي منه البلاغة لأنه ماء حياتها الأول ، فإذا ضُعفَت صلتها به اقشعَرّت وصوّح نبتها ورعى طلابُ العلم هشيمها فلم ينتفعوا بها .

ثم إننا وقعنا في خطأ غير مقبول علميًا ، وغير معقول عقليًا ، وهو أننا ندرس البلاغة التي هي علم معرفة أسرار الشعر والبيان أو علم معرفة علل التفاضل في الكلام كله كما يقول علماؤها فإذا ذهبنا إلى دراسة الشعر طوينا صفحة البلاغة وأبعدناها ودرسنا الشعر على طرائق أخرى ليست من العربية في شيء ، فزادت بذلك عزلة الشعر عن البلاغة وكان الشأن أن لا تزال سحائب الشعر تمطر هذا العلم فيزداد بذلك نضارة وغضارة وزهواً ولكننا هكذا نقتل علومنا ثم نعقد المؤتمرات لإحيائها

ولا شك أن كل التراث البلاغي ليس سواء، وإنما يمثل مراحل لكل مرحلة طابع فكري مختلف ، ولكل كتاب من كتب البلاغة نكهة تختلف لاختلاف طابع الزمن الذي كتب فيه لأن الزمن يغلب عقل العالم مهما كانت قدرته ويضع بصمته على عمل العالم . والمهم أن الذي لا يشك فيه أحد أن أقدار هذه الكتب ليست عندنا سواء لأننا لسنا سواء ، وكل قارئ يقرأ ما يقرأ من الكتب بمخزون وعيه وبخلفيته العلمية ويقظته ، فترى الكتاب الواحد يرتفع قدره عند قارئ كأنه يضفي على هذا الكتاب من ذاته نفسه ، ثم يختلف قدرُ الكتاب نفسه عند قارئ آخر مختلف في العلم واليقظة والوعي عن القارئ الأول ، وإلى الآن لم أقرأ في التراث البلاغي كتابًا لا يُفيد ، وأسمع ما يقال من القدح في بعض هذا التراث ولم يبق في نفسي منه شيء ، لأن يقيني هو أنني أرفض أن أطالب علماءنا الذين سبقونا أن يكتبوا لنا ما يسدُّ حاجتنا ، ومن الطبيعي جدًا أن يكون التراث البلاغي والنقدي الذي بين أيدينا لا يسدُّ حاجتنا في البلاغة والنقد لأن هذه الحاجة لا يسدها إلا نحنُ وأن علينا نحن أن نملأ الفراغ الذي بين زماننا وبين علومنا ؛ لأن علماء

كل زمان سَدُّوا الفجوة التي بين زمانهم وبين علومهم ، ولم يحدث أن طالب المتأخرون المتقدمين أن يكتبوا لهم ما يحتاجه زمانهم إلا إذا كان هؤلاء المتأخرون أهل عجز وأهل زمانه ومن ذوي الاحتياجات الخاصة ، وكل الذي يقوله علماء الأمة وعقلاؤها هو أن يكون بين أيدينا من تراث العلماء ما نجتهد فيه وما نستخرج منه ما يسدّ حاجتنا ، لا تقل ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وإنما قُلْ في الإمكان أن نبدع من الذي كان . قلت إن كل كتاب له مذاق وله نكهة ثم هو غضٌّ طري كيوم كتبه مؤلفه ، ومع هذا تتباين الكتب تباينًا شديدًا وخصوصًا الكتب التي أسست المعرفة لأنها تختص بمزيد من الوعي واليقظة العقلية . وأهل العلم لا يشبعون من المراجعة فيها ، ومدارستها مع طلاب العلم ، وتجربة عبد القاهر في تأسيس علم البلاغة لم ندرسها الدراسة الجيدة التي تتابع الشيخ في كل خطوة وفي كل مسألة وقد سهَّل لنا هذه المتابعة ولكننا لم نفعل ، سهلها لنا حين وصف كلام العلماء قبله في البلاغة وأنه كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء أو كالتنبيه إلى مكان الدفين ليبحث عنه ويستخرج ، لم نبين نحن كيف شُرح الرمز والإيماء وكيف استخرج علمًا من الإشارة في خفاء وكيف حفر عن مكان الدفين وكيف استخرجه من تحت التراب حيًّا مُضيئًا وهكذا . وكنت أتمنى أن أضع هذا بين أيدي طلاب العلم ولكن الله شغلني بما شغلت به ، ثم إن مثل هذه الكتب كما قلت تظل غضة طرية وكأنها مع تطاول الزمن بيننا وبين تأليفها لم يجف مدادها وهكذا قل في رسالة الشافعي وفي كتاب سيبويه كأن النسخة التي كتبوها بأيديهم هي التي بين أيدينا ، والغريب أن عمل عبد القاهر هذا الجليل ظلّ مسكوتًا عنه ما يقرب من مائة سنة حتى جاء

الزمخشري فلم يُلَخِّصْه ولم يشرحه كما فعل الناس بعده وإنما نقله من ألفه إلى يائه إلى الكتاب العزيز ، وكأن الزمخشري التفت إلى عنوان الكتاب الثاني وهو دلائل الإعجاز وأراد أن يدخل به في البحث عن أسرار البيان القرآني الذي هو الإعجاز ، ولم أعرف أحدًا قبل الزمخشري أذاع أو أشاع شيئًا من كلام عبد القاهر ، والفرق شاسع جدًا بين موقف الزمخشري من تراث عبد القاهر وموقف الرازي والسكاكي والخطيب وشراح التلخيص لأن خطوة الزمخشري بهذا التراث الجليل كانت انتقالة واسعة من باب الدراسة العلمية النظرية إلى مجال الانتفاع به فيما وُجد له ، وكلنا يعلم أن دخول مسائل البلاغة في تحليل البيان ؛ ليس تطبيقًا كتطبيق دخول النحو في تحليل البيان لأن دراسة البلاغة للشعر والكلام العالي تحتاج إلى شيء لا يحتاجه النحو وهو الطبع والدربة والدراية ، بل إن فائدة هذا العلم في درس البيان مؤسسة على الطبع والدربة والرواية والدراية . كان يمكن أن يمضي الزمخشري في التفسير على الوجه الذي مضى عليه أكابرُ المفسرين قبله ولكنه أدرك في هذين الكتابين شيئًا لم ندركه نحن وأنهما فرقدان يضيئان للناس أسرار البيان ، ومن أول لحظة ذكر في المقدمة أنه لا غنى للمفسّر عن علمي المعاني والبيان وإن كان في النحو أنحى من سيبويه إلى آخر ما قال ، وهو موقف نقضناه نحن نقضًا مخيفًا حين ذهبنا إلى دراسة الشعر على الوجه الذي يدرسه به الأباعد وكأننا لم نقرأ هذا العلم الذي أحدث في نفس الزمخشري هذا القدر الكبير من التحوّل ، أدرك الزمخشري أن الذي بين يديه من علم عبد القاهر هو علم طرائق العربية في الإبانة عن أسرار المعاني وخفاياها ودقائقها ، وأن الإبانة عن هذه الأسرار والخفايا تعني

الإبانة عن علل التفاضل ، ولو كان الزمخشري يضع تفسيراً للشعر مكان تفسير القرآن ما تجاوز هذا العلم لأنه يعلم أن أسرار البلاغة ليس له معنى إلا أسرار معاني النفوس ؛ لأن معاني النفوس الظاهرة في بيانها لا تحتاج إلى تأليف كتب ، وإنما يكتب الناس الكتب ليهتدوا بها إلى معرفة الخفايا التي في الزوايا ، وإذا كان التفتيش عن هذه الخفايا في زوايا الكلام فإن المعنى الحقيقي لذلك أنه تفتيش عن أسرار النفوس التي أودعتها في بيانها ولو وضعت كلمة أسرار النفوس مكان أسرار البلاغة كنت أقرب إلى تصوير الحقيقة ، فعلم البلاغة علم أسرار النفوس في كلام الناس وأسرار الإعجاز في كلام الله ، وإذا وضعنا هذه الحقيقة بين أعيننا ونحن نقرأ وندرس هذا العلم لطلابنا سيختلف الموقف اختلافًا شديدًا . وقضية إحياء التراث البلاغي أوالتراث النحوي أو التراث الفقهي أو ما شئت من العلوم التي نعالج إحياءها تنطوي هذه القضية على حقيقة مسكوت عنها وهي أصل هذا الباب ، وهي أن العلم الحيّ والفكر الحيّ لا يعتريه شحوب ولا قدم ولا فتور ؛ وإنما يظل في الزمن كله غضًا طريًا رطبًا كيوم كتبه الذين كتبوه ، والفكر لا يوصف بأنه قديم وجديد وإنما يوصف بالصواب والخطأ ، فالصواب جديد أبدًا وإن جاءنا من أقدم أجيالنا ، فتراث عبد القاهر والزمخشري والرازي والسكاكي والخطيب تراث حيّ وجديد وغض كل هذا وأكثر منه لا ريب فيه ، وإنما الشحوب والفتور وذهاب الحيوية والجدة في نفوسنا نحن ، ولو كان حيًا في نفوسنا كيوم كتبوه لم نكن في حاجة إلى أن نتكلم في إحيائه ، وقل مثل ذلك فيما نقوله في إحياء أو تجديد الفكر الإسلامي ، لأن الفكر الإسلامي في كتب علمائنا كأنّ مداده لم يزل طريًا رطبًا ، راجع

كلام الشافعي تجده لا يزال حيًا رَطْبًا كيوم كتبه ، وراجع كلام أبي حامد الغزالي وكلام الأشعري وكلام سيبويه وكلام السيرافي ومن في طبقتهم فلن تجد في كل ذلك حرفًا واحدًا تقادم ، وإنما تقادم وضَوُل وأصابه الشحوب في نفوسنا نحن ، ولما أغفلنا هذه الحقيقة صوّبنا أقلامنا نحو الفكر وقلنا تجديده وإحياؤه ، ولو صوبناها نحو أنفسنا وقلنا تجديد هذا الفكر فيها لأصبنا وأفلحنا ، ومن غير المعقول أن تُجَدِّد أقلامُنا الفكر وهي خالية منه ؛ هذا من العبث المفرط لأنه لا يُجَدَّدُ الفكرُ إلا بأقلامٍ يَتَجدَّدُ فيها الفكر .

لابد أن ينتقل العلم من مصادره ومراجعه إلى عقولنا وقلوبنا ولأبُدَّ أن نكتبه بأيدينا في عقولنا وقلوبنا وأن تَتحوَّل حروفه السود أو التي في الكتب إلى حروف مضيئة تضيءُ عقولنا وقلوبنا ، والعلم في الكتب علم مكنون صَامِتٌ ، والعلم في القلوب علم حيّ ناطق ، ولا خير في تراث مهما كانت أقدار علمائه ما دام ساكنًا على رفوف المكتبات ، وإنما الخير كل الخير في العلم إذا سكن قلوبنا فأحياها وأحيته وأنارها وأنارته ، والذين قالوا العلم نور لم يقصدوا العلم المكتوب في الكتب ، وإنما قصدوا العلم المكتوب في الصدور .

والمطلوب الثاني الذي لا يَقِلُّ عن هذا أهمية هو أن ننقل هذا العلم من صدورنا وفيه عبقها وَطعْمُها ولَوْنُها إلى صدور أجيالنا ، وأن يُنوّر عقولهم وقلوبهم كما نور عقولنا وقلوبنا ، وأن يُصبَغَ بصِبغَة عقولهم وقلوبهم كما صُبغ بصبغة عقولنا وقلوبنا ، وإذا كان سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه بلّغنا عن ربه أنه من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة فإن لنا أن نقيس على هذا ونقول من سلك طريقًا يُعلِّمُ فيه علمًا سهل

الله له طريقًا إلى الجنة ، وناهيك عن طريق إلى الجنة يُسهّله الله سبحانه وتعالى ، ثم تقول بناء على هذا القياس إن الذي سلك طريقًا يُعَلِّمُ فيه علمًا جديرٌ بأن يكون أجزل ثوابًا عند الله إذا صَحَّت النيَّةُ ؛ لأن طالب العلم له مصلحة في الطريق الذي سلكه ، والثاني ليس له حاجة إلا خدمة العلم ، وخدمة أجيال هذه الأمة التي مَن أحَبّها فبحبُ الله ورسوله أحبها لأنها أمة التوحيد وهي العصابةُ التي إذا هلكت فلن يُعبد اللهُ في الأرض ، ثم هي أمة خير الأولين والآخرين ، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى رجلاً يتقلّب في الجنة بسبب غصن شوك أزاحه عن الطريق خشيةً أن يؤذي المسلمين فكيف بمن سعى ويسعى وليس له إلا قصدٌ واحدٌ وهو أن يُضيء قلوب أجيالها بنور العلم ويكتسح الظلمات التي في طريقها حتى تخرج إلى النور ويحقق بذلك إخراجها من الظلمات إلى النور ، وكان الجاحظ يقول إننا لم نتعلّم العلم لنَعْلَمَهُ وإنما تَعَلَّمْناه لنعمل به . وأقول : ومن العمل بالعلم أن نُعلّم العلم . هذا والله أعلم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

على هامش منتدى إحياء التراث البلاغي(١)

المقالة الثانية

قلت في المقالة السابقة إن الواجب الذي لا يجوز أن يكون فيه خلاف هو أنه لا معنى لإحياء أي علم إلا بأن نَنْقُلَهُ أولاً من الكتب التي هو فيها إلى عقولنا وقلوبنا ، وأن نكتب سطوره التي في الكتب بكل دقائقها في القلوب والعقول ، وأقول إن هذه هي المرحلة الأولى التي تليها مراحل ، ولم يكن تحصيل العلم الذي في الكتب عند علمائنا نهاية المطاف كما هو الحال عندنا ، وإنما كانت تلي مرحلة التحصيل هذه مرحلةٌ من التدبّر والتغلغل والمراجعة ؛ لأن كلام العلماء له ظاهرٌ يُحصِّله المحصِّلون والمبتدئون وكفى، وله باطنٌ خَفِيٌّ مخبوءٌ مدفونٌ دونه أستارٌ وأستار ، وهو الذي لا يَصِلُ إليه إلا قومٌ هُدُوا إليه ودُلُّوا عليه ورُفِعَتِ الحُجبُ بينهم وبينه كما يقول الشيخ عبد القاهر ، وقد وصف هذا الشيخ الجليل كلام سلفه في بيان أسرارالبيان كما سبق أن ذكرنا وأن بعضه كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء ، وبعضه

(١) نشر في مجلة الأزهر في ذي القعدة ١٤٣٧هـ أغسطس ٢٠١٦م .

كالتنبيه إلى مكان الخبيء ليُبْحث عنه ، وهذا الكلام له نظائر كثيرة في كلام غير عبد القاهر ، فلم يكن هو وحده الذي واجه طرائق اللغة في الإبانة عن معاني العلوم ، وأن لغة العلماء كانت أحيانًا كأنها مخابئ ومدافن لكثير من معاني العلم وأحيانًا تَقْصُر اللغة وتَعْجِزُ حتى عن هذا الضرب من الإبانة وتبقى المعاني في اللغة لا يدل عليها إلا ما كان كالنبض الخفي أو كالهمس أو كمسرى النَّفَس في النفس وهذه هي المشقة وهذه هي المتعة وهذا هو الذي فضّل الله به الذين أوتوا العلم درجات ، وبناء كلمة (أُوتوا) للمجهول فيها معنى أنهم لم يَصِلوا إليه إلا بهدي من الله وهذا أيضًا معنى قولهم : هُدُوا إليه ودلُّوا عليه ورُفعت الحجب بينهم وبينه وكلها مبني للمجهول .

وتاريخ علومنا وتاريخ رجالنا مملوءٌ بمن رَامُوا هذا وَجَدُّوا في طلبه ، ومن أجله قرأ المُزنيُّ رسالة الشافعي خمسمائة مرة ، ورأينا النحوي الأندلسي يتم قراءةَ كتاب سيبويه كل خمسة عشر يومًا ، وسمعنا الذي قال إن سيبويه مات وهو أعلم بالكتاب منيّ وأنا الآن أعلم بالكتاب منه ، وكل هذا لا معنى له إذا فهمنا أنه تحصيلٌ للرسالة أو لكتاب سيبويه وإنما يكون له معنى في حالة واحدة فقط وهي البحث في طوايا الرسالة أو الكتاب عن علم غير مدلول عليه بلسان الشافعي ولا بلسان سيبويه ، وهذا قاطعٌ في أن هؤلاء يعلمون علمًا قاطعًا أن في باطن كلام العلماء علمًا مخبوءًا لا سبيل إلى الوصول إليه إلا بطول الوقوف على الأبواب وبطول إدمان قَرْع الأبواب ، لأن أبواب العلم كما قال الجاحظ لا تُفتَحُ إلا بعد إدمان القرع عليها ، وكان

الواقف على أبوابها كما وصفه عبد القاهر من الذين تفتح أبواب الملوك لوجهه أو كما قال الشاعر :

من النَّفر البيض الـذين إذا اعتـزوا وهاب رجال حَلْقة البـاب قَعْقَعُـوا

وهذا مثل ، والمطلوب أن يكون أهلاً للوصول إلى غوامض المعرفة وأهلاً لفهم الرمز والإيماء وأهلاً لأن يبحث عن الدفين فيستخرج . ومثل هذا كثير في كلام العلماء فإذا أردنا أن نراهُ واقعًا فافتح أي كتاب من الكتب الجليلة وتدبّرْ لترى بذور الأفكار في باطن الأفكار ، حتى إنّ أبا الفتح ابن جني يستخرج بابًا من أبواب العلم من كلمة من كلام سيبويه أو من كلام شيخه أبي عليّ ، ويكاد يكون كتاب الخصائص كله مستخرجًا من بذور أفكار فَطِنَ إليها أبو الفتح في كلام من أخذ عنهم أو قرأ لهم ، ومثل ذلك تجده في الكتب كُلِّها ترى الفكر يتسع والعلم يتمدّد والسطر الواحد يلد بحثًا ربما كان من أجلّ بحوث العربية كبحث التقديم الذي استخرجه عبد القاهر من نصف سطر من كلام سيبويه ، أو كبحث القصر الذي استخرجه عبد القاهر من جملة واحدة من كلام أبي علي وهي قوله : فرقٌ بين أن يكون الشيء فيه معنى الشيء وأن يكون الشيء الشيء»

فالفكرة أمامنا والواقع أمامنا ولم يبق إلا العزم . والمعرفة التي في الكتب لا تصنع معرفة وإنما تصنع وتتمرّدُ وتتوثّبُ حين تعيش في عقول العلماء ، لأنها تتحوّل هناك إلى برق خاطف يظهر ثم يختفي ويظل كذلك حتى يضيء الخفايا التي في الزوايا

ويستوي أن يهديك الصبر والانقطاع والتدبر إلى فكرة في قلب النص الذي تقرؤه أو يستخرج هذا الصبر وهذا التدبر وهذا الانقطاع من نفسك فكرة لأن المهم أن لا تَعُودَ ويدك خالية وإنما يهديك الفكر إلى فكر ، وسواء كان هذا الفكر الذي تهتدي إليه من سواكن الفكر الذي تتدبره أو من سواكن الفكر الهاجع في فطرتك ؛ لأن الله سبحانه أودع في النفوس كثيراً من الخصب وكثيراً من الثراء ؛ لأن الخصب والثراء الذي في النفوس هو ألزم لوازم عمارة الأرض وألزم لوازم خلافة الله في الأرض وطالبنا سبحانه أن نعمرَ الأرض بالفكر والعلم والنور ، وعلمنا أن السماء لا تمطر فكراً ولا علمًا ولا نوراً وإنما فقط تمطر خصبًا ، وما وراء ذلك الخصب الذي أسكنه الله في كل شيء عليك أنت أيها الإنسان ، نعم أرانا الله الخصب في كل شيء ، أرانا الحبَّة في قلبها خِصْبٌ يُنْبتُ سَبْع سنابل في كل سنبلة مائة حبة وأرانا الثَّمْرة في قلبها نواة تنبتُ نخلة تعطي آلاف الثمر ، وهكذا كل شيء من حولك فلا يجوز أن تكون في هذا الوجود الخصب عقيمًا . كل شيء في هذا الوجود يلد جنسه ولا يلدُ ذاته . والفكر شيء من الأشياء والتوقف عن النمو نشازٌ في هذا الكون الولود . بقي شيء له صلة وثيقة بما نحن فيه من إحياء التراث وإن كان مع الغفلة التي نحن فيها يبدو ولا صلة له بما نحن فيه ، هذا الشيء هو أن الاستعمار الصليبي في الزمن المتأخر غزا أرضنا فقاومناه بكل ما نملك ، ثم غزا عقولنا فقاومته هذه العقول بثقافتها وعلومها فأوصى كبار رجال الاستعمار من المفكرين بضرورة حملنا على علومه ، وكلمة «ضرورة حملنا على علومه» ترجمة حرفية لما قالوه ثم كان من عجائب هذه المرحلة التي لا يجوز أن تغيب عن الأجيال المتعاقبة

ولا يجوز أن يُهملها مَنْ يُخاطب أبناءنا وبناتنا في كل المستويات أقول كان من عجائب ما نحن فيه أنْ حملنا أنفسنا نحن على ثقافته وعلومه ثم انتقلنا من عجب إلى أعجب وهو أننا رأينا منا من يُقنعنا بأن هذا الحمل هو طريق التقدم والتحديث والازدهار ، وأنه لا يعوّق هذه المسيرة المباركة إلا أهل الجمود والتخلف والمتمسكون بثقافة الظلام إلى آخر الباطل الذي يُصب في عقول أبنائنا صبًا من عصابة لا عمل لها إلا الترويج للفكر الآخر ومطاردة الفكر الأصيل ، الذي هو فكر الأمة والذي من سلك طريقًا يطلبه سهّل الله له طريقًا إلى الجنة ، وسواء كانت هذه العصابة مقتنعة بما تقول أو مستأجرة لما تقول أو كارهة لما أنزل الله كل ذلك لا يعنينا وإنما الذي يعنينا أن هذا سهّل للعدو الألدّ غزو العقول حتى صار الحال إلى ما وَصَفَهُ العلامة المرحوم محمود شاكر في مقدمة كتاب المتنبي بعنوان « فساد حياتنا الأدبية » ووصف هذا الفساد بأنه فسادٌ وبيلٌ وذكر أنه بلغ حدًّا صار فيه المفكر مفكرًا بغير عقله والأديب مصورًا بغير قلمه ، وصارت علومنا في أكثر جامعاتنا غريبة ليست محاور تدور عليها البحوث والدراسات ، وزاد الأمر بلاء فرأى من رأى ممن يعيش على أرضنا وهو منّا يتكلم بلساننا أقول رأى الاستغناء المطلق عن هذه العلوم وأن نبدأ بالفكر اليوناني ثم نمضي على الدرب الذي مضى عليه القوم حتى ننتهي إلى ما انتهوا إليه ، وذكر هذا الرأي المرحوم محمد غنيمي هلال في كتابه في النقد الأدبي وليس هذا رأيه رحمه الله لأنه أجل من ذلك وإنما ساقه وهو يدرس الحقبة التاريخية بعد زمن الاستعمار والآراء التي تبنّاها مَنْ تبنّاها منّا . وقد أُلفت كتب لتهيئ الأذهان لإسقاط الثقافة العربية الإسلامية من مصر المحروسة ولتدمج البلاد في ثقافة العدو

الألد ، ومن أبشع ما كتب في هذا الكتاب « مستقبل الثقافة في مصر » الذي يؤكد أن مستقبلها هو مستقبل ثقافة حوض البحر الأبيض وليست الثقافة الوافدة من الصحراء ، وقد ذكر محمود شاكر رحمه الله في رثائه لطه حسين أنه لم يكتب أسوأ من كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » و« الشعر الجاهلي » وأنه رجع عنهما وغسل نفسه منهما وعاد إلى ثقافة أمّته ، وزاد أحمد حسين رحمه الله أن طه حسين في آخر أيامه لم يكن يسمع إلا القرآن بصوت الشيخ الحصري ، قلت هذا لإنصاف الرجل ولأبيّن الإصرار والعناد الذي عليه بعضنا والذين لا يزالون يُعيدون طبع هذين الكتابين ويحْملون طلاب الجامعة على قراءتهما وقراءة ما يشبههما من خلال عقد مسابقات حول هذه الكتب السيئة السمعة .

والذي هو داخلٌ معنا في هذا المقام من هذا الذي قلتُه هو أن هذا المشروع لما رُفض رفضًا قاطعًا ولم يقبله إلا الداعون إليه خرجت من تحته فكرة هي في الحقيقة أسوأ منه وإن كان ظاهرها أغرى كثيراً من مستوري الحال بقبولها وهي فكرة الأصالة والمعاصرة ، وهي فكرة لم تعرف في تاريخ العالم إلا عندنا ، وخلاصتها أنك حين تريد أن تكتب كتابًا في البلاغة فعليك أن تذكر قدراً من كلام علمائنا ثم تبحث في أي كتاب من كتب الآخرين عن أفكار تشبه أفكار علمائنا ، وتضيف هذا إلى ذلك وتعتبر هذا توليفة إحياء وتجديد وأصالة ومعاصرة ، ولستَ في حاجة إلى شيء من المعاناة التي وصفناها من التغلغل في الأفكار والبحث في زواياها عن خباياها لأنك حين تفعل ذلك ستخرج كتابًا خالصًا من علومنا ، أما حين تسلك سبيل الأصالة والمعاصرة فإنك ستخرج كتابًا له جنسيتان لأن نصفه عربي ونصفه أعجمي ولابد له أن يروج مع رواج كل ما هو أعجمي .

وقد قرأت كتبًا كثيرة من هذا البـاب ، وكنـتُ لا أجـد فيهـا كـدَّ الباحـث وإنما أجد فيها (بهلوانية) الأدعياء وهـذا المَهْيَـع لا يـزال مسـلوكًا ولا تـزال المؤسسات العلمية والجامعات متمسكة به . وكتب ولا زلـت أراه بائقـة مـن بوائق الاستعمار وأنه حلقة في سلسلته الجهنمية الرامية إلى تدمير هذا العالم الإسلامي لأنه غزا الأرض فقاوَمْنَاه ثم غزا العقول فقاومت ثـم انقـادت وهـو الآن يغزو العلوم وهذا الغزو شَرُّ الثلاثة ، لأنه تهجينٌ لعلومنا وإفسادٌ لها فإذا وعت الأمة واستيقظت يومًا وعادت إلى علومها فستجد علومًا مُهجّنةً لا هي عربية ولا هي أعجمية ، ومثل هذه العلوم المهجّنة لا تصلح البتة في تكوين عقلية علمية ، ولا يمكن أن تكون أساسًا لنهضة علمية ، ولا يمكن أن تكون وجهًا من وجوه الإحياء ولا من وجوه التجديد ، وإنما هي من التبديد وشـرّ تبديد .

ولم أعرف واحدًا من عابري هذا السبيل لـه رأي في مسـألة علميـة ، وإذا تحذلق وأراد أن يكون من ذوي الألباب قال ما يضحك ، وسببُ ذلك ظـاهر وهو أنه لم يتعوّد على أن يتغلغل في مسائل العلوم ولم يذق حلاوة المعاناة والبحث والقيـاس والاستنباط واعتصـار مسـائل العلـم وتـذوق رحيـق هـذه العصائر ، وإنما عاش حياته سطحيًا يؤلف بين المتشابهات ويجمـع النظير إلى النظير من نفايات الثقافات وهذا جهده وهذه إمكانياته وهذا حسبه ، مثله كمثل الخاطبة التي تجمع رأسين في الحلال ، واحذر أن تظن أنني أدعو إلى مقاطعة علوم الآخرين لأن هذه المقاطعة لا يدعو إليهـا ذو عقـل ذاق طعـم المعرفة ، ولكن هناك فرقًـا بـين أن تقـرأ مـا يقولـه الآخـرون لتعـرف مـاذا يقولون فحسب وأن تقرأ ما يقوله الآخرون لتقول ما يقولون . الأولـون هـم

أصحاب العقول المقتدرة والتي تتحدث ألسنتها بعلومها لأنها مقتنعة بها ، فإذا لم تكن مقتنعة بها أضافت إليها من ذات نفسها ما تصير به مقتنعة بها ، والآخرون هم العجزة الذين تتلقط ألسنتهم من نفايات ثقافات البشر ، ويظهرون في العالم المتخلف في مظهر المثقفين والمتنوّرين

وأقول أيضًا فرق بين أن تقرأ كلام الناس لتعرف كيف يفكرون ؟ لا لتفكر كما يفكرون . الأولون هم الذين لهم عقول تعصمهم من التفاهة والتقليد والتبعية والعبودية ، والآخرون هم الذين ليس لهم رؤوس إلا رؤوس تقذف فيها نفايات الثقافات ، وهذه رؤوس لا تتقدم بها أمة إلا أن تكون أمة عبيد لا تستطيع أن تضع أقدامها إلا على مواطئ أقدام سادتها ، ومثلُ هذا لا يقبله من ذاق طعوم علوم هذا اللسان الشريف لأن من امتلأت عيبتُه من هذه العلوم الشريفة امتلأت عيبتُه بها زهوًا ، وأَنَفَةً .

ولن يذوق لذة البحث التي هي فوق كل لذة كما يقول الجاحظ من لم يخض معمعان التغلغل في دقائق وخفايا العلوم حتى كأنه يعيش بلحمه ودمه في خباياها ، وكأنها هي أيضًا تعيش في حناياه ثم يستقي من رحيق نَبْعها كما تستقي هي أيضًا من رحيق قلبه وعقله .

والعلم في جوهره وحقيقته هو بصائر أهل البصائر من العلماء ، وناهيك عن الذي يسكن بلحمه وشحمه في هذه البصائر . وإنما سُمّي العلم بصائر لأن العلم يزرع في العقل والقلب عينا يُبْصَر بها الصواب في أي باب كان ويعرف بهذه البصيرة أو بهذه العين الفرق بين الحق والتلبيس والتدليس والتهويش ، يعرف الفرق بين العلم النافع الذي يمكث في الأرض وعلم التهويش الذي يذهب جفاء . وبين العلماء الحقيقيين وعلماء زمن التخلف

الذين يجرون البلاد والعباد إلى مزيد من التخلف والذين هم في الحقيقة أغربة أنبت لها زمن التخلف ريشًا أبيض . وتعظم البلوى إذا قادتها أغربة عُشُّها هناك في أعلا الجبل .

وليس ببعيد أن تكون عجيبة الأصالة والمعاصرة من بنات زمن التخلف ، لأن الأمم الحيّة لا تقبل أن يدخل فكر عليها من خارج حدودها ولو كان الذي أنتج هذا الفكر منها ، ولكنه سكن بلدا أخرى وأنتج فيها هذا الفكر . ومرجع ذلك إلى قوة إحساس الذين هم داخل الحدود بأنهم يُنتجون حاجتهم من الفكر وأنهم ليسوا في حاجة إلى أن تمتد إليهم يَدٌ تعينهم من خارجهم .

ومن الخطايا التي سيذكرها التاريخ يومًا أن نُربّي أجيالنا على مقولة تقول : نأخذ من غيرنا ما نحتاجه ؛ لأن الصواب أن تكون مقولتنا : نصنع بعقولنا وبأيدينا ما نحتاجه وإذا أخذنا من غيرنا شيئًا أعطيناه شيئًا والفرق كبير بين جيل يُربيّ على أن ينتج بعقله ويَده ما يحتاجه وأن يَسُدَّ كل فراغاته في حيواته الفكرية والمادية بنفسه وجيل يُربّي على أن يمدّ يده ليَسُدَّ حاجاته بعقل غيره ويد غيره ، هذا الجيل كأنني أربّي به جيلاً من القَعَدة العجزة المتهيئين لأخذ الصدقة والجيل الأول جيل أستخرج منه عِزَّهُ وزَهْوَهُ ، وثقتهُ في نفسه ، وبأوَهُ وحُرِّيتهُ وشِدَّة مراسه ، وهذا مما لا يختلف فيه ذوو النفوس الحية .

هذا والله أعلم .

* * *

(م ١٦ : من الحصاد القديم)

الدين والسياسة
ومقدمات يجب أن تذكر

ليس المقصود من هذا المقال وما بعده أن يتشيّع إلى اتجاه ، ولا أن يعارض اتجاهًا ، وإنما مقصوده وما بعده أن يبحث عن الصواب ، وأن يعرضه لقومه ، وأن يبحث عن الخطأ الكامن في مكامن خفية ، وأن يحذّر قومه منها ، ولو كان السكوت يُحْمَدُ ، ويُرْجى عند الله وعند الجماعة الوطنية التي هي أهل البلاد جميعا لآثرت السكوت ، لأننا في زمن بَلْبَال يصبحُ ويُمسي المرء فيه وهو حيران . يرى البلاء والشر يزحف من هنَّا وهنَّا وهو عاجز عن أن يَدْفع ، ولولا أني أخاف أن ألقى ربي وفي صدري كلمة حق هي بمثابة الشهادة التي نهانا ربنا عن أن نكتمها أقول لولا ذلك لأرحت واسترحت .

ثم إني أرى ويَرَى غَيْري أن أكثر البلايا التي نحن فيها راجع إلى ترك الساحة لأهل الأهواء ؛ لأننا لا نقرأ ولا نسمع إلا تأييدًا مُفْرطًا لكل ما يكون من النظام ، أوْ هجومًا مُفْرطًا لكل ما يكون من النظام ، والكلامان متدافعان وتدافع الكلامين يعني سقوطهما بناء على القاعدة المنطقية التي تقول « تدافعا فتساقطا » ويقي التيه الذي هو شر ما يسقط فيه الناس ، وكلمة الحق الباحثة عن محض الحق والمتجهة إليه لا تحيد عنه هي سبيل الفلاح والصلاح وهي زورق الخروج من التيه ، وهي النور الهادي إلى الصراط

المستقيم الذي ندعو الله أن يَهْدينا إليه في كل ركعة نقف فيها بين يديه ، وقد قال لنا ربنا قولاً صريحًا إن كلمة الحق هي السبيل الذي لا سبيل لكم سواه إلى صلاح أعمالكم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوۡلاً سَدِيدًا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١) ، وبعد هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ (الأحزاب: ٧٢) . وهذا التجاور بين الآيتين دالّ دلالة صريحة على أن كلمة الحق من الأمانات التي كلفنا ربنا بها ، وأنها ثقيلة ولها تكاليف وقد أمرنا ربنا أن نؤدي الأمانات : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّوا ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ (النساء: ٥٨) وكلمة الحق حق الله علينا وأمانته سبحانه في أعناقنا وهي حق البلاد والعباد .

ولم يَضُرّ الناس شيءٌ كما يضرهم النفاق والكذب . وإذا كانت كلمة الحق ضياء يخرج الناس من ليل الفتنة وظلمات الظلْم فإن كلمة النفاق هي التي تدخلهم هذا الليل المُلْبس وبقدر ما تُصلح الكلمة السديدة المذكورة في كلام ربنا تفسد الكلمة الكاذبة ، وإذا كان الكذب يهدي إلى النار في الآخرة فإنه هو نفسه صانع الجحيم على هذه الأرض ؛ لأن الفساد والإفساد والقهر والظلم ، وإهانة الإنسان كل ذلك وغيره هو جحيم على هذه الأرض ، ولم أعرف عملاً يفْتح باب الجحيم في الآخرة إلا وقد فتح هذا العمل نفسه بابا من أبواب الجحيم في الدنيا ، ولم أعرف برًا يهْدي إلى الجنة وصدقًا يهدي إلى الجنة وحقًا يهدي إلى الجنة إلا وقد صنع هذا البرّ وهذا الصدق وهذا الحق جنة على الأرض ، وتلاحظ أن مفتاح باب الجنة في الكتاب العزيز هو

عمل الصالحات أي العمل الذي تصلح به حياة الناس وتهنأ وتهدأ وتأمن حتى تكون الأرض مقامًا أمِينًا ، والمقام الأمين وصف مشترك بين حياة الناس على الأرض وحياتهم في الجنة .

ومن تكاليف الكلمة السديدة التي ذكر ربنا أنها منوط بها صلاح أعمالكم وأحوالكم ، وأن عكسها منوط به فساد أعمالكم وأحوالكم ، من تكاليف هذه الكلمة أنك تنحاز إليها وتقولها وإن كانت على غير ما تهوى ؛ لأن اتباع الهوى ليس هو طريق الحق ، ولذلك أُمِرْنا أن نقول الحق على أنفسنا ، وعلى الأقربين منا ، كما أُمِر القاضي أن يَعْزِل عن حكمه ما في قلبه من بغضاء وشنآن وأن يقْصد إلى العدل فيحكم للذي يجد في قلبه له بُغْضًا وشنآنًا : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨) تأمل كلمة ﴿ ٱعْدِلُوا۟ ﴾ ، وما فيها من لَفْت وما وراءها من غضب وتهديد ، وما بُنِيتْ عليه من القطع والاستئناف ، وأن الويل لك إذا حكمت بما في صدرك من حبٍّ أو بغضٍ ، ولكن ابحث عن الحق ، وهكذا يقال للكاتب ومن يخاطب الناس في شأنهم العام .

وخلاصة هذه المقدمة أن القول السديد الذي ذكره ربنا يعني الإعلام النظيف ، وأن قوله سبحانه ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨) يعني القضاء النظيف ، وأن أي نظام سياسي يحرص على نظافة هذين الركنين المكينين من أركان المجتمع هو بلا ريب نظام نظيف .

المقدمة الثانية : هي أن الاختلاف من طبيعة البشر وجزء من فطرتهم وقد اختلفوا وهم الآن مختلفون وسيظل الخلاف على هذا الكوكب بين أبناء أبينا

آدم إلى أن يـــرث الله الأرض : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ (هود:١١٨-١١٩) ، والذي يريـد مجتمعًـا خاليًـا مـن الخـلاف هـو لا يريـد مجتمعًا إنسانيًا ، وإنما يريد سرْب قطيع يتبعه حيث يشاء وقد تفهـمَ عقـلاء الناس الطبيعة البشرية ، وأن هذا الخلاف جـزء منهـا ، وأن مواجهتـه بـالقمع والقهـر والظلـم مواجهـة غبيّـة لأنهـا تزيـده اسـتعارا ، فقـام علمـاءُ النـاس وحكماؤهم وأهل الرشد فيهم بدراسة وتحليل مسائل الخلاف وحاولوا دائمًا تضييق المسافة التي بين الآراء المختلفة ؛ وبحثـوا عـن المسـافات المشـتركة بينها وأزالوا قشرة الظاهر المختلف واقتربـوا مـن لبـاب البـاطن المتقـارب ، وأكدوا أن الخلافات الفكرية لا يُنْهيها إلا عمل الفكر ، ولن تحلَّ بالقمع أبدًا وأنَّ طريقة وأد الخلاف بالقوة هي طريقة من لا يجوز لـه أن يكـون ذا رأي في الشأن العام ؛ لأن الشأن ، العام يلتئم ويأتلف بالعقـل والـبرّ والمَرْحمـة ، وليس بالدم والقهر والإهانة وهذا الأخير لم يبق له وجود إلا في عالم الغابـة التي يديرها الأغبياء .

والذي يقرأ الكتـب ويجـد ريـح العلـم يـرى كـثيراً مـن مواقـف الخـلاف المتباعدة في العلوم كلها وفي السياسة أيضًا ، ولا يـزالُ علمـاء هـذه العلـوم يبحثون ويحللون ويستنبطون العناصر المشتركة ويكوِّنون الصلات والـروابط حتى تضيق مساحات الخلاف وحتى يصحَّ للعـالم الكـريم الرائـع أن يقـول عبارتهم الذكية : إن الخلاف بين هذين إذا لم يكن خلافًا لفظيًـا فإنـه يوشـك أن يكون لفظيًا ، ومعنى العبارة أن الخلاف ليس في الجوهر وإنما في اللغـة التي عبرت عن هذا الجوهر ، وكل من تربّى في هذه المدرسة الرفيعـة الـتي

عملها تقريب الآراء وتأليف المختلف يجد خلافاتنا التي نتنازع حولها تكاد جميعًا أن تكون خلافات لفظية ، وخصوصًا إذا جعلنا مصلحة الوطن هي المرجع الذي نرجع إليه ، وليست مصلحة جماعة ولا مؤسسة ، وكلمة تأليف المختلف التي هي الأصل في تقريب المسافة بين المختلفين كلمة شائعة جدًا في كلام علمائنا ، وقد أدرك أهل الرشد أن الخلاف سلاح ذو حدّين ، حدٌ مفيد ، وحدٌ ضار ، أما المفيد فإن الخلاف يدعونا دائمًا إلى تحري الصواب ، ثم إن تقريبه لا يكون إلا بالنظر العقلي الدقيق والنافذ ، وأما الجانب الضار فهو تنازع الناس ، وهذا التنازع ليس فوقه خطر يُهدِّدُ حياة الجماعة ، ويذهب بطاقتها التي تقيم بها أسس حياتها ، وأسس تقدمها ، وأسس قوتها ، وازدهارها ، وحمايتها لأرضها وعِرْضها ، وهذا أمر تدركه الفطرة قبل أن تنبّه إليه الديانات ، وهو في كتاب الله شرٌّ حاسم يورث أمرين ليس أبشع منهما ، الأمر الأول : هو الفشل ، والأمر الثاني : هو الهزيمة ، ولذلك كان النهي عنه نهيًا قاطعًا : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفۡشَلُوا وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ (الأنفال:٤٦) ، ولو فسّرت الفشل بالتخلف لم تكن بعيدًا عن الصواب ، وذهاب الريح يعني ذهاب القوة التي تحمي الأرض والعِرْض ، وذهاب الريح تذهب معه الكرامة والأرض والعِرْض ، والعبارة عن القوة بالريح فيه إشارة إلى أن قوة الوطن شائعة في أبنائه جميعًا وفي أرجائه كلها وليست في عضو واحد منه ولا في جماعة واحدة .

قلت : إن تأليف المختلف الشائع في كلام العلماء المراد به حراسة بنيان الأُمّة من التصدّع والتشقق والانهيار ، وكل نظام رشيد ومؤهل لأن يسوس البلاد والعباد يحرص على تأليف المختلف ونزع أسباب الفرقة ، وجمع

الناس على القرب بدل البعد ، وعلى الحب بدل البغضاء ، فإذا رأيت النظام السياسي يفعل ذلك فانتظر منه الخير ، وإذا رأيته يفعل خلاف ذلك ويتبنى سياسة فرِّق تَسُدْ فاحذر منه لأن فيه ريحًا من ريح العدو ، الذي لا بقاء له بيننا إلا على حساب فرقتنا ، واختلافنا ، وتمزقنا ، وانظر حولك تجد الضياع والفقر والخراب مقترنا بالتنازع والتصادم ، وتعجب حين تجد الناس لا يجدون القوت ، ويكثر في أيديهم السلاح ، يعني مُنِع عنهم سببُ الحياة الذي هو العيش ، وأعطوا سبب الموت الذي هو السلاح ..

ولا شك أن الجميع يحبون أوطانهم ؛ لأن حب الوطن من الفطرة ولا شك أيضًا أنه لا معنى لحب الوطن إلا حب الإنسان الذي يعيش على تراب هذا الوطن ، وأنا لا أشك لحظة في أن من يريق دم أبناء الوطن على تراب وطنهم أو يُدمِّر كرامتهم على أرضهم ، ليس من الوطنية في شيء لأن قطرة الدم أغلى من تراب الأرض ، ولأن الشعب هو قوة الدفاع الأولى عن الأرض ، ولأن من يقتله إنما يقتل قوة الذود عنه وقوة حمايته وكأنه يُمهد تراب الوطن لاستيلاء العدو عليه ، وهذه حقائق التاريخ الذي لا شك فيها .

ولم أجد كلمة تأليف المختلف تشيع في كلام عالم من علمائنا كما أجدها تشيع في كلام الباقلاني ، وكان رجل علم ورجل دولة ، شأنه شأن كثير من العلماء ، وكان يبلغ نهاية الدقة واللطف والبراعة والحِذْق في تأليف المختلف ، وكأنه كان يسوس المعاني سياسة البصير بسياسة الشعوب «ويضع المتنافرات في ربقة واحدة» وهذه عبارتهم ومعناها أنه يربط المتنافرات في حبل واحد بعدما نفث في عقد الخلاف فأزال شرّها وأودع الألفة مكان الفرقة والمحبّة أو الرضى مكان الشتات .

قلت : إن هذا كثر عند الباقلاني وأكرر أنه موجود في كل الكتب وحول كل مسألة اختلف فيها العلماء ، ثم هو موجود عند غير علمائنا لأنه من الفطرة وأنه لا يطفئ البغضاء بين الناس إلا سليم الفطرة ، ولا يشعلها إلا سيّئ الطبع خبيث الطوية ومن نبت في منبت سوء ، وقد رأيت ذلك واضحًا وبصوت جهير في الكتاب العزيز وكأنه ينادي في الكتاب به وينادي في الكتاب عليه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (آل عمران:٦٤) وهذه من أعظم آيات الكتاب ، وكلها أعظم ، وتعجب حين يأمر ربنا جلّت حكمته نبينا صلوات الله وسلامه عليه أن ينادي أهل الكتاب ، ويملأ الأرض بهذا النداء ، وهم الذين ينكرون نبوته وينكرون ما أنزله الله عليه ، ثم يناديهم بأحب صفاتهم ، وأنهم أهل التوراة التي هي إمام ورحمة ، وأهل الإنجيل الذي هو إمام ورحمة ، ثم يقول لهم : ﴿ تَعَالَوْاْ ﴾ وتعالوا من العلو ، أعني أقبلوا مُكَرَّمين ثم يقول لهم : نبحث معًا عن ما يُقرّب خلافنا ، وليس هناك سبيل لإزالة هذا الاختلاف ، وإنما هناك سبيل لإيجاد مساحة مشتركة تجمعنا وهي كافية في أن نعيش معًا متسالمين ، متعاونين نحمي أوطاننا ، وأعراضنا ، راجع الآية أنت وانظر إلى طبيعة الخلاف وأنها غير قابلة لأن تلغى ومع ذلك يطالبنا ربنا بأن نبحث عن مساحة مشتركة بين المتخالفين ليأتلفوا وليعيشوا حياة يأمن بعضهم بعضًا فيها بل ويساند بعضهم بعضًا فيها ، ثم اسمع ما يقوله بعضنا عن بعض وكيف يُوسّع بعضنا مسافات الخلاف حتى بين ذوي الأرحام .

ومن الواجب علينا إن كنا صادقين في أننا نعني مصلحة بلادنا ، وليس مصلحة فصائلنا وانتماءاتنا أن نضع كل مسائل الخلاف سواء كانت دينية ،

أو سياسية ، تحت بصيرة أهل البصائر من العلماء ليقولوا فيها القول الفصل الذي نلتزم به جميعًا ، ثم نمضي جميعًا أيضًا في العمل الجاد الذي يَنْقل البلاد إلى حالة أفضل ، وتتجه الطاقة كل الطاقة إلى العمل المنتج ، وليس إلى الصراع المدمِّر .

ومن القضايا التي يجب أن توضع تحت بصر أهل البصائر من علماء الفقه وعلماء السياسة مسألة « الدين والسياسة » وقد تنازعنا في هذا ونتنازع ، وتآكلنا ونتآكل ، ولم أعرف أن هذه القضية أُثيرت قبل زماننا وأن الدولة الإسلامية قطعت أربعة عشر قرنًا من الدهر من غير أن تطرح فيها قضية « الدين والسياسة »، وهذا يعني أنها ليست من القضايا التي لها جذور فكرية ، وإنما هي أمر عرض مع عوارض الأيام ، واختلاف الأحوال ، ولستُ من أهل الفتوى في هذا الباب والذي أعلمه هو ما تدل عليه الفطرة ، وما اتفق العقلاء عليه من المسلمين وغير المسلمين ، وهو أن المناطق التي لا يجوز دفع الدين عنها في السياسة هي عَدْلُ المسؤول ، وصلاحُ سيرته ، وكمال كفاءته ، وطهارة يده وبرّه وأنه لا يظلم ولا يتربح بالسلطة وأن كل أبناء الوطن عنده سواء ، وقلت المسؤول لأن المسألة ليست هي رأس الدولة فقط ، وإنما كل مسؤول لأن حديث المسؤولية الذي رواه البخاري ومسلم قال : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ومن أهم المسؤولية على رأس الدولة أن لا يختار في أي موقع إلا أكفأ الناس ، وأن يقيم القضاء العادل الذي يأخذ فيه أضعفُنا حقه من أقوانا ، والإعلام النظيف الذي لا يكذب على الناس ولا يشوِّه وجوه الشرفاء الصلحاء الكرماء ، ولا يشحن قلوب الناس بالبغضاء ، حتى لتوشك البلاد أن تشتعل فيها نار الفتنة ، وكل ما هو

من هذا الباب وهذه ليست مداخل الدين في السياسة وإنما هي مداخل الفطرة في السياسة ، والديانات السماوية كلها من الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ثم لا يكون في قوانين الدولة قانون يُحلُّ شيئًا حرّمه والله ولا يحرّم شيئًا أحلَّه الله ، وكل هذا موضع اتفاق ، ويكفي هذا القدر في جمعنا على كلمة سواء ، والذي ألاحظه هو النفخ غير البريء في هذه المسألة وذلك بذكر السلطة الدينية ورفض الدولة المدنية وهذا باطل ظاهر لأن الأمر بالشورى جاء صريحًا في الكتاب العزيز : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى:٣٨) ، وفي القرآن سورة اسمها سورة (الشورى) وأجمع العلماء على أن كل ما فيها جاء في كل النبوات لأن الله سبحانه بدأها بقولها : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (الشورى:٣) ، فدل هذا على أن الوحي فيها وحي سيق إلى الذين مِنْ قبله ، وقد جاء مثل هذا في سورة الأعلى ولكنه جاء في آخرها ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى:١٨-١٩) فدل هذا دلالة قاطعة على أن كل ما في السورة جاء في نبوات الأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ثم إن التاريخ مكتوب ويقرؤه الكبار والصغار ولم نعرف دولة دينية في التاريخ ، وإنما نعرف أن أبا بكر أول ما تولى قال في أول خطاب خاطب به الأمة : إن رأيتموني على صواب فأعينوني وإن رأيتموني على خطأ فقوموني ، فدعا إلى قيام معارضة نظيفة ، واعية تُدْرك الصواب وتعين عليه ، وتُدرك الخطأ وتنبه إليه ، الحقيقة أن قضية الدين والسياسة صارت قضية مزايدات سياسية ، وليست قضية شعب وجماعة متفقة تبحث عن الصواب بموضوعية ، وليس لها هدف إلا أن تجمع أبناء الوطن ، وتؤلف المختلف ليمضي الكل

بخطوات كلها تعاون وتآلف لبناء وطن نعلو بعلوه ، ونغلب بقوته ، ونعيش كرامًا في ظل كرامته ، والذي أفهمه من إدخال الدين في السياسة هو قيام السياسة على العدل والرحمة والبر ورعاية الضعفاء وحفظ الأرض والعرض وأمن الناس واحترام الحرمات ؛ لأن كل هذا من الدين ، ومن الأخلاق ، ومن رشد العقول والذي قلته هو كلام عام ، ويعني أن القضية التي تهالكنا ونتهالك فيها لها مداخل كثيرة في تخفيف حدة الاختلاف ، وتبقى مسائل يقولها أهل الحق من علماء الفقه وعلماء السياسة ، ثم تبقى في السياسة منطقة يرفع الدين يده عنها لأنها من شؤون دنيانا وقوله عليه السلام : «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» من الكلام العالي ويعني أن الله سبحانه ترك لنا مساحة نُعْمل فيها العقل والفكر ونصيب فيها ونخطئ كما يصيب طالب العلم ويخطئ ، وبهذا تنتهي هذه القضية التي يزايد فيها من يزايد ، ويزايد بها من يزايد ويلْبِسون الحق بالباطل ويخوفون الناس من دهياء اسمها الدولة الدينية ، ويبكون ويبكي معهم من يبكي على ضياع الدولة المدنية ثم هم يغمضون كل عيونهم عن الفساد والإفساد والظلم والقمع والقهر وإهانة الإنسان ، وكأن كل هذا مباح ومُستباح في الدولة المدنية .

وقد ذكرت أن الشورى طريق قديم قدم النبوات وأن القهر والقمع والظلم وإهانة الإنسان سلوك مرفوض ومستبشع في الديانات كلها ، وفي الفكر الإنساني كله سواء كان فكرًا متدينًا أو غير متدين ، وقديمًا قال أرسطو لتلميذه الإسكندر المقدوني : اترك الناس أحرارًا لتكون ملك الأحرار ، ولا تستعبدهم فتكون ملك العبيد ، وملك الأحرار أفضل من ملك العبيد .

وقال عمر بن الخطاب : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا» لاحظ أن كلمة سيدنا عمر ليست من وجهة نظر دينية وإنما هي من وجهة نظر إنسانية ، وأنه ليس من حق أحد أن يستعبد من ولدته أمه حرًا . وحيثما كانت الإنسانية ، وكانت الفطرة ، وكان العدل ، وكان البر ، وكانت الرحمة ، فثمّت دين الله . ولو قرأ غير المسلم شرع الله قراءة صحيحة لطالب بتطبيق الشريعة من حيث هي عَدْل وبر ورحمة ، وليس من حيث هي دين ، ولكنها الأهواء .

وأؤكد أن غياب الوعي المطلوب لسياسة الناس جعل القضايا الصغيرة عندنا كبيرة ، وتهالكنا فيها وإذا حضر هذا الوعي وحضر على الساحة حكماء الأمة وعلماؤها ، في الدين والسياسة ، وفي الأمر كله ، صغرت أمامهم القضايا الكبيرة وقد ذكر المتنبي هنا حين قال :

وتَعْظُم في عَيْن الصغير صِغَارُها ... وتصْغُر في عينِ العظيمِ العظائمُ

الأزمة ليست في مشاكلنا وإنما الأزمة في أننا افتقدنا العظام الذين تصغر في عيونهم العظائم ، وبقينا في ليل مظلم مع الصغار الذين تعظم في عيونهم صغارها ، وقد ذكر أبو الطيب هذا البيت بعدما فتح قصيدته بقوله :

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ ... وتأتِي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

ولسنا في حاجة إلى شيء كحاجتنا إلى عزائم أهل العزم ؛ لأنها هي وحدها التي تنهي الصخب الفارغ الذي نحن فيه حتى إنك لتجد منا من يرفض أن يأتلف المختلف من أبناء الوطن ثم لا يجد غضاضة في المصالحة مع ألَدّ أعداء الوطن وهذا حسبي .

* * *

كلمات يجب التوقف عن استعمالها

ذكرت في المقالة السابقة : أننا في حاجة إلى أن نراجع قضايا الخلاف التي بيننا ، وأنها إذا راجعها الكبار الكرام المشتغلون بعلومها سواء في الفقه أو في السياسة اكتشفنا أنها خلافات محدودة لا تستحق المنازعة ، ولا يجوز لذوي العقول أن يجعلوها سبيلاً للشقاق بين فصائل الأمة لأنها من الخلافات المتوقعة والتي لا يخلو منها مجتمع ، وقلت إن العجيب المنكر أن يكون فينا ومنَّا من يرفض رأب الصدع بين أبناء الأمة وإيجاد التآلف بدل التخالف والتقارب بدل التباعد ، ثم هو نفسه بلحمه وشحمه يؤيد التصافي والتصالح مع العدو الألدّ .

وقلت إن التقريب بين الآراء والمذاهب والأفكار والرؤى المتباعدة هو شأن الكبار العلماء العقلاء الصالحين المصلحين ، وإن الصغار والجهلة ، هم الذين يوسِّعون مساحات الخلاف ، ويبحثون عن وميض نار، تحت الرماد ، لينفخوا فيه وليصنعوا منه حرائق تدمر البلاد والعباد ، وأرى هذا ليس في السياسة فحسب وإنما في العلم وخصوصًا باب العقائد ، واختلاف العلماء في بعضها ، تَجِدُ الواحد من الصغار يُشعل الخلاف ويجعل منه جحيمًا يَرْمي فيه مخالفه وهذا كله خلط يجب أن يزول وينضام الكل ، ويسعى لمصلحة البلاد والعباد ، وإن كان يوجد في حياتنا شيء يشبه أن يكون مقدسًا فهو الشيء الذي به تتقدم البلاد خطوة إلى الأمام ، وهذه الحشود من

البشر التي تعيش على هذه الأرض تحتاج حياتها التي يجب أن تكون حياة كريمة لجهود الكل ، ولفكر الكل ، ولوقت الكل ، وكفانا توقفًا ، وكفانا تلاعنًا بين بعضنا البعض ، واتهامًا من بعضنا لبعض ، وتحريضًا على بعضنا البعض ، ولنتخلص من هذا كله ولنتعلم ونَعْلم كيف نخطو إلى الأمام ، فقد نِمْنا وأدْلَج الناس فأشرق صبحهم وبقي ليلنا .

وقوله عليه السلام : « إذا وُسّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » ، المراد كل أمر من أمور الناس ، وأهمها الأمر الأعم الذي هو رياسة الدولة ، والأصل أن لا يتولى أمرًا من أمور الناس إلا من هو أهل له ، ومعنى « انتظر الساعة » أن هؤلاء الذين جرى فيهم هذا الخطأ ، وهو إسناد الأمور إلى غير أهلها أعني : غير الكفاءات وإنما إسنادها إلى الأصحاب والأحباب وذوي الولاء وأبناء الجماعة أو أبناء المؤسسة فانتظر ساعة هؤلاء أعني : نهايتهم ، وليس المراد فقط القيامة العامة التي تكون حين النفخ في الصور ، وإسناد أمور الناس إلى غير الكفاءات يعني فسادها وإفسادها ، والفساد من علامات الساعة التي هي نهاية المجتمع الذي ظهر فيه الفساد لأن من مات فقد قامت قيامته ، والشعب الذي أسْنَدَ أمره إلى غير أهله أوشك أن تقوم قيامته ، وهذا قريب من قوله عليه الصلاة والسلام في كلام جيد خلاصته : إذا ظهر فيكم مُسْتبدٌ يقطعُ ألْسَنَة أهل الحق ، وعجزتم عن أن تقولوا للخطأ إنه خطأ وللظلم إنه ظلم « فقد تُوَدِّع منكم » وهذه الجملة الأخيرة هي لفظه عليه السلام ، ومعنى « تُودِّع منكم » يعني طويت صفحتكم ، ودخلتم في حيِّز العدم ؛ لأن الشعب الذي لا يقول للظالم : أنت ظالم ، لا يستحق أن يعيش على الأرض ، وهذا كلام سيد الخلق وهو كلام فوق الجليل .

والمقصود الآن أننا ونحن في معمعان هـذا الصـراع والتصـادم والتقـاذف وتبادل التهم ، وكل الذي أشعله الصغار حول قضايا كان يمكن أن تكون من التي يختلـف فيهـا النـاس جـرت ونحـن في هـذا المعمعـان كلمـات يجـب الرجوع عنها ، لأنها تنطوي على معنى نرفضـه جميعًـا ومـع ذلـك نكررهـا وأعنـي بذلك كلمـة «الإسلام السياسي» ، ثم وصفه بالإرهــاب أو الفاشـيّة أو تخويف الناس منه ، وتفزيعهم به ، وأنه عودة إلى الظلمـات وأن المنـادين به ظلاميون ، وأنهم متأسلمون إلى آخر ما تقرأ وما تسمع ممن يعقل وممن لا يعقل ، وقلت إن هذا يجب أن نرجع عنه لأنه منطو علـى خطيئـة هـي أم الخطايا ، وبيان ذلك أن كلمة «الإسلام السياسي» تعـني في دلالتهـا اللغويـة مبتدأ والخبر يأتي بعدها وهو بدلالة السياق القاطعة خبر يخوّف من الإسلام السياسي أو يقبّح الإسلام السياسي أو يصفه بالإهارب إلى آخره ، والخطورة أن كلمة السيـاسـي فـي العبارة وصف للإسلام والصفة قائمـة في الموصـوف لا محالة ، فإذا قلت (زيدٌ التاجرُ حاضرٌ) كان زيد هذا موصوفًا بأنـه تـاجر ، وصفته بأنه تاجر لا تحتمل الصواب والخطأ ، وإنما الذي يحتمـل الصـواب والخطأ هو الإخبار عنه بأنه حاضر أو أمين أو ما شئت ، وهذه دلالة لغويـة لا يعارض فيها أحد ، وكذلك كلمة «الإسلام السياسي» تعني أن في الإسلام جانبًا هو سياسي وهذا لا يحتمل الصواب والخطأ وإنما هو قائم لا محالة ، فإذا قلت مخيف أو ظلامي أو شر أو إرهاب أو غير ذلك ممـا يـدل السـياق عليه كان هذا الخبر هو المحتمل الصواب والخطأ

قلت : إن سياق التنازع والتدافع والتلاسُن والتقاذُف الذي تستعمل فيه هذه الكلمة قاطع بأن الإخبار عن الإسلام السياسي من باب رفضه والتحـذير منـه

وأنه خطر على الدولة وعلى الناس إلى آخره ، وخصوصًا أن أكثر المتكلمين في هذا الشأن ليس عندهم معرفة تعصمهم من التّورط في الخطايا ، لا معرفة بالدين ولا بالدنيا وإنما هم من أشباه المتعلمين الذين هم أشباه الأميين .

ومسألة إن الإسلام فيه سياسة لا خلاف فيها وإنما ذكرت في المقالة الأولى ضرورة البحث عن الخط الذي يتوقف عنده تدخل الدين في السياسة لأن ما بعده من شؤون دنيانا ، وحسبنا أن القرآن الكريم فيه سورة اسمها سورة (القتال) يعني الحرب والحرب قمة العمل السياسي ، حتى إن الأمر فيها يؤول فقط إلى رأس الدولة مع قيادات الجند ، وكل هذا يعني حقيقة لا خلاف حولها وهي أن استعمال كلمة الإسلام السياسي مع الخبر عنها المدلول عليه بالسياق تعني تقبيح وتشويه هذا الجانب من دين الله ، وتلك هي الحالقة حالقة الدين وليست حالقة اللّمم ، وبعبارة أوضح هي من الكفر البواح عند الذي قصد إلى دلالتها اللغوية ، وقد ناقشت هذا مع بعض كبار علمائنا فلم يعترضوا على الذي قلته وهو الذي كتبته مع يقيني أن الذين يستعملون هذه الكلمة إذا أخرجنا منهم الذين يكرهون ما أنزل الله ، وهم معروفون ليس بسيماهم وإنما بما يكتبون ، يقيني أن هؤلاء يقصدون الذين هم دعاة الإسلام السياسي ، وإن كان لا يجوز أن نقول شيئًا وندعي أننا نقصد إلى شيء آخر ، وكما أنني لا أشك في أن تقبيح وتشويه كلمة الإسلام السياسي هو من الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر ، كذلك لا أشك في أن الذين يستعملون هذه الكلمة من أهل الإسلام الذين يصومون ويصلون حتى الذين يقولون إن هذا رجوع بنا إلى عصر الظلمات والعصور

الوسطى أو عصور الصحراء ، وهذا الخلط المضحك كالذي يدعو إلى الإسلام النهري وطرح إسلام البادية إلى آخره ، أقول كل هذا يجب الرجوع عنه ولو أعلم أو أشك في أنه ليس كبيرة وليس من أكبر الكبائر ما تكلمت فيه ، وإنما غايتي هي أن أنبه قومي إلى كلمات تفضي بنا وبهم إلى الهلاك ، وظني أن شياطين رمت بهذه الكلمات في حُمَيَّا التدافع والتلاسن ، وساعد على ذلك كما قلت أن أكثر السادة الكتاب والسياسيين من أشباه المتعلمين الذين هم أشباه الجاهلين .

وقد سألني الأستاذ الكبير الذي ناقشته في هذا عن العبارة التي تؤدي مقصود الناس وليس فيها هذا المعنى المخيف الذي هو الحالق ؟ قلت له : يقولون إن دعاة الإسلام السياسي إرهابيون أو خطر على الشعب أو ظلاميون أو ما يشاؤون ، فيتوجه الخبر إلى دعاة الإسلام السياسي ثم يبقى بعد ذلك أن يُقْبَل هذا منهم أو يُرفض ؛ لأننا نعلم أن الذين يقتلون الناس ليدخلوا الجنة ليسوا من دعاة الإسلام السياسي ولا الصحراوي ولا النهري كما يقول المفكر المضحك الجديد ، وإنما هي عصابات قتلة وليس لها في الدين شيء ، أما الذين يسكنون بين الناس ويعيشون معهم وهم منهم وأصهارهم وأقاربهم فإن تشويه الوجوه الشريفة راجع ومنعكس على الذي يحاوله ؛ لأنه يستحيل أن أعتقد الإرهاب في الذي عاش بيننا ولم نعرف عنه إلا خيرًا ، وإلا خدمات للناس ، وأمانة في العمل وتفوقًا في الدراسة وبلوغًا لدرجة عالية في العلم يستحيل أن أعتقد إنه إرهابي لأن من هم دونهم في العلم والسلوك والأمانة يريدون منا أن نعتقد أنهم إرهابيون ، هل يمكن أن أعتقد أن محمد الغزالي أكبر دعاة المسلمين في هذا الزمن تربى على يد إرهابيين ،

هل يمكن أن أعتقد أن سيد سابق الذي دخلت كتبه كل بيت إرهابي ، وتربى على يد الإرهابيين ؟ هل يمكن أن أعتقد أن يوسف القرضاوي الذي ترجمت كتبه إلى كل لغات العالم الإسلامي إرهابي لأن زيدًا أو عمرًا غضب عليه ؟ هل يمكن أن نقبل أن السادة السياسيين ينزعون من رؤوسنا ما نعتقد ، ويزرعون فيها ما يعتقدون هم ؟ والحقيقة التي لا يعترض عليها أحد هي أن من يرتكب خطأ يحاسب عليه أمام قضاء لا تحوم حوله الشبهات مهما كان مقامه .

ثم إنني لا أشك ولا يشك غيري في أن كل عالم له صواب وله خطأ ولم يقل أحد إن خطأ أي كاتب أو أي باحث أو أي سياسي يذهب بصوابه ، وإنما نأخذ صواب من له صواب ونرد خطأه ، ويجوز أن يقع أي عالم في أخطاء لأن العلم لا يعصم من الخطأ ، وهناك نظام وقانون يحاسب المخطئ وليس هناك قانون يمحو علم العالم بسبب خطئه مهما كان حجم هذا الخطأ ، ولكن يبدو أن ما اتفق عليه البشر من أن الحسنات يذهبن السيئات قد انعكس عندنا وصارت السيئات ولو كانت ملفّقة تُذهبن الحسنات ولو كانت ساطعة كالشمس ، وأن ألسنة تهاجم البخاري ومسلمًا صاحبي أصح كتابين والنووي شارح هذين الكتابين لا يستغرب منها أن تصف الغزالي وسيد سابق والقرضاوي بالإرهاب وقل مثل ذلك في الألسنة التي تصف ابن تيمية وابن عبد الوهاب بالإرهاب مع أن ابن تيمية إذا وضعت كتبه بين يديك أدركت أنه جبل من جبال العلم ، وأنه على قدر علمه وقامته ردّ عليه العلماء فيما أخطأ فيه ، وكانت ردود العلماء شهادة منهم لمن ردوا عليه أنه من العلماء ؛ لأنهم قالوا : لا يُردُّ إلا على من له صواب ارتضاه العلماء

وأخذوه عنه ، أما من لا صواب له فلا يردّ على خطئه ، وقل مثل ذلك في ابن عبد الوهاب الذي أنقذ جزيرة العرب من بدع وضلالات كادت تفسد على الناس دينهم ، وقد عرفناه ونحن طلاب في الأزهر من خلال ما كتبه عنه أستاذنا المرحوم الدكتور محمد البهي الذي درّس لنا كثيرًا من أفكاره ، وأثنى عليه واستدرك عليه ما خالفه فيه ، وأنا أعجب من كلمة « الوهابية » لأنها تعني مذهبًا لابن عبد الوهاب ، وعملُ ابن عبد الوهاب يدور كله حول الرجوع إلى صحيح الدين ونبذ البدع التي شاعت في البلاد ، وهو كغيره من العلماء رَدّ ورُدّ عليه وأخذَ وأُخِذَ عنه ، وهذا هو الأصل في التعريف بالعالم وليس من الأدب مع العلم وأهله أن يوصَف العلماء والفقهاء والمفسرون والمفكرون بأنهم إرهابيون ، وإنما يقال فيهم رَدَّ ورُدَّ عليه وأخذَ وأُخِذَ عنه يعني لهم صواب قبله أهلُ العلم وصار لبنة في بناء العلم ، وعجبت لمن رأت عينه كتاب الفتاوى لابن تيمية كيف يجيز لنفسه أن يقول عنه إنه إرهابي ويجعله في مرتبة القتلة الذين يقطعون أعناق الناس أو يحرقونهم وهم أحياء .

ثم إن الإفراط في إطلاق كلمة الإرهاب على العلماء ومن نعرف من الفقهاء والمتميزين في تخصصاتهم أفقد الكلمة مدلولها ، وسعد الإرهابيون الحقيقيون بإطلاقها على مثل ابن عبد الوهاب وصار هؤلاء القتلة في منازل هؤلاء العلماء ، ولكن يبدو أننا افتقدنا القدرة على التمييز فرفعنا مرتبة الذين يقتلوننا بسلاح وضعه أعداؤنا في أيديهم إلى مرتبة شيوخ العلم لأنه لا يُجادل أحد في أن ابن تيمية من شيوخ العلم سواء وافقته أو خالفته ، وكذلك لا يجادل أحد في أن ابن عبد الوهاب من شيوخ العلم وأنه في

مصاف الشاطبي ومَنْ على شاكلته ممن أوقفوا حياتهم على رصد البدع والضلالات وتنقية دين الله منها ، ولم يكن يظن أحد أن الشيخين ابن تيمية وابن عبد الوهاب سيخرج من أرض الكنانة التي سماها الإمام العيني كعبة الإسلام سيخرج منها من يصف الشيخين بالإرهاب ، ولكن يبدو أننا في أيام غريبة تلد الليالي فيها كل عجيب .

ومن الأمور التي لا يجهلها من له عقل وَجَدَ به ريح العلم أنه لا يوجد عالم لا غفلة له ، ولا يوجد كتاب يخلو من خطأ والباحث الذي عاش حياة الباحثين لا يزعجه أن نقدم له مواضع غفلاته في كتابه ؛ لأنه يعلم أن هذا من شأن البشر ، وقد ذكروا أن عصمة رسول الله ﷺ في بلاغه عن ربه ، أما حين يجتهد بعيدًا عن الوحي فإنه يصيب ويخطئ كما يصيب الناس ويخطئون وإنما كان هذا حتى لا نستعظم أخطاء العلماء ونقف على أفواه الطرق لنشهر بالعلماء .

ومن الأمور التي لا يطلبها من الناس من له فهم ألا يكتبوا إلا ما يرضاه هو ، لأن الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختلفين ولو شاء لجعلهم ضربًا واحدًا ، والإختلاف في الأفكار والرؤى والمذاهب والمشارب والاتجاهات سيظلُّ ذلك قائمًا في الأرض ما دام يسكنها هذا الإنسان الذي هذه فطرته ، ولا يعُدُّ المخالفة في الرأي عداء ومباغضة إلا من كان جاهلاً جهلاً يوجب عليه أن يسعَهُ بيْته وأن يترك الشأن العام الذي من شأنه أن تختلف فيه الآراء .

والمطلوب من صاحب الرأي شيء واحد وهو أن يتجرد بصدق للبحث عن الصواب النافع لقومه ، فإذا وجده في صدره وجب عليه أن يتكلم به ؛ لأن هذا من الأمانات التي هي لله وللوطن ولقومك وأهلك وأهل التراب

الذي رُبيت عليه ، وإذا كتب الكاتب أو تكلم المتكلم لينصر زيدًا أو يهاجم عمرًا فليسعه بيته وليترك الشأن العام الذي لا يقبل إلا من ينصرون الحق والصدق والسداد الذي يتوقف عليه صلاح الأعمال وخير البلاد والعباد .

سمعت وأنا أعِدُّ هذا المقال لسانًا قؤولاً كثيرًا ما يقول وكثيرًا ما يُسْمع وهو يقول : (تيار الإسلام السياسي شر كله وإرهاب كله) ، والغريب أنه من خلال لغته يظهر أنه يقرأ القرآن وكثيرًا ما يصلي على حضرة النبي على حد تعبيره ، والذي أعلمه وأستيقنه وألقى الله عليه ، أن الإسلام السياسي بعيد كل البعد عن الإرهاب فضلاً عن أن يصنع الإسلام تيارًا إرهابيًا ولو كان يَصْنَعُ تيارًا إرهابيًا ما كنتُ ولا كان غيري من أهله الداعين له ، والذائدين عنه ، ولكان له كتاب غير القرآن الذي سماه ربنا رحمة ، ولكان له نبي غير محمد الذي ما أرسله الله إلا رحمة للعالمين ، وليس للمؤمنين به فحسب ، وراعني ما أسمع من رجل يقرأ القرآن ويصلي على حضرة النبي ، ومثل هذا كثير وله ولغيره كتبت هذه المقالات .

علمني فقه المالكية أنه لا يُجْهَزُ على جريح يعني أن الجندي الذي في جيش الإسلام إذا جُرِح خصمُه الذي هو جندي في جيش الكفار وسقط هذا الجندي جريحًا فلا يجوز له أن يضربه بسيفه ، وهذا معنى لا يجهز على جريح ؛ لأن سقوط سيفه من يده عصم نفسه منك لأنك كنت تستبيح دمه لما كان هو يستبيح دمك ، أمَّا حين يعجز عن استباحة دمك فلا يجوز لك أن تسبيح دمه ، وكان شيوخنا يحاولون أن يذيقوا نفوسنا طعم المروءة في الفقه ، فذكر الشيخ رحمه الله أنه من تقاليد العرب التي كانت والتي لا تزال أنك إذا

نازلت عدوك وكنت إما قاتلاً أو مقتولاً ثم اتفق أن سقط سيفه من يده فلابد أن تكف سيفك عنه ، فلو قتلته وليس سيفه في يده كان ذلك عارًا تعيَّرُ به ويُعَيَّرُ به ولدك وأحفادك من بعدك ، لأنه لا يُعَدّ ظفرُكَ بخصمك ظفرًا إلا إذا كان قادرًا على أن يرد عليك ، أما حين يكون أعزل فإن المروءة توجب عليك أن تكف يدك عنه ما دام أعْزَلَ .

وكنت أتمنى أن يدرس أبناء وطني هذا الجزء من الفقه وهذا الجزء من الفروسية وهذا الجزء من المروءة ليكفوا أيديهم وألسنتهم عن الذين لم يمكنوا من الدفاع عن أنفسهم ، وإنه لمن الخساسة أن أرْمِيكَ بالحجر وأنت مغلول اليدين ؛ وأن أتَّهِمَك بما أشاء وأنت مقطوع اللسان لا تنطق ، وإذا نطقت حُبس صوتك فلا تسمع ، وليس هذا دفاعًا عن أحد لأننا لا ندافع عن من أساء إلى ذرة تراب من أرضنا ، ومن أساء يقدم إلى قضاء عادل لا تحوم حوله شبهة ، قضاء كالثوب الأبيض ليس فيه نقطة سوداء وإن وجدت أزيلت بسرعة وبحسم حتى يبقى قضاؤنا ملجأ يَئِلُ إليه المظلوم ، وإن كان أضعفنا أخذ حقه من الظالم وإن كان أقوانا هذا هو الأصل الذي لا نفرط فيه ، ونحن قوم نضع الحق والعدل فوق رؤوسنا حتى إن بائع الطماطم منا قد يغُشُّنا فيدس علينا واحدة معطوبة ولكنه لا يغش في الوزن الذي هو العدل لأنه يعلم أنه لو غش في الوزن الذي هو العدل طرحه السوق خارجه ، فإذا كان هذا حال الميزان في يد البائع فكيف بالميزان في يد العدالة .

بقيت كلمة واحدة وهي أن الأوطان لا تُبنى بالأحقاد وأن الصدور المتوقدة بالحقد يجب أن تترك الشأن العام وأن تسعها بيوتها ، وإنما تُبنى

الأوطان بالحب والتعاون والتسامح ، وقد تعلمنا في أيام الطفولة أننا لا نرفع مقام من يحمل الحقد ؛ لأن القلوب المستعرة بالحقد لا يحق لها أن تخرج من المستنقعات العفنة التي ارتضتها لمَّا أُشْبِعَتْ بالضغائن والبغضاء على كل من يخالفها قالوا لنا ونحن صغار : «لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب» لأن الرتبة العالية لا ترتقي إليها إلا قلوب الكرام الأطهار الأبرار المفعمة بالحب للجميع ، هذا وبالله التوفيق .

* * *

التطرف والإرهاب ووجوب المراجعة

قلت وأكرر وسأكرر أن كلمة الحق المتجردة لمصلحة البلاد هي السبيل الذي لا سبيل لنا سواه للخروج من تلك الحالة البائسة التي نحن فيها ، وخصوصًا أن صِدَامنا ليس مع عدونا الذي لا يجوز أن تكون عداوتنا لغيره ، وإنما صِدَامُنا بيننا ، ونحن أبناء أب واحد هو هذا الوطن ولنا أم واحدة هي هذه الأرض ، وحالنا كحال الذي يقول :

إذا احْتَرَبَتْ يَوْمًا ففاضَتْ دمَاؤُهَا ... تذكَّرتِ القُربى ففَاضَتْ دُموعُها

أو كالذي يقول :

قومي هُمُ قتلوا - أُمَيْمَ - أخي ... فإذا رميتُ يُصيبُني سَهْمي

ولَئنْ عَفَوْتُ لأعْفُونْ جَلَلا ... ولئنْ سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمي

وما أحوج إخواننا في العراق وفي سوريا وفي اليمن وفي ليبيا إلى أن يرددوا هذه الأبيات وإن كنا في مصر لن نحترب ولن تفيض دماؤنا وإن كان قومي «قد قتَلُوا أخي» ولكننا نحذّر من مزالق الطريق ، وأخطاره ، فإذا كان جُرْح السِّنان ليس دائرًا بيننا فإن جُرْح اللّسان دائر بيننا .

ومن أبغض ما أسْمَعُه قول رجل قوّال ، يسْتَعِرُ قلْبه ولسانُه حقدًا ليس على الإخوان المسلمين فحسب ، وإنما على كل الاتجاهات الإسلامية ، أسمعه يقول : إنهم يكْرهُون مصر ويُريدون إحراقها ، ويريدون خرابها ، ولا يَخْدَعنَّك أنهم أساتذة جامعات أو أطباء أو مهندسون أو متفوقون

أو متميزون ، فإن كل هذا لا يمنع من أنهم ألد أعداء هذا الوطن ، ويلاحظ أنني أرفض تقسيم أهل الإسلام إلى هذه الفِرَق قلت إنهم يقولون إن هذه الاتجاهات تكره مصر وتريد إحراقها ، وهذه الاتجاهات الإسلامية ليست أشباحًا تعيش تحت الأرض ، وإنما هم ناسٌ يعيشون فوق ظهرها ويعيشون مَعَنا ، وشأنهم كشأن غيرهم ، وأشهد بين يدي الله أني لا أعرف واحدًا منهم ينطبق عليه هذا القول ، ولا بعضه ولا شيءٌ منه ، ومن الخطايا التي ينكرها الناس الذين هم ناس وينكرها كل دين أنْ تَرْمي الناس بغير ما اكتسبوا ، وليس هذا هو الذي أريده ، لأن اتهام الأبرياء وتلفيق التهم كثير في بلادنا حتى أصبحنا نألفه ، وإن كنا ننكره ، والأهم من هذا أنه يعلم ، وكل من يعيش على أرض مصر يعلم ، أن الاتجاه الإسلامي بكل فصائله انتشر في مصر انتشارًا ملحوظًا ، وقلّما تجد بيتًا يخلو منه وكثير من الأسر تجد فيها يساريًا وإخوانيًا أو سلفيًا أو ما شئت ، وربما وجدت في أبناء الأب الواحد قيادات في حزب اليسار ، وقيادات في الإخوان المسلمين ، وهذا ظاهر ومعروف وهؤلاء المختلفون في المذهب السياسي تضمُّهم تحت جناحِها الرؤوم رَحِمٌ رؤومةٌ ، وهم يحترمون هذه الرَّحِم وربما ازدادوا بسبب هذا الخلاف السياسي تراحُمًا وتماسكًا وتزاورًا ، وهذا النسيج الاجتماعي المتماسك يعوّق حُميًا الدعاوي المضادة للاتجاهات الإسلامية ، وأنهم إرهاب لأن الأخ أعلم بأخيه أو بابن عمه ، أو بابن خاله من السياسي المتطس ، والذي يصفُ أخاه أو ابن عمّه أو ابن خاله بأنه إرهابي ، وصاحب اللسان القوّال الذي تتوقد البغضاء في قلبه ، نحو كل الاتجاهات الإسلامية يعلم هذا ، ويخاطب الأخ وابن العم وابن الخال في شأن أخيه وابن عمه

وابن خاله الذي هو من الاتجاه الإسلامي ويؤكد له أنه يكرهه ، لأنه يكره مصر ، ويريد أن يُخرِّب دارَهُ لأنه يريد أن يخرِّب مصر ، ويريد أن يحرق بَيْته لأنه يريد أن يحرق مصر ، ويستمر في هذه الوقيعة بلسان طلق وهمَّة شديدة ، ويوشك أن يشعل نارًا من البغضاء في كل بيوتنا وبين أفراد عوائلنا وكأنه ينقل ضِرامًا من بُغْضه إلى قلوب غير الإسلاميين ، ليواجهوا بها ذوي أرحامهم من الإسلاميين ، وإفراطه في هذه الفتنة التي يُشعِلُها وهذه البغضاء التي يوقد نارها هو الذي ذكرني بالأبيات التي كتبتها في أول المقالة لأن صاحب اللسان القوال درس الإعلام دراسة جامعية ، منظمة ، واستمد كلامه من ثقافته ، والشاعر السابق لم يدرس ، وإنما استمد كلامه من رَحِمه ومن إنسانيته ، وذكر حَيْرَته وأن قومه قتلوا أخاه ، وأنه إذا عفا فَقَدْ عَفَا عن أمر جلل ، وهو دَمُ أخيه ، وإذا سطا ليأخذ ثأرَهُ أوْهَنَ بهذا السَّطْو عظمه ، وهذا هو المعنى الإنساني ضَعْهُ بإزاء المثقف المستنير ، لا لترى الفرق بين ثقافتين ، وإنما لترى الفرق بين روح إنسانية تبني الأوطان ، وروح شريرة تشعلُ الحرائق حتى بين الأخ وأخيه ، وهذه هي الحساسية المخيفة والتي تُوجِبُ على المسؤولين توخي نهاية الحذر في أي سلوك في هذا الشأن لأنك حين ترمي زيدًا الذي هو اتجاه إسلامي ستدمي عمرًا الذي هو اتجاه يساري ولا تصدق أن عمرًا سيقتنع بهذا الهُراء وأنه سينسى لك ضَرْب أخيه ، أو قتله إن كنت قتلته ، أو إهانته إن كنت أهنته ، وكانوا في الجاهلية يعتقدون أن « هامة » تصيح حول قبر المقتول وتقول : اسقوني اسقوني ، ولا تسكتْ حتى يُؤْخذ بثأره ، واحذر أن تصدق أن الليبرالي واليساري والإسلامي قد غسلتهم ثقافتهم ، وأنستْهُم الثأر ، واحذر أن تضع رأسك في التراب حتى

لا ترى ما حولك ، وأقطع بأن بعض من يزاولون الإرهاب الآن ويضعون المتفجرات في الطرقات من أصحاب الثأر ، ولا يمكن أن يجهل المسؤولون هذا ، ولكن الإعلان عنه يزيده انتشارًا والأفضل أن ينسب هذا إلى من نريد تشويه وجُوههم . ثم إن الذين يكرهون بلدهم ويريدون إحراقها وتخريبها وتدميرها لا يجوز أن يصنَّفُوا بأنهم اتجاه إسلامي إلا إذا أردنا أن نشوِّه وجه الإسلام ، وهذا مما يستعاذ بالله منه .

وقد جعلت كلمتي التطرف والإرهاب عنوانًا لهذه المقالة ، وأردت بذلك بيان أشياء : منها أن كلمة الإرهاب تُرِكَتْ متسعةَ الدلالة ولم تحدد تحديدًا دقيقًا يكون معناها في هذا التحديد مساويًا لثقل الاتهام بها ، لأنها في معناها الدقيق والمفزع ستدعو الناس جميعًا لمواجهتها ، ولن يهزم هذا الشرُّ إلا بمواجهة الناس جميعًا له ؛ تركت الكلمة عامة الدلالة ليتسنَّى رَمْيُها في وجه من يستثقلُ النظام دَمَه ، لأنه يكثر من الكلام الذي لا يرضيه ولو كان على حق ، وبعض السادة من حكامنا أضاف إلى كلمة الإرهاب كلمة التكفير ، ورمى بهاتين المصيبتين كل من يعارضه ، والواجب أن تكون كلمة الإرهاب كما يَدُل معناها اللغوي وأن يكون المراد بها من يُدْخِلُ الرعبَ والخوفَ والفزع على الناس الآمنين ؛ لأن الأمن حقٌ للناس كحق الحياة ، ولكل إنسان الحق الكامل في أن يتكلم فيما يراه صالحًا لوطنه وأهله ، بشرط واحد هو ألا يدفعه إلى الكلام إلا الحرص على الوطن الذي هو دارنا التي تسعنا جميعًا والحرص على أهل هذا الوطن الذين هم عائلتنا الكبيرة ، وهذا الضرب من الكلام مطلوب بإلحاح حتى يتبين للناس الرشد من الغي ، وليس من حق أحد أن يحتكر حب الوطن أو الحرص عليه أو العلم بما ينفعه .

الواجب إبعاد كلمة الإرهاب عن أي خلاف سياسي يتوفر فيه الشرط الذي قلته وأكرره وهو الحرص الكامل على شيء واحد وهو البلاد ومصالح العباد أما نصرة النظام أو نصرة حزب أو جماعة وتغييب مصلحة البلاد والعباد فهذا هو البلاء الذي نعيشه ، ونصرة الحق هي نصرة للجميع .

ولما تساهلنا في إطلاق كلمة إرهاب وأطلقناه على مثل ابن تيمية وابن عبد الوهاب حتى الشيخ محمد متولي الشعراوي فقدت قيمتها ، ولم يعد الناس يلتفون حول ضرورة الخلاص منها لأن الناس لن يلتفوا للتخلص من الشيخ الشعراوي ، ومن الواجب ألا نتردد في إطلاق الكلمة على من يزاول الترويع والتخويف ولو كان النظام نفسه ؛ لأن الإرهاب حقيقة واحدة قابلة لأن تقع من عبد الله الصالح وعبد الله الطالح ، ويجب أن يتعوَّد الناس على أن ينظروا للقول والعمل ، وأن يقوِّموه في ذاته ، مع صرف النظر عن الجهة الصادر منها ، فالصواب صواب مهما كان فاعله ، ومهما كانت صلتنا به ، ومهما كان خلافنا أو اتفاقنا معه ، والخطأ خطأ مع صرف النظر عن الجهة الصادر منها ، ويستوي رضانا عنها أو سخطنا عليها ، وهذا هو طريق الرشاد الذي لابد أن يحرص الكل عليه ، لأنه هو الذي سيقطع كثيرًا من اللغو الذي صدَّعنا وشغلنا وأوْقَفَ حركتنا ، وعلى ظهر الأرض مائة مليون يجب أن يعيشوا كما يعيش الناس ونحن لا نزال ينافق بعضنا بعضًا أو يَكيدُ بعضنا لبعض ، ويحرِّضُ بعضنا على بعض ، وخَلَتْ الساحة من القامات التي تجمع ، وبقيت الساحة وفيها الصغار الذين برعوا في إشعال النار لاعتقادهم أن إشعال النار في القوى الإسلامية المختلفة مع النظام هو سبيل القرب والرضى ، وهذا ليس خُلُقَ أحرار الرجال ، والحر هو الذي يجعل

مسعاته كل مسعاته لصالح قومه وأرضه ، لأن قومي وأرضي هما الحقيقة الباقية . ولابد أن أضع بين عينيَّ مائة مليون يريدون أن يعيشوا كرامًا على أرضهم قادرين على إعمارها وازدهارها وحمايتها ولا يجوز أن أكتب أو أتكلم في غيبة هذا .

قلت : إن إطلاق وصف الإرهاب على غير من يزاولون بَشاعَة الإرهاب كسَرَ حِدَّة رَفْض الناس له وخصوصًا إذا رأى البعض يَرْمي بها في وجه المعارض ، وأسوأ من هذا ؛ وربُما لم يكسر من حدّة بُغض الناس لها وإنما جعل لها رواجًا هو إطلاقها على أصحاب الاتجاه الإسلامي المزاولين للسياسة ، فكل حديث في السياسة يداخله حديث إسلامي إرهاب ، وكل تدخل للدين في السياسة إرهاب ، وقد ذكرت في المقالة الأولى ما يتصل بهذه القضية ؛ وأُذكِّر هنا بأن أهل الرشاد من غير المسلمين يُدْخلون في السياسة كل أصول الإسلام لأن المطلوب أن يكون الممارس للسياسة من أهل العدل ، وليس من الظالمين ، ومن أهل الوفاء وليس من الغادرين ، ومن أهل الرحمة وليس من أهل الغِلْظة ، وهكذا حتى يدخل الدين في المصنع ، وتراه في إتقان العمل ، وفي الأمانة ، وفي الصبر ، وحرص العامل على أن يعطي بمقدار حرصه على أخذ حقّه ، وهكذا يدخل الدين في كل باب من أبواب حياتنا داعيًا إلى الرحمة والبر والإتقان والأمانة والصدق ، إلى آخره ، أقول : المشكلة أن يوصف من يتحدثون عن دخول الدين في السياسة بأنهم إرهابيون ، وتسوّي بينهم في الصفة وبين من يقطعون رؤوس الناس ، ومن يَهْدمُون الدول إلى آخره ، ودخول الدين بهذا المعنى الذي قلته وهو في تقديري المقصود الأعظم من القسم السياسي القائم في الدين ، لا يجوز أن

يمانع فيه أحد ، ولو كان من الذين كرهوا ما أنزل الله ، لأن هذا القسم من الفطرة ، كما أن الشورى من الفطرة ، وقلت إن في القرآن سورة اسمها سورة (الشورى) ، وأن كل ما فيها جاء في كل النبوات ، ونزل في كل الكتب ، ولست أدري من الذي جاء بمعنى كلمة «الإرهاب الإسلامي» ، ومن أول لسان صاغها ، وكيف يُجيزُ المسلمُ الذي شهد بدين الله لنفسه أن يتكلم بها ، ومنذ سنوات مضت تزيد عن عشر سنين ظهرت هذه الكلمة وتحدثنا بأن أعداء الإسلام هم الذين صاغوها ليشوّهوا صورة الإسلام ، وكان ذلك في العالم غير الإسلامي ، ثم انتقلت الكلمة إلينا واستعملناها نحن واعترفنا بأن هناك إرهابًا إسلاميًّا ونحن نحاربه ، نيابة عن العالم ، وهذا مما يجب الرجوع عنه ؛ لأن إضافة الإرهاب للإسلام تعني أن للإرهاب سندًا من دين الله ، وهذا خطأ محض ، لأن الإرهاب الذي نراه ويراه غيرنا مخالفة إجرامية لأمر الله ونهيه ، وأن سنده من الإسلام هو الرفض والتأثيم والتجريم ، وحال الإرهابي كحال شارب الخمر ، وقاتل النفس ، والظالم والمرتكب للكبائر كلها ، ثم هو ظلم محض ، وكما لا يقال الظلم الإسلامي ، لا يقال الإرهاب الإسلامي ، وإنْ لَبِس من يزاولونه رداء إسلاميًّا ، ولا يجوز أن نسمي ما في العراق دولة إسلامية ، ولا خلافة إسلامية ، ويجب إبعاد الإسلام الذي هو رحمة وأمن وسلام وتكريم للإنسان مهما كان مذهبه أو دينه ، ويجب إبعاده كل البعد عن كلمة الإرهاب ، ويجب إبعاده كل البعد عن كل جماعة تعزمون على رميها بسهامكم : احترموا عقيدتكم واحترموا دينكم وأبعدوه عن أطماعكم ومشاحناتكم وأحقادكم . ولست أدري من الذي أسكن هذه الكلمة الخبيثة تحت ألسنتنا ؟ وإذا كان سيدنا رسول الله ﷺ أخبرنا أنه رأى

رجلاً يتقلب في الجنة بسبب غصن شوك أزاحه عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين ، فإن عكس هذا المعنى أن نقول إن الرجل يتقلب في النار بسبب غصن شوك وضعه في الطريق رغبة في أن يؤذي المسلمين ، فكيف بمن يضع المفرقعات والعربات المفخخة ؟ ثم كيف بمن يقطع الرؤوس ويسبي النساء ويحرق الناس أحياء ؟ وهو يتلو آيات من الذكر الحكيم ، وهو كاذب ويعلم أننا نعلم أنه كاذب ، وربما كان معهم شباب جاهل مُغررٌ به . والمقطوع به أن رؤوس الإرهاب يعلمون أنه ليس من دين الله ، بل ويعلمون أنه من المنهي عنه أشدَّ النهي ومن المنكر ومن الكبائر ، ويعلمون من الذي زرعه عندنا والغريب أننا وقعنا في خطأ هو أشد بؤسًا ، وهو أننا بدلاً من أن نُعْلِنَ بلسان رجل واحد أنه لا سند للإرهاب من دين الله ، تورطنا وقلنا إن سببه هو التطرف الديني ، فصدقنا أكذوبة أنه من الدين ، وبحثنا لها عن دليل وأشبع بعضنا حقده على الاتجاهات الإسلامية ، وصار يكرِّر ذلك في كل مناسبة ولم يكتف بالقول بأنه ثمرة التطرف ، وإنما حدَّدَ من علماء الإسلام الكرام من أوْدَعوا كُتُبهم بُذُور هذا الإرهاب ، ووجدوا ذلك في الشيخين الجليلين ابن تيمية وابن عبد الوهاب ، وقبول الاتجاهات الإسلامية أو رفضها ليس هو قضيتي ، لأني أرفض أن يكون المسلمون فِرقًا تَتَنازعُ ، وجماعات تتخاصم لأنهم أمة واحدة ، وكلهم إخوة كما قال ربنا وكلهم كالجسد الواحد كما قال نبينا عليه السلام ، وقد نهينا عن التفرق والتنازع والأصل أننا جميعًا حكامًا ومحكومين إخوة لأن الله قال ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:١٠) ، وكلنا حكامًا ومحكومين سلفيون ، بالمعنى الحقيقي وليس بالمعنى المشاهد لأننا جميعًا ندعو الله أن نلقاه على ما كان عليه رسول الله ﷺ

وسلف الأمة الصالح ، وكلنا جهاديون لأننا جميعًا نجاهد في سبيل الله بأموالنا وأنفسنا أو بأقلامنا وألسنتنا إلى آخره ، والمهم أن كلمة التطرف تعني الأخذ بكل أطراف الدين من فرائض وسنن ونوافل ، وكل هذه الأطراف رحمة ، ومُسَالمة وحب ؛ لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وحتى يحب لجاره ما يحب لنفسه ، وتنفيس الكربة ، وتيسير العسرة ، وإقالة العثرة ، ومدُّ يد العون كل ذلك من الدين ، والمبالغة والتشدد فيه مبالغة في الخير والرحمة فلا وجه مطلقًا لأن يكون التطرف في الدين سببًا للخراب والدمار ، والقتل والذبح والبلاء الذي نراه ممن يسمون أنفسهم بأسماء إسلامية كجماعة بيت المقدس ودولة الخلافة إلى آخره ، وتجد في آيات القرآن من التسامح والتَّوادّ والرحمة ليس بين المسلمين فحسب وإنما بينهم وبين أعداء دينهم ما يذهل ، ويكفي أن تقرأ قوله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ (الزخرف:٨٩) ، راجع كلمة ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ والمراد المشركين ثم راجع كلمة ﴿ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ وتذكر أننا يرفض بعضنا الصفح عن بعض ، ونؤثم ونجرم من يدعو إلى إصلاح ذات البين بيننا نحن ، ونؤثِّم ونجرِّم من يدعو إلى أن يُسالم بعضنا بعضًا ، والتطرف في الدين بمعناه الصحيح تشدد ومبالغة في الصفح والسلام مع غير المسلمين فكيف بالمسلمين ؟ وخذ قوله تعالى ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ (الجاثية:١٤) وراجع أمره عليه السلام بأن يوجه أمته لتغفر ليس للمشركين فحسب وإنما لأهل الوقاحة من المشركين ؛ لأن الذي لا يرجو أيام الله ليس منكرًا لله فحسب وإنما يقول في الله ما كان ولا يزال يقوله الناس « فلان لا تُرْجى أيَّامه » يعني لا يخاف أحد من غضبه

ولا يرجو أحد خيره لأنه من سِقْط المتاع هم يقولون على الله هذا وهذا كما قلت ليس كفرًا وإنما هو وقاحة أيضًا ، ومثل هذا أكثر من أن يُحْصَى ، والتشدد في الدين والتطرف فيه تشدد في الصفح والعفو والمغفرة ليس لأهل الإسلام وإنما لأهل الكفر ومن أساءوا الأدب مع الله ، فكيف يكون التطرف سببًا لهذا الإجرام الذي نراه . ومِنَ الذي يجب أن يعلمه المسلمُ وغير المسلم هو أن الله سبحانه لا يقبل إسلام المكره ؛ لأنه قال : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة:٢٥٦) ولم يحمل رسول الله ﷺ سيفه ولا أحد من أصحابه ليدخلوا أحدًا في دين الله ، وإنما ليكسروا قوة المانعين للناس من أن يدخلوا في دين الله ، أعني : القاهرين للناس والمانعين لهم من أن يختاروا من الدين ما يشاؤون ، وسورة القتال الجملة الأولى فيها : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (محمد:١) ، فالقضية ليست الكفر لأن من شاء أن يكفر فله أن يكفر وإنما القضية قضية الصد عن سبيل الله ، فلن يستطيع شيطان أن يجد في الدين مدخلاً للإرهاب ، ولا أصل مطلقًا للقول بأننا نحارب الناس ليسلموا ؛ لأن إسلام المكره لا يُقبل .

أمَّا مسألة ابن تيمية وابن عبد الوهاب فإني أسمع هجومًا عليهم ممن لا يحسنون نطق أسمائهم فضلاً عن أن يعرفوا كتبهم وما تحتويه . وأفهم هذا وهو أن بعض الكارهين لما أنزل الله أغروا سفهاءنا بعلمائنا ، فخبط سفهاؤنا خبط عشواء ، وهذا لا يعنيني ، وإنما يعنيني شيء أهم ، وهو أن كل كتاب من كتب كبار علمائنا فيه غفلات وقد تخرج الغفلة عن مقاصد الشريعة ، وبين يديَّ من هذا الكثير ، وكُنتُ أراجع بعض الكتب الكبيرة مع صديقي المرحوم سيد عبد الفتاح حجاب وكان متوقد الذكاء وقد عاجله

الموت كما يعاجل خيارنا وكنا نقع على كثير من هذه الغفلات ، فقلت له : لماذا لا نكتب كتابًا نسميه مساقط الفحول ؟ وظل يداعبني بهذه الكلمة ويصفني بصاحب مساقط الفحول . ومعلوم لمن يعلم أوليات العلوم أن تلاميذ مالك خالفوا مالكًا وتلاميذ الشافعي خالفوا الشافعي وتلاميذ الخليل ابن أحمد خالفوا الخليل وأجد مُتْعة ولذة وأنا أراجع مخالفات سيبويه لشيخه الخليل وسيبويه يعلم أنه لولا الخليل ما وُجد سيبويه إلى آخره ، وما من غفلة وقعت في كتاب إلا رصدها أهل العلم وناقشوها ، وبينوا وجه الصواب فيها وأضيف أن بين يديّ من غفلات كرام وكبار العلماء غفلات لو أُخذ بها لخرجت عن صحيح الدين ، ولكنها كلها نوقشت وكلها استبعدت ولا يتحكك فيها إلا ضال مضل ، وكثيرًا ما قرأت في الكتب نقدًا لآراء الكبار ومنهم ابن تيمية وقد ذكرت في المقالة السابقة أن أستاذنا الدكتور محمد البهي درّس لنا كتابه القيم : « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوربي » وفيه دراسة واسعة عن الشيخ ابن عبد الوهاب وقد استحسن الأستاذ كثيرًا مما كتب الشيخ واستدرك على بعضه وهذه طبيعة العلم لمن شغلوا به ، أما من يتكلمون في العلم بغير العلم فلهم زمان يتكلمون فيه ثم لا يتجاوزونه .

ثم إن كتب ابن تيمية بين أيدينا من عشرات القرون وكتب ابن عبد الوهاب بين أيدينا من قرنين من الزمن فلماذا لم تصنع لنا عصابات الإرهابيين التي تدمر بلادنا ؟ أنصار بيت المقدس يقتلوننا نحن المصريين ، فهل نحن الذين اغتصبنا بيت المقدس ، ونحفر حوله لتدمِّره ؟ وأين هم ممن يفعلون ذلك ؟ وخلافتنا الإسلامية العزيزة هل تبدأ بتطهير العراق من سكانه المسلمين وغير المسلمين أم تبدأ بتحرير أرض المسلمين ممن اغتصبوها

وشردوا شعبها ؟ أوليات في العقل تقطع بأن هذه عصابات لا شأن لها بنا ولا بإسلامنا وإنما لها شأن آخر مع غيرنا هَبْ أن ابن تيمية وابن عبد الوهاب وضعوا بذور الإرهاب في رؤوس هؤلاء المجرمين وأنا أقول ذلك على سبيل الفرض كما تُفْرَض المحالات ، فمن الذي وضع السلاح والمال في أيديهم ؟ لا يجوز لذي عقل كان هذا العقل سليمًا أو مريضًا أن يتردّد في أن الذين زرعوا الإرهاب في بلادنا هم الذين أمّدوهم بالسلاح والمال ، ثم إنه سلاح في قمة التطور ؛ لأنه هزم الجيوش ، ثم إنه مال كالنهر لأنهم يستأجرون به ذوي الحاجات من العرب وغير العرب ، والمسألة كالشمس الساطعة وإذا كانت أجهزتنا عاجزة عن معرفة الجهات التي هذا سلاحها وهذا مالها فعليها أن تجلس في بيوتها وتدع الأمر لأهله لأنه كالشمس الطالعة ، ما كان لجيش إسرائيل أن يتوغل في بلادنا توغل هؤلاء الإرهابيين لأنه لو توغل لحاربه الحجر والمدر فكان لابد من وجود بديل يُدمّر هذه الأوطان نيابة عن جيش أفعى صهيون فكانت هذه العصابات ، ومن أجل أن تتم الفائدة توضع على رأس كل مجرم عمامة من عمائم أهل الإسلام ، حتى يتوهم المُغفّلون أن الخراب بأيدينا نحن أهل الإسلام ، وتحت هذه العمائم وهذه اللحى قلوب شياطين أفعى صهيون ، والمغفلون أو المستأجرون بدل أن يكشفوا هذه الحقائق للأمة دعَتْهم أحقاد تافهة على علماء الأمة إلى أن ينسبوا الإجرام إلى هؤلاء الذين في قبورهم كما يبادرون بنسبة كل عمل إجرامي إلى الاتجاهات الإسلامية ، وهكذا صرنا نتآكل ونتفانى ونتنازع فنفشل وتذهب ريحنا ، ولتهدأ أفعى صهيون ولتهنأ بطول السلامة فإننا يقتل بعضنا بعضًا نيابة عنها وهذا ما عندي ، والله أعلم .

* * *

تجديد الخطاب الديني والحذر الواجب

سأبدأ هذا العنوان من آخره ، وأقول ذكرت الحذر الواجب لأني رأيت بعض من يتكلمون في هذا الشأن يتجهون إلى جهات ليست من التجديد ولا من الدين ولا من الخطاب في شيء . وهي قديمة ، وأقدم من الزمن الذي عشناه ، وكان تجديد الخطاب الديني مربوطًا بذَنَبِ ما كانوا يسمونه الإسلام التقدمي وهو تجديد هدفه أن يستصحب الإسلام وأن يَلُفَّ في ملاءته المذهب التقدمي اليساري الذي راج في مصر زمانًا ثم كُسِف وهو الآن يومض من تحت الغمام الذي يُغطي سماءنا ، والمراد أن يتسع الإسلام بالتأويل المستقيم وغير المستقيم ليسع هذا اليسار الذي هبطت أبابيلُه على أرض الكنانة زمانًا فأحسن وأساء .

وقد رأيت عمائم بيضاء مندمجة في قلب هذا اليسار فأنكرت عليهم ذلك ؛ لأن دراستي في الأزهر نأت بي عن الانضمام إلى أي حزب أو تجمع أو فصيل ثقةً مني بأنها دراسة تصنع العقل الذي يقود ويأبى أن ينقاد ، بمعنى أنه يأبى أن يتلقى توجيهات من مكتب الحزب أو مكتب الجماعة ، وأرى أن علم الأزهر الشريف هو الجدير بأن أتلقى توجيهاته وهذا لا يمنع من أنّ مَنْ هم أفضل مني دخلوا أحزابًا أو جماعات ، ولكن هذا هو الذي كنت ولا زلت عليه ، وقديمًا قالوا «أيٌّ هكذا خُلِقَتْ» ولما عاتبت صاحب العمامة البيضاء الذي كان منخرطًا في اليسار أفهمني أنه مُنْتَفِعٌ بذلك لأن مَنْ

حوله من شباب عشيرته الذين يهمه أمرهم يدرسون الآن في جامعات الدول التي نبت اليسار على أرضها ، والتي يَئِلُ إليها كل يسار الأرض ، أو قل يأرِزُ إليها كما تأرز الحيَّةُ إلى جحرها لا تخطئه ، وهذا واحد من التجديد الكاذب ، ولا تزال عقابيل اليسار تتكاثر ويتزايد نَعيبها ، وخصوصًا لما نودي بتجديد الخطاب الديني ، وقد لاحظت أنهم أكثر الناس عناية بهذا الشأن ؛ وتابعت ما يقولون لأعرف اتجاه بُوصْلة التجديد التي يتشيعون إليه فسمعت منهم تجديدًا على شاكلة ما كتبه أفاضل منهم ، وأنكرتْه مصر ، بشيوخها ، وقضائها وعلمائها ، ورجالها ونسائها ، ولم يَرْضَ عن هذه الكتابة ولم يدافع عنها إلا بقية طير الأبابيل التي يزداد الآن صوت نعيبها ، ولاحظ أن الأصوات التي تلاحقت في الهجوم على من هم أشبه علمائنا بالأنبياء كالبخاري ومسلم والنووي والشيخين ابن تيمية وابن عبد الوهاب ، منها . ولا أشك في أن ألْسِنَةً تلوّثت بالإساءة إلى هؤلاء لا يجوز أن يُؤْذَنَ لها بالكلام في تجديد الخطاب الديني ، نعم قد يأذَنُ لها بالمشاركة في التجديد من أذِنَ لها بالهجوم على الغر الميامين ، ومن المُفيد أن نذكر أشياء مثارة حول دين الله في هذه الأيام ولك أن تربط بينها ، ولك أن تتركها شوارد كل شاردة في واديها ، ولك أن تستنبط منها شيئًا أو لا تسْتَنْبط وتأخذ بظاهرها وتترك باطنها هاجعةً ، أما أنا فلم أشغل بشيء من ذلك لأن شغلي بما أكتب غلب أيَّ شُغْل عليَّ ، هذه الأشياء هي :

١- الهجومَ على الإسلام السياسي .

٢- الهجوم على كبار علماء الإسلام .

٣- الإكثار من ذكر ما يسمونه الإرهاب الإسلامي .

٤- الإرهاب والتطرف الديني .

٥- علم المسلمين المتقادم والذي فيه آراء ضارة بمن يعيشون على الكوكب ، وأننا نقاتلهم ونعيش وحدنا على الكوكب ، أو يسلمون لله رب العالمين .

٦- المطاردة المسعورة لكل فصائل الإسلام السياسي .

ثم يأتي تجديد الخطاب الديني في هذا السياق الذي عليك أن تراجعه أنت ، وأشهد أنه ليس على أرض مصر ولا غير مصر عالم في سعة علم من يرمي هؤلاء في وجوههم ، وأقول في نفسي إذا كان البخاري ومسلم والنووي مستهجنين فمن منا صالح لتجديد الخطاب الديني ؟ وضع هذا أمامك ثم اذكر الحزب الشيوعي المصري وضع الفزع والقمع والقهر والإهانة التي يواجهها أصحاب التيارات الإسلامية ، والأمن والدَّعة والتكريم الذي يواجهه أعضاء الحزب الشيوعي ثم اطْوِ هذه الصفحة وارجع إلى التحذير الواجب الذي ذكرت واحداً من مفرداته وهو سقوط التجديد الديني في يد التقدميين وما أدراك من هم .

فريق آخر يشبه الفريق الأول في التوجيه القَسْري للتجديد الديني نحو قبلة أخرى ، هذا الفريق هو فريق المستغربين ، وقبل الخوض في هذا أُنبّه إلى شيء فاتني في الحديث عن جماعة اليسار ، وهو أنني أعلم أن في اليسار رجالاً عقلاء حكماء شرفاء هم أهل الفكر الحقيقي وإنما عنيت حُثالةً منهم تأكل وتشرب باليسار ، ويعلو صوتها وصخبها والأصل عندها الذي يظهر

فيه ولاؤها لليسار هو الهجوم على الاتجاهات الإسلامية أو المُتأسلمين كما يحلو لعجائزهم أن يقولوا. قلت وأقول وأكرر ابعدوا الإسلام عن صراعاتكم السياسية واجعلوا قبلتكم هي مصلحة البلاد والعباد والذي يفهم الإسلام فهما صحيحا يعلم أن مصلحة البلاد والعباد من أعظم القربات في دين الله .

قلت : إن الفريق الآخر هم المستغربون ثقافةً وسلوكًا وسياسةً ، وقد يحتقب في عيبته صوتًا إسلاميًا خافتًا لأنه يؤمن بأن الإسلام موضعه المسجد وليس الشارع ، يعني يجب أن يُقفل عليه باب المسجد وأن يُفْتَح هذا الباب خمس مرات في اليوم والليلة للصلاة فقط ، ثم يغلق حتى لا تلتقي فيه الكيانات الإرهابية ، وهؤلاء يوجهون التجديد دائمًا إلى أن يستوعب تقاليد وقيم وثقافات الحضارة الغالبة التي يعيش المسلمون تحت سقفها ، وكل ما عليهم منها . والمشغول بأمرنا المتابع لما يُكْتَب ويقال يجد من هذا وشبهه الكثير ، ويجد اجتهادات ليس لها سند ولا ضابط ، يجد مثلاً كاتبًا يقول : إن ما يجري في «الأوبرا» لا يقال فيه حلال وحرام ، وإنما هو فنٌّ له أصوله وقواعده ، والكلام فيه من جهة موافقته لهذه الأصول ، وهذه القواعد ، ومخالفته لها ، وليس من جهة أنه حلال أو حرام ، ويجد أيضًا أن الإنسان قد بلغ رشده ، وليس في حاجة إلى قوة غيبيّة تقول له افعل ولا تفعل ؛ لأنه علم واستيقن ما هو من مصلحته فيفعله ، وما هو مُضاد لمصلحته فلا يفعله ، ويكتُبُ هذا رَمْزٌ من رموز النخبة ، وهو حقًا واسع الثقافة قويّ البيان ولكن (أيٌّ هكذا خلقت) ويجد مجتهدًا طريفًا أصله أستاذ في الهندسة في قطر شقيق يفسر آية النور : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور: ٣١) ، ويعدُّ الجيوب عدًا قبيحًا ثم يقول وإذا ضربت المرأة على هذه الجيوب فقد حققت مراد الآية ، وتخرج وهي عارية الظهر كله ، هكذا يقول العلامة

المفسر كما تقول شيعة نَبَتَتْ في أرض الجزائر إن أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم من العلماء والفقهاء والمفسرين درسوا الكتاب في ضوء بيئتهم الثقافية والاجتماعية ، وفي حدود علمهم باللغة ، ومن إعجاز القرآن العظيم أنه قابلٌ للتفاسير المختلفة باختلاف الثقافات والبيئات والمعارف التي حصلها المفسر ، وقد أتيح لنا من العلم باللغة ما لم يُتح لهم ، وذلك علم الألْسُنيات التي فتحت آفاقًا جديدة في فهم البيان الإنساني ، ولنا أن نفسر القرآن في ضوء هذه المتغيّرات العلمية والثقافية ، وليس علينا أن نلتزم بما قاله الأصحاب ولا بما روي عن رسول الله ﷺ لأنه هو ذاته عليه السلام ينطبق عليه ما ينطبق على أصحابه ، وأنه عليه السلام لما قال : « كل المرأة عورة إلا الوجه والكفين» كان يفسر آية الحجاب بثقافته ومعطيات بيئته وتقاليدها وكل هذا ليس ملزمًا للأجيال من بعده ثم يقول السادة : (وهذا من إعجاز القرآن) .

فَلَوْ انْدَسَّت هذه الأنوف في باب تجديد الخطاب الديني لكانت لهم فرصة سانحة لتحويل الدين إلى أمثال هذه الضلالات ، ولهذا كان القرار قرارًا حكيمًا حين لم يَلْتَفت إلى هؤلاء وأسند الأمر إلى أهله . ويلاحظ أن هذا الفكر الضال المضل لم يُطرحْ في مصر لأنهم يعلمون أن الشعب المصري مهما كان مستواه العلمي قد تدَهْوَر لا يمكن أن يقبل مثل هذا ، وإنما تسربت بعض كتبه وتناقلها أهل الإسلام المتابعون لما يجري .

قلت كان القرار قرارًا حكيمًا حين قصر هذه المهمة على أصحاب الشأن وهم علماء الأزهر ، مع أن ألْسِنَة السوء التي لم تشبع من الهجوم على رموز علماء الأمة ومن الهجوم على تراث علوم المسلمين لم تشبع أيضًا من

الهجوم على مؤسسة الأزهر الشريف والتي هي حِصْن هذه العلوم وهي القائمة على إعداد أجيال العلماء ، وعلماء الأزهر هم القائمون في كل الأقطار الإسلامية على أمر الدين ، أقول هذه النفوس المغشوشة كما لم تشبع من الإساءة إلى البخاري ومسلم لم تشبع من الإساءة إلى الأزهر وهم عصابة يساند بعضها بعضًا ، حتى إنك لتسمع غبيًّا هنا أو هناك يدافع عن من تولى كبر هذا الإفك المبين الذي هو الهجوم على البخارى ومسلم والنووى ، ويرى أنه من حرية الرأي وأن إسْكاتَه من إسكات الرأي . والذي نعلمه أن أهل الباطل يعلمون أنهم لو رَمَوْا الدين لـرَمَتْهم الأرض التي يمشون عليها فانحرفوا بالرَّمْي إلى علمائه ورموزه ، وتراثه ، وهذه شنشنة قديمة .

ولنبدأ الآن فيما نراه من تجديد الخطاب الديني وهو تجديد يَهُمُّنا جميعًا ولا عليك أن تذكر ما تراه سواء وافقك الناس أو خالفوك ؛ لأننا قد ننتفع بالرأي المخالف كما ننتفع بالرأي الموافق ، والمهم أن تراجع ما تراه وأن تُقَلِّبه ظاهرًا وباطنًا حتى تقتنع به وقديمًا قالوا : لا خير في الرأي الفطير أي : الذي لم ينضُجْ ، وعلى هذا الأساس أكتب ما أكتب وأقول لطلاب العلم ما أقول : لا أتردد في أن أواجه القراء بما يقْبلون أو يَرْفضون ، والمهم ألا أواجههم إلا بما أقبل ، ومن أجل أن يكون كلامنا في تجديد الخطاب الديني كلامًا يصيب مفاصل الصواب ، فلابد أن نمهّد لذلك ببيان معاطب ومثالب وجهات القُصور ، والتقصير في الخطاب الديني ، لأن علاج هذه الأوصاب خطوة أساسية في تجديد الخطاب الديني ، لأن هذه الخطوة ستصل بنا إلى الخطاب الديني الجيد والحسن والمقبول ثم يأتي بعد ذلك الطموحُ الذي لابد لنا منه ، والذي ينقلنا من الحسن إلى الأحسن ومن الجيد إلى الأجود ،

وكل ما في حياتنا يجب أن يتفوق يومه على أمْسِه ، وأن يتفوق غده على يومه ، وليس هذا من الترف وإنما هو من ضرورات الحياة للذين يريدون أن يعيشوا على أرضهم حياة كريمة ، والذين من حولنا يفعلون ذلك وإذا لم نفعل فعلهم وأفْضَل من فعلهم تجاوزونا وتركونا من ورائهم ، والويل لمن تجاوزه الناس وتركوه من روائهم ، لأن النظام العالمي الآن هو النظام الجاهلي الذي وصفته الخنساء السُّلميّة بقولها : «مَنْ عزّ بَزّ ومن غلب سَلَب» وأول ما نراه فيما نقرأ ونسمع هو قرب المأخذ الذي هو السطحية في معالجة القضايا والأفكار ، تسمع هذه السطحية في كلام المتحدثين في الدين ، وتقرؤها في مقالاتهم ، وبحوثهم وكتبهم وقليلة هي الأوقات التي تسمع فيها كلامًا يهزّ نفسك ويشغل عقلك ، ويثير اهتمامك؛ لأن الذي يشغل العقل ويثير الاهتمام هو الكلام الذي يتجاوز القشرة إلى اللباب ، والذي يدخل بك في فقه المسألة ، وصلب المشكلة ، وراجع الجملة القرآنية المختصرة التي تفتح طريق المتكلمين في دين الله والمحدثين عن الله ، وكيف أوجبت عليهم أن يكونوا في النفاذ إلى خفيِّ المعاني هم الأحسن ، والنفاذ إلى جيد اللغة وأسهلها وأسْلسها وأعذبها هم الأحسن ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ (فصلت:٣٣) ، ليس يكفي الحسن في القول وإنما المطلوب هو ما فوق الحسن وهو الأحسن ، والقول لفظ حامل ومعنى به قائم ، يعني هو القادر على أن يتولج إلى أدق المعاني في دين الله ، وأسْرَاها ، وأعلاها ، ثم هو قادر على أن يتولج إلى خفايا اللغة وخفايا التراكيب حتى يقع على اللغة الأحسن للمعنى الأحسن ، ولا أكثرُ من الحديث عن الذي نقرؤه ونسمعه من

الداعين إلى الله ، وأنا أخجل من الله حين أستحضر أن هذا الكلام الخالي من كل قيمة ، هو الذي يُبَلَّغ به عباد الله عن الله ، وأخجل من الله حين يكون أضعفُنا وأقلُّنا علمًا وفقهًا وأضعفنا لغة هو الذي يحدثنا عن الله ، وأستعيذ بالله من أن يُحْسَبَ هذا علينا استهانةً بالحديث عن الله ، ولهذا كان من الأدب مع الله والتعظيم لدينه ألا يحدثنا عن الله وعن دينه ـ جلَّ وتقدس ـ إلا أكرمُنا وأعلمنا ، وإذا كان علمنا هو إرث نبوته صلوات الله وسلامه عليه وكان علماؤنا ورثة الأنبياء لأن نبوته صلوات الله وسلامه عليه مستوعبة للنبوات كلها ، وكتابه عليه السلام مصدقٌ لما بين يديه من الكتب ومهيمن عليها أقول إذا كان كذلك فإن أقربنا منه ﷺ هم الذين يبلغون بلاغه ، ويحدثوننا عن ربنا كما حدثنا صلوات الله وسلامه عليه ، فإذا كانوا هم أشْبهنا بالأُمّيين فهذا من سوء أدبنا مع رسولنا صلوات الله وسلامه عليه ، وعوار ذلك وهُجْنته ومذَمَّته لا تقع إلا على عاتق الكليات التي خَرَّجت هؤلاء الذين يُحدِّثون عن الله ورسوله بهذه الهُجْنة كما تقع على عاتق معاهد الأزهر التي نقلت هذه الحشود من طلابها إلى الكليات وهم غير مستطيعين وغير مطيقين وغير مؤهلين للدرس في المستوى الذي يجب أن تكون عليه الدراسة في الكليات ، وقد صارت معاهد الأزهر التي كنا فيها طلابًا وكانت منارات صورة سيئة لفساد الإدارة ، وفساد التعليم ، بل ضياعه ، وصار الفصل الدراسي الذي كان عامرًا بشيوخ أجلاء لهم مهابة في نفوس طلابهم ، ولهم قدرة على السيطرة عليهم بالدرس الحيّ ، والوعي الناصع صار كل ذلك خاليًا من كل ذلك . وكلامي هذا سيُغضب من لا أحب أن أغضبه علم الله ، ولكننا إذا عجزنا عن توصيف أوصابنا كان كلامنا على التجديد كما يقول

ابن هانئ : (حديث خرافة يا أم عمرو) ثم إن الأمر أهول من مرضاة فلان أو غضب علان ، ومن الظلم المبين أن نحمِّل مسؤولية هذا الانهيار لقيادات الأزهر الحاضرة ، لأنها تولت أمر الأزهر وهو في أسوأ حالاته وكذلك لا نحمِّل من سبق هذه المسؤولية ، ولن يستطيع أحد أن يصلح ما لم يبدأ أولاً بمعرفة أسباب الفساد ثم استئصال هذه الأسباب ثم البدء في الإصلاح .

ومعرفة أسباب الانهيار في الأزهر محتاجة إلى دراسة تكون بين يديها كل الوثائق والقرارات التي كان لها تأثير في حياة الأزهر ، وذلك منذ بداية نصف القرن العشرين وكنتُ طالبًا في هذا الوقت في الأزهر وكانت الدروس داخل الفصول دروسًا عالية القدر يؤديها شيوخ أجلاء لم تلحن ألسنتهم في كلمة سواء كانوا يدرسون الفقه أو السيرة أو النحو أو التفسير أو التوحيد أو المنطق ، وتخرجنا في كلية اللغة العربية وعميدها الشيخ محيي الدين عبد الحميد ، ونحن نوشك أن نحفظ كتاب الأشموني بتنبيهاته التي كانت تثير العقل ، ثم كان ما كان وبدأ الخلل بقانون تطوير الأزهر الذي لم يستشر فيه علماء الأزهر ، وكان على رأسهم الشيخ محمود شلتوت وذكر المرحوم محمد البهي في كتابه (حياتي في الأزهر) أن الشيخ شلتوت دُعِي لحضور مجلس الشعب الساعة الخامسة ليلة انعقاد المجلس وهو لا يدري لماذا دعي ، وفوجئ بقانون تطوير الأزهر ؛ فرفضه هو وجميع من معه من العلماء وشهد هذا الموقف المرحوم فتحي رضوان ، الذي ذكر في كتاب له أنه فوجئ بالصحف كلها تكتب في عناوينها الرئيسة : إجماع علماء الأزهر على الموافقة على قانون تطوير الأزهر ، وهكذا استبد من استبد بقرار قلب الشريف العتيق رأسًا على عقب ولم يفكر لحظة في أن يستشير شيخه

وعلماءه ، فشقي الأزهر برأي الفرد وشقيت مصر وشقي العالم الإسلامي الذي ليس له جهة يطمئن إليها في دراسة دين الله إلا هذا الأزهر ، ولم يكن هذا وحده هو السبب وإنما جاءت من بعده أسباب أخرى ، وكان هذا أمرًا مفزعًا لنا جميعًا وأحْسَسْتُ أن ميراث نبينا عليه الصلاة والسلام صار مُعَرَّضا لأن يضيع بما أصاب هذا الشريف العريق العتيق ، واتفق أني لقيت الشيخ محمد متولي الشعراوي في مقام إبراهيم ، وهو دائم الصلاة فانتهزت فترة له تخللت صلواته ، وقلت له : إلى متى يظل الأزهر في الانهيار ونحن صامتون ، وكان أيامها وثيق الصلة بالرئيس المرحوم محمد السادات فقال لي كلامًا فهمتُ منه أن شيئًا يتم نحو إصلاح الأزهر وعودة العلم إليه ، ثم عاجله الموت كما عاجل الرئيس السادات ولم يتم شيء .

قلت : إن الإدارة الحالية ليست هي المسؤولة عن أوصاب هذا الشريف العريق وكذلك الإدارات السابقة ، ولكنهم جميعًا مسؤولون لأنهم لم يتخذوا المواقف والقرارات الحاسمة التي تستخرج هذا الشريف العريق من الوهدة التي أسقطه فيها من أسقطه .

وكان المرحوم الدكتور عبد المنعم النمر من الأذكياء الذين يضعون الحلول الحاسمة أو كما يقول أوائلنا يضعون الهَناء مواضع النُّقْبِ ، والهناء هو القطران الذي تعالج به الإبل الجربى ، والنُّقْبُ هو موضع الداء في البعير وهو مثل لكل من يحسن أن يضع الدواء النافع للداء المخيف ، وكان يقول ، ونحن نعيش هذا الهم يمكن إصلاح الكثير من ضعف طلاب الأزهر بعمل سهل جدًا ولا يكلف شيئًا وهو وضع أسئلة امتحان جادة في كل السنوات في المعاهد ثم التصحيح الجاد ثم إعلان النتيجة من غير أي محاولة للجبر ،

وكل طالب سيرسب في هذا الامتحان سيبدأ المذاكرة والاجتهاد في العام الذي يليه . وكل مدرس مهمل في درسه سيبدأ الجد في العام القادم ، وهكذا توجد لحظة جادة يكون كل ما بعدها مغايرًا لما قبلها ، قال هذا أيام الشيخ جاد الحق ، ولكن ذلك لم يحدث لأن المسؤولين كانوا لا يعتمدون النتيجة إلا إذا كانت فوق التسعين في المئة أعني مزوّرة مثل نتائج الانتخابات ، وهكذا صار التزوير منهجًا عامًا وسائدًا ، وأذكر أنني وأنا طالب في السنة الأولى الثانوية كانت نتيجة النقل من أولى ثانوي إلى الثانية الثانوية أربعة عشر في المئة ، وكان ذلك مألوفًا ولم يعترض أحد ، وأذكر أيضًا ونحن طلاب في الثالثة الابتدائية ، وكان التعليم في الأزهر ابتدائيًا وثانويًا ، ابتدائي أربع سنوات وثانوي خمس سنوات كان لنا زميل يكتب في جريدة الشعب وكان فيها باب اسمه رجال ومواقف ، وكان يكتب في هذا الباب ولا أزال أذكر اسمه رحمه الله (كمال زغلول) كما طبع زميلان ديوانين من الشعر ونحن في السنة الخامسة الثانوية أحدهما المرحوم عبد الوهاب فايد الذي كان أستاذًا في أصول الدين والثاني عبد الفتاح شتا الذي تخرج في دار العلوم ، ولما أعلنت نتيجة ثانوية الأزهر هذا العام وكانت ثمانية وعشرين في المئة تفاءلت خيرًا وقلت هذه بداية الطريق ، ولا أشك في أن الإدارة الحالية تبذل أقصى ما عندها في سبيل عودة الروح إلى هذا الشريف العريق وأدعو الله أن يوفقهم إلى ذلك .

وللحديث بقية ««

* * *

تجديد الخطاب الديني .. والطريق الواحد ..

أنهيت المقالة السابقة بذكر معايب ومعاطب الخطاب الديني ، وقلت إن هذه هي الخطوة الأولى الواجبة وتليها خطوات ، وذكرت أن المسؤول عن هذه المعايب والمعاطب في الخطاب الديني هو الأزهر ، وقلت إن بوادر إصلاح بزغت في ضبط امتحان ثانوية الأزهر بنتيجتها المُعْلنة ، وأن مراجعة النتائج لرفع نسبة النجاح تزوير مُغلَّف ولا يليق بالأزهر ولا بوزارة التعليم ؛ لأنها تكوِّنُ عقولاً نظيفة ومن أهم أسباب انهيار التعليم في مصر مراجعة نتائج الامتحانات لرفع نسبة النجاح .

والآن أضيف وزارة الأوقاف إلى الأزهر في تحمُّل مسؤولية هذه المعايب والمعاطب ، وإن كان الأمر مُختلفًا لأن الأزهر قَصَّرَ في الإعداد ، والأوقاف قصّرت لما استْسلمت لهذا الضعف وهذا العجز ، وهذا الضعف وهذا العجز ليس مُسْتعصيًا على الإصلاح إذا وُجِدَتْ الإدارة الحازمة والعزيمة القاطعة الصارمة وقبلهما الرأى الراجح

وعلى الوزارة أن تقترح حلولاً مُبْتكرة وأن تترك الحلول التي جُرِّبت ولم تُفلح وأعني بها الدورات التثقيفية ، وكانت الوزارة قد أنشأت هذه الدورات التثقيفية منذ زمن وشاركتُ فيها ووجدتها غير مجدية فنَفَضْت يدي منها ، وفعل شيئًا شبيهًا بها المرحوم الشيخ جاد الحق ، لرفع مستوى المعلمين وطالب المختصين بإعداد كتب في المقررات المختلفة للمعلمين ، وكنت

أيضًا واحدًا ممن شاركوا في هذا ، ثم يَبِسَ الثَّرَى بيني وبين فضيلة مولانا ثم ابتعدت ، والمطلوب من الأوقاف أن تكون فيها إدارة لرفع كفاءات الدعاة ، لأنه من الإساءة لدين الله أن يحدِّثنا عن الله هؤلاء الضَّعفة ، وصوت الأوقاف واصل إلى كل أُذن ، وكل قلب ، فلابد أن يكون صوتًا محفوفًا بجلال الحق ، وجلال الدين ، والذي أقترحه إنما هو فتح باب وفي الوزارة بقية من العلماء العاملين كما أن في الأزهر بقية من العلماء العاملين وسوف تظل هذه البقايا لأنهم من الطائفة القائمة على أمر الله ، الذين أخبر رسول الله ﷺ أنهم قائمون في الأمة حتى تقوم الساعة ، ولكنهم لَيْسوا طافين على السطح ، لأنهم ليسوا من هؤلاء الطافين ، ولا يقبلون أن يكونوا منهم ، وإنما هم من الذين يُحبُّهم الله وأخبر عنهم رسوله عليه السلام لما أخبرنا : « أن الله يحب العبد التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ» والغنى هنا هو ثُراءُ القلوب والعقول بما علمها الله ؛ لأن التقوى تورث العلم : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة:٢٨٢) هذه الإدارة التي يجب أن تكون قطعة من لحم الوزارة وعظمها ، وهي المسؤولة عن رفع كفاءة الدعاة تستطيع بطريقة سَهْلةٍ جدًا وغير مُكْلِفة أن ترفع كفاءات كل من في الوزارة ، وذلك بأن تختار مجموعة من الكتب في حدود خمسة أو ستة كتب تقررها على الذين ابتدأوا العمل ، وتُجْري امتحانًا صارمًا ودقيقًا فيها قبل مَوْعد العلاوة السنوية وتكلف إدارة الأوقاف في المحافظات المختلفة بإجراء الامتحانات التي تحدِّدُ هذه الإدارة له موعدًا واحدًا في القطر كله ، وتضع هي الأسئلة وتكلف بها الكفاءات الجيِّدة وأي محاولة للغش أو السماح به يكون عقابها صارمًا بمقدار جرم أن يقف على منبر رسول الله ﷺ غشّاش ، ثم تجمع كل هذه الأوراق ويكون التصحيح

تحت سمع وبصر هذه الإدارة ، ثم تحدد الدرجة العلمية التي بها يستحق الموظف العلاوة ، وهكذا لأصحاب العلاوة الثانية ، والثالثة ، حتى تصل إلى درجة وكيل وزارة .

وليس هناك أحد كبير على طلب العلم ، وتختلف الكتب المقررة باختلاف المستويات وتكون الكتب كتب شاملة للفقه والتفسير والحديث والنحو والسيرة والغزوات والتاريخ الإسلامي وسير الصحابة إلى آخر ما يعلم هؤلاء الكرام أن الداعية في حاجة إليه ، وهذه الكتب لا تُشْرَحُ لهم لأن الأصل فيهم أن يحسنوا فهمها ، ولأننا لو شرحناها سندخل في باب الدورات التثقيفية والتكاليف المادية وفتح أبواب الفساد ، التابع لذلك وبَذْلُ المجهود في هذا هو بذل للمجهود في الرسالة الحقيقية للوزارة ، وبهذا سيبدأ رفع مستوى الدعاة من أول يوم يتسلمون فيه العمل ، ويظل هذا معهم إلى أن يخرجوا على المعاش ، في كل سنة يقرأ ويفهم ويحفظ ويهضم عددًا من الكتب التي تزيده علمًا حتى يستحق هذا الفضل الذي أكرمه به ربنا في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت:٣٣) ، وتأمل فاصلة الآية الدالة على أن كونه من المسلمين هو غاية الغايات ، وقل مثل ذلك في الخريجين العجزة الذين يُعيَّنون في التدريس في الأزهر ، وفي وزارة التعليم سواء كانوا من الأزهر أو من كليات أخرى لأن الهَمَّ عَمٌّ والبلاء طمّ :

وكُلنـا جَـوَى يَـا رَفِيقِـي ... أنـت تَهْـوَى وقَلبِـيَ المتبـولُ

وأزيد وأتجاوز ما أنا فيه فأقول : إن الإدارات المسؤولة عن رفع كفاءات العاملين فيها يجب أن تكون عامة حتى في المصانع ، وإصلاح أحوالنا ليس

أمرًا بعيد المنال إذا وُجِدَتْ العزيمةُ الحذاءُ والإدارةُ القاطعة والموقف الحازم الحاسم ، وأكتفي بهذا في ذكر معاطب ومعايب الخطاب الديني والمسؤولين عنه والواجب الذي يتعيّن عمله في مواجهته .

وأقول : إن الفراغ الذي أنتجته هذه المعاطب وهذه المعايب هو الذي أتاح لغير المتخصصين أن يتكلموا في الدين فكثُر الدعاة من غير الدعاة الحقيقيين ، وكثرت الفتوى من غير أهل الفتوى ، والدارس للفقه والعقائد والشأن الإسلامي يعلم أن وجود الخلفية العلمية المتّسعة ضرورة لكل من يتكلم في الدين ، وعندنا فقهاء هم أشبه أواخرنا بأوائلنا يتهربون من الفتوى ؛ لأنهم يعلمون خطرها في الوقت الذي يجترئ عليها من قرأ كتابًا أو كتابين ، وإذا كان من الاجتراء غير المحمود أن يكتب الناس في دين الله بغير علم ؛ فإنه من السّفه وسوء الأدب أن ينتقد علماء الإسلام من ينتقدهم بغير علم ، وكل ذلك واقع في حياة لا تنكر منكرًا ولا تحتفي بمعروف ، وضع الاجتراء على الفتوى بجانب الاجتراء على البخاري ومسلم والنووي تجدهما إخوة من أب وأم ، وليس المطلوب أن يجدّد الدعاة الخطاب الديني ؛ لأن تجديد الخطاب الديني لا يكون إلا من الكفاءات النادرة ، وإنما المطلوب منهم أن يقرأوا ما تكتبه هذه الكفاءات النادرة وأن يتعلموا تجديد الخطاب .

والآن أبدأ الحديث في صُلْب الموضوع وهو تجديد الخطاب الديني وحسبي أن أجتهد وأقول ما أرَى في ضوء تجربة حياة أحْمَد الله سبحانه وتعالى أنه لم يشغلني فيها عن طلب العلم شاغل ، وإنما شغلني طلب العلم عن كل الشواغل ، وأقول إن التجديد في الدين وفي الخطاب الديني وفي كل

العلوم الإسلامية وغير الإسلامية يزاوله العلماءُ المنقطعُون للعلم من غير أن يُسمُّوه تجديدًا ؛ لأنه يأتي وحده كالثمرة الناضجة التي تسقط في أيدي الناس من غير مسعاة منهم إليها ، والأصل أن يكون التجديد حاضرًا أبدًا من غير مؤتمرات ، ومن غير لجان لأن صُنَّاعه هم أساتذة الكليات الذين يؤدُّون واجبهم كما يجب ، وكما ينبغي ، لأن الواجب هو أن ينقطعوا لعلومهم انقطاعًا لا يشغلهم عنه شيء ، لأن هذا الانقطاع هو عملهم وهو صنْعتُهم وهو ضَيْعتهم وقديما قالوا : كل امرئ وصنيعته مقترنان ، فعالم الفقه منقطع للفقه وملازم له ، وعالم التفسير منقطع للتفسير وملازم له ، وهكذا قُلْ في كل العلوم التي لها أساتذة في الكليات .

والمؤكد الذي لا خلاف فيه أن العلم يَرْبُو ويَزيدُ بالمراجعة ، والعقّاد قال : لأن تقرأ الكتاب عشرين مرة خيرٌ لك من أن تقرأ عشرين كتابًا ؛ لأن الكتاب الذي تقرؤه عشرين مرة سيربو علمه عندك ، والعلم الرابي هو الذي نسمِّيه جديدًا وتجديدًا ، وليس العلم المُحصَّل فقط من غير إضافة ولا إضاءة لما حصلناه .

عمل الأستاذ ليس هو تدريس الجدول وإنما جوهر عمله هو البحث والنظر والتحليل والاستنباط ، وحين ينقطع لذلك تراه يقدم الجديد وهو لا يدري ، ومن هذا المجهود وهذا الانقطاع وهذا الجزء النامي من المعرفة يستقي منه طلابُه ويستقي الجيل كله منه ، وبذلك تتجدَّدُ العلوم وتتجدد الأجيال وتُستثار العقول ، ولا يجدُ دجَّال مَدْخلاً يخطِفُ به عقول أجيالنا ، ويُقنعهم بأنهم إن قتلونا دخلوا الجنة ، هذا ومثله راجع إلى الفراغ العلمي

والثقافي الذي يعيش فيه الجيل ؛ لأن الكليات صارت أقل مستوى من المدارس الثانوية منذ ثلاثين عامًا . وبدأ العدّ التنازلي من يوم أن أسند الأمر إلى غير أهله .

قلت : إن المعرفة تربو بالمراجعة وإن تحصيل العلم الذي في الكتاب والذي اعتبرناه نهاية الطريق هو في الحقيقة بداية الطريق ، لأن الباقي بعد التحصيل هو الأهم ، لأنه فَتْحُ أبواب علم الكتاب ، وتحصيل العلم شيء وفتح أبواب العلم شيء آخر ، فقد يُحصِّل المبتدئ كتاب الرسالة للشافعي ، أمَّا فتح أبواب علم الشافعي في الرسالة فذلك لا يكون إلا بإدْمان قَرْع أبواب علم الرسالة وكلمة (إدمان قرع باب العلم) كلمة الجاحظ ، ولا يفتح أبواب العلم إلا المُتفوِّقُون أصْحاب المواهب ، والذين عندهم علم من الكتاب كالذي قال لسليمان : ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ (النمل: ٤٠) ، أعني بهم : المواهب المختلفة المغايرة للسُّنن المألوفة .

قال المزني وهو في طبقة الشافعي وصاحبه قرأت الرسالة خمسمائة مرَّة وأفَدْتُ من القراءة الأخيرة ما لم أُفِدْ من الذي سبق ، وهذه القراءات هي التي جعلت الرسالة أصْلاً من أصول العلم ، والقارئ الجيِّد هو الذي يسْتَخْرِجُ من تحت كل مسألة مسألةً ، وطول النظر في كلام العلماء الكبار الذين أسَّسُوا العلوم يعلِّمك كيف تَبْني كما بَنْوا وكيف تُؤسِّسُ كما أسَّسُوا ، وكيف تكون لبنة في بناء العلم الذي أنت ملازم له كما كان عليه السلام لبنة في بيت النبوّات ، وقد رأيت العلماء يستخرجون بابًا من أبواب العلم من جملة قرؤوها في كتاب أو سمعوها من شيخ ، وراجع كتاب الخصائص

لأبي الفتح واستخرج المسائل التي استخرجها من تحت كلمات شيوخه وكيف كانت جملةٌ لأبي علي الفارسي تَهْديه إلى كتابة باب في علم العربية لم يكْتَب قَبْله ، وراجع دلائل الإعجاز وكيف بنى عبد القاهر باب التقديم من جملة لسيبويه لا تملأ سطرًا ، ثم كيف أسَّسَ باب القصر لأوَّل مرة في العربية من صفحة قرأها في الشيرازيات ، واتفق أن هذه الصفحة كان الشيخ أبو علي يسْتنبطُ فيها من كلام العلماء معنى وعمل حرف من حروف العربية ، وهذا علْمٌ غائبٌ وهو علم تأسيس المعرفة وهو الأب القريب لعلم تجديد المعرفة ، والحديث عن تجديد الخطاب الديني يعني الحديث عن تجديد المعرفة ، ثم إن الحديث عن تجديد المعرفة بمعزل عن الحديث عن تأسيس المعرفة يوشك أن يكون كمَخْضِ الماء ليس له إناء ، والإناء الزبد والذي يخُضُّ في الماء ولا يسْتخْرج من الماء زبدة ، ومن مخض الماء عقد مؤتمرات لتجديد الخطاب الديني ، وتكوين اللجان لتجديد الخطاب الديني .

وتعليم العلم عند ذوي البصائر هو التعليم الذي يُعلّم العلم ويُعلّم إنتاج العلم ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يعلّم أصحابه العلم ، ويعلّمهم أيضًا كيف ينتجون العلم ، وذلك فيما روي عنه عليه السلام أن صحابية جليلة قالت : يا رسول الله! إن أمّي نذرت أن تحج فماتت قبل أن تحج ، أفأحج عنها ؟ وكان الجواب يمكن أن يكون حجي عنها ، أو لا تحجي عنها ، ولكن رسول الله ﷺ لم يعطها الجواب ، وإنما قال لها : « أرَأيْت لو كان على أمك دينٌ أكنت قاضية عنها؟ » قالت :نعم ، قال : « فالله أولى بالقضاء» . وهكذا علّمها عليه السلام كيف تقيس ما لا تعلم على ما تعلم ، وكيف تستخرج هي بنفسها جواب مسألتها بهذا القياس ، وهذا بعض معنى قوله عليه السلام :

« أصحابي كالنجوم بأيهم أقتديتم اهتديتم » لأنه عليه السلام علمهم الهُدَى أعني الطريق المستقيم الواصل إلى العلم والطريق الواصل إلى العلم هو المنهج ، ولهذا فجَّرُوا ينابيع العلم فاستقى منها مَنْ بعدهم ، ولهذا أيضًا كانت القرون الثلاثة المفضَّلة لم تكن مُفَضلة فقط لغضارة الدين في القلوب ولم يكونوا قد طال عليهم الأمد فقَسَتْ قلوبهم ، وإنما كانوا أيضًا لأن معظم العلوم الإسلامية وما يلزمها من علوم عربية ، كان كل ذلك قد تَمَّ في هذه القرون الثلاثة ، المُفَضَّلة ، ومن يَرُوم تجديد العلوم في غيبة هذا مُتطلِّبٌ في الماء جذوة نار ، ومثله تجديد الخطاب الديني في غيبة تجديد العلوم وفي غيبة حركة علمية يقظة وواعية وفي غيبة تعليم متوهج من أول سلمه إلى آخر سلمه ، أقول تجديد الخطاب الديني في غيبة كل هذا نفخ في الهواء أوْ حَرْث في الماء ، وسُتبدْي لك الأيام ما كنت جاهلاً .

وتجديد الخطاب الديني لا مَعْنى له إلا تجديد الدين ، لأن الخطاب الديني حديث عن الدين ولن يكون هذا الحديث وهذا البلاغ جديدًا إلا إذا كان الجديد في الدين نفسه ، والتجديد معناه جعل الشيء جديدًا ، تقول : جدَّدْت الدار أي جعلتها كيوم أنشأتها ، وجَدَّدْت الثوبَ أي : جعلته كيوم نُسجَ ، وتجديد الدين يعني جعله كيوم أنزله الله ، وكيوم أكمله وذكر سبحانه أنه أتم بإنزاله وإكماله النعمة وهو كما قال جل وتقدس ، ومعنى أن يكون الدين كيوم نَزَل أن يُنْفَى عنه كل ما علق به وليس منه ، من غلوّ الغالين ، وبدع المبتدعين ، ولهذا كان تجديد الدين في كل زمان من أزمنة تاريخنا هو عودة إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وسلفنا الصالح ، وكل الكتب التي كُتِبَتْ في نفي البدع وكل ما علق بالدين فهي من كتب المجددين من أمثال :

الشاطبي ، وابن تيمية ، وابن عبد الوهاب ، وغيرهم . ويلاحظ أن هؤلاء إرهابيون عند أشاوس زمن الخساسة ، ثم إن تجديد الدين والعودة به إلى أن يكون كيوم نزل فيه معنى آخر ؛ وهو أن يَعُود سَكَنُه في قلوب أهْلِه كيوم نزل فيصير في قلوب المؤمنين غضًا طريًا ، فتخشع له قلوبهم فقد تقسو القلوب بطول الأمد ، وتجد إشارة إلى تجديد الدين في قلوب المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحديد:١٦) ، ويُرَشِّح هذا المعنى ما أخبرنا به رسول الله ﷺ من أن الله سبحانه وتعالى يبعَثُ في هذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدد لها دينها ، والمئة عام هي طول الأمد الذي يمكن أن تقسو فيه القلوب ، والقلوب لا تخشع لذكر الله إلا إذا كانت تذوّقت هذا الذكر وَوَعَتْهُ ودخلت في قراره فدخل في قرارها ، وهذا يعني الارتقاء بمستوى أهل الإيمان والانتقال بهم من مرحلة الجهالة والخشونة والغلظة إلى مرتبة العلم ، والوعي واللطف والنباهة ، ولهذا قلت إن الحديث عن التجديد مع انهيار التعليم وإدخال الشَّعْبِ في غيابة الجهل ضَحكٌ على الذقون ، لأن الخطاب الديني خطاب للأمة فمن ترك الأمة تائهة في دياجير الجهالة بسبب انهيار التعليم فلا يحق له أن يحدّث عن تجديد خطابها ، وتجديد الخطاب الديني جزء من كل متماسك ومتفاعل وصانع لنهضة ، ولا يمكن مطلقًا أن ينهض عضو من الجسد إذا كانت سائر الأعضاء أصابها الشلل!

وذكر المئة في خبر رسول الله ﷺ فيه إشارة إلى قوة تمسُّك الأمة بدينها ، وقوة محافظتها على نقائه وصفائه ، وأنها تبقى الزمان بعد الزمان والأجيال

بعد الأجيال وهي قائمة على الحق وفيها علماؤها وفقهاؤها ، ينفون عن دينها غلوّ الغالين ، وبدع الضالين ، ثم إن هذا الدين ليدخُلَنَّ ما دخل عليه الليلُ يعني لم تبق أرض إلا وفيها من آمنوا به ، لأنه ليس هناك أرض لا يدخل عليها الليل ، وهذا يعني انتشار الأمة في هذه الأرض ، ودخول الأجناس كلها وأصحاب الحضارات والتاريخ المختلف ، وكل هذا يُرَشِّحُ أن تكون هناك مداخل يدخل منها في دين الله ما ليس منه ، ولكن قوة تمسكها بدينها ويقظة الطائفة القائمة على الحق فيها كل ذلك حصون حامية لهذا الدين ولبقائه فينا كما أنزله الله وبيّنه صلوات الله وسلامه عليه ، ثم إذا تطاول الزمن وبلغ المئة فإن الأمر لا يخلو من وجود بدع تتعلق بالدين فيبعث الله لها من يجدد لها دينها ، وذكر الذي يبعثه الله سبحانه فيجدّد للأمة دينها فيه إشارة إلى أن الكلام في تجديد الدين ليس بابًا مفتوحًا يدخل منه كل من شاء وإنما هو خاص ليس بالخواص وإنما بأخص الخواص ، وأن المئة عام لا ترى في الناس الذين ينتشرون في هذا الكوكب ويعيشون في كل أرض دخل عليها الليل ، لا ترى في المئة عام منهم إلا رجلاً واحدًا هيأه الله سبحانه وعلمه وبعثه ، وأنا لا أعرف واحدًا من هؤلاء الذين بعثهم الله ولا أعتقد أن واحدًا ممن زادوا عن دين الله غلوّ الغالين يعرف أن الله بعثه ، وقد مضى أربعة عشر قرنًا وظاهر الحديث أن يكون عندنا أربعة عشر رجلاً بعثهم الله ، وأنا لا أفهم هذا على ظاهره ، وإنما أفهم أن الله الذي بعث نبيَّه بالهدى وتكفَّل سبحانه بحفظ هذا الهدي يبعث الله في هذه الأمة علماءها الشهداء الذين يشهدون مع الله والملائكة فتراهم قائمين على أمر الله لا يضرهم من خالفهم ولا تفزعهم تهديدات الفجَرة ، وإنما يَصْدَعُون

بأمر الله ويبلغون رسالاته ولا يخشون أحدًا إلا الله ، وهم كأنهم الرجل الذي بعثه الله ولا يدرون وإنما يفعلون ما أمروا به من البلاغ والبيان والصدع بالحق ومن بينهم هذا الرجل وهو لا يدري وإنما رُزق القيام على الحق والصلابة في الحق ، الكل يأتي بما يأتي به وقلوبهم وجلةٌ أنهم إلى الله راجعون .

وإذا أردت أن تعرف غلو الغالين وضلالات الضالين التي يحرص أهل الباطل على إقحامها على الدين فارجع إلى المحاذير التي ذكرناها ، وأن أهل اليسار يريدون أن يكون القرآن زبوراً من زُبُر اليسار ، وخدم الحضارة المُخرِّبة لديارنا يريدون أن يكون القرآن زبوراً من زُبُرها ، وأن الفاشلين الذين رَفَعَتْ أيامُ الباطل من شأنهم يريدون أن يكونوا مُجدِّدين للدين إلى آخر ما قلناه .

ويلاحظ أن فضل البيان على البيان يرجع إلى غزارة المعاني التي تستوعبها الجملة وتدل عليها بألفاظها وأحوال صياغتها ثم صواب هذه المعاني وصحتها وسدادها ، وأن القرآن أعجز القوم بهذا الوجه وهذا مما لم يخالف فيه من به طِرْقٌ كما كان يقول العلماء وأرادوا بعض قوة ، وقد ذكروا أن البيان العالي يُعْطى كل من يحسِنُ التلطف والتطرّق إلى خفايا أسراره ، وأن عطاءه لا ينضب ، وأنه كعين الماء يزيد ماؤها ويعذب بمقدار ما تأخذ منها ، وأنها تعطيك غير الذي أعطته لغيرك ، وإذا كان هذا في كلام المجيدين من الشعراء فإنه في الكتاب العزيز يعلو ويَبْهَرُ ويقهر ، وذكروا أن تحت كل كلمة من كتاب الله من المعاني ما لا يحيط به حصر ولا يعده عدٌّ .

وللإمام عبد القاهر هنا إشارة تدخل في فقه التجديد ، لأنَّ نفي غلو الغالين ليس هو كل التجديد ، وإنما منه أن تستخرج من الكتاب والسنة جديدًا لا يخالف أمرًا ولا نهيًا ، هذه الإشارة هي أنه وهو يتكلم عن البيان المتقن الذي أحسن صاحبه ترتيب ألفاظه على وفق ترتيب معانيه وأقام المنارات على خوافي ومنعطفات معانيه المُتَسَرْبلة تحت لغته ذكر الشيخ في هذا السياق أن البصير بجوهر البيان يصل إلى معانٍ من هذا البيان لم يصل إليها غيره ، وأنه يردُ « إلى شريعة هذا البيان وهي زرقاء ويرد إلى روضته وهي غَنَّاء» والشريعة عين الماء والزرقاء التي لم تكدرها يد قبل يدك ولم يأخذ أحد منها شيئًا قبل أخذك،والروضة الغَنَّاء هي التي لم تطأ قدم أرضها؛ لأن الطيور لا تغني على أغصانها إلا إذا كانت آمنة كل الأمن ، وهذا معناه أن البصير بالبيان يستخرج منه معاني لم يسبق إليها ، وإنْ شُرح هذا البيانُ قبله عشرات المرات ، وهذا ما نراه وتقرؤه ، فكل جيل شرح الشعر الجاهلي ، وعشرات الشراح في كل عصر شرحوا ديوان امرئ القيس ولا زلنا نشرحه ولا يزال أعلمنا بالشعر يستخرج منه ما لم يستخرجه أحدٌ قبله وإذا كان هذا في الشعر فكيف يكون في القرآن ؟

وإذا أردت أن تقرأ صوراً من تجديد الخطاب الديني فراجع تحليل المرحوم عبد الله دراز للآيات القرآنية التي حلَّلها في كتبه وخصوصًا كتاب «النبأ العظيم» لأني رأيت هذا الرجل يعلو بعلمه بأسرار البيان فوق رؤوس كثيرة ، وراجع كلام الكبار مثل محمود شلتوت والخضر حسين ، فإنَّ كلامهم في الدين جديد ، بل إن شئت فراجع ما ذكره الزمخشري في قوله

تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ (غافر:٧) ، وكيف استخرج من كلمة ﴿ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أن الملائكة لم يَرَوا ربهم لأنهم لو كانوا رأوه سبحانه لم يُحْمَد إيمانهم به ، وإنما يُحمد إيمانُ من آمن بالغيب ، ويقف الرازي عند هذا الملحظ ويقول : لو لم يكن له في كتابه إلا هذا لكفاه ، مع شدة الخلاف بين الشيخين ، وكذلك راجع كل ما علق عليه ابن المُنيِّر من كلام الزمخشري واستحسنه ، لأن كل هذه معانٍ لم يستخرجها أحدٌ قبله ، ومثل هذا كثير ، والمطلوب سياحة في الكتب لتلتقط منها هذه الإضاءات التي هي من صلب وفقه تجديد الخطاب الديني .

وهذا حسبي »»»

* * *

الشيخ أحمد الشرباصي
رجل مضى ومثل مستمر[1]

كم شيعت هذه الأمة في تاريخها العامر الحافل من رجال . وكم دمعت عينها الجليلة على شيوخ هم أجل من الملوك جلالة .

والآن حين تذكر واحداً من رجالها تبكي دمعة أحر ، ويعتصر قلبها حزن أوجع ، وذلك لأن ينابيعها التي كانت تمدها بهؤلاء النجباء قد فقدت نبعًا ، وأن الحياة العلمية والأدبية التي كانت تنضج هذه المواهب قد انهدم منها ركن .

وليت شعري ماذا يكون حال الأمة حين يقضي الله في البقية الباقية من أمثال هؤلاء الرجال قضاءه ؟ وكيف نرى ساحات الوطنية والفكر والأدب بعد هؤلاء .

أي حياة ستكون ؟

تأمل ما يجري في معاهد العلم على مد هذه الأمة العربية الإسلامية ترى شيئًا واحدًا هو انطماس كثير من معاني الجد ، وذهاب كثير من روح الإخلاص ، وخفوت تلك الوقدة المقدسة التي كان يشعلها في مدارسنا رجال مخلصون ينضجون بها عقول ناشئة الأمة ، ويفجرون بها كوامن طاقات أبنائها .

أصبحت أكثر دور العلم سواء في تخريج أفواج عديدة ممن لاحَظَّ لهم من العلم النافع والمعرفة البصيرة .

---

(١) نشر في مجلة الأزهر رجب ١٤٠١هـ مايو ١٩٨١م .

ولا ريب أن هذه المعاني تجري في نفوسنا كلما ودعنا واحدًا من علمائنا ورجالنا الذين تبقى أماكنهم خالية بيننا . وأنه من الخيانة لهذه الأمة أن نحتجن هذا في صدورنا ، ونحن وغيرنا نراه رأي العين ، وقد أفضى الشيخ أحمد إلى ربه ، وصدره يجيش بما يراه في دور العلم ، خاصة في الأزهر الذي كان يعيش همه الشريف .

وكان رحمه الله شديد الولاء لأصول ثلاثة تتلاحم وتتداخل وتنتهي إلى أصل واحد هي إسلامه ، وعروبته ، وأزهريته ، وكان كثيرًا ما يقول بلسانه وقلمه إني لعربي مسلم أزهري ، وكان إسلامه لا يصحح فقهه إلا عروبة قلبه ولسانه ، ولا يهديه السبيل إلى محض عروبة القلب واللسان إلا تراث الأزهر وحلقات شيوخه .

وكان رحمه الله يعتقد أن حصاة الأزهر وسر قوته أنه لا يترخص في إلزام بنيه بحفظ القرآن وإجراء الاختبارات الشفوية لكل طلابه في حفظ الكتاب كله ، وكان الطالب يتخرج من الأزهر وقد امتحن في القرآن كله أربع عشرة مرة ، والذين دخلوا الأزهر وهم لا يحسنون قراءة القرآن قراءة مفصلة مرتلة هم الذين فُضَّتْ بهم خدمته وكسرت بهم حصاته التي استعصت على الضغن الأسود الذي أضمرته أحقاب طوال عانتها هذه الأمة وعاناها معها الأزهر .

ويرى الشيخ رحمه الله أن ضياع هذا العزيز الغالي من الأزهر يعني ضياع بهاء مصر وإطفاء نورها لأنها عرفت بالقرآن والأزهر قال في ذلك :

«من الحقائق التي يجب أن تستقر في أذهاننا وتسيطر على إدراكنا أن أعظم مفخرة لبلادنا هي أنها دار القرآن ، وأنها بعزة القرآن تساوي كل شيء ،

وأنها دون القرآن لا تساوي شيئًا .. وشهرة مصر القرآن بين العالمين هي أن أبناءها يحفظون القرآن العظيم ويتلونه عن ظهر قلب ، ويتطلع إليهم أبناء البلاد الإسلامية الأخرى فيعجبون لهم كيف يستطيع هؤلاء الأذكياء الموفقون من أهل مصر العظيمة أن يرتلوا القرآن حفظًا بهذا الأسلوب الكريم .. وكان الشرط الأساسي لقبول الطالب في المعاهد الدينية الأزهرية أن يكون حافظًا للقرآن كله وأن يمتحن فيه بلا تساهل ولا تسيب»[١].

تأمل قوله : «بلا تساهل ولا تسيب» ، كان اصطلاح الأمة في تربية رجالها وعلمائها البداية بحفظ القرآن تفتق به ألسنتهم ، وتتهيأ به قلوبهم ، ثم تدور حوله جملة من المعارف الشرعية واللسانية ، ثم ينالون من أصناف العلوم الطبيعية والحكمية والفلسفية ما ينالون ، والمهم أنه لا يكون فيها عالم بارع في فرع من فروع المعرفة التي برعوا فيها كعلوم التعدين ، والصيدلة ، والطبيعة والطب ، والبيطرة ، والكيمياء وهو يجهل القرآن والاستمداد منه ، والاستشهاد به ، وكذلك كان قوادها ، ووزراؤها وولاتها

وقد تعددت بحوث شيخنا رحمه الله وتنوع تراثه ، ودار حول أصلين أساسيين ارتبط قلمه بهما منذ البداية ، هما الكتاب والسنة ، ويرى أن ذلك من فضل الله عليه وأنهما بابا الإرشاد ، والإسعاد ، وسببا النجاح والفلاح ، وينبوعا البيان والأدب[٢].

---

(١) كتاب توجيه الرسول ص ١٧٦ ، ١٧٧

(٢) كتاب توجيه الرسول ص ١٠

وقد بدأ نبعه يتدفق منذ بواكير عمره ، وقد ألحق قائمة مفصلة بمؤلفاته بكتاب توجيه الرسول الذي نشره في سنة ١٩٧٤م وقد بلغت كتبه آنذاك سبعة وسبعين كتابًا بدأت رحلتها سنة ١٩٣٦م بنشر كتاب (حركة الكشف).

وقد خاض في هذه الكتب ميادين الأدب والتاريخ والدين والسياسة ، ولا ريب أن له فوق ذلك فيضًا زاخرًا من المقالات ، وفيضًا عامرًا من المحاضرات التي شارك فيها في الملتقيات الفكرية والأدبية في العواصم الإسلامية العديدة ، هذا إلى جانب طوفان من الأحاديث التي ألقاها في أرجاء مصر وفي مختلف أنديتها ، والتي شارك فيها في قضايا المجتمع والدين والسياسة ، وكان كما قال هو في وصفه لعطاء شكيب أرسلان « كالغيث الهاطل المدرار في كتاباته حتى تصعب ملاحقته ، ومتابعته» . وقد استطاع رحمه الله أن يلاحق ويتابع ما كتبه الأمير ، ودرس ، ومحص ، ونقد ، وغربل ، وأخذ ، وترك ، وليت شعري هل يتهيأ لشيخنا ديدبان دؤوب يلاحق ويتابع ما درته سحائبه ، ويعكف عليها يدرسها ويفليها ويغربلها ويقول ما لها وما عليها ؟

عاش رحمه الله حياته كلها طالب علم فقد طرق باب كلية اللغة العربية طالبًا في دراساتها العليا بعد ما تخرج منها بعشرين سنة ، وذكر ذلك وهو يعرض مقدمة بحثه الذي أجازه به العلماء ، وأذكر أنه ارتجل هذه المقدمة ، وكان موضوع البحث هو الشيخ رشيد رضا وذكر أبوابه وفصوله ومقدماته ونتائجه بطلاقة وتدفق وكأنه كان يقرأ من كتاب ، وكانت ليلته من الليالي التي يرى فيها الطالب مناكبًا لأستاذه بل ومزاحمًا ركينًا له في علمه وفقهه .

وكان ضمن المجموعة الأولى التي دخلت معهد الدراسات العربية حين فتح أبوابه سنة ١٩٥٣م وقال «ولم أجد أي غضاضة في أن أكون صباحًا مدرسًا بالأزهر الشريف وأن أكون بعد الظهر طالبًا في المعهد»[1].

وكان شيوخ المعهد يعرفون علمه وقدره، ويخاطبونه خطاب الزميل والصديق وهو يخاطبهم خطاب التلميذ.

وقد شهدوا له بالاكتمال والتفوق، ووجهوا طلاب العلم إلى اتخاذه مثلاً في الصبر والتروي والاستنباط وفي سلامة اللغة وصحة البيان وجزالته، قال الأستاذ محمد خلف الله وكان عضو لجنة مناقشته في درجة التخصص وذلك في مساء الثلاثاء ١٢ من شعبان سنة ١٣٨٢هـ قال وكان وكيلاً لجامعة عين شمس «أشكر لفضيلة الزميل أبي «مي» الأستاذ الشرباصي هذا العرض الجميل لرسالته وأرجو أن يتخذ منه طلبة العلم نموذجًا لما ينبغي أن يكون عليه تلخيص الرسائل العلمية، ولما ينبغي أن يكون عليه البيان العربي القوي السمح وليس هذا بكثير على الشيخ الشرباصي».

ثم قال عن الرسالة «والرسالة التي نناقشها رسالة مكتملة النمو تحققت فيها صفات الرسائل العلمية الكاملة من سلامة القصد. وسلامة المنهج، وسلامة البناء وقد توفرت لصاحبها أدوات النجاح من تمرس بالبحث والمناقشة، وفهم واع لمرحلة النهضة وأحداثها السياسية، وتياراتها الثقافية والروحية، توافرت لصاحبها هذه الأدوات جميعها، ولو أردنا دليلاً غير هذه الرسالة لكان لنا أن نلتمسه في كتب أخرجها صاحب الرسالة تقارب عدد الماضي من سنى حياته المديدة إن شاء الله»

(١) كتاب شكيب أرسلان ص٩

وقد ذكر الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسيني وكان مشرفًا على بحثه أن هذه الرسالة هي الأولى في موضوعها في هذا المعهد ، ويعتقد أنها كذلك في سائر الكليات والبلدان ، ثم ذكر أنه يثني عليه ثناء لا حد له لأمور ثلاثة :

أولها: أنه جلس مجلس الطالب بعد ما استحصد واحتنك ، وأنه في هذا ماض على سنة السلف الصالح الذين رأوا أن طلب العلم من المهد إلى اللحد .

وثانيها : تقبله للنقد وإيراد النظر واستيعابه لما يرد عليه من هذا وإذعانه للحق حين يدركه .

وثالثها : استقصاء المادة العلمية في موضوعه وأنه لم يترك ناحية يظللها أي غيم إلا جلاها(1).

وكان الشيخ رحمه الله كلفا بمدرسة الإمام وقد أخرج عنها كتابًا في سنة ١٩٧١م بعد ما كتب عن أعلامها دراسات مستفيضة ، وقد أخرج عن شكيب أرسلان كتابين غير رسالة الماجستير التي نشرها في جزئين .

ورجال هذه المرحلة - سواء منهم من ينتمي إلى الإمام ومن لم ينتم إليه - في حاجة إلى دراسات جديدة في ضوء ما انكشف من الحقائق التاريخية والسياسية مما يوجب مراجعة الأحكام على كل من سطعوا في ميادين السياسة والأدب والاجتماع والإصلاح .

والمهم في سياقنا هو أن الشيخ رحمه الله كان دؤوبًا لا يني في طلب العلم وأنه أفاض بغزارة في شتى الميادين ، حتى إنه كتب في الفقه كتابًا من خمسة أجزاء استمد مادته من مطولات كتب الفقه والتفسير والحديث ، وقد

---

(1) ينظر مقدمة كتاب شكيب أرسلان

استنبط منها الحلول الفقهية لما يجده المسلمون من أقضية وحاجات ، وهذه إحدى مزايا فقه الشيخ ، ونرى أن هذا الكتاب يضعه بين أهل الفتيا من الفقهاء .

وكان كغيره من علماء الأزهر الذين ارتبطت عندهم علوم التفسير والفقه والأدب واللغة والأخبار حتى صارت كلا متكاملاً ، فلا سبيل إلى درس الفقه لمن لم يغمس يديه في علوم اللغة والحديث والتاريخ ، وهذه سنة السلف فقد رأينا فقهاء يطلبون علم الفقه في كتاب سيبويه وآخرين يتلمسون التفسير في كتاب المغني لابن هشام النحوي . ورأينا الشافعي أديبًا غلب عليه الفقه فعرف به ، وذكر بعض اللغويين أنه يحتج به في اللغة ، وناهيك عن مرتبة الاحتجاج عند هؤلاء الأعلام ، كما عرفنا القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني فقيهًا غلب عليه الأدب فعرف به ، وحسبه أنه قاض . ولا يلي مرتبة القضاء إلا من عرف كيف يستنبط الأحكام الفقهية من النصوص الشرعية ، ولا يكون كذلك إلا من برع في الفقه والأصول والقياس .

وهذه الطريقة في تخريج العلماء والتي سلكها شيوخنا رحمهم الله يسلك الأزهر الآن في تخريج علمائه غير طريقها فتقطعت في دروسه الوشائج بين هذه العلوم ، فصار درس الأدب لا نحو فيه ، فضلاً عن أن يمازجه علم بالمصطلح والرواية ودراسة الأسانيد وصار للحديث قسم غير قسم التفسير ، وللفقه قسم غير قسم الأصول وللبلاغة قسم غير قسم الأدب ، وهذا مجاراة لما يجري عند غيرنا ، وقد أغفلنا أن الترابط بين العلوم اللسانية والشرعية في تراث المسلمين شيء فريد ليس له ما يشابهه في تراث الأمم ، التي لم ينزل بلسانها شرع من الله العزيز الحكيم .

وكان منبر المركز العام للشبان المسلمين من المجالات التي أفرغ فيها الشيخ كثيرًا من عطائه ، وكان يرتاد هذا المنبر العديد من أهل العلم من علماء الأمة عربًا وغير عرب ،وقد أتيح لنا من خلاله أن نسمع ونرى الكثير من المفكرين الذين كنا نعرفهم ولا نراهم ، وكان الشيخ رحمه الله يبدو قويًا ركينا بين هؤلاء الأفذاذ ، يقدم ويعقب بتدفق وذكاء وفطنة ، وكأنه محيط بالموضوع إحاطة المحاضر أو هو يستعلى أحيانًا .

وكان لهذا المنبر وهج لامع ، ولكنه لم يضف إلى الشيخ شيئًا فقد ظهر ساطعًا وهو طالب في معهد الزقازيق .

والذين يتعرضون لتاريخ من اتصلت حبالهم بالحاكمين في العالم العربي ، لابد لهم أن يراجعوا كثيرًا في تقويم المواقف والحكم عليها ، وأن يعتبروا ما كان عليه حال الأمة ، وطرائق تصريف أمورها وسياستها ، ثم ما انبعث في نفوس هؤلاء الرجال من أمل مع بدايات النصف الثاني من هذا القرن أغراهم بالمساندة والتأييد ، فلما كان من الأمر ما كان ، فمنهم من نصح ومنهم من سكت والله أعلم بالسرائر .

والمهم أننا تعودنا أن نرمي بالحصى في وجه كل من اتصل بالحاكمين من العلماء ، وهذا خطأ فإن تاريخ الرجال يحدثنا أن العلماء كانوا ينهضون بواجب النصح لله ولرسوله ، وإبداء الرأي ، وأن الحاكمين كانوا يستمدون سلطانهم من العلماء والفقهاء ، لأنهم أهل الحل والعقد ، وليس لهم في ذلك إلا شرع الله ووجهه ، ويحسن بنا أن نستمع الآن إلى الشيخ رحمه الله وهو يحدثنا في قضية بيت المقدس وفلسطين .

فقد تعرض الشيخ إلى دعوة حقوق اليهود في فلسطين وقبل أن يدحض أكاذيب يهود مستمدًا من الكتاب والسنة والتاريخ الصحيح اقتبس من كتابين

غربيين أحدهما كتاب «فلسطين والغزو التتري الجديد» لباحثة أمريكية وقد جاء فيه «العملات النقدية التي ترقى في القدم إلى ما قبل ألوف السنين في فلسطين قد اكتشفت . والقبور التي خلفها الذين عاشوا في عصر موسى وقبل عصر موسى في فلسطين أيضًا قد فتحت ، واكتشفت محتوياتها جميعًا ، فلم يعثر في جميع هذا الذي اكتشف على دليل واحد أو إشارة بسيطة تخبرنا عن وجود ما يسمى بأمة يهودية في تلك الأيام مطلقًا فإن كل ما يتعلق بهذه الأمة المزعومة غير موجود في فلسطين» .

والثاني في كتاب «مركز المدنية القديمة» للأستاذ دونت قال : «لم يعثر على كتابةٍ قديمةٍ واحدةٍ في فلسطين من شأنها أن تدل على وجود مملكة عبرية ، ولقد فَشِلَتْ جميع الآثار التي اكتشفت في القدس وعجزت عن تقديم أثر واحد يدل على سليمان وداود» . إن اليهود بحاجة إلى الدليل الذي يؤيد وجودهم بين قوميات آسيا الغربية القديمة ، والإغريق في أيامهم الأولى لم يشيروا بكلمة واحدة إلى اليهود فلو كانت فلسطين وطنًا لهم في تلك الأيام لكان هؤلاء اليونان القدامى على اتصال بهم . إن هوميروس لا يعرف عنهم شيئًا مطلقًا»(1).

ولما أرجفت الصهيونية بالقول بأن العرب افتعلوا قداسة بيت المقدس وأدخلوا ذلك على الإسلام لما ظهر الصراع بين العرب واليهود وذلك لينضم المسلمون إليهم في هذا الصراع كتب الشيخ عن الكتب التي ألفت في بيت المقدس قبل نشوب هذا الصراع بمئات من السنين ، وذكر من ذلك كتاب «فضائل القدس» للإمام ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ ، وكتاب «الأنس

(١) كتاب يسألونك ٥٧٣/١

في فضائل القدس» لابن هبة الله الشافعي وهو من رجال القرن السابع الهجري ، وكتاب «منبر الغرام بفضائل القدس والشام» لابن سرور المقدسي المتوفى سنة ٧٦٥هـ وكتاب «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» لمجير الدين الحنبلي القاضي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ وكتاب «الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى» لابن عساكر المتوفى سنة ٩٤٨ هـ وكتاب «فضائل القدس» للشريف عز الدين حمزة المتوفى سنة ٨٧٤ هـ وغير ذلك من الكتب[١].

وقد خاطب الشيخ أمته بقوله : «القدس وما حولها من أرض فلسطين هي أرض من صميم وطن المؤمنين فلا يجوز لهم بحال من الأحوال أن يتهاونوا في أمرها أو يستخفوا بمكانتها ، أو يتركوها لدخيل يعتدي عليها أو يستبد بأمرها ، فدون ذلك يجب أن تزهق الأرواح ، وتفنى الأشباح» ويذكر ما رواه أبو هريرة من قول الرسول ﷺ: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق ، وعلى أبواب بيت المقدس ، وما حوله لا يضرهم خذلان من خذلهم ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة»

ويعلق على هذا بقوله «ما أعمق الإشارة التي ينطوي عليها هذا الحديث والتي تحث على صدق الجهاد ومداومة النضال من أجل هذه المقدسات»[٢].

وكان الشيخ رحمه الله صادق القرب والود لكل من يظن به خيراً من طلاب العلم وكان ذا فراسة بارعة في التعرف عليهم ، وذا قدرة فائقة في استنهاض العزائم وبعث الكوامن . وكان لبيانه الصحيح الجزل العذب ولرنة

---

(١) ينظر كتاب يسألونك ١/٥٧٤ ، ٥٧٥

(٢) ينظر كتاب توجيه الرسول ص ٢٨٤ ، ٢٨٦

لغته أثر بالغ في نفوس طلابه ، وأشهد أني ما سمعت لسانه يدور بالعامية لا في درس ولا في محاورة ولا في أوقات فراغ .

وكان يرى أننا إذا دخلنا كلية اللغة العربية فلا يجوز لنا أن تدور ألسنتنا بغير العربية الصحيحة ولا يجوز أن يسمع فيها كلام من طالب أو أستاذ إلا أن يكون صحيح الإعراب وذا رونق .

وقد صنع بيديه الكثير ممن يعرفهم الناس ، وكان لا يعنيه أن يعرف هؤلاء فضله أو ينكروه شأنه في ذلك شأن الأستاذ الذي يعرف بحق أستاذيته وأنه لابد أن يترفع على أخطاء التلاميذ وكان يهتم بأهل العلم من طلاب الدراسات العليا اهتمامًا خاصًا .. ويُعَرِّفهم بموضوعات بحوثهم فهذا أخو «الطيبي» وذلك أخو «الخليل» وهذا «جار الله» وكان يستمع إلى مناقشتهم باهتمام ويراجع ما يكتبون ويشعر كل واحد منهم أنه انتفع بما قرأ له وكان لهذا أثره الحميد في نفوس الطلاب وكان ذلك منه لكل طالب يظن أنه عنده شيء سواء كان من الدارسين في قسمه أو لم يكن ، وسواء كان ممن يشرف على بحوثهم أو لم يكن .

وكان للطلاب الوافدين عند الشيخ منزلة خاصة حيث كان يمنحهم جميعًا قربًا أكثر ، وودًا أشمل

جعل الله ذلك كله في موازينه وضاعف له أجره ، وحط عنه بكل كلمة كتبها وألحقه بالصالحين ، وألحقنا بهم غير مخذولين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان .

* * *

البلاغة الغائبة [1]

الاعتقاد بأن القرآن الكريم أعجز الجيل الذي نزل فيه، والأجيال اللاحقة، وأنه سيظل كذلك، معجزًا لأجيال الناس، حتى ينتهي التكليف بقيام الساعة، هذا الاعتقاد واحد من عقائد المسلمين، كالاعتقاد بالبعث والحساب والجنة والنار، ولم يجر فيه خلاف واحد، لأنه صريح لفظ القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (البقرة:٢٣-٢٤).

وهذا قاطع في أن الناس لن يفعلوا، أي: لن يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ..

وقد اجتهد علماؤنا في بيان الشيء الذي صار به هذا الكلام العربي مغايرًا لكلام البشر ومعجزًا لهم، مع أن ألفاظه هي ألفاظهم، وتراكيبه هي تراكيبهم، وذهبوا في ذلك مذاهب .. ليس القصد من هذا المقال أن يدل عليها، وإنما القصد أن يدل على واحد منها، كأنه غائب عن أقلام الباحثين، فلم تتناوله كما تناولت غيره، ولم تحلله كما حللت سواه، مع أنه من أدق ما قيل في هذا الباب وألطفه، وأحكمه، وأفضله، ثم هو حين يتسع يفتح بابًا من العلم النافع في دراسة اللغة والبيان والشعر، فضلاً عن الإعجاز.

---

(١) نشر في مجلة الوعي الإسلامي العدد (٢٨٧) ص (١٢).

ولعل صعوبته ودقة تحليله كانت من أهم أسباب غيبته ، وعدم تداوله واشتهاره .

ويقتضي البيان الواضح لما يراد بيانه أن نقول : إن المدقق في كلام علماء القرن الرابع ، وهم الذين وسَّعوا الكلام في الإعجاز ، وصار مَنْ بعدهم عيالاً عليهم ؛ أقول : إن المدقق في كلامهم حول الإعجاز البلاغي للقرآن يجد كلامهم بدأ متجها وِجهتين في بحث هذه البلاغة المعجزة :

- وجهة تبحث عناصر البلاغة المشتركة بين القرآن وكلام الناس من شعر وخطب ووصايا وغير ذلك ، ثم تبيّن أن هذه العناصر في القرآن بلغت من الدقة والسمو والغزارة والإصابة ، مبلغًا يفوت الكلام كله ويقطع الأطماع ، ويقهر القوى ، ويقضي بالعجز الشامل المطبق الذي تستوي فيه الأقدام .

فإذا كانت بلاغة الشعر والأدب تدور حول التشبيهات ، والمجازات ، والأمثال والكنايات ، وفنون النظم ، فإن هذه الفنون نفسها هي التي بنى عليها القرآن ، لأنها أصول بلاغة اللسان ، ولكنها في القرآن شيء ، وفي الشعر والأدب شيء آخر ، فإذا جمعت ما دبجته ألسنة الشعراء من فاخر التشبيه ، وراقك ذلك وَحَسُنَ عندك ، وكثر بين يديك ، ثم وضعت بإزائه واحدًا من تشبيهات القرآن ، رأيت البلاغة العالية في الأدب والشعر قد انطفأ ضياؤها ، وذهب بهاؤها ، وكان شرط بقائها ألا توضع بإزاء القرآن .. وهذا هو الشائع الذي عليه الدرس عند العلماء ، وهو جيد بالغ .

- الوجهة الثانية : تبحث وجوه البلاغة التي توجد في القرآن ، ولا توجد في كلام الناس ، هي البلاغة التي يصح أن نسميها البلاغة القرآنية ، وتكون

التسمية حقيقية لا تجوز فيها ، وهي ما أردناه بالبلاغة الغائبة ، لأنها في كلام العلماء عزيزة نادرة ، ولا تستطيع أن تجمع من تراث علمائنا في بابها صفحات قليلة صريحة تكشف وجهها ، وإنما تجدها في كلامهم كالخبيء الذي يشار إليه فيبحث عنه على حد تعبير الشيخ عبد القاهر

ويبدو أن طريقهم في استخراج البلاغة الخاصة بالقرآن ، والتي لا توجد في كلام البشر ، كان تحليل الكلام الصادر عن الإنسان ، واستخراج الأصول العامة التي تراها في كل ما يصدر عن الإنسان من قول بليغ أو غير بليغ ، وتراها لا تتخلف عن كلام الناس ، كأنها جزء من ماهيته ـ أعني حقيقته ـ وقد عالجوا الكلام لذلك علاجًا طويلاً ، فطنًا ، يقظًا ، مُتَنَبِّهًا ، حتى أصابوا هذه الأصول ، وهي ـ فيما أراه وراء كلامهم ـ يجمعها أصل عام هو : كينونة الإنسان في كل ما يصدر عنه من قول ، سواء كان شعرًا ، أم نثرًا ، أم كلامًا يتناقله مع من حوله في شؤون حياته .

الإنسان هناك وراء كل ما يدور به لسانه ، أنت واجده لا محالة إذا بحثت عنه ، ثم هو هنا بمعناه العام المطلق الذي يندرج تحت أفراده من زيد وعمرو . وإنما يتميّز أدب الأديب ، وشعر الشاعر بمقدار ما يستطيع تحديده من هذه الخصائص الإنسانية العامة ، وبمقدار ما يستطيعه من تضييق هذه الدائرة ، حتى يكون أدبه دالاً على خصائصه هو ، وأحواله هو ، وطبعه هو ، وإنما تكون منزلته بمقدار ما يصيب في هذا الباب ، فهناك مَنْ تراه غائمًا في أدبه ، تائهًا فيه تلوح لك منه شيات مبهمة ، وصفات غامضة ، هو إنسان يصدق عليه أن يكون زيدًا وعمرًا وبكرًا وخالدًا ، لأنه لم يستطع بعد أن

يحدد له سمتًا خاصًا به، ونهجًا دالاً عليه، وإنما لا يزال ينهض بغير جناحه، ويستقي من غير سحائبه.

وهناك مَنْ استقام له نهجه الخاص به، ومذهبه الذي يسلكه، لأنه كابد في ذلك، حتى صار أصلاً بنفسه، وهو الذي تراه في كل بيت يقوله، وفي كل سطر يكتبه، لأنه يحرص على أن يخاطبك بعقله هو، وبلسانه هو، فإذا قارب مذهبه مذهب غيره ـ للأسباب التي تتقارب بها المشارب والمنازع وهي كثيرة ـ رأيته عند التدقيق ومعاودة النظر يتميّز بتوقيعات نفسه، وأحوال طبعه، حتى لتسمع رنته الخاصة، وتذوق طعمه الخاص.

اقرأ شعر الأعشى وسوف ترى الأعشى بشخصه يتسكع في أوديته ..

واقرأ شعر زهير وسوف تراه في شعره متدثرًا بحكمته، واقرأ شعر النابغة وسوف تراه في شعره وعلى عاتقه هموم بني ذبيان..

كل واحد من هؤلاء له خواطره وله اهتماماته، وله لواعجه، وشؤونه وشجونه، وسبكه وتوقيعه، وضربُه، وهو كائن بشخصه في كل ذلك، وهذا ظاهر، ومن الواجب أن يكون ظاهرًا جدًا.

فإذا تركنا ذلك، وقرأنا البقرة وآل عمران أو ما شئت من المصحف، فإننا لن نجد في آيه ولا في لفظه هذا الإنسان الذي كنا نجده هناك، وأحسب أن هذا هو الذي أدركه الجيل الأول، لما كان يسمع الآية والآيتين، فيبسط يده إلى رسول الله ﷺ مبايعًا، وكان قبيل ذلك يكاد يتميز من الغيظ، وإنما حدث في هذه الدقائق القصيرة شيء اقتلع كل ما في نفسه، حتى كأنه كفأها كما يكفأ الإناء، ولابد أن يكون ذلك ثمرة إحساس فاجأ النفس

وهيمن عليها وقهرها ، وليس إلا أنه تعوَّد أن يرى ملامح الإنسان في كل ما تسمعه أذنه من كلام الناس ، فلما سمع هذا القرآن لم يجد فيه ما اعتاده ، وإنما وجد الله فاستيقن .

اقرأ أول سورة طه التي هدمت جاهلية عمر رضي الله عنه ، فسوف تجد فيها : ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ (طه:٤) ، وتجد فيها : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) ، وتجد فيها : ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ (طه:٦) .. وهذا هو الله رب العالمين .

واقرأ أبياتًا لزهير بن أبي سلمى الذي كان يحبه عمر ، ويصفه بأنه أشعر شعراء غطفان ، سوف تجد رجلاً حائرًا أمام « دِمْنَة » أمِّ أوْفَى يتأمل فيها بعد عشرين حجة ولأيًا يعرفها بعد توهم .

وأظن أنه قد بانت القضية ، وبقي أن أدلك على موضع استخراج هذا الكلام من تراث علمائنا ، وأول ما يلفتك إلى هذه البلاغة الغائبة هو أن الخطابي يكرر كلمة « البلاغة الخاصة بالقرآن » ، وإذا قلّبت كلام العلماء فلن تجد فيه صفحة صريحة تصف لك هذه البلاغة ، وإنما تجد محاولة غامضة في كلام الخطابي ، ثم تجد محاولة أوضح قليلاً في كلام الباقلاني ، وأحسب أنه أفاد من إشارات الخطابي ، ولذلك عولت عليه هنا مع أن الخطابي هو الأصل الأول والملهم بالفكرة .

لا تجد في كلام الباقلاني ولا في كلام الخطابي كلامًا صريحًا في المسألة كالذي قلته : وهو تحديد الأصول العامة لبلاغة كلام الناس ، وأن هذا هو

ما ينعكس على الكلام لا محالة من أحوال نفس قائله ، وخصائص طبعه وملامح شخصه وغير ذلك ، ثم بيان خلو القرآن من هذا .

وإنما تجد الباقلاني يدلك دلالة ظاهرة على أن ناقد الشعر لا يلتبس عليه شعر أبي نواس بشعر مسلم ، ولا شعر البحتري بشعر أبي تمام ، وما هو من هذا الباب ، لأن كل شاعر يسكن في شعره .

ثم يحدثك عن وجوه الإعجاز ، ويذكر لك منها كلامًا ، تفهم منه أن هناك مظاهر ضعف عامة في الشعر ، تجري في شعر الفحول كما تجري في شعر غيرهم ، وأن هذا بالطبع هو ضعف الإنسان ، ثم إن القرآن يخلو من هذا خلوًّا كاملاً .. وهذا يعني أنه لم يصدر عن هذه النفس التي يعتريها الفتور ضربة لازب ، وسأكتفي هنا بإشارات سريعة ، حتى لا يطول بنا الكلام .

ذكر الباقلاني أن كل شاعر من البشر له باب يبرع فيه ، فإذا ما تجاوزه إلى غيره ضعف شعره ولان ، وانحلت عقدته ، ولذلك قالوا : إن امرأ القيس أشعر الناس إذا ركب ، وأن زهيرًا أشعر الناس إذا رغب ، والنابغة أشعر الناس إذا رهب ، والأعشى أشعر الناس إذا طرب ، فجعلوا لكل واحد من هؤلاء ميدانًا يبرع فيه ، ولو أنك نزعت لسان امرئ القيس من بين فكيه ، أو يقول كما قال النابغة يعتذر للنعمان :

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني ... وتلك التي أهتم منها وأنصب

لما قال هذا ن وإنما يحسن أن يقول :

ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وهكذا ، ثم إن هؤلاء الأربعة هم شيوخ الشعراء ، وهم القدوة ، وهذا يعني أن قصور القدرات البيانية عن الإجادة في كل ميدان وصف لازم لا ينفك ، ولا نستثني منه شاعرًا من البشر

وهذه الحالة التي تحددها الإنسانية بطاقاتها المحدودة لا تجدها في المصحف ، وإنما تجد أبوابًا من المعاني المتنوعة ، ثم تجد درجة الغليان والرقي البلاغي تجري في هذه الأبواب على ضرب واحد ، فالكلام الواصف آيات الله في الكون ، والحاكي قصص الأنبياء ، والواصف أحوال الآخرة ، والوعد والوعيد ، والشرائع ، كل ذلك يجري الكلام فيه على قدم واحدة في عروق البلاغة لا يختلف ولا يتلون ..

وهذا قاطع في أن هذا الكلام ليس مخرجه الإنسان ، وليس معدنه ، وهذا جيِّد ويقتضينا درسًا متسعًا ، نضع فيه اليد على مواطن القوة في شعر كل شاعر .. ومواطن الضعف أيضًا ، وندرس ذلك ونبينه بيان من يحدد الشيء ويصفه .

وذكر الباقلاني أيضًا من وجوه الإعجاز أن تفوق الشاعر والأديب إنما يكون بمقدار ما يرد في كلامه من الفِقَر العالية والكلمات التي هي كعروق الذهب على حد وصف البحتري ، فقد تقرأ القصيدة ولا تخرج منها إلا بالقليل الذي تراه ، كقول أبي نواس : « وحَطَطْتُ عن ظهر الصبا رحلي » ، وقول زهير « ولا محالة أن يشتاق من عشقا » ، وقوله : « وهل ينبت الخطي إلا وشيجه » ، وقوله : « وكل فحل له نجل » ، وقوله : « وحيثما يك أمر صالح فكن » .. إلى آخر ما يشبه هذا .

ثم إن تكاثر هذه الغرر أو قلتها وتناثرها هو الذي نحدد في ضوئه طبقة الشاعر ، وليس هناك شعر بني كله من هذه الكلمات المختارة النادرة ، وذلك لأن هذا يناقض فطرة الإنسان التي يعتريها الفتور والاختلال ، تراه يتفوق ويحلق ويسمو إلى عوالي الذرى ، ويقتنص كلماته من هناك ، ثم ما يلبث أن تهوي به أجنحته إلى الأودية ، فتنال منها كلامًا آخر ، وهكذا ..

القرآن كله بني من هذه الكلمات التي ليست من عوالي الذرى فحسب وإنما هي مما هو فوق الفوق ، يروعنا قول زهير : « وهل ينبت الخطي إلا وشيجه» ، فإذا ما قرأنا قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران:٣٤) ؛ انطفأ إشعاع كلام زهير ، ويروعنا قول ذي الرمة : « وساق الثريا في ملاءته الفجر » ، فإذا قرأنا قوله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير:١٨) ؛ رأينا ملاءة فجر ذي الرمة خرقة بالية ، وهكذا ..

ثم إن غرر الشعراء التي تصير رمادًا بإزاء ما في المصحف قليلة كما قلنا ، وهي التي تحسب للشاعر ، وتوضع في ميزانه وتعدله ، والقرآن كله مبني من هذا الذي فوق المختار ، ويمضي على نسق واحد . اقرأ ما شئت وسوف تجد كل جملة في المصحف صالحة لأن تكون وحدها قلادة الجيد وقاعدة التجويد كما يقول علماؤنا . تأمل : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (القمر:١-٣).

ترى كل واحد من هذه الجمل شيئًا برأسه ، خذها من آخرها وقل : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (القمر:٣) ، ستجد كلمة تامة ورائعة ونبيلة ثم قل : ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (القمر:٣) وهكذا .

والباقلاني حين اعتبر هذا وجهًا من وجوه الإعجاز إنما كان يعني استحالة صدور كلام لا يعتريه اختلال من نفس يعتريها اختلال ، وتتوارد عليها الأحوال ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

* * *

حتى لا ينقطع ميراث النبوة [1]

لم تكن حياة العرب العقلية قبل الإسلام تدور حول مذاهب وقضايا فكرية يتدارسونها ، وينبغ فيها أذكياؤهم ، ويصنفون في أطرها ، فهذا فيلسوف ، وهذا مؤرخ ، وهذا ناقد كما كان عليه الحال في الأمم الأخرى ، مثل الفرس والبابليين والمصريين واليونان ، فليس من العرب مثلاً من يؤمن بعقيدة الخلاص ، وظهور الرسول المخلِّص في الزمن المقبل الذي يُلقي بردًا على اللهب ، ويتكفَّل برعاية جميع الناس ، ويقضي يومه وهو يلم شمل قطعانه ، كما كان يؤمن قدماء المصريين، وليس من العرب من يؤمن بعودة مردخ إلى الأرض ، ليقمع الفتنة ويطهرها من الفساد ، أو يؤمن بظهور رسول من إله النور ، كما كان يؤمن الفرس .

لم يؤمن الجاهليون بشيء من هذا ، لأنهم كانوا لا يطيقون ترحيل حل مشاكلهم حتى يظهر الرسل المرتَقَبون ، فقد كانوا يقومون هم أنفسهم بذلك ، فإذا كان المصريون ينتظرون من الرسول المرتقب أن يلقي البرد على اللهب ، وأن يلم شمل قطعانه ، فقد كان الجاهلي قادرًا على أن يلقي البرد على اللهب بنفسه إذا أراد ذلك ، أو يضرم اللهب ويملأ به الأرض إن أراد بذلك .

ثم إن المذاهب الفكرية والفلسفية والحضارات العقلية إنما نبعت في تاريخ الأمم من هذه المنابع الاعتقادية ، ولذلك اتسعت دائرة الفكر الفلسفي

(١) مجلة الوعي الإسلامي جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ العدد ٢٨١ ص ٣٦

في هذه الأمم ، كما اتسعت دائرة الأوهام والأساطير والرموز والآداب ، وتنوعت ، وانحصر كل ذلك في حياة الجاهليين ، وبقي الشعر وحده ، ثم لم يدونوه في كتاب ، وإنما حوته صدورهم ، وهذا أمر قدره الله ، وهيأ له علله وأسبابه ، لأنهم ظلوا صفحة بيضاء ، حتى نزلت فيهم كلمة الله ، ودخلوا في دينه أفواجًا ، وبدأت العلوم الإسلامية تتسلسل من النبع الطهور الذي تلقى الوحي ، وبيّن للناس ما أنزل إليهم ﷺ .

وأخذ هؤلاء يتلقفون ما يسمعون ، وتزكو نفوسهم بما تسمع ، وتفجرت ينابيع العلم في هذه الصدور ، واتسعت دائرة النور ، وزحفت جيوش الفاتحين وسحقت أوهام الخلاص ، ومخاريق سدنة الهياكل وأصحاب الأسرار ، ودخل هذا الدين ما دخل عليه الليل ، وقامت حلقات العلم في أرجاء بلاد الإسلام ، واتقدت جذوة العقل الإنساني ، وتسامى البناء الفكري والحضاري الذي تأسس على كلام الله وكلام نبيه محمد ﷺ ، وترامت أضواؤه في آفاق الأرض ؛ فخلّصت العقل الإنساني من ظلمات الجهل والوهم ، والوهن .

كما لابست التراث العقلي للأمم التي كانت لها حضارات غابرة تراكمت في أحقاب تلو أحقاب ، وداخَلها ما داخَلها من خطل وزيف ؛ فخلّصت كل ذلك ، واستخلصته من هلاك محقق حين أطبق الجهل والقهر على أبناء هذه الأمم ، وعجزوا عجزًا مطلقًا عن المحافظة عليه ، وقدمت هذا العطاء السخي للعقل الإنساني ؛ فاقتبِس منه ما اقتُبس ، مما أضاء السبيل إلى الحضارة المعاصرة ، وكان طلاب العلم من المسيحيين يحضرون حلقات الشيوخ في الأندلس ويأخذون عنهم العلوم التي حفّزت عقولهم ، والتي نقلوها إلى

الممالك الأوروبية ، وهم بمثابة الآباء الأولين لرواد النهضة ، لأنهم صاروا جزءًا من تراث هذه الأمم ، وجذورًا في شجرة المعرفة تمدها بالعطاء والازدهار . ولكن أين العناصر التي يمكن أن تشكل ميراث النبوة في هذا التراث الفكري المتسع ؟

لا شك أن إرث رسول الله ﷺ فينا هو بيان الحلال والحرام ، وهذا البيان يتطلب ضروبًا من المعرفة لا يتم إلا بها ، وهي : دراسة اللغة ، والنحو ، والتصريف ، والأصول ، والفقه ، والتفسير ، والحديث ، والعقائد ، والرواية ، والمعاني ، ومصطلح الحديث ، والشعر ، وعلم الرجال ، وفروع دراسة اللسان من لهجات ، وغريب ، وعلوم القراءات ، إلى آخر هذه البنية المتماسكة ، والتي تعين على الاستنباط والقياس والاجتهاد .

ومن ظن أنه يقرأ الكتاب والسنة وهو بمعزل عن هذه العلوم ، ثم يستخرج الحلال والحرام ؛ فقد ظن وهمًا لا ريب فيه ، ولم يدع هذا أحد من كتّابنا ، إلا بعض كتّاب القصص والمسلسلات ، وهؤلاء لا يلتفت إليهم عند أهل الرأي ؛ ثم إن عامة المسلمين يسقطون كلامهم حين يزعمون أنهم قادرون على الاجتهاد في باب الفقه ، ولا يأخذون عنهم شيئًا .

وكثير من كتابنا المنافحين في صحفنا عن شريعة الله ، والذين لم يدرسوا أصول المعرفة الفقهية دراسة تؤهلهم للرأي والفتيا ، إذا جاؤوا عند الحلال والحرام توقفوا وأحالوا القضية إلى العلماء ، ونحن بالطبع لا نعني تحصيل الأحكام الفقهية من كتب الفقه ، لأن هذا يقرؤه الطّلاب المبتدئون ويقعون عليه ، وإنما نعني فقه الكتاب والسنة ، واستخراج أحكام الحلال والحرام فيما يواجه المسلمين من أقضية وأحوال ، وتحديد شرع الله منها ، وهذا هو

جوهر الإرث الشريف ، لأن رسول الله ﷺ ترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل ، وهو كتاب الله وسنته ﷺ ، وليس المراد بالضلال أن نجهل أحكام العبادات مثلاً ، وإن كان الرجل يدخل الجنة لأنه كان يحسن الوضوء ، وإنما المراد ضبط الحياة الإسلامية على صراط الله المستقيم .

وهذه العلوم التي هي جوهر حضارتنا وإرث نبينا ﷺ ، والعين التي نرى بها صراط ربنا المستقيم ، قد أُبعدت إبعادًا كاملاً في نظام التعليم المدني الذي قام في أقطار المسلمين ، وله برامج إن لم تكن واحدة فهي متقاربة جدًّا، وقد قامت هذه البرامج على طرح هذه العلوم كلها ، إلا قشورًا لا تصل أبناءنا بهذه المنابع وصلا حيًّا ، يشكل عقولهم ويوجه فكرهم .

هذه العلوم غريبة في مدارسنا وكلياتنا ومعاهدنا ، ونسميها علوم المشايخ، لأنه لم ينظر فيها إلا هم ، أما بقية المثقفين والمفكرين والكتّاب فليس لهم بها صلة إلا أن تكون صلة واهية جدًّا ، وهذا أمر تفردنا به من بين الأمم ، فليس هناك أمة تقوم برامج التعليم فيها على مجافاة إرثها الحضاري والفكري ، إلا أن تكون أمة مقهورة في سلطانها ، مغلوبة على أمرها ، أو مغبونة في رأيها ، هذا مع أن الأمر عندنا له مزيد اهتمام ، لأن هذا الإرث هو فقه الإسلام ، وهو الماضي كله ، والحاضر كله ، والمستقبل كله ، ومع هذا كله زحزحت هذه العلوم عن مواقعها الطبيعية في مناهج التعليم التي هي منابع صياغة عقول أبنائنا ، وانحصرت في حلقات المشايخ في الأزهر والمعاهد الدينية التي أنشئت في الأقطار الإسلامية لدراستها ، وكان يجب أن تظل حية فاعلة في عقول كل المثقفين من أبناء المسلمين الذين تتحرك بهم الحياة الفكرية في المجتمع الإسلامي ، ويوجهون حياته العقلية ، ومن هنا كان التوجيه الفكري والثقافي في بلاد الإسلام توجيهًا لا يتجه إلى الكتاب

والسنة كجهة تتأرجح حولها «بوصلة» العقل الإسلامي، أو كعبة يولي الفكر وجهه نحوها مهما تنوعت اهتماماته، واختلفت محاريبه، كما هو الحال في تاريخنا كله، قبل أن توضع أقدامنا على غير طريقنا، في هذا العصر الحديث، وكما هو الحال في الأمم ذات التاريخ والإرث الحضاري.

بدأ التعليم النظامي الذي يستقطب أكثر أبنائنا، والذي صار «إلزاميًّا» في أكثر أقطار المسلمين موليًا وجهه نحو مناهج الغرب، وموليًا ظهره نحو الحضارة الإسلامية والفقه الإسلامي بمعناه المتسع الذي كانت فراقده قد غابت في غبار أحقاب التخلف التي مرت بالأمة منذ زمن بعيد، وكان المقصود بإنشاء التعليم النظامي إخراج هذه الأقطار من بؤرة التخلّف، وكان أخصر طريق أمام من أقاموه أن يقتبس من الأمم الناهضة، وقد حدث التباس شديد في معرفة الطريق الصحيح، ولولا ذلك لكان من الممكن أن يكون هناك تخطيط لنظام التعليم وبرامجه، ينقل الأمة من بؤرة التخلف إلى عصر النور، وهي في إطار حضارتها ومعارفها وإرثها الشريف، ولو حدث ذلك لكان أكثر عطاء وأجدى في صقل الشخصية المتميزة القادرة على البناء الفكري والحضاري المتميّز، ولكن هذا هو الذي كان وعليه مضى الحال، ولا يزال يمضي.

وانحصرت العلوم العربية والإسلامية وإرث النبي ﷺ ـ كما قلنا ـ في الأزهر والمعاهد المناظرة في الأقطار الإسلامية، ونشطت آنذاك وواكبت النهضة، بل إن هذا العلم الشريف الموروث بعناصره القوية الفاعلة في بناء الإنسان؛ هو الذي أمدّ الأمة في مصر وفي غير مصر بالكتّاب والمفكرين الذين كان لهم أثر ظاهر في كسر شراسة الصليبية الثقافية التي هاجمت أقطار الإسلام بضراوة وحقد، يُضْمِرُ في أحشائه روح الانتقام من هذه

الحضارة التي قرع فرسانها أبواب بلادهم يومًا ما ، وبقيت هذه المعاقل القائمة على إرث النبي ﷺ بمثابة الأوتاد في ديار الإسلام ، وكان هذا النشاط المزدهر بمثابة العوض عن هذه الجموع الهائلة من أبنائنا الذين ابتلعهم التعليم العام ، وغيبهم عن إرثنا الحضاري ، إلا معلومات سطحية عن هذا الإرث ، لا تغني شيئًا في باب فقهه ومعالجته ، وكان أهل الرأي منا ينكرون ذلك .

ثم رأينا أنفسنا ـ وهذا هو العجب ـ في موقف نجسد فيه هذا الأمس الذي مالت فيه كفة الميزان ، لأنها الآن قلبت رأسًا على عقب .

أما الأزهر الذي هو شيخ الجامعات ، فرغم توجه الجامعات الإسلامية إليه وما نقرؤه من كلمات رؤساء الوفود التي يذكرون فيها الأزهر وعلمه وجلاله وتاريخه ، وهم صادقون ، لأن هذه الكلمات تجري في خواطرهم وهم في أروقة المسؤولين في الأزهر ، وجلال التاريخ الحافل لا تزال بقاياه .

إلا أن الذي أكتبه لك أكتبه وبين يدي هول الواقع ، لأني أدرِّس في كلية تسمى الكلية الأم ، وقد عشت فيها عمري كله متعلمًا ومعلمًا ، ورأيت فيها نضارة العقول الحية ، وكيف كنت أحسب حسابي بدقة قبل أن أتكلم بينهم في مسألة ، وكيف كنت أعد دروسي قبل لقاء طلابي ، ثم الآن أستمع إلى الطّلاب فأرتاع حين أذكر أن هذه العقليات هي التي نُعِدُّها لتحمل إرث النبي ﷺ ، وكيف يكون حال هذا الإرث الشريف حين نضعه في أيدي هؤلاء ليبلِّغوه عن رسول الله ﷺ ، وهذا هو الهمّ الذي لا يطاق احتماله ، من واجبي أن أضع أمام الرأي العام الإسلامي حقائق ما أجد ـ وإن كان قلبي يقطر حسرة ولوعة ـ ولو كتمت ذلك لكنت من المشاركين بالصمت في ضياع إرث النبي ﷺ ، وإذا فعلنا ذلك فكيف نلقاه ونرجو شفاعته ؟

ويجب أن نتذكر أن طّلاب المعاهد الدينية التي أقيمت في الأقطار الإسلامية لتؤدي في هذه الأقطار ما يؤديه الأزهر في مصر قد أصابها ما أصاب الأزهر ، وهؤلاء يفدون إلينا في الأزهر لإتمام الدراسة الجامعية أو ما هو فوقها ، ويظهر لنا التدهور المفزع في مستواهم ، لأننا كنا ندرِّس لنظرائهم قبل ضرب واجتياح التعليم الديني في العالم الإسلامي .

ونحن نطالب بالنهوض بمستوى طلاب هذه الجامعات والمعاهد . ونشير إلى أن هناك سبيلاً آخر أمام الجماهير المسلمة التي تحرص على إرث نبيها ﷺ ، وهذا السبيل هو إقامة معاهد دينية خاصة على غرار المدارس الخاصة ، ويدفع الطلاب فيها مصاريف كما يدفعون في المدارس الخاصة ، وسوف يكون الإقبال عليها موفوراً ، ويجب أن توضع مناهجها بطريقة مدروسة دراسة ذات بصيرة واعية ، لأن هذا تخطيط لإحياء حضارة وفكر ، وقيام نهضة حقيقية تقوم على علومنا ومعارفنا وبعقولنا ، كما قامت النهضات في كل أمة ناهضة ، ثم هو غرض نبيل تتوافى على المشاركة فيه الهمم النبيلة ، وبلادنا مليئة بالمدارس الأجنبية التي يداخلها ريب لا ريب فيه ، فلا أقل من أن تقوم مدارسنا التي هي جديرة بأن تنتمي إلينا ، تهيىء أبناءنا إلى الاستمداد من معارفنا وثقافتنا ، ويبقى فينا رجال يعرفون الحلال والحرام ، ويتوارثون العلم الذي يحمله من كل خلف عدوله ، كما قال المصطفى ﷺ ، وتبقى تلك الطائفة التي تنذر قومها كما قال الحق جل جلاله : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٢) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [1]

(العنكبوت: ٥١)

ليس في تراث المسلمين كلمة واحدة تدل على أن هناك خلافًا في إعجاز القرآن ، ولا يتصور أن يكون ذلك ، لأن إعجاز القرآن حقيقة من حقائق الإسلام ، ومعنى إعجازه أنه خارق للعادة في كل زمان ومكان ، فوق قوى البشر كافة ، وإن غزت عقولهم آفاق الفضاء وركبوا بها متون الكواكب ، لا تناله قدراتهم ، ولا تستشرف إليه أوهامهم وإن اجتازت السبع الطباق ، لأنه قاطع للأطماع ، قاهر للقوى ، تستوي الأقدام كلها في العجز عنه ، وإن حاله في إعجاز الكافة كحال إحياء الموتى ، والنفخ في الطين الذي هو كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله ، كل هذه أمور إلهية يجريها الله على من يشاء من عباده فتكون دليل نبوته ، وأنه مبلغ عن ربه ، وبهذا تقوم حجة الله على عباده : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء: ١٥).

أقول إن كون القرآن معجزًا كخلق الإنسان وتسيير السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وتصريف الرياح أمر لم يختلف فيه المسلمون لأنه قد جاء به القرآن ، وأخبر الذي أنزله جل جلاله أنه ليس في طوق البشر أن يأتوا بمثله وجعل ذلك سبيلاً إلى الإيمان وقبول التكليف ، قال سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي رمضان ١٤٠٧هـ .

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ (البقرة:٢٣-٢٤).

ويلاحظ أن الآية الكريمة رفيقة جدًا بمن تخاطب ، تجاريه ، وتضع قدمه على طريق البرهان برفق وثقة وأناة ، وتقوده نحو المقدمات ثم تضع يده على النتائج التي تفضي إليها المقدمات في طريق واضح مقنع فإذا ما انتهى إلى هذه النقطة ورفض الإذعان صاح به صوت الوعيد مفزعًا راعبًا .

تأمل : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة:٢٣) والضمير للناس المذكورين في الآية السابقة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ (البقرة:٢١) وليس خطابًا خاصًا لفئة دون فئة وإنما هو خطاب عام لكل مكلف عاقل من ذكر أو أنثى من يوم أن نزلت الآية إلى أن يبطل التكليف بالنفخة الأولى «يوم ينفخ في الصور» .

والآية السابقة تذكر دليل الوحدانية : ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٢) .

وهذه الآية دليل نبوة محمد ﷺ ، يعني شهادة الإسلام بشقيها (لا إله إلا الله) ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ (البقرة:٢٢) (محمد رسول الله) ـ ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة:٢٣) .

ومعنى الشرط في قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ (البقرة:٢٣) أن هذا الريب مما لا ينبغي أن يكون إلا على سبيل الفرض والتقدير ؛ لأن الأدلة متوفرة على نفيه ولو تأملتم الموقف بصدق وحيدة ، وموضوعية

لذهب هذا الريب من أصله ، وإذا كان الشك هو طريق اليقين ، فلا معنى له إذا كانت الأدلة باهرة ، والبراهين ساطعة والذي أنزلناه على عبدنا متضمن برهان صدقه ويكفي سماعه لإدراك هذا البرهان القوي : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٦) ، وكان رسول الله ﷺ يرسل رسله إلى الأقوام يدعون الناس إلى صراط الله المستقيم وهم في هذه الدعوة لا يزيدون عن أن يسمعوهم القرآن ، وليس هناك كلام في الدعوة إلى الله أبلغ من كلام الله .

ثم إن الآية الكريمة رتبت على هذه الحالة المفترضة أو التي ينبغي ألا تكون إلا على سبيل الفرض وهي كونهم في ريب عملية لاقتلاع هذا الريب من أصله ، وهذه الطريقة هي أن يروزوا قواهم ويمارسوا معارضة القرآن بطريقة عملية وذلك بمحاولتهم أن يأتوا بسورة من مثله ، وهم أهل البيان الذي فجروا ينابيعه فاستقى منها الناس ، ثم إن معارضة قول بقول هي بضاعتهم التي لم يحكموا مثلها ، وهم في غنى عن أن تطلب منهم المعارضة ؛ لأن نفوسهم تدعوهم إليها فكيف إذا أحماهم القرآن وضرب كبرياءهم وطلب منهم سورة واحدة ، وهذا تحد فيه استعلاء وثقة والأمر فيه للتعجيز ثم إنه لم يطلب معارضة سورة من الطوال ، وإنما أطلق السورة ، وهم مختارون يأتون بمثل البقرة وآل عمران أو بمثل : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١) ، و﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ (الكوثر:١) ـ وفي هذا سر جليل هو في تقديري معجز ذلك أن المعجز قليله مثل كثيره فالعجز عن خلق أصغر طائر يطير بجناحيه هو نفسه العجز عن خلق السماوات والأرض وما بينهما ، كذلك العجز عن : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ (الكوثر:١) هو

نفسه العجز عن البقرة وآل عمران ، وهذا هو الذي أفهمه من إطلاق السورة والمساواة بين السور الطوال والقصار.. وتأمل التحدي الواثق في قوله سبحانه: ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣) ولم يقل فأتوا بسورة منه ولا بسورة مثل سورة ؛ وإنما قال : ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ ولهذا عند أهل العلم دلالة عالية ، لأن التَّحدِّي ليس به وإنما بما يشبهه إذا كان هناك أشباه له وأمثال .

وهذا استعلاء ليس فوقه استعلاء ثم قال كلمة أخرى تحمي الأنوف حَمِيًّا بعد حمي وهي قوله سبحانه : ﴿ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٢٣) وفيها قدر واضح من السخرية ؛ لأن التحدي بأقصر سورة ليس لهم وحدهم وإنما معهم القوى التي جعلوها فوقهم لما عبدوها وهي الآلهة : ﴿ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٢٣) وقد كان هذا يتكرر في آيات التحدي ، قال تعالى في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (هود:١٣) .

وقال سبحانه في سورة يونس : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (يونس:٣٨) .

وقد كان التحدي يلفتهم إلى ضعفهم وعجزهم بطريقة ذات نظام وترتيب يتنزل من الأكثر إلى الأقل ، فطلب منهم أن يأتوا بمثله ، ثم طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، ثم طلب منهم أن يأتوا بسورة ، وكان هذا أقل قدر طولبوا به ، ولذلك قال العلماء لا يجوز التحدي بأقل من سورة ، لأنه هو الذي يظهر فيه الإعجاز .. أما الجملة فلا يجوز التحدي بها لأنها لا يظهر فيها الإعجاز فقد تلتبس عند من لا خبرة له بالجمل المتقنة التي تأتي أحيانًا في كلام أهل الطبع من مثل قول علي كرم الله وجهه : « قيمة كل امرئ

ما يتقنه» هكذا قال الرُّماني في كتابه[1]. والرُّماني يعلم أن طبع الجملة القرآنية طبع يختلف ولكنه يقول إنها قد تلتبس على من لا علم عنده، ومواقف إثبات الحجة لا يصلح فيها الأمر الذي يلتبس وإنما تحتاج إلى ما يظهر ظهورًا يقطع الأطماع ويسكت لجاجة الخصم، ولعله لاحظ أن آيات التحدي جاءت في سياق إسكات اللجاجة والشغب والتلبيس ولهذا تراها مسبوقة بمثل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ (يونس:٣٨)، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ (البقرة:٢٣)، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ (الإسراء:٨٥) إلى آخره، الجملة القرآنية معجزة بلا ريب لأن الإعجاز قليله ككثيره ولكن الإعجاز لا يظهر فيها ظهوره في السورة أو ما في قدر السورة.

وقد قضت آية البقرة على القوم بالعجز قبل أن يحاولوا بل وقضت بأنهم لن يحاولوا وهذه الأخيرة غريبة جدًّا وكانت منفذا لإبطال الحجة لو كان ذلك في وسعهم، والقرآن الكريم قال: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ (البقرة:٢٤) ولو أنهم حاولوا وفعلوا لكان هذا تكذيبًا لخبر القرآن، وكان أعظم سلاح في أيديهم لصرف الناس عن القرآن.

وقد كان للجاهليين فضيلة تذكر هنا هي أنهم لم يكذبوا في شأن البيان. ولم يغالطوا فيه، وهذا هو الذي عصمهم من اللجاجة في هذه المسألة ولم يرو لنا التاريخ الصحيح أن واحدًا منهم أو نفرًا منهم حاولوا المعارضة، أما ما ينسب إلى مسيلمة الكذاب فقد كان رجال بني حنيفة يقولون له: والله إنا لنعلم أنك كاذب، وإنك لتعلم أنك كاذب، ولكن كاذب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر.

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ص ٧٢

ثم علينا أن نذكر أن الجزيرة سرعان ما أشرقت بنور ربها وصار هؤلاء الجاهليون صحابة رسول الله ﷺ وحملة الدين وحماة السرح ، حتى إن بعض من ادعى النبوة دخل في دين الله وكان له فيه سبق وبلاء .

والذي أريد أن أؤكده هنا أن قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ (البقرة:٢٤) هو الحجة القائمة على أجيال البشرية جيلاً بعد جيل « ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد» كما يقول الإمام أبو بكر بن الطيب(١). وقد ظهرت في أيامنا هذه تيارات تجاهر بطرح التدين وتفاخر بالمروق ، وكثرتهم في دور العلم حيث اللقاء بشبابنا الغض القليل الخبرة ، وهؤلاء المجاهرون يوهمون أن التدين نمط ثقافي تقليدي يدخل في حوزته الضعاف ومن قل حظه من الثقافة والمعاصرة ، ويلبسون في هذا الباب باطلاً كثيراً وهم امتداد لتيارات لم تنقطع في تاريخ المسلمين .

وقد جعل القرآن الكريم آيات التحدي من أمثال قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (البقرة:٢٣) علمًا منصوبًا غالبًا قاهرًا يخفق في سماوات الدنيا أمارة على نبوة محمد ﷺ ولم تستطع تلبيسات الملحدين أن تنزله لحظة واحدة ـ وحاشا أن يحدث ذلك ـ نعم استطاعوا بالتهريج والغش والتدليس واستغلال غفلة أهل الحق أن يصرفوا بعض أبنائنا عن هذا البرهان الساطع ، أو يضعوا على عيونهم عصابة حتى لا يرونه .

ومن هذه العصائب التي توضع على العيون ما أفرزته وثبة العلم من مقولات مثل : القول بأن العلم كشف أسرار المعجزات أو صنع المعجزات

(١) إعجاز القرآن ص٨ .

أو انتهى عصر المعجزات ... وأهل الفهم يفهمون من هذا أن ما كان يعجز عنه الإنسان في الزمن القديم صار لا يعجز عنه اليوم بمعونة العلم ، فالعلم سخر الأشياء للإنسان ونفعه بها ، ولكن الكلمة انسحبت على المعجزات التي هي دلائل النبوات ، وقد وثب هذا المعنى إلى أقلام يهتم الناس بما تخطه هذه الأقلام ، وقد قرأت للأستاذ توفيق الحكيم في كتاباته الأخيرة التي يبغي بها مرضاة ربه ـ ونسأل الله أن يتقبل منا ومنه صالح الأعمال ـ كلامًا غريبًا جدًا قال فيه : « إن عصر المعجزات قد ولى ولو كان الله سبحانه مرسلا أنبياء في هذا الزمن لأيدهم بشيء غير المعجزات ؛ لأن العلم قد أنهى عصر المعجزات » ، وهذه غفلة من الشيخ الحكيم ـ رفع الله عنا وعنه حرج الغفلات ـ لأن المعجزات التي أيد الله بها الأنبياء شيء فوق العلم ؛ لأنه لا يدخل في نطاق قدرة الإنسان والعلم داخل تحت قدرة الإنسان وفي اليوم الذي يحيي فيه العلم الموتى أو يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا يكون قد أنهى المعجزات وأسقطها .

أما ركوب الكواكب فذلك تحقيق لمعنى التسخير وتوظيف له ، قال تعالى في سورة النحل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل:١٢) .

وحين يصل العلم إلى ما هو فوق ذلك ، وحين يسكن الإنسان في هذه الكواكب ويقيم مصانعه على أنف المريخ والمشترى وعطارد لا يكون مارقًا عن الدين ، وإنما يكون من وجهة نظر القرآن قد حقق شيئًا من معنى تسخير الله سبحانه هذه الكائنات للإنسان ، نعم ارتاعت الكنيسة من وثبة

العلم ولكنها لم تستطع أن توقف هذه الوثبة برغم أنها أحرقت العلماء وهاجمت العلم فرمته بالإلحاد ورماها بالجمود ، أما الذي في الإسلام فشيء غير هذا .

والقرآن العظيم الذي قضى على العقل البشري بالعجز المطبق عن أن يأتي بسورة من مثله مهما تفلسف وتنطس هو نفسه الذي يغري هذا العقل بالتدبر والتفكر والتعقل الدقيق لكل ما في الكون من أسرار تنطوي فيها الحكمة التي هي آيات الله في الآفاق ، وقد سَخِرَ القرآن كثيراً من الذين لا تتغلغل عقولهم في صميم الأشياء حتى تستخرج سننها المبهرة ونظامها العجيب .

وفي سورة فاطر آية كريمة تجعل خشية الله الخشية الحقة مقصورة على العلماء ، وسياق الآية يدل على أنهم ليسوا فقط علماء الفقه والحديث وإنما علماء النبات والجيولوجيا والبيطرة والأجناس .

اقرأ الآية الكريمة : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر:٢٧-٢٨) .

تأمل كيف بدأ بالدعوة إلى التغلغل في شرائح الكون لاكتساب العلم الدقيق بحقائق الأشياء ، ثم ذكر اختلاف الثمرات واختلاف الجبال واختلاف الدواب والأنعام وهكذا ، ومعرفة أسرار الاختلاف من أدق فروع المعروفة في هذه العلوم .

وكيف رفع الله سبحانه قدر هؤلاء العلماء الذين قدحوا بعقولهم خفايا أسرار النبات وطبقات الأرض والجبال والحيوان والإنسان واستخرجوا منها علمًا باهرًا يُزَكِّي فيها روح الإيمان وتتوهج جذوة اليقين ، وإنما يكون ذلك حين يبلغون في هذه العلوم مرتبة الأستاذية ولا أعني بالأستاذية ما تمنحه جامعاتنا من ألقاب وإنما أعني الفقه البصير الذي ترى به العالم يعيش في بابه حتى يكون ذا رأيٍ فيه ، إذا تكلم هذا في علم النبات أصغى أهلُ هذا الباب إلى مقالته ، وإذا تكلم هذا في علم طبقات الأرض كان ذا كلام يُعْتَبر عند أصحاب هذا الشأن ، وهكذا لأن هذه الدرجة هي التي تهدي إلى لطائف الحكمة المودعة في الأشياء وليس التحصيل فقط .

الأمر المعجز الذي أيد الله به نبيه محمدًا ﷺ لا يتوجس من العلم ولا يهابه بل إنه يؤانس العلم ويحثه ويدفعه حتى يصل إلى أقصى آفاقه ؛ لأنه كلما اتسعت دائرة العلم وتعمقت نظرته كان ذلك مدعاة لمعرفته مجالاته وما هو في إمكانه وما ليس في إمكانه ، فإذا بلغ ذروة ذراه أحنى هامته إلى المعجزات لأنه يعلم أنها مما لا يدخل في بابه .

العقل البشري هو سيد العلم ومالك زمامه يصرفه ويدبره ، لأنه وليده وعطاؤه ، والمعجزات فوق طاقة هذا العقل وفوق إمكاناته .

بقي شيء واحد يغيب عن كثير من الناس ، وهو ضرورة معرفة الفرق بين الإعجاز ووجه الإعجاز .

أما الإعجاز فهذا ثابت بالكتاب ولا كلام فيه .

وأما وجه الإعجاز وهو معرفة السر الذي كان به القرآن معجزًا ، أعني : الشيء الذي أودعه الله سبحانه في هذه الكلمات العربية فصارت به معجزة ، كإحياء الموتى وقلب العصا حية ، فليس في كلام الله ولا في كلام

رسول الله ﷺ كلمة واحدة تدل عليه ، وكذلك ليس في كلام صحابة رسول الله ﷺ ولا في كلام التابعين الذين سمعوا منهم وأخذوا عنهم ، وهذا مبلغ علمي في هذا الباب ؛ لأنه لو كانت هناك كلمة واحدة قالها رسول الله ﷺ في بيان وجه الإعجاز أعني الشيء الذي صار به القرآن معجزًا لتناقلها العلماء ، ولهذا كان هذا مفتوحًا لاجتهادات المجتهدين فتعددت الآراء وتعددت وجوه الإعجاز ، فهناك من ذهب إلى أن سر إعجازه هو بلاغته ، وهناك من ذهب إلى الإخبار بالغيب ، وهناك من ذهب إلى قصص الأولين ، وهناك من يقول إنه معجز بما فيه من نظام تشريعي بالغ الدقة والإتقان حتى لم ينقض له حكم على مدى هذه القرون المتطاولة ، فلم يكتشف باحث مدقق خطأ في قضية من قضاياه ، وهكذا ولا حرج على المسلم في أن يقبل من هذه الآراء ما يقبل وأن يرفض منها ما يرفض وإنكار أي وجه من وجوه الإعجاز غير قادح في الدين .

وهذه الأمة الكريمة لم تحتف بشيء قدر حفاوتها بهذا الكتاب العظيم ولا تزال هذه الحفاوة موصولة برغم ما نحن فيه من كبوات ولا تزال المحافل العلمية تعقد في أقطار المسلمين تبحث في وجه الإعجاز ، وبدأ تراث جديد يضاف إلى تراث هذه القضية ولكنه في هذه المرة يشرق من مشكاة العلم ، وسوف يبقى هذا الكتاب مفتوحًا تقرؤه الأجيال على اختلاف طبقاتها وتفاوت درجاتها في التقدم والترقي وهو يمد الكل ولا يَخْلَق على كثرة الرد ، وصدق الله العظيم : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (فصلت:٥٣) .

* * *

الخطابي وإعجاز القرآن

كتب الخطابي رسالة صغيرة في أوراق معدودة أودع فيها منهجًا جديرًا بالنظر ، بل وجديرًا بأن يكون بين أعيننا ونحن نعلِّمَ أبناءنا ونوجه طلابنا ، يقوم هذا المنهج على أساس مختصر جدًا ، ولكن له نتائج نبيلة ، ماجدة ، هذا الأساس هو التحصيل المستوعب اليقظ لإرث العلماء الذين سبقوه بالنظر في القضية ، ثم تصيير هذه المادة العلمية المحصلة بمثابة الخمائر ، التي تَتَخَلَّقُ منها معرفة جديدة .

والعلماء فريقان : فريق يحصِّل مقالة العلماء ، ويحرر صحيحها ، ويخلص الضعيف الملتبس ، ويقف عند هذا الحد ، وفريق يستوعب مقالة العلماء ويلابسها ، ويعايشها ويدفئها بجناح الفكر ، ثم يقلبها ويهيجها حتى يستخرج منها شيئًا يشق عنه غيب الظلمة والغفلة ، كما تشق البذرة الكريمة الطيبة وجه الأرض الحرة لتتسامى على جبهتها شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء .

وهؤلاء هم الأئمة الأعلام الذين يتركون لأممهم ميراثًا من المعرفة تموت الأجيال والدهور وهذا الميراث في سماوات الفكر فراقد لا يخبو ضوؤها ، ثم هم نفر معدود في حياة الأمم ، ومنهم أبو سليمان الخطابي .

وقد بدأ بحثه في الإعجاز بتلخيص لمتشارد الأفكار حول القضية ، ثم صنَّف هذه الأفكار في محاور ثلاثة هي الإخبار بالغيب ، والصرفة ، والبلاغة ، هذه الثلاثة هي الوجوه التي دار حولها كلام العلماء في هذه القضية .

أما الإخبار بالغيب فهو في القرآن أمر إلهي بلا ريب ، لأنه ليس في طوق البشر أن يقولوا في شأن الروم مثلاً وقد غلبهم الفرس : ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم:٣-٥) .

فيقيد زمن الغلبة ببضع سنين ويقيد أنهم يوم ينتصرون على الفرس يفرح المؤمنون في مكة بنصر الله ، ثم لا يتم البضع إلا وقد انتصر الروم على الفرس ، وفي اليوم نفسه ينتصر المؤمنون في بدر ، ويفرحون بنصر الله ، ومثل هذا في القرآن كثير جدًا ، ويقول الخطابي : إن هذا أمر إلهي وإعجاز ظاهر ، ولكنه محصور في الآيات التي أخبرت بالغيب ، وهي معدودة في القرآن الكريم ، وتبقى الآيات الكثيرة من غير أن نعرف وجه إعجازها ، وهذا تفكير مستقيم جدًا .

ثم يناقش القول بالصرفة ،وفحواه أن الله صرف العرب عن أن يأتوا بمثله، ولو لم يصرفهم لجاؤوا بمثله ، وهذا القول يتلقاه كثير من الدارسين بالتشهير والتشنيع على قائله مع أنه من علماء الدنيا وهو أبو إسحاق النَظّام ، ولكن عقلية الخطابي العلمية المتسمة بالهدوء والدقة ، لم تشهر بهذا القول ولم تشنع به وإنما يعقب عليه بقوله «وهو وجه قريب» ؛ لأنه مقر بنبوة محمد ﷺ وأن الله أجرى على يديه صلوات الله وسلامه عليه أمرًا خارقًا هو صرف العرب ، وسلب قدراتهم عن المعارضة ، ثم يضرب هذا الرأي ضربة قاضية بنظرة دقيقة بعيدة ، وهي أن هذا الرأي يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم ؛ لأن الحق تبارك وتعالى ذكر في آية التحدي اجتماع الإنس والجن وتعاونهم على أن يأتوا بمثل القرآن ، ويستحيل عقلاً أن يكون الحق سلبهم

القوى ثم يذكر تعاونهم وتساندهم في أن يأتوا بمثله ؛ لأن الذين سُلِبوا القوى والقدر لا يوصفون بالتعاون والتساند ، وبهذا يصير هذا الرأي كأنه لم يكن لتصادمه بنص الآية الكريمة ، وهذا جيد ولم يضرب هذا الوجه أحد من الباحثين بأشد مما ضربه به الخطابي الذي كان دائمًا يفكر بهدوء شديد وينتقد بأمانة وفهم وذكاء ونفاذ ، وهذا هو جوهر الدراسة ، فليس طالب العلم هو العاكف على الحفظ والاستظهار من غير تدبر ومن غير إعمال الذهن في التمحيص والنقد ، ويجب أن تكون القدرة على النقد والاختيار مواكبة للقدرة على الفهم والاستيعاب ، ولا يقدم الشيوخ لطلابهم نصيحة أبر وأفضل من هذه النصيحة ، تحصيل المعرفة ونقد المعرفة وجهان لحقيقة واحدة هي هكذا في إرث علمائنا ، وهذا جزء من المنهج المستقيم في كل العصور وكل الأمم ، وكل الحضارات ، ولا تجد كلامًا ظالمًا كهذا القول الذي يردِّدُه كثير من كتَّابنا وهو أن المتشبثين بالتراث قوم حفظة لا غير ، بنيت عقولهم من الألفاظ والصيغ ، وهذا كلام يتردد في كل منابرنا الفكرية والثقافية ويؤكِّدُه بقايا عجايز المستغربين وعقابيلهم في كثير من جامعاتنا ، وألف باء المعرفة عند علمائنا هي التمحيص والنقد والاختيار ، وقالوا لا يكون العالم عالمًا إلا إذا أخذ وأُخِذَ عنه ، ورَدَّ ورُدَّ عليه .

وقد انتقل الخطابي بعد نقده لهذين المحورين إلى الوجه الثالث والذي قال به جمهرة العلماء وهو القول بأن القرآن معجز ببلاغته ، وهذا صواب لا ريب فيه ، ولكنَّ الخطابي نظر إلى تصوير العلماء لهذه البلاغة ووصفهم لها ورأى أنهم يرجعون بها إلى ما تدركه الطباع وليس لها عندهم تحديدات علمية واضحة ، وإنما هو إحساس النفس حين تسمع القرآن بأنه كلام فوق

كل كلام ، وهذا الإحساس نفسه هو الذي يعوِّلون عليه في معرفة الفرق بين شاعر وشاعر .

وقد رفض الخطابي هذا ورآه إحالة إلى مجهول ، ولابد من تحديد البلاغة المعجزة في القرآن تحديدًا يضع اليد على حقائقها ويجعل القضية في ضوء العقل وبعيدة عن غيوم الإحساس والطباع ، وهذا حسن جدًّا .

وعند هذه النقطة واجه الخطابي المشكلة مواجهة جديدة ومغايرة واجتهد في ذلك اجتهاد المنقطع المكابد حتى استخرج القبس المضيء في هذا الشأن وهو « البلاغة الخاصة بالقرآن »، وبذلك بدأ هذا العالم الجليل يضع القضية على أول طريقها الصحيح ، ثم استخرج من مخزون علمه ومن أعماق فكره بعض التفاصيل التي تضيء طريق النظر إلى هذه البلاغة ، وأهم ما قدمه في ذلك هو النظر في تراكيب الكلام وتحليل عناصره وتحديدها وانتهى به النظر إلى أن عناصر الكلام ثلاثة ، لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط بينهما ناظم ، ثم نظر في الشعر كله ، وفي النثر كله ، يقلب كل ذلك بلسانه وعقله وقلبه وذوقه ، فلم يجد واحدًا من أهل الشعر والنثر قد استطاع أن يجمع التناسق الكامل بين هذه العناصر الثلاثة ، وإنما تجد هذا سابقًا في اختيار ألفاظه ثم يسبقه غيره في التقاط شوارد المعاني ، وهكذا لم تتناغم هذه الثلاثة على درجة عالية وتتساوى على قدم واحدة في كلام ذي بيان ، وإنما وجد ذلك في القرآن .

لم تبلغ الألفاظ درجة الكمال المطلق حتى لا تجد لفظة لا يصلح غيرها مكانها إلا في القرآن ، ولم تبلغ المعاني درجة الكمال المطلق حتى لا تجد

معنى لا ينتفض على مر الأحقاب واختلاف الأجيال والحضارات إلا في القرآن ، وبين أيدينا معاني حكماء الجاهلين وفيها ما نستسقطه مثل قول زهير : (وَمَنْ لم يَظْلِم الناسَ يُظْلَمِ) وهكذا نقول في تراكيب الكلام فليس هناك شعر ولا نثر يخلو خلوًا تامًا من المآخذ في التراكيب والتصوير ، وإنما كان ذلك في القرآن وحده ، وقد ذكر الخطابي أن ألفاظ اللغة متسعة وأن المعاني متسعة وأن التراكيب متسعة ، فلا يقع على أصح وأصدق وأحكم هذه الثلاثة واحد من البشر ؛ لأن علمهم قاصر ، وما دامت قد جاءت على تمامها وكامل صوابها وصدقها ، فهذا دليل على أن مصدر هذا القرآن ليس هو الإنسان القاصر ، وتحليل هذا يحتاج إلى كلام متسع وإنما نكتفي بالإشارة السريعة ، وهذا هو الباب الأول في البلاغة الخاصة بالقرآن، أما الباب الثاني فقد تضمن فكرة حديثه جدًا طرقها الخطابي بمطرقة قديمة جدًا وخلاصتها أن كلام الناس في كل جملة من جمله إنما يعبر عن لحظة نفسية خاصة وهذه اللحظة النفسية الخاصة تصبغ العبارة بصبغتها ، وتقيمها من حيث السهولة والوعورة ، والسلاسة بناءً يقوم على خصائص هذه اللحظة ، فإذا كانت اللحظة تعالج ضربًا من الشعور الوعر الجافي كانت الألفاظ والتراكيب كذلك ، وإذا كانت هذه اللحظة تعالج ضربًا من الشعور الرقيق العذب السمح كانت الألفاظ والتراكيب كذلك ، ويستحيل أن تعالج النفس الإنسانية في لحظة واحدة ضربين من الشعور ؛ لأن الأحوال المتباينة تتوارد على النفس ولا تتلاقى ، ومن هنا كان كلام الناس إما رصينا جزلاً أو فصيحًا سهلاً أو طلقًا رسلاً ولا يمكن أن تجد جملة واحدة ممتزجة من هذه الأصناف الثلاثة ، لأن الرصين الجزل كما يقول الخطابي نتاج الوعورة ،

والفصيح السهل نتاج السهولة ، وقد جاء القرآن الكريم جامعًا لهذه الأصناف في تركيبة لغوية فريدة ، وهذا عند الخطابي قاطع في أنه لم يصدر عن نفس بشرية ، وعبارة الخطابي في هذا بعد ما ذكر ما قدمنا ملخصة قال : « فانتظم لها - يعني بلاغة القرآن الخاصة - بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين ؛ لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعًا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه .. »[1].

تأمل امتزاج الأوصاف في القرآن وجمع الصفات المتضادة من الفخامة والعذوبة وأن هذا المزيج لا يكون في كلام البشر لأن كل صفة تعالج نوعًا مختلفًا ، واختلاف أنواع المشاعر التي يعالجها كلام البشر إنما يكون في « وحدات » الكلام المستقلة لارتباط كل وحدة بلحظة نفسية خاصة ، ثم تأمل قوله « يسرها الله بلطيف قدرته » إلى آخر النص ، تجد هذا الذي شرحناه وأردنا الدلالة عليه من المكابدة الذهنية في استخلاص وجهة نظر جديدة في هذه القضية ، ورحم الله الخطابي وطبقته من علمائنا ، وألحقنا بهم كرامة نفسٍ وقرة عين .

* * *

(١) ص ٢٤

إليه يصعد الكلم الطيب

الكلمة ذات أثر بليغ في تشكيل العقل وصياغة الفكر وتوجيه الرأي ، لأنها كنباش يحفر في الأعماق ، فإذا كانت طيبة راشدة منتزعة من قلب الحكمة وضمير الحقيقة تألقت حروفها وهجًا وضياء ، تكشف للمرء من نفسه جوانب كان يجهلها وتُثير دفائن وطاقات كانت معطلة تائهة ، وقد تتساقط منها قطرات في ضمير فتى ناشئ فيسلك بها سبيلاً من الرشاد يصير فيه شيئًا مذكورًا .

وقد يرزق الجيل في شعب من شعوب الأرض بكُتَّاب من أهل الصدق والحكمة يعرفون كيف يستخرجون من النفوس صدقها ونبلها وسموها وتقواها ، ويكون فعلهم في شعوبهم فعل الأمر الغريب ، والسحر العجيب ، وقد يكون ذلك بداية الوجود الحي لهذه الشعوب على خريطة الأرض وقد كانوا قبل أن تشرق في تربتهم إشراقات الصدق والجد والبصيرة شراذمَ تائهة في خرائب الدنيا ، وقد يرزق جيل من أجيال الأرض في حقبة من تاريخه بكُتَّابٍ من أهل الدون والكذب والزيف والتهريج فيستخرجون من النفوس سعارها وفجورها ، ويهيجون فيها غرائزها المنحطة وقواها البهيمة ، فتمتلئ بهم أرضهم شرًا وخرابًا ، وقد يكون بداية لنهايات أمم عظيمة وشعوب عريقة تجتث بالكلمة الخبيثة لهؤلاء السفلة من فوق الأرض ما لها من قرار .

وفي الكتاب العزيز إشارات إلى كلمة غريبة وعجيبة ينبغي أن نلتفت دائمًا إليها وأن نتخذها دثارًا وشعارًا ، بل وأن نتدرع بها حتى نقي أنفسنا وأولادنا وشعوبنا وأوطاننا وأمتنا شرور ومهالك الكلمة الخبيثة وقول الزور الذي صارت تزخر به ساحة الكلمة في هذه الأمة العظيمة .

تأمل هذه الآية المضيئة التي جعلتها عنوان هذا المقال : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ (فاطر:١٠) . وانظر إلى الكلمة كيف ترتفع هذه الرفعة التي هي فوق كل رفعة ، وكيف تسمو هذا السمو الذي هو فوق كل سمو حين ترتفع إلى الله ، وتصعد في موكب من النور والجلال فيه حفاوة الحق وجلال الصدق حتى تستقر في حضرة الرحمن .

أرأيت أمة تجري في أسماعها هذه الكلمة العظيمة ثم تروج فيها كلمة الزور والزيف إلا أن يكون ذلك لاختلال في أصول البنية أدى إلى كف الكلمة ذات الشأن والرفعة ، ثم إطلاق السراح لأهل الدون الذين خُرِّبتْ بكلمتهم الخبيثة البلاد والعباد .

وتأمل المثل العظيم الذي جاء شرحًا وتحليلاً للكلمة الطيبة الصاعدة إلى الله رب العالمين ، قال سبحانه في سورة إبراهيم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(إبراهيم:٢٤-٢٥) .

انظر كيف تكون الكلمة الطيبة بذرة تودع في القلب ثم تصير شجرة طيبة ، يتحول بها المؤمن إلى روضة خضراء عامرة بالحياة والعطاء ، يؤتي أكله كل

حين بإذن ربه ، أرأيت هذا الإنسان السخي العامر بكل خير وكأن قلبه ينابيع ثرة تزخر بها الحياة العقلية والروحية فتعطي فكرًا هاديًا ، وفقهًا واعيًا ، وحضارة وثقافة هي من آيات الله آية مبصرة .

وتأمل في المقابل : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم:٢٦) .

انظر كيف صارت الكلمة الكاذبة الزائفة خبثًا من الخبث ثم هي شجرة ذات شوك وأذى وقارن هذه الشجرة بالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها . ليس هنا أُكُل وليس هنا عطاء وإنما هو خراب دل عليه بكلمة ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ (إبراهيم:٢٦) التي صارت بها الأرض يبابا، الكلمة الطيبة هناك أحالت الأرض التي جرت عليها إلى روضة غناء تزخر بالخضرة والحياة والنماء والعطاء ، والكلمة الزائفة هنا حولت ما حولها من بلاد وعباد إلى خرائب «اللهم ادفع عنا وادرأ عن بلادنا وأمتنا شؤم هذه الكلمة الزائفة الخبيثة ، واقطع الألسنة الدائرة بها ، وابعث همة أهل الهمة ليمزقوا أستار الكذبة ويأخذوا أدوارهم في مواجهة هذا الانهيار الذي لاحت نذره وكأنه سيل من ليل لا منجاة منه إلا بك ولا حول ولا قوة إلا بالله» . والغريب أن القرآن الكريم يشير بعد ذلك إشارة بارعة وكأنها لمح خاطف فيقول : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (إبراهيم:٢٧) ، والإشارة في أن القول الثابت تثبيت للحياة الدنيا!! وهذا معناه أن الكلام الذي يتحرى كتابه الحقيقة يسفر عن تأصيل ثوابت وأصول ونظم تستقر بها ضروب الحياة في أنشطتها المختلفة ويكون ما يسمى «بالاستقرار» والعمران والازدهار والعلم ، وكل

ما به تكون الحضارات إنما يزدهر كله في ظل استقرار الحياة وثبوتها بالقول الثابت ، وقد جاء القول موصوفًا بالسداد في الكتاب العزيز مرتين واحدة في سورة النساء هي قوله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء:٩) .

والثانية في سورة الأحزاب هي قوله سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ (الأحزاب:٧٠-٧١).

والآية الأولى فيها قضية منبثقة من حال من أحوال الفطرة هي أقواها وأشدها أثرًا وذلك حدب الآباء على الأبناء وخشيتهم عليهم بعد موتهم ، ويزداد هذا الإحساس من الخشية والفزع على مستقبل الأبناء بمقدار ما في حياة الناس من فقدان للاستقرار والأمن ، ويبلغ ذروته إذا كان أمر الجماعة في يد غير أمينة أو في يد طائشة أو جاهلة أو غير ذلك مما تدمر به حياة الناس بسرعة .

وكم ترى آباء انتزعوا أنفسهم من ديارهم وأهليهم وضربوا على أنفسهم غربة واكتئابًا وإذا سألت أحدهم عن سبب ذلك ذكر لك الأولاد وتفزعه على مستقبلهم ثم إذا كان ذا ثقافة أشار إلى أوضاع البلاد ، وإذا كان ذا علم ببواطن الأمور أومأ إلى اليد الخاطفة التي تحميها قوى هي من رموز الحكم وهكذا .

والسؤال هو كيف ربطت آية النساء بين الخشية على الأولاد والقول السديد ، وكيف جعلت الثاني علاجًا حاسمًا للأول ؟

ولا يداخلنا ريب في أن الله سبحانه يرعى بيوت الصالحين ويحرسها ويسترها ، وأنه سبحانه كما يكرم عباده الصالحين في الآخرة ، ويلحق بهم ذريتهم ولا ينقصهم من عملهم من شيء يتولى أمر ذريتهم الضعيفة في الدنيا ويحفظها وإن كانت في مهب ريح هوج تتدافع فيها نوازع النفوس وأهواؤها وشهواتها ، وقد رأينا بأعيننا أبناء الصالحين وهم ذرية ضعاف وكأنهم في جزيرة من الأمان وسط بحر زخّار بالأطماع والشرور .

وهذا المعنى في الآية الكريمة يفهم من قوله سبحانه : ﴿ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (النساء:٩) ويبقى قوله سبحانه : ﴿ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء:٩) يحمل مغزى آخر ، والتقوى باب متسع يشمل ضروبًا كثيرة كالصلاة والزكاة والحج والبر وصلة الأرحام ومنها القول السديد . ولكنه ذكر بعدها وعطف عليها لمزيد عناية به ولإظهار أمره في الغرض المقصود من الآية وهو تحصيل الأمن والطمأنينة على مستقبل الأولاد . والقول السديد أيضًا باب متسع يبدأ عند عامة المسلمين بنبذ الكذب والزور والغيبة والقيل والقال وما إلى ذلك من حصائد الألسنة التي تَكُبُّ الناسَ على مناخرهم في غضب الله وعذابه ، وتنتهي عند قادة الرأي والفكر وحملة الأقلام بالحذر الشديد والمحاسبة الدقيقة وتمحيص الكلمة وتخليصها من شوائب الزيف ، ونوازع النفس ثم تجريدها لصريح الصواب والحق الذي يثمر الخير للجماعة ، وبذلك تصير الكلمة كلمة طيبة كما وصفتها سورة إبراهيم ، تؤتي أكلها كل حين ، ويثبت الله بها حياة الناس على أركان من العدل يأمن فيها الخائف ، ويقوى بها الضعيف .

ثم إنه من القول السديد مواجهة الزيف والتضليل والتستر أو السكوت على وسائل التخريب ، سواء كان هذا التخريب متصلاً بحياة الأمة الفكرية والدينية وفتح أبوابها الخلفية لوسائل التبشير الديني أو الثقافي ، أم كان هذا التخريب في حياتها السياسية أو الاقتصادية ، وهذا كله بعضه من بعض ؛ لأنه يمثل بنية واحدة . المهم أن توظف الكلمة توظيفًا راشدًا لحماية حياة الجماعة وبث الأمان فيها ، وتطهيرها من النوازع البشعة والوسائل الضارة ، وبذلك يتحقق الاستقرار وتكون هناك حراسة كتلك التي طلبها أول خليفة لرسول الله ﷺ حين قال : «فإن رأيتموني على خير فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فقوموني» وفي ضوء هذه الحراسة الواعية يكون الضعيف قويًّا حتى يأخذ حقه ، ويكون القوي ضعيفًا حتى يؤخذ الحق منه ، وهذا هو الأمان الحقيقي للذرية الضعاف وليس غير ، وهب أن أيديهم مليئة بالذهب في مجتمع الذئاب ماذا يفيد؟!

والذي ينظر وهو على فراش موته إلى نظام المجتمع من حوله فيجد فيه للحق قداسة وحرمة ، ويجد أصحاب الكلمة قائمين على حراسة ذلك لا شك أنه سيغمض عينيه ، وهو غير مشغول بأمر بنيه وإنما هو مشغول فقط بما قدمت يداه مما سيجده حاضرًا بين يدي ربه ، وهذه هي الرابطة في الآية الكريمة بين القول السديد والخوف على الذرية الضعاف ، وهذه الرابطة ظاهرة جدًّا في آية الأحزاب : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١) .

ويختلف سياق آية النساء عن سياق آية الأحزاب ؛ لأن آية النساء تخاطب الذين يخشون لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم ، وكانت كأنها تهيئة ووطاء لآية الميراث : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾ (النساء:١١) وهذه من الروابط العالية والعُرَى البليغة في الذكر الحكيم، وآية الأحزاب تخاطب الأمة كلها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٧٠) وتدعوها إلى تطهير حياتها بغرس كلمة التقوى في قلوب أفرادها ، ثم مجانبة اللغو والبهتان وكذب القول وكل ما يدخل في باب الكلمة الخبيثة الماحقة ، وغرس القول السديد في حرثها كله ، وقبل الآية مباشرة ذكر يهود وإشارة إلى واحدة من أشهر خسائسهم وهي تزييف الحقائق : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ (الأحزاب:٦٩) حتى موسى عليه السلام زيفوا القول في شأنه ، وقد تعددت الروايات في تفسير إيذاء اليهود لموسى ولكنها اتفقت على أن هذا الإيذاء كان من معدن التزييف ولغو القول وباطله ، وقد برع اليهود في هذا الباب وتاريخهم عامر بخزاياه ، ولا يزالون على هذه النحلة من المراوغة والتزييف وتلبيس الحق بالباطل ، ثم جاء نداء الحق إلى هذه الأمة بتطهير حياتها من الكلمة الخبيثة وغرس القول السديد في أمرها كله.

والآية الكريمة ذكرت التقوى وعطفت عليه القول السديد من باب عطف الخاص على العام للعلة التي ذكرناها في آية النساء ، يعني لأهمية القول السديد في الغرض المسوق له الكلام ، وكان هناك أمر الأولاد على حد ما بينا ، وهو هنا صلاح الأعمال ، وينبغي أن نفهم الكلمات القرآنية بدلالتها العامة وأن يبقى المطلق مطلقًا حتى يقيده القرآن نفسه ، وصلاح الأعمال هنا

يشمل كل الأعمال التي يجوز للمسلم عملها ، فيدخل فيه كل ما يدخل في بنية المجتمع مما تدور به حياته من مصانع ومدارس وغيرها ، وأحسب أن اللفظ القرآني هنا أقرب إلى هذه الأعمال من الصلاة والصوم ؛ لأن الصلاة والصوم وضروب العبادات داخلة في التقوى التي هي بمثابة الشرط لصلاح الأعمال والكلام يؤول إلى (إن تتقوا وتقولوا قولاً سديدا يصلح لكم أعمالكم) وجواب الشرط غير فعل الشرط ؛ لأنه حدث مترتب عليه فإذا قلنا : إن جئتني أكرمتك ، دل ذلك على أن الإكرام غير المجيء ؛ لأنه حدث مترتب عليه وهذا يعني أن صلاح الأعمال شيء غير التقوى وما عطف عليها ؛ لأنه مترتب عليهما وبهذا يصح لنا أن نقول إن صلاح الأعمال يعني صلاح العمل الداخل في البنية الحيوية لحركة المجتمع يعني ساحة العمل بكل اتساعها وساحة الخبرات العلمية بكل تنوعاتها .

وفي الآية الكريمة انتقالات متدرجة على وجه من المنطق الواضح .

الأول : إعداد الأفراد بغرس كلمة التقوى .

الثاني : إعداد المناخ بتطهير الساحة من الزيف والباطل وإحلال القول السديد الواعي المدروس .

والثالث : خطوة ينتقل فيها الكلام بهؤلاء الأفراد وهذا الجو إلى ساحة العمل المتسعة .

ولابد أن تسجل ساحة العمل هذه ضروبًا من الكسب والتقدم ؛ لأنها لا تخلو من اللصوص والهباشين وأبناء العمة والخالة فحسب وإنما تخلو من كل أشكال الانحراف والأيادي التي تحرك العمل فيها أياد طهرها ماء الوضوء خمس مرات في اليوم والليلة ، لا يبقى من درنها شيء .

وصاحب السلطان المخلص لشعبه وأمته لا يرجو شيئًا أفضل من أن يكون الأمر من حوله هكذا قلوب لها في داخلها عاصم ، وتعمل في إطار كلمة سديدة هي هكذا إذا قبلت ، وهي هكذا سديدة إذا رفضت ، وسديدة إذا غضبت ، وسديدة إذا رضيت .

وهذا السلوك الحضاري جدًا والمستنير جدًا لا يكون إلا من رجال هم أهل علم وأهل رأي وأهل فهم ، أما مواكب الزيف والغوغائية والتهريج فإنها لا تتكاثر إلا حول الطواغيت لأن صاحب السلطان ذا الأهلية لا يقبلهم في ساحته ، وقد دخل رجال على أبي جعفر المنصور ، وكان رجل علم وفقه وسلطان فتكلم أكثرهم بالثناء ثم تكلم واحد منهم وتقاضاه حق الأمة في العدل والنصفة ، وكان أبو جعفر حكيمًا أريبًا فأشار إلى هذا الحشد الذي مدحه وقال : (كلكم طالب صيد ـ ثم أشار إلى العالم الذي تقاضاه حق الأمة في العدل والنصفة وقال ـ : غير عمرو بن عبيد) ، ثم قال له : يا عمرو أعني بأصحابك ، فأجاب عمرو إجابة عالية ، وقال : يا أمير المؤمنين ! ارفع علم الحق يتبعك ذووه ، يعني أن أصحاب الرأي لا يأتون إليك لأنك صاحب سلطان وإنما يأتون إليك إذا خفقت راية الحق فوق سلطانك .

وهذا من القول السديد ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان .

* * *

﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[1]

(الصف:٨)

كل من يفتح عينيه ويرى ما يدور من تدابير لحرب الإسلام ، ثم يتأمل ما تنتهي إليه هذه التدابير من نتائج معاكسة لمن دبروها من حيث تكون هذه التدابير في النهاية في صالح الإسلام ، أقول إن كل من يدور بعقله في هذه الدائرة يزداد يقينه يقينًا ، بأن الله حافظ لهذا الدين ، وأنه كلمة الله التي غرسها في قلب هذا الوجود ، وقضى أن تكون باقية تتحدى بما نفحها الله من أمره ؛ لأنها آية من آياته سبحانه ، وحالها كحال آياته في الكون ، كهذه السماء التي رفعها من غير عمد ترونها وهذه الأرض التي سطحت ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، وهكذا كل أمر إلهي ، وكما أن يد الإنسان لا تستطيع أن تطفئ نور هذه الشمس ، كذلك لا تستطيع هذه التدابير أن تطفئ هذا الدين الذي هو نور وفرقان : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف:٨) .

وهذه التدابير وهذا الكيد قائم على طول التاريخ وعرضه من يوم أن نزل به جبريل الأمين على قلبه ﷺ ليكون من المرسلين ، نعم الصراع قائم محتدم ، مستعر ، لم يهدأ يومًا .

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي صفر ١٤١٠هـ .

وهذا المقال يدل على شيء يجري في قلب ديار الإسلام بعدما امتدت الحرب الدائرة ضد الإسلام إلى ديار الإسلام نفسها ، وهذا هو ما لا تجوز الغفلة عنه .

والنظرة السريعة الخاطفة تدلك على تيارين يجريان بقوة في قلب ديار الإسلام يضربان في قلب هذا الدين ضربًا شرسًا عنيدًا حاقدًا ، وهذه الشراسة ، وهذا العناد ، وهذا الحقد ، يدلك على مصدر هذا الضرب ، وأنه من جهات مغرقة في عداوتها لهذا الدين ، وأن الذين يمثلون هذين التيارين من كتابنا إنما يقومون « بالدور » فقط وليسوا أكثر من هذا .

أما أحد التيارين فهو ما يمثله فريق من الكُتَّاب يواجهون المطالبة بتطبيق الشريعة مواجهة فيها قوة ، وحدة ، وإصرار ، ويقولون صراحة إنهم يقبلون أن يحكموا بأي قانون في الأرض مهما كان مغرقًا في التخلف والقهر ، ويرفضون أن يحكموا بالشريعة ولو سقتهم ماء غدقًا .

ولم يقف الأمر عند هذا وإن كان بشعًا ، وإنما اندفعوا في تجريح الشريعة حتى وصف أحدهم الأقلام الداعية إلى تطبيقها بأنها أقلام مخدوعة في ثقافة « مغشوشة » هكذا وبهذا اللفظ القبيح وصفت الثقافة الإسلامية ، وبيان الحلال والحرام وأبشع من هذا وأشنع أن يقع هذا القول الرديء موقع القبول من بعض الجهات التي تراوغ الشعوب في هذا المطلب الكريم .

وهذا الكلام البشع ليس من باب النقد والمحاجة ، وإنما هو من باب الشتائم والقذف ، والرأي والمحاجة عمل العلماء ، أما الشتم والقذف فهو عمل قوم آخرين ، ومن بدهيات العقول أن يقول من يرى هذا الرأي إن

موضوع «الغش» والفساد في الثقافة والأفكار التي وصفها بأنها مغشوشة هو في مسألة كذا ، وإن الباب الفلاني من أبواب الحدود أو المعاملات أو وصف السلوك وتحديد الحرام والحلال فيه فساد من جهة كذا وكذا ، وإنه غير نافع من جهة كذا ، وهذا يقتضيه أن يتأكد أولاً أن هذا الوجه من الرأي هو مقصود الشريعة! وحينئذ يناقش العلماء قوله ويكشفون له ما يلتبس ، وهذا شأن من يطلب الحقيقة ويبحث عنها ولا ضير عليه ولا حرج في أن يقول أي شيء ما دام معبراً عن ذات نفسه ، وقاصدًا إلى معرفة الصواب ، وما دام إذا كَشَفْتَ له الوجه المقبول قبله ، وإذا نبَّهته إلى وجه الصواب تنبّه ، يعني ما دام غير مُصِرٍّ على اتخاذ موقف عدائي من الشريعة تمليه عليه (أيديولوجية) مسبقة حفظ متونها وحواشيها كما يحفظ صغار التلاميذ الحواشي والأعلاق ، والمهم أن الأوضاع التي سُمِحَ أن يُذكر فيها شرعُ الله بهذه الألفاظ القبيحة ، والجهات التي تَهَشُّ لهذا التطاول الخسيس ، يرتد إليها هذا القذف على خلاف ما ترجو ، وذلك أن هذا القول يوقد في صدور أهل القبلة وَقْدة الحماس التي تزيدهم استمساكًا بشرع الله ودينه ، واندفاعًا في المحاماة عنه ، ويُنبّه الغافل منهم فيصير ذاكرًا ، والمهمل أمر دينه فيصير صاحب يقظة وحفاظ ومحاماة ، وكنت واحدًا من آلاف المسلمين المؤلفة الذين يرقبون ذلك كله ، ويذكرون قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفتح:٧) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١) .

ويزيد الانبهار بقدرة الله الذي يسخر أشد الناس عداوة لدين الله لخدمة هذا الدين ، وكيف يصير ضرب هؤلاء الحقدة العبيد في معاقل الشريعة تثبيتًا لها ، ويصير صرف الناس عن منابعها توافدًا في الإقبال عليها .

والتيار الآخر قد تقنَّع وتلثم ، ووصف كُتَّابه ورموزه بأنهم مفكرون إسلاميون ، وأنهم يحاضرون في علوم الإسلام في جامعات أوروبا ، ثم تقوم كتاباتهم على تزييف تاريخ الإسلام ، وأحداثه ، والتشهير برجاله ، وفقهائه ، وأمرائه ، وحكامه ، وكل ذلك يهدف إلى الفصل بين الدين والدولة ، واختراع صيغ غريبة مثل «الإسلام السياسي» والاجتهاد في مطاردة هذا الإسلام من الساحة السياسية وحبس الإسلام في دائرة العبادات ، والاستغفار ، والبركة ، والتعاويذ ، ثم الإيهام بأن هذه الأفكار الباطلة تستقي مادتها من المصادر المعتبرة ، وأنها تقوم على التحليل ، والتدقيق ، وأنها ليست تلفيقًا ، وتزييفًا ، وفسادًا كبيرًا ، وأنها تقوم على توخي مقاصد الشريعة في الوقت الذي تُفسد فيه هذه المقاصد .

وقد قرأت من هذا الاتجاه دراستين في تحليل الربا وحصر المحرم منه في حدود ضيقة جدًّا ، وأن أكثر المعاملات التي وصفتها الدراسات الجادة ، والمجامع الفقهية المعتبرة ، بأنها من المعاملات الربوية ، أحلتها هاتان الدراستان ، ثم أدهشني أن طريقة التأليف في الكتابين واحدة ، مع أنهما كتبا في قطرين مختلفين ، والأصول الفكرية التي بنى عليها المؤلفان تأليفهما أصول واحدة ، حتى مواطن الاستشهاد ، وطريقة الاستخلاص ، والاستنباط ، مما أكد عندي أن هناك «برمجة» واحدة لهذا الضرب من البحوث ، وأن هذه البرمجة تعد بإتقان شديد ، وأن هذه المؤلفات تسقى بماء واحد ويختلف بعضها عن بعض اختلافًا لا يمس الجوهر .

وأعجب من هذا أن هذه الجهود الرديئة ، والتي تستهدف تزييف حقائق الإسلام ، تراها تقع أحسن موقع عند بعض كتابنا الذين يحاولون جاهدين

أن يُذكروا بالركانة في البحث وسعة الذرع في النظر ، والاستقامة في المنهج ، والتنوع في الثقافة ، إلى آخر ما يحرص الأدعياء على اكتسابه ، وتراهم يصنعون لها ضجة من الاستحسان والثناء والمديح في صحفنا ومجلاتنا التي كان الشأن فيها أن تعمل على تنوير الوعي الإسلامي بالفهم الصادق ، والدرس الناضج ، فصارت تجتهد في تزييفه ، وهكذا ترى فرقًا تتناوب مقالة السوء في دين الله ، يرميها يسار إلى يمين ، ويمين إلى يسار ، وما دام الأمر أمر طعن فالكل على قدم واحدة ، وترى ضربات تترامى من كل جهة ، وكلها مُشَيَّع بقوى لها تاريخ معرق في تخريب الأمم وتدمير العقول ، ثم يبهجك أنك تجد كل هذا لا يزحزح مسلمًا واحدًا قيد أُنمُلة عن دينه ، ثم يبهرك ويبهرك أن تجد لهذا أثرا معاكسًا كما قلت ، فيعود المسلمون إلى أنفسهم يتعهدون النعمة التي أتمها الله عليهم يوم أن أكمل لهم دينهم ورضي لهم الإسلام دينًا فيجتهدون في القرب من الله ، والضراعة إليه ، ويزداد دين الله تمكنًا في قلوبهم .

ومرجع هذا إلى أن هذا الدين الحق غائر في قلوب المسلمين يستيقنون صدقه ، ويستيقنون أنه لا يأتيه الباطل ، وأنه لا يختل منه حرف ، ولا أمر ، ولا نهي ، وليس في خزائن عقول المتنطسين بالثقافة ، ولا في جماجم الفلاسفة جميعًا فكرة تقارب أمرًا من أمره ، وإنما هو كله فوق كل فوق ، وصوابه فوق كل صواب ، وحقه فوق كل حق ، وهذا وأكثر منه مستحكم في نفوس المسلمين استحكامًا يأتي من دونه المال والأهل والولد والنفس ، فإذا ما جاء خلق من الكُتَّاب وجهلوا هذه الحقيقة وهاجموا هذا العزيز النفيس الذي هو في القلب أعز من القلب ، وفي النفس أنفس من النفس فلا يقع

كلامهم هذا الرديء إلا موقع الكلمة الخبيثة التي هي كالشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

وأنت أيها القارئ تجد شيئًا يشبه هذا مع فارق كبير ، حين تكون قد عرفت رجلاً كريمًا وخبرت خبره ، وعجمت عوده ، وبلوت سره وجهره فما وجدت منه إلا خيرًا ، ثم يأتيك خِلْس من أحلاس مجالس الخَنَا - والحلس ما يُفرش على التراب وفوقه الثياب النظيف - وهذا الحِلْس قد استأجره قوم من السقاط ليُرَوِّج في كرام الناس مقالة السوء فوضع لسانه في صاحبك هذا ، فهل تراك تستمتع إلى واحدة من فم هذا الرديء الساقط !! أم أنه يزداد عندك سقوطًا تحت سقوط ؟ وهكذا الشأن عند المسلمين عامتهم وخاصتهم ، حين يرون أقلامًا رديئة تكتب هذا عن الإسلام وعقائده ، وأصوله ، وثقافته ، هذا الكلام الفاجر المنحدر ، ويرون مظلة من الحماية لهذا السخف وهذا السوء ، فيؤدي كل هذا إلى مزيد من الفجوة بينهم وبين أقوامهم ، وبهذا يصير هؤلاء المبطلون من جنود ربك الذين لا يعلمهم إلا هو ؛ لأنه من البعيد أن يظن أن هؤلاء بهذه التدابير الخبيثة يخدمون الإسلام ، ويزيدون عقائده توهجًا في نفوس المسلمين ، وهكذا يسخر الله الباطل لنصرة الحق .

ومن اللمحات الرائعة في الكتاب العزيز أن هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١) جاءت في سورة المدثر ، وفيها قصة الوليد بن المغيرة المخزومي ، وكان في زمانه أشبه بكُتَّاب المقالات الرديئة في زماننا ، فقد ذهب إليه قومه يقولون له قل في محمد كلامًا يصرف عنه الناس ، كما يطلب من بعض الكُتَّاب والصحف تكثيف حملة إعلامية ضد موضوع من الموضوعات ، وقد عالج موضوع استخراج المعنى الرديء من

حضيض نفسه فعبس وبسر وفكر وقدر وقام وقعد وأقبل وأدبر ، كل ذلك يستخرج به الفكرة الرديئة من حضيضها ، ثم قال : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ (المدثر:٢٤) ، يعني تهاويل زائفة وثقافة «مغشوشة» !! ثم جاء ذكر عذابه وذكر سقر وأبوابها وخزنتها وعدتهم ثم شيوع كلام أهل الضلالة والذين في قلوبهم مرض ووضع ألسنتهم في دين الله ، ثم يصير كل هذا من وسائل تثبيت إيمان المؤمنين : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المدثر:٣١) . وتأمل التوكيدات المتلاحقة في بيان زيادة اليقين في هذه الأجواء الملوثة والمراد بالذين أوتوا الكتاب من آمن منهم فهم يستيقنون ، وهم يزدادون إيمانًا ، وهم لا يرتابون ، ثلاث جمل تؤكد هذا المعنى ، ثم جاء قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر:٣١) وهذا واضح في أن تكثيف الحملات على الإسلام وشرائعه وأحكامه وحدوده وملاءمتها لأحوال الزمان وأحوال الحضارة والتمدين ، وغير ذلك مما يلغو فيه أهل اللغو ، من عوامل تثبيت عقائد المسلمين ، وزيادة يقينهم ، وتجلية ما في صدورهم ، ونفي أي ريب يعلق بهذه القلوب من أثر هذه الشناعات ، وأن كل هذا من جنود ربك الذين يثبت الله بهم الحق ، وصدق الله وخسر المبطلون وتمت كلمة ربك ولا حول ولا قوة إلا به .

* * *

يرفع الله الذين أوتوا العلم

حين يذكر الناس فضل العلم والعلماء ، ويذكرون منزلتهم في الدين ومكانتهم عند الله ، تنصرف الأذهان إلى علماء الفقه والتفسير والحديث والعقائد ، وما هو من هذا الباب ؛ لأن هذه العلوم هي التي كانت شائعة عند عامة المسلمين وخاصتهم ، وعلماؤها هم المشاهير ، وهم المنظور إليهم في دنيا الناس ، وكان علماء الطب والصيدلة والبيطرة والزراعة والتعدين وما يشبه ذلك مما كان قائمًا في ديار الإسلام كان علماء هذه الفروع قلة بالنسبة لشيوع العلوم الأخرى ، وحاجة كل مسلم ومسلمة إليها ، وأنها كانت مبثوثة في حياة الناس جارية في نفوسهم جريًا له أثره في السلوك والممارسة وهذا جعل لها حضورًا متميزًا ، ثم كانت هي المعرفة الشائعة التي يبدأ بها كل طالب علم وبعد تحصيل قدر منها يتجه إلى ما يشاء من فروع المعرفة الأخرى فالطبيب يعرف الفقه والشعر والرواية ، وصاحب الهندسة والبيطرة وكل الفروع لهم جميعًا خلفية ثقافية واضحة المعالم ، بينة في نفوسهم من علوم التفسير والحديث والإعراب وغير ذلك من العلوم التي تمثل ثقافة الأمة ، وهي علوم ضرورية لاستمرار بقائها على صراط ربها ؛ لأننا لا نتصور إسلامًا حيًا فاعلاً في عقول المسلمين وقلوبهم إذا افتقدنا مجموعة هذه العلوم التي هي شرح لقضاياه وأحكامه ، وهي السبيل إلى فهم الكتاب والسنة ، ولا يمكن أن نتعبد بكلام الله ونحن لا نفهمه ، كما أنه لا يمكن أن

نأخذ سنة رسول الله ﷺ ونحن لا نفهمها ، والفهم المراد ليس هو ما يقع في النفس عند سماع كلام الله وكلام رسوله ، وإنما هو الاجتهاد والاستنباط واستخراج الأجوبة الشرعية في كل ما يواجه الحياة من أقضية وأحداث ، كل هذا جعل هذه العلوم حاضرة في وجدان الأمة وجعل لعلمائها الصادقين مكانة في نفوسهم ينصرف إليهم الذهن عند ذكر العلماء ، ثم حدث في هذا العصر أننا أخذنا عن غيرنا علوم الكونيات والزراعة والصيدلة والطب وغير ذلك من فروع المعرفة التي نسميها العلوم «البحتة»، ولم يكن وجود هذه العلوم في حياتنا المعاصرة استمرارًا لوجودها في تاريخنا العلمي ، وقد نقلت إلى الأمم التي نأخذها عنها الآن من علومنا وكتبنا وتراثنا وعلمائنا وقد بقي الدرس يدور زمنًا ليس بالقليل في جامعاتهم حول أصولها العربية ثم استطاعوا أن يحركوها ، وأن يتحركوا بها ، حتى وصلوا بها ووصلت بهم إلى ما هي وهم عليه الآن ، وهذه قصة طويلة واضحة في تاريخ الحضارات وتاريخ العلوم التي كتبتها أقلام المؤرخين الأعاجم أنفسهم ، لأنها واقع لا سبيل إلى إنكاره ونحن الآن نأخذها عنهم علومًا أعجمية خالصة لغة وفكرًا ومنهجًا ، لأنها صارت علومهم لما قاموا عليها وطوروها ورققوا وسائلها وألطفوا مداخلها ومخارجها .

ولما كانت عندنا في عصرنا هذا علومًا أعجمية لم يرد في ذهن عامة المسلمين وكثير من خاصتهم أنها حين يحصلها عالم مسلم تكون مفضية به إلى منزلة علماء الفقه والتفسير والحديث ، وأنها ترتفع بحملتها إلى الدرجة الرفيعة التي يرفع الله إليها الذين أوتوا العلم .

والنظر في الكتاب العزيز يؤكد خطأ هذا الفهم لأن مكانة علماء المسلمين في الطبيعة والهندسة والطب هي مكانة علماء العلوم الإسلامية ، وهذه العجمة التي لحقت هذه العلوم لما صارت في حوزة أعداء الإسلام لا يجوز أن يكون لها أثر على تقديرنا لها ولحملتها من علمائنا وأن ننزلها منزلة دون منزلتها في أصولنا الشرعية ، والآيات التي يذكر فيها القرآن العلم ويفضل أهله تنطوي فيها «لمحة» لغوية لها دلالة ذات مفهوم حضاري متسع وناضر ، هذه اللمحة هي إطلاق الفعل (يعلم) وعدم تقييده بمفعول معين ، كما في قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩) ، والاستفهام هنا للإنكار ومعناه النفي أي لا يستوي .. وإنما الفضل لمن يعلمون والفعل (يعلمون) من الأفعال المتعدية ولكنه هنا منزل منزلة الفعل اللازم حتى يكون المقصود لا يستوي الذين يُحَصِّلون المعرفة والذين لا يحصلونها ، مع صرف النظر عن نوع المعرفة ، يستوي في ذلك أن تكون فقهًا أو زراعة أو صيدلة أو علم طبقات الأرض ، المهم أن يكون العقل الإنساني قد لابس المعرفة وتحرك بها ، وهذا هو أصل المفاضلة ، ليس فيها إشارة إلى فرع من فروع المعرفة وأنه يفضل غيره ، وإنما الأصل هو أن يكتسب العقل الإنساني علمًا يستوي في ذلك علم العقائد ، وعلم «الكمبيوتر» ، وأدعك تتأمل أي قيمة حضارية لهذه الإشارة التي لم نستنبطها من القرآن اجتهادًا وإنما دل عليها صريح لفظه لما جاء الفعل في الآية الكريمة مطلقًا من قيد مفعول مخصوص ، وسياق الآية كان يتسع لهذا القيد ، والآية هي : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا

يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر:٩) .

وكان يمكن أن يكون القيد هو قل هل يستوي الذين يعلمون ذلك الفرق بين القانت الساجد القائم يحذر ويرجو وبين من ليس كذلك ، وبذلك تفقد الآية دلالتها على ما نحن فيه ، ولكن هذا الإطلاق أفاد ما أشرنا إليه وأفاد أيضًا أن هذا الصنف المذكور وهو القانت الساجد الذي يحذر ويرجو هو من النوع الفاضل ـ أي الذين يعلمون ـ أي له عقل يكتسب به المعرفة وينظر ويتدبر وقد ختمت الآية بما يؤكد أن المقصود هو تحريك العقل بالمعرفة ؛ لأنها جعلت التذكر والتدبر وإدارة العقل في الأشياء ومحاولة اكتناه الأشياء والاقتراب من أغوارها ودلالاتها إنما هو مقصور على أولي الألباب ، وكأن من أهمل عقله ولم يواجه به الحياة مواجهة حية نشطة متحركة كأنه ليس من ذوي الألباب ، ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر:٩) .

ثم تأمل الآية المشهورة في سورة فاطر : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر:٢٨) ، وخشية الله تعني مهابته واستحضار عظمته وجلاله وقدرته وسعة سلطانه وكل ما يدخل في هذا المعنى ، وقد جعلت الآية الكريمة الخشية مقصورة على العلماء ، وكأنهم هم وحدهم العارفون معرفة تهديهم إلى اليقين الثابت ، وذلك لأنهم تدبروا الآيات البينات الهادية إلى معرفة اتساع القدرة ودقة تصاريفها ووقوع كل شيء فيما أبدعته القدرة على غاية الدقة والإتقان والإحكام ، وغير ذلك مما يبهر العقل ويشهد بأنه سبحانه وسع علمه كل شيء ووسعت قدرته كل شيء ، وهذه هي الخشية المقصورة

عليهم وهي خشية يسندها علم متسع اطلع على دقائق الحكمة في الأشياء ولطف تصاريفها ، ويبقى من هم دون العلماء ينالون من خشية الله بمقدار ما ترقى إليه عقولهم وقلوبهم وفطرتهم .

اقرأ سياق الآية لتتبين هل المراد بالعلماء هنا هم علماء التفسير والفقه والعقائد أم يدخل فيهم علماء فروع المعرفة الأخرى المتسعة والمتنوعة ؟

ويجب أن نتذكر قبل الرجوع إلى السياق أن لفظ العلماء لفظ عام ولا يجوز تخصيصه في الآية من غير مخصص وهو في اللغة جمع عالم ، والعالم اسم فاعل من الفعل عَلِم ، وهو من قام به فعل العلم من غير نظر إلى معلوم معين ، فالذي علم الفقه يقال له عالم ، والذي علم الفضاء يقال له عالم ، وذلك يعني أن دلالة العلماء في الآية دلالة مطلقة يدخل فيها عالم الفضاء كما يدخل عالم الفقه ، وأن خشية الله مقصورة على العلماء بهذا المعنى المتسع الذي يستوي فيه عالم الطبيعة والفيزياء والفقه والحديث ، وكل هذا مشروط بشرطه ، وهو تحصيل أصل الإيمان والتوجه المستكن في أعماق النفس الذي يجعل عمله متجهًا إلى ربه ، يستوي في ذلك الشيخ في حلقته ، والباحث في أحدث مراكز البحث العلمي وهذا واضح .

ونعود إلى سياق الآية ، يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر:٢٧-٢٨) .

وأول ما يجب أن ننظر فيه قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ، وإن كان ظاهره لرسول الله ﷺ لأن كل من خوطب بهذا القرآن مقصود بالخطاب الذي يخاطب به ﷺ ، إلا فيما يختص به صلوات الله وسلامه عليه وليس هذا منه ، وإنما هو من العام ، بدأت الآية بالحث على النظر في هذه المذكورات «الثمرات المختلف ألوانها والجبال..» إلى آخره .. والنظر هنا عبرت عنه الآية بالرؤية ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والرؤية بصرية وعلمية ، وهذان أي الإدراك الحسي الذي هو مفهوم البصرية والتحليل العلمي للمدرك الذي هو مفهوم الرؤية العلمية هما سبيل العلوم العلمية ، ثم تأمل المراد مشاهدته مشاهدة علمية تحلل ظواهره وتدرس عناصره دراسة تهدي إلى معرفة أسراره وقوانينه ودقيق تصاريفه ، تجد الثمرات المختلفات الألوان وهذا علم الزراعة بكل فروعه ، وتجد الجبال ذات الجُدَد البيض والحُمْر المختلفات الألوان والغرابيب السود وهذا هو علم طبقات الأرض (الجولوجيا)، وتجد «الناس» وهذا علم النفس والطب والأجناس البشرية والسلالات والعقائد والخرافات والعادات وهو باب متسع جداً ، ثم تجد «الدواب والأنعام» وهذا علم البيطرة وأجناس الحيوان ، وأنسابها وسلالاتها ، وهكذا ، ثم يأتي قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ (فاطر:٢٨) فهل يصح أن نصرف لفظ العلماء وهو لفظ عام كما قلت إلى علماء العلوم الإسلامية مع أن السياق الذي بنى عليه هذا اللفظ هو حقول المعرفة العملية القائمة على المشاهدة والتحليل ، وليست فقط على النظر والاستنباط المؤسسة عليه العلوم الإسلامية ، لماذا نجعل هذه الآية حاثة على الموعظة فحسب ونسكت عن سبيل الموعظة وهو التغلغل في الأشياء ،

الثمرات المختلفات والجبال وطبقات الأرض والإنسان والحيوان إلى آخره ، بعقل وعلم وحكمة ومنهج حتى نتعرف على ما بنيت عليه من دقائق رائعة مبهرة ؟

لا ريب أن نظر المؤمن المحدود المعرفة إلى النبات واختلاف ثمراته وألوانه يهديه إلى قدرة الله وعظيم سلطانه ، ولكن الدارس المتعمق ، والمحلل المستنبط يرى أبعادًا أخرى ودقائق أخرى تخضع لنظام بالغ في الدقة والتوازن والتعاون والأداء ، وغير ذلك من لطائف القدرة التي يصير بها المظهر الخارجي الذي تقع عليه عيون الكافة ، شيئًا محدودًا جدًّا .

السياق هنا يرجح أن خشية الله مقصورة على علماء هذه العلوم ، إذا التفتوا إلى معرفة دقائق الحكمة والقدرة فيما يعالجون ، وإنما أدخلنا فيهم علماء الفقه والتفسير والحديث وغيرهم لعموم لفظ العلماء ، ولأن ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ (فاطر:٢٨) فُصِلَتْ عن الكلام السابق وبنيت على القطع والاستئناف الذي ترى فيه الكلام يتجه إلى أن يستنبط مما فات ويدخل فيه كل ما شابهه ثم يُبْنَى على الإطلاق .

ولا أريد بذلك أن أضع علوم الفقه والتفسير في منزلة دون منزلتها ، لأني قلت إنها لا يقوم أمرالدين إلا بها وحسبها هذه المكانة وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وإنما أردت أن أشير إلى قطرة من بحر في الكتاب العزيز تقدر العلم من حيث هو معرفة وتحريك للعقل الإنساني وتنوير له مع صرف النظر عن المعلوم والمدروس ، ما هو من علوم الدين أو من علوم الدنيا ، المهم تنوير العقل الإنساني بالبحث في دقائق الكونيات

والدواب والأنعام والجبال وغير ذلك من حقول المعرفة المتراحبة ، وأن هذه الدراسات في هذا الدين العظيم هـ .ية إلى سبيل الله وإلى ذروة التدين والتعبد والخشية من الله ، ومن الخطأ أن نتعبد بعلوم التفسير والفقه فقط والواجب أن نتعبد بدراسة الدواب والأنعام وطبقات الأرض وعلوم الوراثة والنبات ، ويلاحظ أن الحث على النظر والتدبر والدراسة في الكتاب العزيز حث على ضرب من النظر المدقق المتعمق المتشح دائمًا بالوشاح الفلسفي ، أعني الذي يربط الظواهر بعضها ببعض ويتدرج من الجزئي إلى الكلي ، ومن البرهان إلى القاعدة ، ومن الآيات الدالة إلى المدلول وهذا هو حال التدبر الواصل إلى الإقرار بالألوهية والوحدانية وأنه ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء:٢٢) ، ولن يصل إلى هذا اليقين إلا النظر العلمي اليقظ المتفتح المستنير وكل علم تحتاجه الأمة يكون القائمون عليه كالقائمين على الفقه والتفسير والحديث ، وهذا لا خلاف فيه .

وإذا كان هذا كما نراه فماذا نقول في إخوان لنا يقولون إن الدعوة إلى العودة إلى الشريعة دعوة تدعونا إلى التخلف والرجوع إلى الوراء ، ودعوة تعادي المدنية والنزعة العلمية وتريد تخريب الحضارة التي هي ثمرة كفاح العقل الإنساني إلى آخر ما نقرأ

لا شك أن هؤلاء لم يدرسوا الإسلام وإنما أخذوا معلوماتهم عن الأديان من كتابات كتاب عصر النهضة الأوروبية ، وقد كانوا في حرب حامية مع الكنيسة ورجالها ، وقد تصور كُتَّابنا أنهم هم أيضًا يحاربون حرب كتاب النهضة الأوروبية ويلبسون دروعهم وينازلون بسيوفهم وأن الشيوخ الداعين

إلى صراط ربهم المستقيم هم أصحاب محاكم التفتيش ، وهم الذين تحالفوا مع الإقطاع وأقروا نظام عبيد الأرض وأحرقوا العلماء وأنهم يحتاجون إلى (مارتن لوثر) يصحح لهم أفكارهم ، وهكذا ترى مفارقات غريبة ورائجة في صحافتنا ومجلاتنا ، ومرجع ذلك إلى الجهل بحقائق هذا الدين العظيم ، ثم الجرأة على الخوض في مسائله مع هذا الجهل . ونسأل الله السلامة من الفتنة والعصمة مما يوجب سخطه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

أمثال سورة النور[1]

تتميز أمثال القرآن بأنها تركيز لصورة حية تنصهر فيها كل الأنسجة والخيوط والأفكار التي قام عليها البناء اللغوي للسورة كلها ، وهذا شيء يحتاج إلى أن نحكم فهمه من حيث هو فكرة بيانية مستنبطة ، من أمثال القرآن الكريم، ومن حيث هو لغة بيانية أو أسلوب وطريقة بيانية جرت في الكلام الشريف ، وهذا الثاني أدق وأغمض من الأول ؛ لأنه يقتضي متابعة ذكية وواعية لحركة الأفكار ، والخواطر ، والصور ، والرموز ، في السورة حتى ترى المثل في هذا المحيط وكأنه «بؤرة» أو مساحة لغوية محدودة تتركز فيها كل الألوان والأطياف المكونة لهذه الرقعة اللغوية المتسعة والمُشَكِّلة للسورة الشريفة . وهذا وإن جرى في بعض الشعر العالي إلا أنه ليس فيه من الدقة وسخاء اللمحة ووفرة الحقائق والرقائق ما في أمثال القرآن الكريم ، وهذا باب جليل من أبواب الدرس نقدم منه قطرات فيما يتيسر لنا من نظر .

جاء التشبيه في آيات ثلاث في سورة النور ، منها تشبيهان متتابعان ، وتشبيه سابق مفصول بثلاث آيات ، وهو التشبيه الأم لتشبيهات السورة ، لأنها بمثابة المتفرع عنه ، وهذه التشبيهات الثلاثة هي قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ

(١) مجلة الوعي الإسلامي جمادى الأولى ١٤١٠هـ .

مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (النور:٣٥) .

والثاني قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (النور:٣٩) .

والثالث : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور:٤٠) .

وفي السورة تشبيهات أخرى ليست على هذا الحد من السعة والغزارة ، وإنما هي ربط معنى بمعنى ربطًا سريعًا مثل قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (النور:٥٩) ، وقوله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (النور:٦٣) . ولا محيد لنا عن معرفة السياق الذي جرت فيه هذه الأمثال ؛ لأن السياق هو التربة التي أمدتها الحياة والأسرار ، وهو الأرومة والمَعدن والجَدّ الذي إليه يرد كل ما في هذه الأمثال من أسرار ورموز ومُلَح ..

والسياق هو موضوع سورة النور ، وهي سورة تظهر فيها وحدة الموضوع ظهوراً لا يلتبس ، إذ هي تدور حول تنظيم الآداب الواجب توافرها في علاقات الرجال بالنساء ، والتشديد على مراعاة هذه الآداب ، حتى يظل تسلسل الوجود الإنساني الممثل للخلافة في الأرض نابعًا من نبع الطهر ،

بعيدًا عن الريبة ، ويظل الإنسان مكرمًا من بين المخلوقات بنسبه ، ومعرفة آبائه ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب:٥) ، وهذه واحدة من تكريم الله لبني آدم ، وهذا الجانب من حياة الناس بالغ الدقة والحذر ، ومظنة الظنون والريب ، وقد تناولته السورة بشكل ظاهر وحاسم ، وحددت حدوده ، وأحلَّتْ حلاله ، وحرمت حرامه ، وبدأت بأم خبائث هذا الباب التي تنتهي عندها ذروة المأساة حين تتهدم هذه الحدود ، ووضعت عقاب هذه الجريمة بسرعة ، وفي أول منطق الكلام تأمل : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا ﴾ (النور:٢) تأمل هذه الفاء وهذا الأمر وكيف كان ذلك خبرًا عن الزانية والزاني ، وبهذا الطي السريع حيث ذكر العقوبة قبل الخوض في تفاصيل البينة والشهادة ، وما تثبت به من إقرار أو غيره ، ثم إن السورة نهت عن الرأفة بأصحاب هذه الخبيثة وجعلت القسوة في باب إقامة حدود الله دلالة الإيمان وقوة اليقين ، تأمل : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ (النور:٢) فليس هنا مجال للمشاعر الكاذبة الناعمة التي تنادي بالرحمة بأهل الخنا ، والتي تصف حدود الشريعة من جلد وقطع يد إلى آخره بأنها حدود غليظة تجرح المشاعر الإنسانية الراقية ، هذا كذب ومداهنة للفجور ، واللصوصية ، وكل ضروب الفسوق في المجتمعات الإنسانية ، ثم تناولت السورة ما يلي هذه الجريمة الأم في سلسلة الآداب التي شرعتها ، وهو وضع الناس ألسنتهم في الأعراض ، وجعلت السورة الشريفة ، رمي الأعراض بهذه الجريرة قريبًا من فعلها ، فالقذف حده ثمانون ، والزنا حده مائة ، وكررت السورة خسيسة القذف هذه في ثلاثة مواضع وبصيغة واحدة لتثبيت بشاعتها ، قال سبحانه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ (النور:٤) ، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ (النور:٦) ، و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ (النور:٢٣) ،

جعلت الآيات الثلاث الخوض واللغو في الأعراض رميًا ؛ لأنه يصيب مقاتل الشرف والعفاف كما تصيب السهام مقاتل الصيد ، ثم لمحت السورة لمحًا رائعًا بذكر حديث الإفك في هذا السياق ، وذلك للإشارة إلى أن ألسنة أهل اللغو قد تصيب في هذا الأمر أعراضًا بعيدة عن الريب ، بعد السماء عن دنس الأرض ، وإشارة أخرى هي أن وضع الألسنة في أعراض الناس باب فيه غواية ، وتكثر فيه الغفلة حتى تتجاوز ما لا يجوز تجاوزه ، تأمل خطاب القرآن ، لجيل النبوة في شأن حديث الإفك : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ (النور:١٢) ، و﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ (النور:١٦) ، تأمل كيف كان فتح باب الإذن ، والسماع في هذا الشأن مغويًا وقائدًا إلى الغفلة عما يجب أن يقال عند سماعه ، وهو ما أدبنا به ربنا : ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور:١٦) أرأيت كيف يرتفع القرآن بطبائع النفس حتى يكون شأنها أنها لا تتكلم بهذا ولا بما هو من طبقته لأنه بهتان ، وقد رفعها أدب القرآن عن هذا الحضيض ، ثم مضى الحديث في هذه السلسلة إلى أدب الاستئذان حتى لا تقع العيون على عورات الناس ، ثم غض البصر وطلب العفاف بالنكاح ، فإن لم يكن في الوسع فبالصبر والاستعفاف حتى يغنيهم الله من فضله ، ثم جاءت آية التشبيه الأولى ، ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (النور:٣٥) فوصفت شرع الله ونظامه في هذا الشأن وفي غيره بأنه نور أي مُوَضِّح لمعالم الحياة الإنسانية ، وشارع لها طرائقها ومناهجها ، وقد قال علي ـ كرم الله وجهه ـ في بيان معنى ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:٣٥) أي نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره ، ونَشْرُ الحق والعدل هو الشريعة وحدودها وحلالها وحرامها ، وقد جاء النور في القرآن الكريم مثلاً لهذا ،

قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ (الصف:٨) ، أي يريدون غلبة دين الله ، والله متمه أي : مثبته في قلوب أهل الحق حتى يكونوا حماة له وحراسًا على حياضه ، والمشكاة الكُوَّة الضيقة ، ليست مثل النافذة ، وهذا الضيق يجعلها أكثر توهجًا ، والمشكاة فيها مصباح ، والمصباح في زجاجة ، والزجاجة كأنها كوكب ، تأمل المتابعة والتداخل المؤذن بغاية التوهج ، وفرط النور ، وكأنَّ النور هنا طبقات ، ودوائر ، تدخل كل واحدة في التي تليها ، ثم هو نبع لا يغيض ، يستمد توهجه من شجرة مباركة ، وهذا المدد المتدفق صالح لأن يمد بنوره الحياة الإنسانية في أطوارها الحضارية طورًا بعد طور ، مهما التبست وتداخلت ، سوف تظل الشريعة هي المشكاة لدروب الحياة المتنوعة ، والملتبسة والمتداخلة ، ولاحظ أن مثل الشريعة التي هي مشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة إلى آخره ليس منصرفًا انصرافًا كليًا إلى السياق الذي هو علاقات الرجال بالنساء ، وآداب سورة النور ، وإنما في لفظه عموم ، يشمل شرع الله في الأمر كله ، كما ذكر علي كرم الله وجهه ، ومع هذا فإن اختيار سورة النور موقعًا له إشارة واضحة إلى أن ما شرعته سورة النور في علاقات الرجال بالنساء هو المشكاة التي تضيئها شجرة مباركة ، وأن من طلب نظامًا آخر في علاقات الرجال بالنساء يكون قد دخل بهذه العلاقات دروب الظلمات كما فعلت المجتمعات الإسلامية بعد الغزوة الحضارية التي اكتسحت آدابنا وفرضت علينا تقاليدها ، وقد جاء التشبيه الثاني يصف الوجه المقابل الذي تقوم فيه الحياة على إهمال هذه الحدود ، وإطفاء هذه المعالم التي تضيئها الشريعة ، اقرأ الآيات ، وتأملها ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ

ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (النور:٣٩-٤٠)، تأمل تداخل الظلمات وتراكبها وتكاثفها ، موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وقارن هذا بمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري ؛ تجد البناء الأسلوبي في المثلين واحدًا ، وتأمل نهاية المثل الأول : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (النور:٣٥) تجد مقابلة في المثل الثاني : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور:٤٠) ، وقوله سبحانه في المثل الأول : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (النور:٣٥)، يقابله في المثل الثاني : ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ (النور:٤٠) ، وهذه هي وحدة البناء اللغوي في أمثال السورة ، والطبع البياني الواحد الجاري في أوصال الكلام ، حتى إنك لو قلت إن المثلين أولاد أب وأم لم تكن متجاوزًا ، لأن السياق هو الجذر وهو الأرومة والمعدن أو هو الجد الأعلى ، وقد جاء هذا المثل لبيان حياة الإنسان المستضيئة بالشريعة التي هي السراج المنير ، وهذا المثل الآخر لحياة الإنسان الخربة من الإيمان والمقطوعة عن النور ، وهي كما ترى قطع من الليل الملبس ، ولاحظ أن القرآن ضرب لأعمال الذين كفروا مثلين ، الأول هو سراب بقيعة ، إلى آخره ، وأحسب أنه قصد أعمال البر ، التي يرجون لها جزاء ثم يجدون ذلك سرابًا ، وقد تأنق البيان العالي في توضيح اللهفة ، وشدة الحاجة ، وذلك بذكر كلمة ، الظمآن بدل كلمة الرائي ، ثم تأنق أيضًا في وصف الضلالة ، وعذابها الحارق ، في تصوير هذا الظامئ وهو يركض وراء السراب ، في قلب هذه الصحراء الحارقة ، أما المثل الثاني : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ (النور:٤٠) إلى آخره فليس فيه ذكر لصاحب

الأعمال ، وإنما هو تركيز لبيان ظلمة هذه الأعمال ، واقرأ وتأمل لأنه لا يستطيع أحد أن يدلك على أسرار الكلام كنفسك ، ومحاولتك أنت ومهما حاولت أو حاول غيري ففي كلامه قصور ، تأمل أنت تجد صاحب الأعمال بارزًا في المثل الأول في صورة هذا الظامئ المحترق ، ثم تجده قد اختفى في المثل الثاني ، واحتشد البيان لتكثيف طبيعة هذه الأعمال ، إنها ظلمات بعضها فوق بعض ، ولهذا أرجح أنها مثل أعمالهم القبيحة وليست أعمال البر كصلة الأرحام وغيرها وإنما هي فجورهم وغدرهم ، وأحقادهم ، وبغضاؤهم التي بدت من أفواههم والتي أكنتها صدورهم ، وقد وقفت كثيرًا أتأمل الفرق بين هذين المثلين المضروبين لأعمال الذين كفروا ، ولحظت أولاً ما بينهما من تقابل ، فأحدهما مشهد من مشاهد البادية ، سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، والآخر مشهد لم أره في بيئتنا الشرقية : ظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . وإنما هو مما يكون في بلاد الشمال ، الأول فيه الحيرة والضلال واللهفة وشدة الحاجة ، وضياع الشيء الذي كان يظن نفعه ، والثاني فيه ظلمات بعضها فوق بعض ، وأمواج بعضها فوق بعض ، من فوقها سحاب ، وهنا منبع يمد بالظلمات هو هذا السحاب ، وهو مقابل في مثل النور لنبع الضياء (شجرة مباركة) وهذا كله دلني على ما قلته من أن الأول مثل صالح أعمالهم ، والثاني مثل أعمالهم الأخرى التي هي الفجور والغدر ، وكل ما يصدر من قلب أعماه الكفر ، وملأته ظلماته .

وبقيت كلمة واحدة ألمح إليها مالك بن بني رحمه الله ، وهو من أعيان علمائنا الذين أغفلناهم ، فقد ذكر أن المثل الثاني : ﴿ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ ﴾ (النور: ٤٠) إلى آخره فيه دليل النبوة ؛ لأنها صورة لا يستطيع نسيج بيانها إلا من عاش في بلاد الشمال الأوروبي ، وهذا الذي قاله رحمه الله كما قال :

(وقد استقصيت الشعر الجاهلي في وصف السحاب والمطر ؛ ولم أجد فيه شيئًا يشبه هذه الصورة، وأبلغ ما قيل في ذلك قصيدة امرئ القيس التي فيها :

وأضحى يَسِحُّ الماءَ عن كل فَيْقَةٍ   يَكُبُّ على الأذقانِ دَوْحَ الكَنَهْبُلِ

والفِيقة بكسر الفاء : ما بين الحَلْبَتَين ، وأراد الدفعة من المطر ، والكنهبُل : ما عظم من شجر العضاة، وكبه على أذقانه، يعني اقتلاعه من شدة المطر، وفيها ذكر الجبل (أبانًا) وأن المطر أغرقه فصار مثل كبير الأناسي في بردة مزينة :

كأنَّ « أبانا » في أفانينِ وَدْقِهِ   كبيرُ أُناسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّلِ

هذا ثم إن السورة الكريمة ذكرت بعد ذلك « جبال الجليد » وهو مما لا يُعْرَفُ في بلاد العرب ؛ تأمل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ (النور:٤٣) تأمل جبال البرد ، والودق هو البرق ثم تأمل مرة ثانية تجد هذا الكلام من جنس المثل الثاني لأعمال الذين كفروا ؛ وكأنه امتداد لخيوطه وخطوطه وإن كان قد جاء على غير طريقة المثل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

أفلا يتدبرون القرآن

من أعظم نعم الله التي أنعمها علينا هي تيسيره القرآن العظيم للذكر ، فالكل مطيق لقراءته ، حتى الأميون الذين لا يقرؤون الكتاب يحفظون من سور القرآن ما تتم به عبادتهم ، وقد غرس الله سبحانه محبَّة كلامه في قلوب عباده ، تراهم يرتلون في صباحهم ، ومسائهم ، بل وفي غدوهم ، ورواحهم وشاع ذلك وتكاثر حتى إنك لترى أبناءنا في المراكب العامة يرتلون القرآن بصوت خفيض ، لا تسمع منه إلا همسًا ، حلوًا ، عذبًا ، رطبًا ، غضًّا ، لقلوبهم الغضة الرطبة ، وهذا جيد رائع لأنك بهذا توشك أن ترى جيلاً يتكاثر وينمو حول المصحف مرة ثانية .

وهذا يدعونا إلى مراجعة السر في الحكمة الإلهية التي يسّرت القرآن للذكر وزيَّنته إلى القلوب ، حتى ترى أمة مقبلة على الله ، تضع كلام الله الشريف في إهابها ، وهي غادية ، رائحة ، تعمل في عمارة الكون ، وخلافة الله في الأرض ، وما أعظم هذه العمارة ، إذا كانت من رجال مقبلين على الله ، استنارت قلوبهم بنور كلامه سبحانه ، فلا غش ، ولا سرقة ، ولا ظلم ، ولا نهب ، ولا خداع ، ولا سفك للدماء ، ولا فجور ، إلى آخر سلسلة الأوصاب التي تفتك بالمجتمعات في غيبة ذكر الله وكلمة التقوى ، وحين يُحاربُ التدين ، أو حين تُرمى الشعوب بالغفلة والنسيان ، أو حين تظهر فيها نوابت خبيثة شريرة تصدها عن سبيل الله ، وتصف ذلك بالتخلف ،

والرجعة إلى عصور الظلمات ، وتغري الأفراد والجماعات بطرق «العيش الحديثة» ، و«السلوكيات المادية» المقتبسة من حضارات الآخرين ، إلى آخر ما تجده على الساحة من صور ورموز ومذاهب .

وقد ذكر علماؤنا أن المقصود من قراءة القرآن وحفظه ، والمحافظة على كل حرف فيه ، وكل حركة وسَكْتَةٍ وَوَقْفَة ، بحيث يبقى على صورته التي نزل بها ، ثم توريث هذه الصورة لأجيال الناس جيلاً بعد جيل ، ذكر علماؤنا أن المقصود بذلك هو بقاء حجة الله على عباده شاهدة ، حاضرة ، حية تتحرك في حياة الناس ومعهم ، لأن هذا القرآن هو معجزة النبي ﷺ ، ودليل نبوته ، وهو مغاير لمعجزات الأنبياء عليهم السلام ، من حيث كانت أفعالاً أجراها الله على أيديهم ، ثم انقطع وجودها ، وبقي خبرها ، كقلب العصا حية بالنسبة لموسى عليه السلام وإبراء الأكمه ، والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله ، بالنسبة لعيسى عليه السلام .

القرآن معجز للبشر جيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة ، هو هكذا يوم أن نزل وهو هكذا اليوم ، وسوف يظل كذلك حتى ينتهي التكليف ، ويُنفَخَ في الصور ، لا يتغير من هذه الحقيقة شيء ألبتة ؛ لأن التقدم العلمي الذي تحققه البشرية في مسيرتها خط آخر مغاير لخط المعجزات ، من حيث كانت المعجزات أمرًا لا يدخل في طوق البشر ، فسوف تظل أجيال الناس عاجزة عن أن تأتي بصورة من مثله ، ولو وضع العلم أقدامهم على أنف الثريا ، لأن عجزهم عن أن يأتوا بسورة ، كعجزهم عن إحياء الموتى ، وسوف يظل عجزهم عن إحياء الموتى ضربة لازب لا تنفك ، وهذا واضح ولا ينبغي أن

يلتبس ، هذا هو المقصود من تيسير القرآن للذكر وشيوع تلاوته وتوريث طرائق ضبطه وترتيله .

وهذه الحقيقة غائبة عنا ، ونحن نقرأ القرآن أو نسمعه ، وليس من الصواب أن تغيب ، لأن حضورها يدفعنا إلى نفهم ما نقرأ ، وتدبره ، وفي التفهم والتدبر ما يكشف لنا من روائع القرآن ، ما يزداد به الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (الأنفال:٢) ، ولا يمكن أن يزداد الإيمان بقراءة الغافل ، والذاهل ، والذي لا يتدبر دقائق معانيه ، ورقائق مراميه ، وإنما يزداد الإيمان بالقراءة التي تحاول أن تستكشف ما في القرآن مما بهر العقول ، وأعجز الجمهور ـ كما يقول علماؤنا رحمهم الله .

وقد أمرنا الله سبحانه أن نتدبر القرآن وجعل سبحانه أصل الإيمان مرتبطًا بهذا التدبر ، قال سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢) . التدبر المطلوب في الآية هو التدبر الذي يكشف ما في القرآن من اتساق ، وتناغم ، وتوافق ، والتدبر الذي يدرك خلو القرآن من الاختلاف ، والتناقض ، والتضارب ، وليس المراد الاختلاف والتناقض في الأوامر والنواهي ، كأن يحرم شيئًا في سورة ، ثم يحله في أخرى ، وإنما المراد اختلاف آخر ، أدق من ذلك وأشفُّ ، وحسبنا أن نتدبر كلمة الاختلاف هذه في هذه المقالة ، وقبل أن نقف عند هذه الكلمة الشريفة أزيد أصل المسألة وضوحًا ، وأكرر ضرورة إعمال الذهن ، وإعمال البصيرة ، ومزيد اليقظة ، والتنبه ، ونحن نقرأ القرآن ، حتى نحصل على شيء مما فيه ، وفيه خير كثير لنا ولأجيال الأمم كلها ، وإنما يأخذ كل قدر

ما يستطيع وعيه ، واستيعابه ، وهذا الثراء الذي لا ينقطع مدده ولا يَخْلَق على كثرة الرد هو إعجازه ، وقد جمع القرآن الكريم بين أمور ثلاثة في قرن واحد في أول سورة الرحمن ، قال سبحانه : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:١-٤) ، وأهل العلم يقولون إن تجاور المعاني ، وضم بعضها إلى بعض يفيد أنها متقاربة ، وقد نبّه رسول الله ﷺ إلى ذلك وهو ﷺ أعلم أهل الأرض بما أنزل عليه ، لما نزلت آية الحج : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ (الحج:٣٠) ، وقف ﷺ على ناقته ، ورفع صوته بالآية ، وقال : « عَدَلَت شهادة الزور الإشراك بالله ، عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ، عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » أخرج الحديث أبو داود وأحمد والترمذي .

وقال العلماء في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء:٢٣) ، دل عطف بر الوالدين على عبادة الله وحده على أن بر الوالدين بمكان كبير عند الله ، وهكذا تتجاور المعاني فتتقارب وتتشارب ، وهكذا قل في تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وتعليمه البيان ، هذه الثلاثة كأنها شيء واحد في عجز البشر عن أن يأتوا بمثلها ، فالقرآن كخلق الإنسان ، وكتعليمه البيان ، وهذه الثلاثة معجزة يعني أن الإنسان من حيث هو مخلوق حي ذو كبد وروح معجز ، ومن حيث هو ناطق بالبيان معجز ، وهذا كله يعني أن تدقيق علماء الطب في معرفة التشريح ، ووظائف الأعضاء ، وتناسق هذه الوظائف يهديهم دائمًا إلى استجلاء مزيد من آيات الحكمة والقدرة في خلق هذا الإنسان ، وكذلك تدقيق علماء اللغة في تحليل كلمات القرآن

وتحليل تراكيب هذه الكلمات ، وتناسق أصواتها ، ودلالاتها ، يهديهم إلى استجلاء مزيد من آيات الحكمة في هذا القرآن العظيم .

قلت : هذا قبل تدبر كلمة ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢) لبيان أنه لا يستطيع أحد أن يصل إلى نهاية المعنى في الكلمة القرآنية ، وأن يضع يده على كل ما فيها من لطائف ، ورقائق ، لأنها مثل خلق الإنسان ، كلما كشفت منها وجهًا تبدت لك من تحته وجوه كثيرة .

ثم أعود إلى الآية ، مهتديًا بكلام العلماء الذين ذكروا أن الاختلاف المنفي عن القرآن هو الاختلاف الذي يعتري النفس الإنسانية ، وينعكس على كل ما يصدر عنها ، انعكاسًا لا ينفك ، وذلك لأن أحوال الضعف والفتور أحوال ملازمة للإنسان ، ولابد لهذه الأحوال أن تتسلل إلى ما يصدر عن هذه النفس ، لأن قوة النفس وفتورها وصفان لا يرتفعان عنها وهي تباشر ما تنجز من أعمال وأقوال ، ولاحظ نفسك وأنت تقرأ أو تكتب أو تمارس ما شئت من الأعمال تجد نفسك في هذا كله لا تمضي على خط بياني واحد ، وإنما تراها تعلو وتسفُل ، وتقوى وتضعف ، وتصيب وتخطئ ، وهكذا تتوارد عليها الأحوال لا محالة ، فإذا كانت صناعتك الكتابة والقراءة مثلاً وجدتَ نفسك وقد أصبت الفهم هنا ، وأخطأت هناك ، وأحسنت عرض تلك الفكرة ، واختلت في بيانك فكرة أخرى ، وهكذا لا تقرأ مقالة ولا رسالة ولا خطبة إلا وجدت فيها شيئًا يؤخذ وشيئًا يترك ، وقصارى ما عند المجيد أن تتكاثر عنده الأشياء التي تؤخذ وتقل الأشياء التي تترك ، أما أن تجد كلامًا رائعًا كله ، وسديدًا كله ، وعذبًا كله ، وفائقًا كله ، فهذا ليس في بلاغة الناس ، واقرأ

ما شئت مما دبجته قرائح دهاقين الشعر ، والبيان ، فلن تجد قصيدة رائعة كل كلماتها ، ولا رسالة فائقة كل فقرها ، وكان الباقلاني واعيًا لهذه المسألة حين كتب ينقد قصيدة (قفا نبك) لامرئ القيس ، وقصيدة (أهلا بذلكم الخيال المقبل) للبحتري ، وذلك لأن جمهور العلماء على أن أمرأ القيس أمير شعراء الجاهلية ، وأن قصيدته (قفا نبك) أميرة شعره ، وكذلك جمهور العلماء على أن البحتري أشعر المحدثين ، وقد سُئل هو نفسه عن خير شعره فقال : « أهلاً بذلكم الخيال المقبل »

وقف الباقلاني عند هاتين القصيدتين ليدل على ما فيهما من ضعف واختلال وهو وإن كان قد جار على الشاعرين إلا أن الأمر في عمومه كما قال لا يخلو شعره من غميزة ، ومما اتفق عليه أصحاب النظر في الشعر والبلاغة في الأمم كلها والآداب كلها والأزمنة كلها ، أنه ليس هناك قصيدة بنيت كلها من العناصر الشعرية المصفاة ولابد أن تداخلها عناصر غير شعرية ، أما الشعر الخالص المصفى فهو في أحلام الشعراء تستشرف نحوه أحلامهم ، وفي خيال النقاد لم يقعوا عليه بعد ، كان البحتري يستمع إلى الشعر ، وهو من علماء الناس به ، فإذا وقع على الشذرة الرائعة قال هذه عروق الذهب .

وهذا هو الاختلاف القائم في كلام الناس والذي لا تجد شيئًا منه في القرآن ، وكلام الإنسان يختلف قوة وضعفًا على حسب أبواب المعاني التي اعتادها ، فقد ترى الكاتب يبرع في كتابة المقالة السياسية ، فإذا عالج بقلمه مقالة أدبية ضعف واهتز ، وقد تراه يحسن كتابة القصة فإذا عالج الشعر

أو المسرح اختل عليه بيانه وهكذا ، ولا ترى كاتبًا واحدًا يجري قلمه في أبواب المعاني المختلفة على ضرب واحد من الجودة ، لا تنبو فيه كلمة ، ولا يسقط له حرف ، ولا ينفر عليه تركيب ، ولا يعتاص له بيان ، لا ترى هذا أبدًا ، وهذا هو تاريخ العلم والأدب والعلماء والأدباء ، لكل منهم باب غلب عليه ، وأحكم المقالة فيه ، فإذا خرج عنه سبقه من هو أقل منه شأنًا ، وأضيق منه ذرعًا ، ولو كان مخرج القرآن هو هذه النفس البشرية لرأيت ذلك فيه ؛ لأنه متعدد المناحي ، متباعد الغايات ، فيه القصص ، وفيه الموعظة ، وفيه الفرائض ، والوعد ، والوعيد ، إلى آخره ، ومع ذلك ترى بيانه كاملاً في الكل ، رائعًا في الكل ، له اتساق واحد ، وضرب واحد ، لا يعلو هنا ويهبط هناك ، ولا يقوى هنا ويلين هناك ، ينتفي الاختلاف عن جميعه انتفاء تامًا ، ويختار كله من غير استثناء ، وإذا أجريت كلمة منه في خطبة أو رسالة ، ظهرت وبهرت وارتفعت وقهرت وهذا ضرب غير ضروب الكلام كله ، ومعدن غير معادنه كلها .

وتدبر القرآن جاء في أربع سور :

آية النساء هذه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢) ، والثانية في سورة محمد : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد:٢٤) ، والصياغة واحدة ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ والتعقيب مختلف فهو في سورة النساء بيان تمام البرهان وثمرة التدبر وهو معرفة نفي الاختلاف الذي لا يوجد في كلام البشر ، وهذا متناسب مع قوله قبل ذلك : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء:٨١) والتعقيب في سورة محمد ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد:٢٤) وفي هذا من الشدة ما ترى وهو مناسب لقوله قبل الآية: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (محمد:٢٣) ، وهذا جيد واضح، والآية الثالثة في سورة المؤمنون : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٦٨) ، والقول هو القرآن ، والمراد بالاستفهام كالذي قبله إنكار لهم وتوبيخ على تقصير قد وقع ، وهو عدم التدبر ، وهذا من صيغ الاستفهام النادرة التي تدخل فيه همزة الإنكار على النفي ولا يراد الإثبات ، والكثير كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح:١) ، ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ (الزمر:٣٦) ، ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف:١٧٢) ، إلى آخره ، والآية الرابعة في سورة ص : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص:٢٩).

وبهذا يكون كل تدبر في القرآن مقصود منه بيان أنه حجة الله وأنه الحق وأن النظر فيه بمنهج مستقيم يهدي إلى ذلك لا محالة ، وهذا أصل من أصول الدين ، وواجب العلماء هو فتح باب التدبر في آيات الله لجماهير الأمة ، لأنهم هم الذين يستطيعون التفهم والتدبر والاستنباط ، ثم يُحَدِّثون الأمة بما يفتح الله به عليهم ، وهذا ضروري ومُلِحٌّ في هذا الوقت لتنتفع الأمة بهذه الطاقة الروحية الهائلة المتجهة إلى الله ، والتي ملأت الأرض قرآنًا ، والمتمثلة في هذه الجموع الهائلة التي لزمت المصحف ، بصورة لم يحدث لها نظائر في التاريخ الحديث ، مما يؤكد أننا في مرحلة تحول نحن ذاهلون عنها ، وغيرنا جاد في تفريغها من مضمونها ، وهذا تكليف من الله لأهل العلم ، حتى يجتهدوا في تيسير طرائق التدبر للقرآن لهذه الجماهير التي

احتشدت حول نبعه مرة ثانية تطلب الرِّي ، فَهَيَّا يا معشر العلماء أجيبوا داعي الله وبينوا ، ووضحوا حتى يهتدي من ضَلّ ويقترب من ابتعد ، وحتى يَصْدَح بهم صوت القرآن يقود الدنيا مرة ثانية ، وليس هذا ببعيد ، بل هو كائن إن شاء الله .

* * *

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ (الحج:٢٧)

جاء ذكر الحج في القرآن الكريم في سورة البقرة وتتابعت الآيات في شأنه من أول آية (١٩٦) : ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة:١٩٦) إلى آخر الآية (٢٠٣) : ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ (البقرة:٢٠٣) كما جاء في سورة آل عمران في آيتين اثنتين من أول قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:٩٦) إلى آخر قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران:٩٧) ومعلوم أن في القرآن سورة سميت الحج وقد جاء ذكره فيها من أول آية (٢٥) قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ﴾ (الحج:٢٥) إلى آخر آية (٣٧) قوله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (الحج:٣٧) وسوف نعرض بإيجاز المقاصد من ذكره في هذه السور الثلاث مبتدئين بآل عمران لاختصار الكلام فيه ، وذلك لأنها ذكرت الحج في سياق الحديث عن بني إسرائيل ، وكان كل الطعام حِلاً لهم إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، وأنهم ظلموا ، وحرفوا ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (آل عمران:٩٥-٩٧) إلى آخر الآية (آل عمران:٩٥، ٩٦) والمقصود هو أن الحج عبادة قديمة قدم النبوات ،

وأن أبا الأنبياء عليهم السلام له فيه مقام ، وأنكم أيها اليهود لو لم تحرفوا لكنتم من المسارعين باتباع الإسلام الذي هو ملة إبراهيم الذي هو أبو الأسباط الذي أنتم منهم ، وأن هذا الإسلام الذي أنزله الله على محمد صلوات الله وسلامه عليه هو الدين الذي ورث النبوات ، وأن أصوله هناك عند إبراهيم عليه السلام الذي كان حنيفًا مسلمًا ، وأن قبلة الإسلام فيها لإبراهيم عليه السلام مقام ، وهذا المقام آية من آيات بينات على نبوة محمد ﷺ ، وهذا هو المقصود الظاهر من ذكر الحج في هذه السورة التي عُنيت بحوار أهل الكتاب ، ونودوا فيها كثيراً ، ونوقشوا بهذا المنطق الدقيق المحكم .

وهذا خلاف ما جاء في سورة البقرة التي عُنيت آياتها بأحكام الحج ، وذكر المتعة ، والقِران ، والهَدْي ، وحكم من أحصر ولم يتم الحج أو العمرة ، والإفاضة ، والمشعر الحرام وكأن آيات البقرة هي آيات الأحكام في باب الحج ، ووجه هذه المخالفة هو أن السياق في سورة البقرة سياق السؤال عن الأهلّة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة:١٨٩)، وهذا سياق تقرير أحكام .

أما سورة الحج فلها شأن آخر ، هو غايتنا من هذا المقال ، وملخصه أن السورة تدور حول حوار الإنسان في شأن أمرين جليلين ، هما : الإيمان بالله ، والإيمان بالبعث ، وقد تكرر النداء فيها بصيغة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ (الحج:٥) وقد افتتحت به السورة ، ثم جاء في الآية الخامسة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ (الحج:٥).. إلى آخر الآية ثم جاء في آية (٤٩):

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ (الحج:٤٩)، ثم جاء في آية (٧٣) : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ ﴾ (الحج:٧٣) ولما بدأت السورة بنداء الناس أشعرتْ من أول الأمر أنها تدعو الإنسان ليقبل على أمرٍ مهمٍّ أفصحت عنه بعد هذا النداء ولواحقه ، وهو أن منطق التوحيد والإيمان قد غشيته لجاجة أهل الجدل ، وألْبَس سبيلَه منطق يتبع الأهواء : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ (الحج:٣) .

وهذا واضح في أن الحوار في قضية الإيمان يجب أن يكون حوارًا علميًّا مترفعًا عن الأهواء التي يزينها كل شيطان مريدٍ ، وهذا شيء رائع ومنطق سديد .

وبعد ما طرحت السورة هذه القضية سلك القرآن في حوارها مسلكًا مضبوطًا بضوابط الحكمة ، وداخلاً في غمار العلم المتغلغل في الأشياء ، تأمل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ ﴾ (الحج:٥) ، هذا الحوار في أمر البعث بنى على أصول علمية ، هي من أصلاب البحث العلمي ، وليس من الجدل الكلامي .. الحوار لابس الأشياء ، وأخذ يحللها ويتغلغل في علم تشريحها ، وبهذا ينتقل العقل الإنساني من المحيط اللغوي البياني،الذي كان قد بشم منه، وملأ طباق الأرض بشعره ، ورجزه ، وصخبه ، إلى المحيط العملي ، الذي ينظر في العلقة وكيف تتخلق حتى تصير مُضْغة وما مراحل هذا التخلق ، والغريب أنها دخلت بالحوار في علم الأجنة وهو علم بيننا وبينه حجب ، لأنه في الأرحام ، ولن نستطيع أن نحكم فهم هذا إلا بعلم متسع في ميادين مختلفة ، منها قيام صناعات متطورة تعين على رصد هذه المراحل ، نعم

يكفي الإنسان محدود الثقافة أن يتدبر هذا الأمر الدال على وجود الخالق ، ولكن هذا على مستوى قصة الإنسان الذي رضى الله له هذا الدين ، وأتم به النعمة ، لابد أن يستوفي فقهه بالوسائل العلمية المعتبرة في هذا الباب في كل زمان وتأمل قوله سبحانه : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الحج:٣) في صدر هذا الحديث ، ومن دلالات العلم ما نحن فيه في زماننا ، وما تكون الأجيال فيه في أزمنتها ، لأن العلم هنا مطلق ، ليس علم الكلام ، ولا علم الفقه ، ولا علم المنطق ، وإنما هو كما ترى . وهذا شيء لابد من اعتباره ، وإلا نكون قد أنقصنا لفظ القرآن بعض مدلوله ، والآية تقول إن من لم يحكم فهم هذا فهو مجادل جاهل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الحج:٣)، ثم هو غير عقلاني ، لأنه يتبع هواجس نفسه ، وأهواءها ، لم يستطع أن يُحَيِّدَ نفسه ، وينظر نظرة علمية بحتة يتخلص فيها من كل هواجس الذات : ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ (الحج:٣) وكأن الآية تأخذ بيد الإنسان برفق شديد لتضع قدمه على طريق المنهج الذي يتجرد فيه لطلب الحقيقة ، بالعلم المتسع ، والعقل المتئد ، ولو حللت تاريخ الحضارات ، في تاريخ الإنسان ، من يوم أن خلق الله أبانا آدم من سلالة من طين ، فلن تجد سبيلاً ارتقى بالإنسان وازدهرت به حياته وإنسانيته يخرج عن هذا الذي صاغته الآية في إيجازها الشديد .

ثم تأمل نتائج هذا الطريق تجد الآية بعدما أرشدت العقل الإنساني إلى الأضواء الساطعة ، في الأشياء ، تنتهي به إلى نتائج هي :

١- أن الله هو الحق .

٢- وأنه يحيي الموتى .

٣- وأنه على كل شيء قدير

٤- وأن الساعة آتية لا ريب فيها

٥- وأن الله يبعث من في القبور ، هكذا بهذا التتابع وبذلك يصير الإيمان بهذه الحقائق العظيمة منبثقًا من العلم العملي أي : العلم بالأشياء المقترن بالتفكير العلمي الخالص من شوائب الأهواء ، وهذا شيء فوق الرائع .

وفي هذا السياق يأتي ذكر الحج ، وقد قلت إن المقصود الأول في السورة هو حوار الإنسان وإخراجه من محيط الثرثرة اللغوية التي تؤججها الأهواء والنوازع والهواجس ، إلى التأمل في الأشياء ، وتحليلها ، والارتكاز على العلم بها في استنباط الأصول الفكرية ، والعقائدية ، ولما شارف الكلام على الانتقال إلى الحج رمى القرآن العظيم بلمحة تجعلك تقول إن هذا القرآن كأنه نزل فينا نحن ، فقد علم الحق أن الحج هو ملتقى أهل القبلة ، من كل فج من فجاج الأرض يأتون ، وقد اختلفت مناشئهم ، وطبائعهم ، وعاداتهم ، وأنه قد يكون هناك من اندس فيهم لحاجة في نفس إبليس قضاها ، فكان لابد لهذا الحشد الحاشد من ضوابط أخلاقية تضمن سلامة هذا الملتقى ، حتى لا تندلع فيه كلمة غاضبة فتخرجه من قدس جلاله ، فجعل الحق في مدخل الحديث عنه هذه الكلمة : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (الحج:٢٤) ، تأمل الطيب من القول ، وهذا هو باب الكلام ، ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ ، وهذا هو باب الفعال ، أعني : السلوك المحمود الذي لا يجد فيه أحد غميزة ، هذا هو سياج هذا اللقاء : ﴿ فَلَا رَفَثَ

وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة:١٩٧) ، وقد انتقل الكلام إلى الحج من خلال الحديث عن الذين كفروا وقد سبق بذكر الخصومة بين الفريقين : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ﴾ (الحج:١٩) ، ثم ذكر عقاب أصحاب اللجاجة والجدل ، الذين يلبسون الحقائق ، ويضلون الناس ، وأن هؤلاء تُقَطَّعُ لهم ثياب من نار ، وأنه تُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم ، وخص الرؤوس هنا لأنها هي التي لَفَّقَت القول الخبيث ، وزَوَّرت به حقائق الأديان ، ولَبَّسَت على الناس ، وأضلتهم ، ثم ذكرت أن لهم مقامع من حديد ، تطرق بها جماجمهم الكاذبة ، ثم قابلت هذا بنعيم أهل الحق الذين وقفوا بجانب الحقيقة يكشفون وجهها الحر ، بالمنطق الرفيع ، وليس باللغو ، وصخب التهريج ، ثم استأنف الحديث عن الذين كفروا ، وهيأ لأمرين :

١- الحج .

٢- الجهاد .

وهذا هو الكلام ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج:٢٥) .

تأمل العطف في قوله : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الحج:٢٥) لأنه مهم ، ووجه أهميته أن هؤلاء لم يكفروا فحسب ، يعني لم يعيشوا مسالمين كافِّين أيديهم وألسنتهم عن المسلمين ، ولو كانوا كذلك لكان لهم شأن آخر ، وإنما أضافوا إلى كفرهم الصد عن سبيل الله ، أي عن دين الله ، وعن المسجد الحرام ، وهذا سلوك استفزازي ، وعمل عدواني بلا ريب ، وجاء

التعبير عن هذا بالمضارع ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ (الحج:٢٥) ، مع أن الذي قبله فعل ماض ﴿ كَفَرُواْ ﴾ (الحج:٢٥) ، وذلك للإشارة إلى أن هذا الفعل الذي هو الصد والمحاربة والاعتداء عمل يتكرر منهم ويتجدد ، بخلاف الكفر فقد كفروا وانتهى الأمر ، وهذا العطف وهذا الفعل المضارع إيذان بأن الآيات ستأتي بالإذن في القتال ، وقد جاء ذلك بعد ثلاث عشرة آية ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج:٣٩) ، وهذا هو ما يسميه العلماء النظم المعجز ؛ لأنه يستحيل أن تجد مثل هذه اللمحة في شعر شاعر ، وهذا هو الشعر كله بين يديك ، ثم إنه عطف المسجد الحرام على سبيل الله ، وهو منه ؛ لأن سبيل الله عام يشمل المسجد الحرام ، وذلك للإيذان بتميز فريضة الحج ، وضرورة تأمين الطريق لأدائها ، وأن هذا واجب الأمة كلها ، وإذا كان حوار السورة حول التوحيد فالحج إلى بيت الله والدخول في جملة الطائفين والقائمين والركع السجود هو برهان التوحيد الساطع ، من أول النبوات ، ولهذا تجد مداخلات تتخلل الحديث عن الحج في سورة الحج تختلف عن المداخلات التي تتخلل الحديث عن الحج في سورة البقرة ؛ لأن سورة البقرة كما قلت احتَفَلَتْ ببيان الأحكام ، متجهة عند فواصل الآيات إلى التخويف بشدة العقاب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (البقرة:١٩٦) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة:١٩٧) ، أما المداخلات في سورة الحج فشيء آخر ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج:٢٥) . وهذا من أشد الوعيد ، ويجب أن يكون بين عَيْنَيْ من يتجه إلى البيت ، لأن الله سبحانه قد رفع عنا الحرج فيما تحدث به النفس إلا في البيت الحرام ،

فمجرد إرادة المعصية ، والحيدة عن مرضاة الله ، وهو معنى الإلحاد من قولهم ألحد عن القصد أي مال ـ مجرد هذا ـ موجب للعذاب ؛ لأنه خروج عن مقتضيات الخشية ، والإجلال ، والتعظيم لصاحب البيت ، وإصغاء إلى الأهواء والهواجس ، ثم تأمل قوله سبحانه : ﴿ نُذِقْهُ ﴾ (الحج:٢٥) فقد أسند التعذيب إلى نفسه ، وهو الرحمن الرحيم ، ووراء ذلك من فرط الغضب ما وراءه ، ولم يكن هذا لو قال يذوق العذاب مثلاً ، لأن هذا المُحَدِّثَ نفسه بالمعصية لم يخف مقام ربه ، وهو في بيته ، وقد أعد الله له كرم الضيافة ، لما دخل بيته ، فجعل له الصلاة بمئة ألف صلاة ، فإذا خرج المسلم من محيط هذا القدس الأكرم وصاح في البيت وصخب غير مكترث بجلاله فقد استحق غضبه ، وأخْذَه ، وإنَّ أخذ ربك لشديد ، قلت : وهذا مما يجب أن يتدبره كل حاج ومعتمر .

ثم تجد في المداخلات قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ (الحج:٣٢) ، الموقف موقف إعظام لشعائر الله ، ولا يعلو شيء في القلب فوق تعظيم حرماته ، وشعائره ، ثم تجد من المداخلات هذا المثل العظيم الذي يربط موضوع الحج بموضوع السورة وهو تثبيت عقيدة التوحيد ، يصف القرآن في مدخل هذا المثل قلوب المؤمنين بقوله سبحانه : ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ (الحج:٣١) أي متجهة إلى الله لا تشرك به أحدًا ، ثم قال : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج:٣١) .

تأمل كيف انعقد المثل على سقوط هذا المشرك من السماء ، ثم تفرع على هذا السقوط بقية المثل : ﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ (الحج:٣١)

قلت إن سياق آيات الحج في سورة الحج سياق تعظيم لله وحرماته ، وهذا ارتفاع بالنفس ؛ لأن خلوص العبادة لله ارتقاء بالإنسان ، وتسام يسمو به فوق الرذائل ، والصغائر ، والدنايا ، وهذا الذي أشرك إنما سقط من سماوات القرب ، وعجزت روحه عن أن تستشرف في مراقي الإيمان ، وبيان أنه تهوي به الريح في مكان سحيق فيه مقابلة خفية بينه وبين ارتقاء هذا المقبل على الله من الفج العميق .

وفي المداخلات قوله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج:٣٤-٣٥) .. وقوله سبحانه : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (الحج:٣٧) ، وهذا كله تركيز على تربية المهابة والخشية ، وكأن المسلم في أيام الحج مرابط على ثغور نفسه ، حتى لا تداخلها هواجس المعصية ، وحتى تظل النفس حية ، حساسة ، واجفة ، وجلة ، لأن هذا هو سبيل الله ، وسبيل رحمته ، ورضوانه ، وهو ثمرة الإيمان ، وقد قلت إن سورة الحج تدور حول تثبيت عقيدة التوحيد ، وإن الحج هو ذروة عقيدة التوحيد ، وثمرته الرفيعة ، لأنه بهذه الأوصاف التي يجب أن يتبعها الحاج قمة الخشية ، وقد ذكر القرآن الكريم أن معرفة الله تقود إلى خشيته قال تعالى : ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ (النازعات:١٩) ، والخشية هي التقوى وهي وجل القلب عند ذكر الله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات:٤٠-٤١) .

ونسأل الله الرحمة والرضوان ونصلي ونسلم على نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

والذين هاجروا في الله

تاريخ الإسلام تاريخ سخيٌّ بالعطاء ، ترى في حوادثه وأيامه زخراً حيًّا ، ودروسًا ملهمات ، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة ، والأطوار الحضارية ؛ لأنه دين الفطرة ، والفطرة باقية ما بقي الإنسان، لأن الفطرة ليست جزءًا من كيانه، وإنما هي كيانه ، ولهذا صارت قيم الإسلام ، ونماذجه السلوكية ، كالطعام والشراب والتنفس بالهواء ، وكما أن اختلاف الأزمنة ، والأطوار الحضارية ، لا يغني عن حاجة الإنسان إلى هذه الأشياء، كذلك لا يغني عن حاجة الإنسان إلى القيم الإسلامية ، والفضائل الإسلامية ، والممارسات السلوكية الفذة في تاريخ الإسلام ، لأن الذي خلق الإنسان هو الذي أنزل له هذا الدين وأتم به النعمة ، والهجرة من العبادات الرفيعة القدر ، وقد ذكر القرآن الكريم المهاجرين ، وأنهم يرجون رحمة الله ، وهذا أنبل وصف يوصف به المؤمن ، وذكر أنه سبحانه يكفر عنهم سيئاتهم ، وهذا أعظم وعد يعد الله به صالح عباده ، والمهاجرون في القرآن طبقة من أمة الإسلام ، لهم مرتبة أرفع ، لا يقاربها إلا مرتبة الذين يحبون من هاجر إليهم ، وكأن مكانة الأنصار رضوان الله عليهم وهم الذين تبوءوا الدار والإيمان ، إنما يرجع كثيرٌ منها إلى أنهم آووا إخوانهم ، وأحبُّوهم ، فرفع منزلتهم بسبب من الهجرة ، وبنفح من نفحاتها .

وقد قرن القرآن الكريم في كثير من الآيات بين ثلاثة :

١- الإيمان .   ٢- والهجرة .   ٣- والجهاد .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:٢١٨) ، وانظر كلمات الآية تجد جاهدوا معطوفًا على هاجروا ، وأنهما معًا صلة الموصول وكأنهم شخصٌ واحد ، أو جماعةٌ واحدة عبر عنها بالذين ، كما أن الإيمان صلة الذين قبلها ، وهذا التفريق يعني أن الهجرة لها مزيد صلة بالجهاد ، وأن توفر الإيمان أمر مستقل وحده ، لمزيد شرفه ، لأنه هو الأصل ، وقد جاءت الآية في سياق مواجهة القوى المعادية للإسلام والمسلمين ، والتي لها شأن واحد في التاريخ كله ، وصفه الحق بقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ (البقرة:٢١٧) ، وهي الآية السابقة لذكر الهجرة مقترنة بالإيمان والجهاد .

وهذا الهدف للقوى المعادية للإسلام لا يزال قائمًا ، وهو يدور على أرضنا بقوة وشراسة وجبروت ، والأذن التي لا تسمع قعقعته من حولها أذن غافلة ، وقد جاء في سورة الأنفال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال:٧٢) ، وقد ذُكِرَتْ أيضًا في سياق المواجهة مع الطوائف المعادية لدين الله .. الذين ينقضون عهدهم في كل مرة .. والذين يخاف المسلمون منهم خيانة .. والذين كفروا .. وقد تكرر الربط بين الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، في الآية التي جاءت عقب هذه الآية بعد الفصل بآية واحدة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (الأنفال:٧٤) ، وقد أضافت إضافة جليلة ، هي وصفهم بأنهم المؤمنون حقًا ، وتركيب اللغة يفيد

قصر الإيمان الحق عليهم ، وهذا يعني أنهم طبقة متفردة كما قلت ، جاءت الهجرة واسطة بين الإيمان والجهاد في كل آية قرنت هذه الثلاثة المضيئة ، ولهذا وجوه منها : أن الهجرة كانت مقدمة للأمر بالجهاد ، لأن المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيل الله ، هم الذين أذن لهم بالقتال لأنهم ظلموا .

وإذا كانت الهجرة بمعنى الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام قد انتهت بالفتح ـ ولا هجرة بعد الفتح ـ فإن الهجرة بمعناها الآخر الذي سوف ننقل شرحه من كلام الرسول ﷺ ، باقية ، والجهاد باق ، والأمر الذي دعا إلى الهجرة والجهاد في الزمن الأول ، وهو كيد أعداء الإسلام باق ، أيضًا بل إنه انتقل الآن إلى حرب الإسلام ، داخل نفوس المسلمين ، وداخل ضمائرهم ، وليس داخل ديار الإسلام فحسب ، ومن هنا كانت أهمية ذكر الهجرة ، وذكر دروسها ، ولعل شيئًا من هذا وقع في نفس عمر رضي الله عنه ، حين اتخذ التاريخ الهجري لتكون الهجرة والجهاد الذي هو قرينها ، بين يدي المسلمين في كل يوم ، وفي كل حساب ، وقد كان عمر جنديًا من جنود الله ، وصاحب بصيرة نافذة ، لم يكن ليغيب عنه أمر مهم في حياة هذه الأمة وهو تعرضها للكيد الدائم من أعدائها وحاجتها الدائمة إلى الجهاد .

قلت : إن اقتران الهجرة بالجهاد في القرآن الكريم له وجوه ذكرت واحدًا منها ، والثاني : أن الهجرة كانت بمثابة إعداد النفوس للجهاد ؛ لأن الإيمان الذي لا ينهض صاحبه بتكاليفه إيمان شاحب ضعيف ، والإيمان الذي يعتد به ، هو الإيمان القوي الذي يغير النفوس ويغير الأمم ويغير الحياة ، ولا يكون كذلك إلا إذا غلب في النفس على كل شيء ، حتى الآباء والأبناء والمال

والصاحبة ، وقد ذكر القرآن الكريم هذا في آية كريمة من سورة التوبة بعدما ذكر الذين هاجروا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اتجه إلى الأمة في خطاب حاسم يطلب الموازنة بين ارتباطات النفس بدين الله ، وارتباطاتها بأنفَس ما ترتبط به من أهل ، ومال ، وولد ، وأن تنظر هي لتعرف الأقوى ، فإن قعدت النفس عن داعي الله ، بما يثقلها من حبِّ المال والولد ، فالويل والهلاك ، وإن نهضت إلى الله لا يثقلها شيء عن أمره لحقت بالذين هاجروا وجاهدوا ، لأن هؤلاء مثلٌ حيٌّ تتجسد فيه قوة الارتباط بالله ورسوله ، لأنهم هاجروا أوّلاً ، فخلعوا أنفسهم من مالهم وعشيرتهم ، وأوطانهم ، ثم جاهدوا فخلعوا أنفسهم من أنفسهم ، وباعوها لله بأن لهم الجنة .

اسمع الآية العظيمة : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤) .

وقد جاء ذكر الذين هاجروا وجاهدوا في الآية (٢٠) من السورة نفسها ، وتأمل هذه الكوكبة.. الآباء.. الأبناء.. الإخوان.. الأزواج.. العشيرة.. الأموال.. التجارة.. المساكن.. وهي المحاور التي تدور حولها نفوسنا ، إذا لم نكن قادرين على أن نطرحها كلها ، وأن نقبل على الله وعلى الجهاد في سبيله ، وأن يكون الله ورسوله فوق كل ذلك فلا قيمة لإيماننا ، لأن الله سبحانه قال : ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ ، وهذا وعيد كما قال الشيوخ ، وعن الحسن رضوان الله عليه : عقوبة عاجلة ، أو آجلة ، وقالوا : هي آية شديدة لا ترى أشد منها ، وتأمل ذكر القوم الفاسقين الذين لا يهديهم الله ، ولماذا ذكروا هنا ؟ وليس لهذا

معنى إلا معنى واحد وهو أن أمر الدين حين يأتي بعد هذه الكوكبة التي هي محاور تدور عليها رحى حياتنا ، فمعنى هذا هو رفض هذا الدين عند الله ، وأن صاحبه من القوم الفاسقين ، الذين لا يهديهم الله ، ولما تأملت هذه الآية كأني لم أقرأها قبل ذلك ، ولما راجعت كتب التفسير ، رأيت العلماء يقولون الذي أقوله وأشد منه[1] ، وهذا الجيل الذي أعدته الهجرة للجهاد هو الذي طولب بهذا المطلب الشديد ، وهو أن يكون الواحد منهم متفوقًا على عشرة من خصوم الإسلام ، واسمع الآية التي شرعت هذا قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنفال:٦٥) ، وتأمل الكلام الشريف تجد فيه لمحة ربانية عالية في تكريم هذا الجيل ، فالخطاب أولاً للنبي ﷺ وأمر من الله سبحانه بأن يحرض المؤمنين على القتال ، وكان هذا يقتضي أن يقول إن يكن منهم عشرون صابرون ، ولكنه نقل الكلام من ضمير الغيبة إلى ضمير المخاطب لينالوا شرف خطاب الحق لهم ، وإقباله عليهم سبحانه ، وكانوا هم مع نبيهم الكريم في حضرة واحدة هي حضرة الله ، وفي خطاب واحد هو خطاب الله لهم ، ثم إن ذلك كان في أول مصادمة بين الإسلام والكفر ، وكان هذا الجيل أهلاً لهذه المواجهة الأولى ، وأهلاً لهذا التكليف الشاق ، ـ الواحد بعشرة ـ وإذا كان كل مؤمن مطالبًا بأن يكون إيمانه وارتباطه بالله ورسوله أرجح عنده من كل ما تدور عليه حياة الإنسان من مال وولد وزوج وعشيرة ، فإن هؤلاء

---

(١) انظر الكشاف (٢/٢٠٢) .

كان إيمانهم يرجح كل ذلك بمسافات بعيدة ، فقد كان من السهل على الواحد منهم أن ينزع نفسه من ماله كله ، ويجعله لله في لحظة واحدة ، كما كان من المعتاد بينهم أن يواجه أحدهم أباه أو أخاه بالسيف إذا كان لا يزال في جبهة الكافرين .

وهذا درس مهم من جهة أخرى وهي أنه يقدم لنا صورة حية للارتقاء بمستوى الإنسان حتى تصل به إلى درجة النمط المتفوق الرفيع ، ـ الواحد بعشرة ـ وكان التفوق على بني قومه الذين هو منهم ، وإنما داخله عامل نفسي هو الإيمان بكل رحابته ، فارتقى ، وهذا وإن كان في الحرب فإن الحرب ليست قوة عضلية ، وإنما هي فن ، وتخطيط ، وفهم ، وذكاء ، ولم يقل أحد إن المسلمين ازدادوا بالإسلام قوة عضلية عن بني قومهم ، وإنما ازدادوا علمًا ، وذكاء ، ونورًا ، يعني ارتفعوا في المستوى الحضاري ، والفكري ، وراجع الآية الكريمة تجد إشارة إلى سر هذا التفوق في قوله تعالى يصف الألف الكافر الذي تغلبه المئة المؤمنة ، قال سبحانه : ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنفال:٦٥) يعني ليسوا أصحاب علم رفيع ، لأن الفقه هو العلم البصير ، وكأن هذا الفقه هو الذي غلب به العشرون الصابرون ، وهذا واضح في ربط تفوقهم بالفقه ، والبصيرة ، والتغيير النفسي الذي كان من أثر هذه التربية بالإيمان والهجرة ، وفي هذا الوقت السريع ، وقد خفف الله عن الأمة ، وعلم أن فيها ضعفًا ، فكان كما قال سبحانه : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ ﴾ (الأنفال:٦٦) .

وبعد هذا التخفيف ظل تفوق المؤمن ضرورة ـ الواحد باثنين ـ ولابد أن يكون ذلك في الميادين كلها ، العِلْمية والعمَلية ، لأن الحرب لا تنفصل عن هذه الميادين، وخاصة في زماننا هذا، وقد كان الأمر كذلك في الزمن الأول، لأن تفوق الإنسان المسلم كان متسقًا في الميادين كلها ، وفي البناء الحضاري كله ، وكانت الطفرة العلمية ، والحضارية ، التي لا تزال موضع تقدير من كل منصف ، ولو كان من غير المسلمين ، العناية بالكيف في تربية المسلم هي الأصل الذي تذكِّرنا به الهجرة ، والعمل على تكوين النمط المتفوق في العلم والحرب والطب والمعارف كلها ، وهذه الثلاثة : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد كانت هي المدرسة التي صاغت هذا النمط المتفوق صياغة تعجز عنها الأكاديميات التربوية المعاصرة إلا أن تكون في يد مؤمنة تعرف كيف تستوعب الدرس الأول ، ثم إن هذه التربية قامت على السلوك العملي ، وطرحت الثرثرة الكلامية طرحًا كاملاً ، واجمع كلام من شئت من هذا الجيل الذي غير وجه الحياة ، فلن تجد أكثر من صفحات محدودة ، واقرأ الخطب ذات المواقف الحاسمة كخطبة أبي بكر يوم انتقل الأمر من النبوة إلى الخلافة ـ وهذا شيء ضخم ـ فلن تجد أكثر من خمسة سطور ، وقد كان السلوك العملي هو منهج مدرسة النبوة التي صاغت الإنسان المتفوق الرفيع ، الذي تاه منا خبره ، ورَدَّدْنا مكانه تفوق الألمان وأمم الغرب بما فيهم اليهود ، ولما فتحت مكة وانتهت الهجرة بفتحها عز ذلك على كثير من المسلمين ، وسألوا رسول الله ﷺ عن هذا الباب الذي أغلق ثوابه ، فقال عليه السلام : « إن الهجرة خصلتان أحدهما : أن تهجر السيئات ، والأخرى : أن تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب ، فإذا طلعت طُبِعَ على كل قلب بما فيه ، وكفى الناس العمل » رواه أحمد بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص

رضي الله عنهم ، وهذه الهجرة التي فتح الرسول بابها للأمة قائمة على أصل الهجرة الأم ؛ لأنك حين تتأمل الكلام الشريف تجد فيه معنى انتزاع النفس من أهوائها ، وغرائزها ، « هجر السيئات » ثم فيه معنى التوجه إلى الله ورسوله في السلوك ، والأقوال ، والأفعال ، من حيث تنعقد عزيمته على ذلك ، ويقوم سلوكه كله على نية متجهة إلى الله ، كما جاء في الحديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] ، وهذا الحديث الشريف يفتح لنا باب الأمل في العودة إلى الله ، وأن تكون هجرتنا إليه بعدما طالت هجرتنا إلى دنيا نصيبها ، وذلك أن أبا طلحة الأنصاري كان قد أحب أم سليم رضوان الله عليها ، وكانت امرأة ذات حسن وعقل ، فهداها الله إلى الإسلام ، ولا يزال على شركة ، فلما طلبها قالت له بذكاء الأنثى وحصافة المؤمنة : يا أبا طلحة ! إنك الرجل لا ترفضه الحرة ، ولكن الله حرم المسلمة على المشرك ، فلم يطق أبو طلحة الصبر عليها ، فأسلم وهاجر ، وكانت هجرته إلى أم سليم ليصيبها ، ثم حسن إسلامه ، وصار من أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم، وقالوا : ما سمعنا بمهر أفضل من مهر أمِّ سليم ؛ لأنه كان إسلام أبي طلحة ، وهكذا انتهت الهجرة إلى الله ، وقد بدأت إلى امرأة ، فلننتقل مما نحن فيه كما انتقل أبو طلحة ، ولنجتهد في أن تكون هجرتنا إلى الله بعدما طالت هجرتنا إلى الدنيا . والله غالب على أمره .

* * *

---

(١) رواه البخاري ومسلم (اللؤلؤ والمرجان حديث رقم ١٢٤٥) .

البلاغة القرآنية وتوضيح واجب

تدور كلمة البلاغة القرآنية في كلام العلماء والمراد بها العناصر البلاغية التي بنيت عليها بلاغة اللسان العربي ، في الشعر ، وفي الخطب ، والرسائل ، والقرآن والتي تتوزع على محاور ثلاثة : محور هو أحوال نظم الكلام وتأليفه وسبكه ، وما يتفرع من هذا الباب من أحوال كالتقديم والتأخير والفصل والوصل والتعريف والتنكير إلى آخر ما هو معروف في علم المعاني ، والثاني : هو التشبيه والمجاز والكناية ، وأقسام هذه الأبواب ، وفروعها مما يدرسه علم البيان ، والثالث : ما سماه العلماء البديع أو وجوه تحسين الكلام من طباق وجناس وغير ذلك .

وهذه البلاغة قائمة في الشعر ، وفي القرآن ، والكلام كله ، ولكنها في القرآن لها أسرار لا تتناهى ، فإذا كان التقديم في الشعر يروقك موضعه ، ويعظم لديك موقعه ، فإن أسراره في القرآن تتكاثر ، وتدق ، وتتسع ، حتى لا يحاط بها ، وهكذا يقال في التشبيه والمجاز والطباق ، إلى آخر هذه الفنون التي هي قائمة في كلام الناس ، وتُعْجِب وتُطْرِب ، وتَرُوع ، وهي متفاوتة في كلامهم ؛ فتشبيهات زهير غير تشبيهات الأعشى ، ومن الشعراء من برعوا في هذه الأبواب حتى قالوا : أحسن الجاهلين تشبيهًا هو امرؤ القيس وأحسن الإسلاميين هو ذو الرمة ، وهكذا يقال في مقابلات أبي تمام وجناس البحتري إلى آخره !

وكل هذا في القرآن الكريم ؛ لأن بلاغة القرآن هي بلاغة اللسان الذي نزل به ، ولهذا كان العلماء الذين يؤسسون هذه العلوم يستخدمون شواهدها من الشعر ، ومن كلام الأعراب في بواديها ، وما تراجزوا به على أفواه القُلُب - جمع قَلِيب وهو البئر - كما يقول الزمخشري ؛ لأنهم كانوا يؤسسون بلاغة اللسان الذي نزل به القرآن .

وهذه العناصر البلاغية هي التي أرجع أكثر علمائنا أمر الإعجاز إليها وذلك من يوم أن كتب الجاحظ كتاب (الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه) ، والكلام كله يدور حول وجوه البلاغة التي هي بلاغة اللسان كما قلنا وأنها في القرآن تتجاوز الحد الذي تقف عنده طاقة البشر ، وينتهي إليه وُسْعهم ، فلا يتجاوزونه ، وقالوا إن كلام الناس في هذه الفنون يتفاوت ، ويعلو بعضه بعضًا ، ويترقى طبقًا بعد طبق ، ومرقبا بعد مرقب ، حتى يتناهى عند الحد الذي لا تتجاوزه القُدَر ، وأن القرآن هو الذي تجاوز هذا الحد تجاوزًا واضحًا عند أصحاب البصيرة بالكلام وأهل الصَّنْعة ، حتى قطع أطماعهم ، وقهر قواهم ، وقُدَرَهُم ، وقد رازوا [اختبروا] أنفسهم كما يقول الجاحظ فلم يجدوا إلى المعارضة سبيلاً .

وقد دعاهم القرآن إلى معارضته واللغة لغتهم وهم الأصل فيها والقدوة فلم يجيبوا داعي المعارضة ، ولم يكتف القرآن بالدعوة الهادئة إلى المعارضة؛ وإنما أهاجهم وقرعهم ، وأحمى أنوفهم ليستخرج منهم غاية ما عندهم في باب البيان وليظهر بذلك عجزهم وينبته على وجه الدهر ؛ لأنه سبحانه جعل عجز هذا الجيل الذي هو القدوة في اللسان حجة على عجز غيره من

الأجيال والأمم الذين ليسوا من أصحاب العربية كأمم الفرس والترك واليونان وغيرهم ، من أمم العجم ، وقد شرح الإمام الباقلاني هذا شرحًا واضحًا[1].

وهذا الباب من أبواب البلاغة القرآنية متسع جدًّا وفيه علم كثير لا يزال بعضه مخبوءًا في مجملات كلام العلماء يحتاج إلى بحوث ذكية وصابرة لِتُحْسِنَ استخراجه والانتفاع به ، وسوف ندعه بعد ذلك لنشير إلى باب آخر من أبواب البلاغة القرآنية أَنْبَتَهُ علماء القرن الرابع وسقوه من رحيق فكرهم حتى نجم وأشرق والتمع ، ثم أغفله الدارسون إلا ما كان من كلامهم رمزًا وإشارة تومئ إليه من قريب أو من بعيد ، ثم هو لا يزال مع هذا الإغفال في هذه الأزمنة التي تجاوزت عشرة قرون أقول لا يزال غضا يَرِفُّ ماؤه ، ويغري العقل بهاؤه ، ورِوَاؤُهُ ، هذا الباب هو ما سماه الخَطَّابي ـ شيخ علماء السنة ـ البلاغة الخاصة بالقرآن وهي مباينة مباينة تامة بلاغة الناس ، أو سائر البلاغات كما يقول رحمه الله ، ولم أعرف كتابًا كُتِبَ في إعجاز القرآن وليس فيه كلمة واحدة عن فن واحد من فنون البلاغة التي هي المعاني والبيان والبديع إلا كتاب (البيان في إعجاز القرآن) الذي كتبه الخطابي ، ولهذا قلت إنه وضع أساس علم جديد في الدراسة البلاغية ، لم تتوفر عليه أقلام العلماء بعد لتصقُله وتثقفه وتنميه ، وتزيده شرحًا وتفصيلاً كما هو الشأن في العلوم ، وإنما بقي فكره هنا ، وعلمه هذا ، لُمَعًا تشرق في إشارات العلماء إليه .

---

(١) ينظر كتاب إعجاز القرآن ص ١١٣ ، طبعة دار المعارف .

وتقوم هذه البلاغة على بيان خلو القرآن خلوا تامًا من البشرية ، فليس وراء كلماته تلك الأحوال البشرية التي نراها وراء كل كلام يصدر عن الإنسان ، وهذا الكلام يحتاج إلى مزيد من التأمل لأنه ليس كلامًا رفيعًا فحسب وإنما هو فوق الرفيع والرائع ، وهو كلام غريب على عقولنا رغم أن علماءنا ضمنوه كلامهم ، من القرن الرابع كما قلت ، وهو ليس مذكورًا في كلامهم بهذا الوضوح الذي بينته ولكنني لم أتكلفه وسوف أدل على موضعه من كلامهم ، ولكن بعد مزيد بيان له ، وكان الخطابي يتفقد الشعر وكلام الناس ويتدبره ، ليتعرف على الشيء الذي يوجد فيه ولا يوجد منه شيء ألبتة في القرآن الكريم ، فوجد كل كلام يصدر عن الإنسان فيه لا محالة حال من أحوال هذا الإنسان ، ووصف من وصفه ، ووسم من وسمه ، وأن هذا ضربة لازب لا ينفك ، فالإنسان بأوصافه العامة التي يشترك فيها الجنس كله كائن هذا الإنسان في كل ما يصدر عنه من بيان ، ثم يتفرد كل ذي بيان في بيانه بأوصافه هو وأحواله هو ، وأهم ما تتميز به « بلاغات الناس» كما يسميها الخطابي هو هذا الملمح الإنساني ، أو الوسم البشري ، أو الأحوال والأوصاف التي هي من خصائص النفس البشرية ، والمنعكسة في كلام الإنسان لا محالة .

قلت : إن الخطابي تفقد الشعر وكلام الناس فوجد الإنسان أو النفس الإنسانية بأهوائها وأحوالها تسكن في كل كلام يصدر عنها .

ثم تفقد القرآن وتأمله وتدبره وبحث عن هذه النفس الإنسانية التي يراها لا محالة في بيان الناس ، فلم يجد لها أثرًا بل وجد في القرآن ما ينافي وجودها منافاة ظاهرة ، أعني وجد أحوالاً وأوصافًا ليست هي أحوال النفس

الإنسانية وليست هي أوصافها ، بل يستحيل أن تكون أحوال النفس الإنسانية ، وأوصافها لأنها تناقض فطرة الإنسان ، وكان الفرق الظاهر عنده بين بلاغات الناس والبلاغة الخاصة بالقرآن هو هذه الفطرة ، أعني فطرة الإنسان التي لا ينتفي وجودها في القرآن انتفاء قاطعًا فحسب ، بل بني القرآن كله على ما يناقض هذه الفطرة ، ويخالف جوهرها ، وهذا برهان ساطع على أن هذا الكلام كلام الله والمراد بمناقضة الفطرة في الأصل الذي بني عليه القرآن هو أن الصفات الموصوف بها بيان القرآن لا تتلاءم مع ما هو معروف من جوهر الفطرة بل يتناقض معها ، فإذا كانت فطرة الإنسان يداخلها الضعف والفتور ، والاختلال ـ وهذا لازم ومصداق لقوله سبحانه : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء:٢٨) ، وإذا كان هذا الضعف والفتور يداخل بيانها ـ وذلك أمر لازم ـ حتى ترى الشعر وغير الشعر يتراوح بين ما يعجبك ويروعك وما ليس كذلك ، حتى لا ترى الكلمة الرائعة النبيلة التي وصفوها بأنها كالشذرة إلا في القليل النادر ، فإن بناء القرآن كله على ضرب من الصحة والسداد والرفعة والاعتدال دليل قاطع على أن مصدره ليست هي فطرة الإنسان .. ونريد أن نتجه إلى الاقتراب من الخطابي ؛ لأن هذا الذي نقوله هو شرح يستلهم مقالة الرجل وليس مذكوراً في كلامه بنصه ولفظه ، وإنما يقول الخطابي في تحديد « البلاغة التي اختص بها القرآن » وهذا لفظه ـ وهو صريح في الذي ذكرته أولا من أنه يغرس علما جديدًا اسمه البلاغة التي اختص بها القرآن ، ومعنى اختص بها أنه لا يوجد شيء منها في كلام البشر ـ يقول « والعلة فيه ـ يريد معنى الإعجاز ـ أن أجناس الكلام مختلفة .. فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل ـ وهو بهذا يذكر بلاغات الناس ـ ثم يشير إلى علة هذا الاختلاف

فيقول : العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعًا من الوعورة . وهذا واضح في أنه يصف مخارج هذه الأجناس من النفس الإنسانية والعذوبة وصف للكلام وهي صفة تنتجها السهولة وهي حالة من أحوال النفس الإنسانية ، ومعنى أن الجزالة والمتانة تعالجان نوعًا من الوعورة أي ينتجهما حال من أحوال الشدة في النفس التي يصدر عنها البيان أو تنتجه .

ولما كان الكلامان صادرين عن حالين مختلفين كان من المستحيل أن يمتزج هذان الوصفان في الكلام وإنما يتواردان عليه فنجد كلامًا عذبًا وبجانبه كلامًا جزلاً ، وذلك لأن الأحوال الصادر عنها كل جنس من أجناس الكلام تتعاقب على النفس ولا تتلاقى ، فالنفس قد تسهل ثم تشتد ولكنها لا تكون على الحالين معًا في لحظة واحدة هي لحظة البيان ، وهذا هو السر في أن هذه الأجناس تأتي منفردة في الكلام الصادر عن الإنسان ، والقرآن وحده هو الذي مازج بين هذه الأجناس في مزيج بياني متفرد فامتزج له بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة .. واجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ـ هذا لفظ الخطابي وتأمل قوله : « مع نبو كل منهما عن الآخر لاختلاف ما يعالجانه على حد ما شرحنا » ، ثم تأمل قوله : « فضيلة خص بها القرآن » ، وَوَضَّحَ بصورة أبين فقال يصف هذه الفضيلة بأنها « يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية لنبيه ، ودلالة على صحة ما دعاه إليه من أمر دينه »[١].

---

(١) انظر : البيان (ص ٢٣) .

واللطيفة التي يسرها الله بقدرته لتكون معجزة النبي ﷺ هي أن الأحوال الأسلوبية المتباينة في كلام الناس لتباين مصادرها من النفس الإنسانية هي متمازجة في كلام الله لعدم صدوره عن النفس الإنسانية ، وهذا واضح في كلام الخطابي وفيه الذي شرحناه وأوسع من الذي شرحناه ، وخلاصته أنك إذا تدبرت كلام امرئ القيس وجدت امرأ القيس ، وإذا تدبرت كلام زهير وجدت فيه زهيراً ، وإذا تدبرت كلام الله وجدت الله ، وهذا شيء من معنى قوله سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد:٢٤) ، وصدق الله العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان .

* * *

قراءة في مقدمات كُتب القدماء[1]

تثير مقدمات كُتُبِ أهل العلم في نفس قارئها أشياء ، أردت أن أشير إلى شيء منها .

وليس النظر في مقدمات الكتب واستخراج ما فيها شيئًا جديدًا ، وإنما هو لون من ألوان النظر قديم ، أكثر منه علماؤنا ، وأفردوا له كتبًا ورسائلَ ، وقد كُتِبَتْ كتبٌ متعددة حول مقدمة واحدة ، كمقدمة القاموس التي أثار فيها الفيروزآبادي مسائل حول نشأة اللغة ، وتاريخ العربية ، وإيغالها في القدم ، واستبحار مفرداتها وتراكيبها ، وعلومها ، وأنها لا يحيط بها إلا نبي ، إلى آخر ما قال ، وروى من كلام الكَمَلَة رضوان الله عليهم .

وإنما أردت أن أستخلص من بعض المقدمات بعض الحقائق المهمة ، والمتصلة بما يثقل حياتنا الفكرية من خلافات حول التعرف على الصراط المستقيم الواصل بنا إلى ما ينشده كل ذي عقل وقلب من أبناء هذه الأمة ، الذين يجدون أوجاعها وآلامها وخزًا في قلوبهم . وأهم هذه الحقائق أن هذه المقدمات كثيرًا ما تجدها دعوة جهيرة إلى الاجتهاد في الباب الذي كتبت فيه ، وأن مجال القول فيه متسع جدًّا ، وإمكان الإبداع ، والإضافة ، والتنوع ، فسيح فسيح .

---

(١) مجلة لوعي الإسلامي ، العدد ٢٣٠ صـ ٥٨ ، صفر ١٤٠٤هـ .

وهذه حقيقة مهمة ، وقيمة رفيعة من قيم هذا التراث . أما موطن الدعوة إلى الاجتهاد في هذه المقدمات فهو في هذه الفجوة الواضحة بين ما طمحت إليه هممهم ، ونصبوه في هذه المقدمات هدفًا وغاية ، وبين ما حققوه في بطون الكتب من دراسة وتحليل .

فالغاية غالبًا ما تكون هدفًا كبيرًا يشبه الأمل والرغبة التي عظمت في تلك النفوس ، ثم يأتي العمل والممارسة في داخل الكتاب ، ويرى قاصرًا عن هذه الغاية قصورًا لا يخفى .

وهذه الفجوة هي الصوت الجهير الذي يدعو الخَلَف إلى إتمام رسالة السَّلَف .

والغايات التي يستشرفها العلماء ليست انطلاقات من فراغ ، وإنما هي إحساسٌ غامضٌ بضروب من الميادين العامرة بحقائق المعرفة ، والتي لما تزل وراء الحجب ، وكلما طالت الممارسة لحقائق العلم ، وطال الإلف وطالت الملازمة كان ذلك أحرى بإيجاد هذا الإحساس الغامض بهذه الحقائق الغامضة ، والذي قد يعظم حتى يكون تطلعًا وتلهفًا وتحرقًا نحوها ، حتى ليوشك الباحث في هذا اللون أن يلمح هوادي الحقائق وهي تومض من هذا الغيب ، وتوشك كلمات أهل هذه الطبقة أن تومئ إلى هذا البعض المجهول ، ولكنها إيماءة ، « كالإشارة إلى مكان الخبيء ليعرف » على حد عبارة عبد القاهر ، فعباراتهم لم تدل على هذه الحقائق دلالة قريبة ولا بعيدة ، وإنما أشارت إلى مكانها المخبوءة هي فيه ، ليبحث عنها هناك وتستخرج ، وهذا هو وجه طموح المقدمات ، وهذا هو الذي يجب أن يكون بين أعيننا ،

ونحن نقرأ تراث أهل العلم ، كما كان بين أعين سلفنا ، وهم يقرؤون تراث سَلَفِهِم .

وليس بين أيدينا كتابٌ واحدٌ من كتب البلاغة والإعجاز أصاب الهدف الذي رمى إليه صاحبه ، وقدم فيه ما يقنع ويقطع بتحقيق الغاية التي توخاها ، ولهذا تواترت الكتب والجهود في هذين العلمين الشريفين ، وترك كل كتاب من ورائه الباب مفتوحًا يدعو غيره . وإليك برهان هذه الدعوة :

أما كتب البلاغة ، فسوف يكون شاهدها أجلّ كتابين كُتِبا فيها ، وهما : « أسرار البلاغة » ، و« دلائل الإعجاز » .

ذكر عبد القاهر في مقدمة أسرار البلاغة أنه يتوخى تحديد الأصول التي يؤسس عليها الحكم في بيان منازل الأدب والشعر ، حتى يتبيّن لدارسه « كيف ينبغي أن يحكم في تفاضل الأقوال ، إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان؟ » (١).

وهذه غاية ليس بعدها غاية في هذا الباب ، فأي شيء نستشرف إليه بعد العلم بكيفية الحكم في تفاضل الأقوال ؟ .

والسؤال هو : هل حقق كتاب أسرار البلاغة هذه الغاية ؟ مع أنه من أدقّ وأحكم ما بين أيدينا من كتب ، بل هل حقق التراث البلاغي والنقدي كله هذه الغاية ؟ ووضع بين أيدينا الحقائق المستوعبة ، والتي يؤسس عليها فهم

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢

أسرار بلاغة الكلام وقياس منازله ؟ أم أن أهل العلم لا يزالون في كبد من هذا الشأن ؟

والأمر كذلك عند غيرنا ، وقد وصف « رتشاردز » كفاح عقل أمته في هذا الباب ابتداءً من كهوفهم القديمة من أمثال أفلاطون وأرسطو ، وانتهاءً بالأفذاذ من بني جلدته من أمثال كارليل ، وآرنولد ، وذكر أن حصيلة هذا الكفاح « حقيبة تكاد تكون فارغة »[1].

ولا يزال ميدان البلاغة والنقد يزخر بالآراء والمذاهب التي تتهالك ويبتلع بعضها بعضها ، ولا يزال العلم بكيفية الحكم في تفاضل الأقوال وتقسيم حظوظها بينها من الاستحسان غاية غائمة ، نستشرف إليها كما استشرف عبد القاهر إليها ، وإن كان هو كدَّ وثابر وأثرى .

أما ما قاله في مقدمة دلائل الإعجاز ، فالأمر فيه لا يختلف عما قاله في الأسرار ، وإن كان في الدلائل يوشك أن يخلص كلامه لبيان وجه الإعجاز ، الذي لا يكون إلا بمعرفة طبقات الكلام ، والأسس التي يقوم عليها الحكم في تفاضل الأقوال ، إلا أنه هنا يتابع كيف يعلو بعض الكلام بعضًا وتتوافر فيه العناصر التي بها يرقى في سلم الفضيلة درجًا بعد درج ، حتى يتجاوز الحدود التي تطيقها طاقات البشر ، وتنقطع دونها أطماعهم ، وتستوي الأقدام في العجز .

ويذكر عبد القاهر أنه لا يكفي في هذا أن تنصب له قياسًا ، وأن تصفه وصفًا مجملاً ، بل لابد من التفصيل . والمقصود في كتاب دلائل الإعجاز أن

---

(١) مقدمة مبادئ النقد الأدبي ، ترجمة دكتور مصطفى بدوي .

تعرف كيف تضع يدك على «الخصائص التي تعرض في نظم الكلام ، وتعدها واحدة واحدة ، وتسميها شيئًا شيئًا»[1].

أرأيت الذي طمحت إليه همة الشيخ الجليل رحمه الله ؟

والسؤال هل وضع اليد على أسرار نظم القرآن الذي به أعجز ؟ وهل عدها واحدة واحدة ؟ .

لا ريب في أن كتاب دلائل الإعجاز ليس له كتاب يزاحمه في تراث هذه الأمة ، ولكن الغاية أكبر ، ومهما جد عبد القاهر ، وأصاب في كشف أسرار الكلام وغوامضه . فالشيء الذي في سورة قل هو الله أحد .. وتبت يدا أبي لهب .. وإنا أعطيناك الكوثر .. كالشيء الذي في سريان النفس في النفس ، واختلاف الليل والنهار ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر ، لأن القرآن وهذه الأشياء من معدن واحد ، وأين هذا مما قاله الشيخ الجليل ؟

ولا يزال القرآن منطويًا على أسرار إعجازه ، التي هي آية الله فيه ، كما لا يزال هذا الكون من السموات والأرض وما بينهما منطويًا على آيات الله فيه .

والذي أدركناه من أسرار بلاغة القرآن ، كالذي أدركناه من أسرار الكون والنفس ، والسماء والأرض ، وهو بالنسبة لما لم ندركه بعد كالسطور الأولى من فاتحة كتاب كبير . وكل خطوة نخطوها في هذا السبيل تتكشف من ورائها آماد وآماد ، تجعل الإحساس بالعجز أقطع وأقهر

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٣١

وليس هذا خدشًا للصرح العظيم الذي بناه عبد القاهر ، والذي فتح به آفاقًا سامية ، ووضع به أُسُسًا دقيقة لفهم الكلام وتذوق أسراره ، وغوامض بنائه ، وإنما هو حقيقة أدركها من هم أعرف بتراث عبد القاهر ، وأنفذ في فهم الباب كله .

فهذا أبو يعقوب السكاكي الذي كان أكبر همّه أن يصبّ كل شيء في قاعدة ، ويجمع كل ما انتشر في أصل ، وكان له عقل مطيق لما يقصد إليه ، وقد نفض تراث عبد القاهر كلمة كلمة ، ووعاه بعقلية يسطو ذكاؤها ، ويسطع ضياؤها ، يقول بعدما مخض تراث الرجل : «ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق» ، وهذا ليس إذعانًا لقول عبد القاهر ، حتى تضع اليد على الخصائص وتعدها واحدة واحدة ، وإنما هو شيء غيره ، بل وإحالة إلى مبهم عانت منه قضية الإعجاز منذ الأجيال التي كان يخاطبها حمد ابن إبراهيم الخطابي رحمه الله ، وعانى منه الشعر والأدب ، ولا يزال يعاني ، لأن الإحالة إلى النفس واعتماد الذوق وحده ، هو في جوهره موقف حيرة ، يلوذ به الناظر حين لا يكون قادرًا على أن يفصح عمّا يجد ، وأن يبيّن عن علله ، وبواعثه ، أو حين يضيق به مجال الحُجّة ، ويصعب عليه وصول البرهان ، كما يقول القاضي أبو الحسن .

ثم إننا إذا عدنا إلى عبد القاهر نفسه لنبيّن مدى المطابقة بين ما أودعه في كتابه ، وما طمح إليه في مقدمته ، وجدناه يدرك إدراكًا ظاهرًا قصور كثير من مباحثه عن الغايات التي يراها هو لهذه المباحث ، وأنه كان كثيرًا ما يطوي صفحة البحث قبل تمامه ، ويقول ذلك بلفظ مبين .

والأمر الغريب أنها أي المباحث العلمية لا تزال عند الحدود التي وقف بها عندها ، ولم يفتح العلماء بعده ذلك الباب الذي رأى هو منه أبعاده الرحبة .

ثم إن هذه المباحث كما قلت لا تزال بيننا كذلك على هذا الحد الذي تركه عبد القاهر ، لم نعمل عقولنا في إكمالها ، هذا فضلاً عن تقصيرنا في فهم ما استخرجه هو ، لأن دراستنا البلاغية والنقدية لم تمتد على ذات الطريق الذي سلكه الأئمة ، وإنما تشتّتتْ وتفرّقت بها السبل .

وإليك بعض هذه المباحث :

قال بعد ما بسط صور الكناية ، وأقسامها ، وحلّل شواهدها ، وأشار إلى ما بينها من علائق ، على الحد الذي ترى بعضه في كتب المتأخرين « وليس لشعب هذا الأصل وفروعه وأمثلته وصوره ، وطرقه ، ومسالكه ، حد أو نهاية »[1].

واضح أنه لا يقصد كثرة شواهد الكناية في الشعر والأدب فحسب ؛ لأن توفر صورها ليس في حاجة إلى تنبيه ، وإنما يقصد أيضًا ضروبًا من الكناية هي بمثابة شُعَب وفروع ، وطرق ومسالك غير هذه الضروب والطرق والمسالك التي ذكرها ، وهذا قاطع .

والسؤال أين هي ؟ ولماذا سكت عنها خلفه ؟ كما سكتنا واكتفينا بترديد الصور التي ذكرت ، ولم نجشم أنفسنا البحث عنها ، كأنه يضع في أعناقنا مسؤولية استخراجها من الكلام ، اقرأ عبارة عبد القاهر مرة ثانية ، تجد فيها أن الرجل رأى في هذا الباب آفاقًا ممتدة ، التمعت بين عينيه واضحة خصبة ، ولكنه اكتفى بما قال ، وطوى صحفه .

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٢٤١

ودع هذا ، واسمعه يقول في أسرار حذف المفعول بعدما أبان عنه إبانة لا نعلم فيها شيئًا أكثر مما قال : « وليس لنتائج هذا الحذف أعني : حذف المفعول نهاية ، فإنه طريق إلى ضروب من الصنعة ، وإلى لطائف لا تحصى »[1].

تأمل قوله : « فإنه طريق إلى ضروب من الصنعة ، وإلى لطائف لا تحصى » تجده ليس إشارة إلى كثرة شواهده في الشعر والكلام البليغ فحسب ، وإنما هو تنوع في الطرق ، والأساليب ، فيه من اللطائف ما لا يحصى ، يعني معرفة أخرى في أسرار هذا الضرب تضاف إلى ما بين أيدينا ... وأين هي ؟

واسمعه يقول بعدما درس مواقع « إن » من الكلام دراسة هي أوسع مما جرى في كتب المتأخرين : « وليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق والأمور الخفية ، بالشيء يدرك بالهوينا ، ونحن نقتصر الآن على ما ذكرنا »[2].

وهذا واضح في أن وراء الذي قاله في هذا الباب دقائق وأمورًا خفية ، لا تدرك بالهوينا ، وهذا كلام نفيس يدركه من عانى تحليل بناء الكلام وواجهته هذه الأداة ، وأراد تخريجها على الوجوه المتعارفة فنبت ، فضاق بها وسكت ، وهو لا يحسب أن وراء ما عرفناه من معانيها وأحوالها ، أشياء وأشياء .

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ١٢٥

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ٢٥٢

ودع هذا وخذ قوله بعدما استخرج الذي استخرجه من كلمة « إنما » مما شاع بعده قال : « واعلم أنه ليس يكاد ينتهي ما يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق »[1].

ولم يذكر أحد بعده واحدة من هذه الدقائق ، التي قال فيها : إنها لا تنتهي ولا تكاد .

وهذا كثير جدًا في كتاب عبد القاهر ، وهو صريح رأي عبد القاهر نفسه من تَوَقُّفِ مباحثه ، قبل أن تصل إلى غاياته ، وأنها لم تَسْتَقْصِ كل ما في أحوال الكلام ، وضروبه ، وطرقه ومسالكه .

ولو تجرد لهذا باحث ذو نفاذ ، وعزم ، واستقصاه وحقق القول فيه ، لكان ذلك عملاً جليلاً .

وقد قلت : إن عبارة عبد القاهر التي أشار فيها إلى رحابة الأبواب التي أنْهَى فيها كلامه دالة على أنه كان يرى أبعادًا رحبة ، وصورًا وطرقًا ، ومذاهب ، وأنها كانت تتكاثر بين يديه ، وتتزاحم .

ويمكن أن يُفْتَحَ لنا الباب الذي رأى منه هذه الرحابة وهذه الكثرة ، وذلك إذا مضينا على طريقه الذي أسس عليه علمه ، وهو استقصاء كلام العرب ، ودعك من هذه الهرطقة التي تعدّه تلميذًا لأرسطو ، فليس لها دليل واحد مقنع ، أقول : إن طريقه الذي أسس عليه علمه هو استقصاء كلام العرب ، واستخراج الطرق والأساليب ، والضروب ، وتأسيس الأقسام على هذا الواقع ، الذي جرت به ألسنة أهل الطبع ، وهذا هو الذي تكاثر بين يدي عبد القاهر ،

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٢٧١ .

وأثرى به أبوابه ، وأشار إلى من بعده بمواصلة النظر فيه ثم هو يتكاثر ، ويتنوع ويتغير ، بتغيّر الأحوال والأزمان ، والثقافات وأطوار الحضارة ، وغير ذلك مما تتنوع به اهتمامات النفوس ، ومغازيها في مبانيها ، وبذلك يتواصل النظر ، ويتجدّد على أساس من واقع اللسان ، وأدبه ، وليس غير .

ثم إن تصنيف ومدارسة هذه الطرق ، والضروب واللطائف ليست مما يؤخذ بالهوينا كما يقول ، وإنما يحتشد لها من يصبر ، ويثابر ، ويعرف كيف يعطي للحقيقة حقها من الصبر والصدق ، والتدبر ، والمعاودة ، لأن هذا تأسيس لمعارف ، وليس لغواً تجري به الألسنة الثرثارة ، الفارغة ، التي ضلت حقائق المعرفة ، وحبب إليها العبث واللغو والطعن في الكَمَلَة من علماء الأمة واستمرأت ذلك وسمته علمًا ، أو تجديدًا للعلم ، وراج ذلك ويروج ، وأخذه ويأخذه الصغير عن الكبير ، كل ذلك في غيبة الوعي المستنير .

* * *

التراث حركة تأمل وإبداع [1]

لا ريب أننا لم نقطع مسافة طويلة في الطريق الذي بدأناه يوم أن فاجأتنا أمم الغرب بنهوضها الساطع المبهر ، وكان يجب أن يكون سعينا في هذا المضمار أوسع وأسرع ، وذلك لأن أثقال التخلّف التي كانت ترزح تحتها أمم الغرب كانت أفظع وأهول ممّا قيّد حركتنا ، وأطفأ جذوتنا في عصورنا الأخيرة . فالموروث الحضاري لدينا يختلف اختلافًا عظيمًا عن الذي كان عند غيرنا ، فقد كانت ظلمة الحياة هناك ظلمة غاشمة جاهلة ، حتى كان الفكر في بعض مراحل القوم إثمًا مبينًا ، وكان العلماء المبدعون يتهمون بالسحر الأسود ، ويمثل بهم جزاء فكرهم وإبداعهم ، وربما يحرقون ، ولم يحدث شيء من هذا في تاريخنا كله حتى في الجاهلية قبل الإسلام ، فلم يكن الفكر في يوم ما جرمًا ، وإنما كان فضيلة ، وكان الاجتهاد الواعي - ولا يزال - طريق تحصيل الخير في الدنيا والآخرة ، وفي الوقت الذي كانت محاكم التفتيش فيه تشعل النار في عقول العلماء من الكيميائيين والطبيعيين ، كان العالم المبدع عندنا يلقب بالشيخ الرئيس ، أو الإمام ، ويفسح له في مجالس العلية ، ويعد واحدًا من سراة القوم .

إذن ما هي العلل التي خذلتنا وأتاهت من أقدامنا الطريق ؟ والجواب المفصل عن هذا السؤال المهم يقتضي تحليل هذه المرحلة تحليلاً يشمل كل

(١) مجلة الوعي الإسلامي ، العدد ٢٤٧ صـ ٤٠

صور الحياة العربية والإسلامية ، وهو مما يجب أن تتوفر عليه الجهود ، حتى نستطيع أن نشخِّص هذا الداء ، وأن نحدد هذا البلاء الذي يبدو في الحياة العربية كأنه قوة خفية تجذبها دائمًا إلى الوراء ، وتدفع عزيمتها دائمًا إلى غير الجهة التي تنصب نحوها

وسوف أشير هنا إلى واحدة تتصل بهذه العلل اتصالاً وثيقًا ، وهي اختلال الرؤية عندنا في مسائل ، ما كان ينبغي أن نختلف فيها ، وتلك هي مواقفنا من التراث .

وهذه القضية كانت من أوائل القضايا التي خاض فيها رجالنا منذ بدء النهضة . وهم من يومئذ ينقسمون في هذا الأمر إلى فريقين : فريق يرى نبذ هذا الماضي ، وهذا التاريخ ، وهذه العلوم ، والأخذ بأسباب الحضارة الغربية حتى نصل في بلادنا إلى ما وصل إليه القوم في بلادهم . وفريق يرى أن انطلاقنا يجب أن يبدأ من قلب هذا التاريخ وقلب هذا التراث ، وأن هذا أمر لا محيد لنا عنه ، وإذا كان غيرنا قد نبذ تراثه وتاريخه ـ وهذا لم يحدث ـ فإن تراثنا يختلف عن تراث غيرنا ، لأنه يدور حول كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، ولذلك نعتبر الدعوة إلى تخليته في حكم المناوأة لدين الأمة الذي ارتضاه لها ربها ، وأتم به نعمته عليها . وظهر فريق ثالث يدعو إلى الوسطية ، وهذه الدعوة في كثير من صورها تميل ميلاً واضحًا إلى تخلية التراث ، وتكتفي بقبسات منه ، إرضاء لمشاعر المسلمين الذين هم مرتبطون أوثق ارتباط بتاريخهم ورجالهم وعلمائهم وعلومهم ، وهذه الوسطية عند كثير من أهل التحقيق أخطر من الدعوة التي وصفت بأنها متطرفة ، وذلك لأن دعوة المتطرفين تواجه بقوة وعناد من جمهرة المثقفين المسلمين ، في

الوقت الذي استطاعت فيه دعوة الوسطية الباهتة أن تكتسب جماهير أوسع ، فاضطر كثير ممن عرفوا بالموقف الأول أن ينحازوا إلى هذه الوسطية ، ليكتسب كلامهم قدرًا من القبول عند الناس .

وهذه المواقف الثلاثة التي تمثلها مقالات كثيرة ، فاضت بها الصحف والمجلات العربية ، منذ العقد الأول من القرن العشرين ، لا تزال هي بملامحها الأساسية مع ملاحظة ما قلناه من أن كثيرًا ممن كانوا يدعون إلى نبذ هذا التراث قد دخلوا في فريق الوسط .

وعلى مد هذه السنين المتطاولات يوصف المحامون عن التراث وصفًا واحدًا جائرًا ظالمًا ، وهو أنهم يدعون قومهم إلى الحفظ واستيعاب مقالة الأوائل ثم لا غير ، وأنهم يريدون أن تكون عقولنا أوعية ومخازن لعلوم القدماء ، وكان الله يحب المحسنين .

أقول إن هذا التصور لا يزال يحكم أقلام الكاتبين على كثرة ما كتب في هذا ، ولا تكاد تخلو صحيفة أو مجلة تعالج هذا الأمر من كلام كهذا . وهذا عجيب جدًّا وآية بيِّنة من آيات العقم للبيئات التي نعيشها .

والغريب أن أحدهم وهو من أوسع كتّابنا ثقافة ، وأرحبهم ساحة ، وأنداهم صوتًا ، رمز إلى هذا القول الخاطئ الذي يعتقده صوابًا ، برمز لطيف في مقال قريب نشرته جريدة الأهرام ، هذا الرمز هو صورة تحدد ملامح إنسان يصلح أن يكون رجلاً وأن يكون امرأة ، وقد تكونت الصورة من حروف أبجدية . يعني الإنسان الذي هو صيغ وألفاظ صماء ، وليس فيه بصيص من نور الفكر ، مع أن الكاتب لا يخلو كلامه من الإشارة الذكية التي تجعل القارئ يتوهم أنه متعاطف مع التراث .

وواضح أن هذا التراث كان غصة حرجة لا تستساغ ألبتة عند فريق من المستشرقين الذين لم يعرفوا بإخلاصهم للعلم ، ولم يعرفوا بموضوعيتهم في البحث ، من أمثال «جب ، ورينان ، ومرجليوث»، وأنهم كانوا يعلمون علمًا ظاهرًا أن هذا التراث سياج هذه الطبائع الإسلامية المتأبية على ما كانوا يريدونه من تقبل المسلمين لأنماط حضارتهم وثقافتهم ، والاندماج فيها وواضح أن فريقًا من النصارى أعلنوا كراهيتهم البغيضة للتراث ، واعتبروا الولاء له مرضًا ، ونفروا من دراسته والحفاوة به .. واعتبروا ذلك مضيعة للشباب وبعثرة لقوى الناشئة ، يقول سلامة موسى الذي يلهج بذكره بعض أدبائنا : « إن الذي هو كالمرض عندنا أن نكون على ولاء للثقافة العربية ، فندرس كتب العرب ، ونحفظ عبارات عن ظهر قلب ، كما يفعل أدباؤنا المساكين من أمثال المازني والرافعي ، وندرس ابن الرومي ، ونبحث عن أصل المتنبي ، ثم يقول : وليس علينا للعرب أي ولاء ، وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم» . ويلاحظ أن سلامة موسى يعلن أنه ليس من العرب! وتأمل النص تجد ذلك ظاهرًا ، كما أن فكرة الحفظ معلنة في كلام هذا الهالك ، كما لا تزال معلنة في كتابات المسلمين المخلصين المساكين الذين باعدت نشأتهم بينهم وبين تراث أمّتهم ؛ فجهلوه وتورطوا ؛ فرموه بما رماه به أشد الناس عداوة للعرب المسلمين وتراثهم .

وقارئ التراث يرى أن علماءنا لم يعتبروا الحفظ علمًا ، وإنما المعتبر هو الوعي المستنير بحقائق المعرفة ، حتى يأخذ الدارس ما يأخذ ويدع ما يدع ، وقد ازدرى علماؤنا من لا تستنير حقائق المعرفة بنور عقولهم ، واستصغروا العاجزين عن تأصيل المعرفة والذود عنها ، نعم لا بأس بالحفظ والرواية في

باب ما يحفظ ويروى كالحديث والشعر والخبر ، ولكن يشترط أن تؤازر الدراية الرواية ، وإلا كان هؤلاء الحفظة كما يقول أنس بن أبي إياس - وهو مما يتمثل به علماؤنا :

يقولون أقوالاً ولا يعلمونها ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

وهذه المصادر القديمة لا ترى فيها الفكرة معزولة عن الحوار الذي يحيط بها ويبيّن كيف صدرت ، وكيف استقامت ، وقد يحكي لك قصتها مع العقول التي تداولتها ، وكيف قبلها من قبلها ، ورفضها من رفضها ، وكيف أجملها هذا وبسطها ذاك . وهكذا ترى موقفًا عقليًا خصبًا ورائعًا حول كل مسألة في اللغة والفقه والأصول والعلوم الإسلامية كلها .

وقد كان التيار الغالب في تراث علمائنا هو الإبداع والتأصيل .. وأعني ما تراه واضحًا في مصادرنا ، من التقاط اللاحق فكرة ربما كانت تائهة في تراث من سبقه ، وربما قرأها عشرات غيره ، وما زادوا على الانتفاع بها كما هي ، ثم تجد هذا اللاحق يستخرج من أعماق الفكرة الخاطفة أفكارًا وأفكارًا ، وقد يسود بها صحفًا عدة ، يفتح بها بابًا من أبواب المعرفة لم يسبق إليه ، وقد تكون العلاقة عند القارئ غائمة بين هذا الباب الحافل والفكرة الأولى الخاطفة ، وقد تجد الكاتب ينبهك بعد فراغ من بحثه المستفيض الممتع ، ويقول لك : وهذا الذي قلناه مستنبط من قول فلان كذا ، ثم يذكرلك نصًا لا يزيد في الغالب عن سطرين ، وهكذا ترى نفسك أمام معرفة جديدة اخترعها عقل عظيم ، وأبى إلا أن يؤصلها ويربطها بتربتها ، ثم ترى أمانة علمية سامية ، لأن هذا العالم الجليل رأى أن هذا الباب ، وإن كان من نبعه هو إلا أن الذي فجره هو مقالة فلان هذا وإن كانت خاطفة طائرة .

وهذه قيم علمية ومنهجية في تراثنا جديرة بأن يقف عندها كتّابنا ليضعوا أيدينا على حركة عقول المبدعين ، وترى عيوننا كيف كانت تتحرك هذه العقول العظيمة ، وهي في هذا المخاض الأعظم ، وفي تلك اللحظات الرائعة .. لحظات إبداع المعرفة وإخراجها من كمون الغيب ، وكيف كانت عين الريض المرتاض ترى الفكرة « الجنينية » وهي ثاوية في ضمير الفكرة وكيف شقت عنها ، وكيف استخرجتها ، ومؤلفات القرن الرابع والخامس يوشك أن تكون كلها من هذا الباب الذي لا نتعلم فيه العلم فحسب ، وإنما نتعلم أيضًا كيف بَنَتْ العقول العظيمة صروح المعرفة . اقرأ كتاب « الخصائص » لأبي الفتح تجد البحث الممتع الذي لا تجده في غيره ، وإنما تراه لأول مرة وهو يتقاطر من فكر هذا العالم الجليل تقاطر قطرات الضوء ، ثم تجده يقول لك في نهاية الباب : وهذا ما أشار إليه صاحب الكتاب أو صاحب النحو ، أو ما نبهني إليه قول أبي علي كذا ، ثم يذكر لك نصًّا لسيبويه أو للفارسي ربما كان جملة واحدة ، ولكن هذه الجملة ، كانت بمثابة بذرة غرست في عقل خصب ، ثم تعهدها الرجل بالنظر والمحاورة والتفتيش ، حتى أخرج منها خبأها ومرعاها . وشواهد ذلك كثيرة ، وليس المجال مجال استشهاد ، وإنما المقصود ، بيان أن الأفكار لم تتداولها عقول أهل العلم للانتفاع بها فحسب كما تتداول أيدينا العُمْلَة مثلاً ، وإنما كانت تجد في قرائحهم حضّانة خصبة عليها عين ساهرة ، فلا تزال تربو الفكرة فيها ، حتى تصير بابًا من أبواب المعرفة ، حرة فينانة ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

(إبراهيم: ٢٤) .

وهذا شيء والحفظ الأصَمُّ الذي يوصف به التراث وحماته شيء آخر ، وهدى الله أصحابنا الذين يتوارثون هذه الأحكام الفاسدة كابرًا عن كابر .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وصَلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى أصحابه ومن تبعهم بإحسان .

* * *

قِيَم منهجية يجب أن تعود[1]

هناك ضوابط تشيع في الحياة الفكرية، فتحكم حركتها وتضبط نزواتها، وبمقدار دقة هذه الضوابط وتوافرها يكون حظ المجتمع من السمو، وحظ المرحلة من الخصوبة والعطاء الحضاري المفيد، وذلك لأن صحة الضوابط الفكرية وصرامتها تعني المزيد من الصحة والسداد للأفكار الدائرة في المجتمع، والمندسة في طياته، والمشكِّلة لوجهته، وطبعه، ومنحاه، وهذا يثمر الاتجاه الصحيح، كما يثمر فضائل النفوس، وفضائل العادات، وأنماطًا راقية من السلوك في مختلف المجالات ..

وفي مقابل هذا تجد في غيبة هذه الضوابط شيوع الأفكار الرديئة الضارة، والتي تتسرب إلى طيات المجتمع، وتداخل العقول والقلوب، وتشكلها بشكلها الرديء، فتثمر الأنانية والانتهازية، والاستخفاف بالقيم الأخلاقية الرفيعة، وكل ما يوجه المجتمع إلى منحدرات التخلف، ويحثه على السير فيها بخطى وِسَاع، ولا اعتراض لأحد على القول بأن حياة أي مجتمع ترجع إلى مجموعة أفكار وقيم، تشكل الدوافع والنوازع والتوجهات، وأن المجتمع يرتفع أو ينخفض على وفق هذه الدوافع والمنازع .

(١) مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٠٨، ص ١٧، شعبان ١٤١٠هـ .

وإذا قلنا : إن تاريخ أي مجتمع وقصة حركته في أية مرحلة متكاملة هي في الحقيقة قصة أفكار ، لم نكن مخالفين للصواب ، لأن الإنسان ابن فكره ، تحكمه الفكرة ، تسيره فيسير ، وتحركه فيتحرك ، مطاوعًا لها ، ومندفعًا في موجباتها ، وهذا يجعل لهذه الضوابط التي تضبط الحياة العقلية الأهمية القصوى في تاريخ الإنسان .

والفكرة المدققة والمحررة هي الكلمة السديدة التي دعا القرآن المجيد إليها ، وجعل صلاح حال المجتمع مرتبطًا بها ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١) ، تأمل الربط بين صفاء الفكرة وصلاح الأعمال .

والفكرة المحررة المصفاة هي الكلمة الطيبة التي هي كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين ، تأمل الأكل والخير المتواصل الذي تثمره الكلمة ـ الفكرة ـ تجد ثمرة الاستقامة على الجادة ، ولا شك أن كثيرًا مما تعانيه حياتنا على مستوى الأمة كلها راجع إلى شيوع أفكار غير مدروسة ، وقد تقبّلها كثير منا ممن ليست لديهم وسائل تحرير الأفكار ، وأن هذا أدى إلى شروخٍ خطرةٍ في بنيان المجتمع الإسلامي ، ترى هذه الشروخ بل وهذا التمزق والتشرذم في شريحة الشباب الذين هم معقد الأمل ، وتقوم عليهم ـ عند غيرنا ـ عيون ساهرة تتفقد كل ما يجري في محيطهم ، ونحن نراهم وقد تفرقت بهم السبل ، وصاروا فرقًا ومزقًا ، يضرب بعضهم بعضًا ، ثم إنهم هم الذين سيؤول إليهم كل شيء ، فإذا ظلوا كذلك ، وصار الأمر إليهم فقد ضاع منا كل شيء ، ولهذا وجب علينا التنبيه والتبصير بما يجب .

وأفضل ما نذكره في مواجهة طوفان الأفكار غير المدروسة هو أن نذكر لمحة من عناية سلفنا بدراسة الفكرة وتحريرها وتنقيتها ، حتى إذا صرنا على قبس من هداهم راجعنا ما يدور في الساحة ، وانتقدناه وأخذنا صحيحه ، وتركنا زائفه ، والأفكار كالمعادن ، منها الفكرة الصحيحة الرائعة النفيسة التي هي كالذهب المصفى ، ومنها الرديئة التي تشبه الصدأ المستقذر ، ولكنه قد يلتبس بالنفيس ، ونار الفكر والروية هي التي توقد عليها فينماز ويَنْفِي خبثه ، وبذلك تُعْصَمُ القلوب من أن يفتك بها رجيع صدأ العقل ، وتعصم الحياة من أن تقع فريسة لهذا الوباء .

وقد توفر للحياة الكريمة في أمتنا التي نحن أبناؤها ما لم يتوفر لغيرها من الضوابط التي تكفها عن نزوات الهوى والاختلال ، وليس هذا القول صادراً عن حميَّة الانتماء لهذه الأمة ، لأن القول الصادر عن مثل هذا لا تسمعه إلا أذن الذي يقوله ، وإنما هو الواقع التاريخي الذي يقره غير المسلمين ، وبيان ذلك أن العلوم التي دارت فيها الحياة الفكرية ، ودارت بها علوم ثلاثة أصول ، هي علوم التفسير والحديث ، والفقه ، وهي علوم ذات طبيعة خاصة ، فالتفسير يعني بيان مراد الحق من كلامه سبحانه ، وبيان دينه الذي أنزل ، وشرعه الذي شرع ، وأقل قدر من الاختلال في بيان هذا الأمر العظيم يعني أننا نتقول على الله ما لم يقل ، وهذه بائقة تنخلع لها قلوب العلماء ، فكان لابد من المراجعات ، والمبالغة في التدقيق ، وملاحظة كثير من الأصول والاعتبارات ؛ حتى لا نسقط في مهلكة الافتراء على الله رب العالمين ، وقل مثل ذلك في الحديث والفقه الذي هو علم الحلال والحرام ، يعني : الشريعة والدين .

وقد وجب علينا أن نراجع هذه العلوم ، لنتعلم منها كيف نحاور الفكرة ونستنبطها ؟ وكيف نسبر أغوارها ، ونميز جوهرها ؟ وهذا - من حيث نظرت إليه - مظهر من مظاهر التقدم الفكري الواعي النبيل .

ثم إن هذا الحذر والتدقيق والتروي والتوقف في قبول الأفكار قد انتقل من هذه العلوم الثلاثة إلى كل ضروب المعرفة الإسلامية والعربية ؛ لأنها نشأت كلها في أحضان الكتاب والسنة والحلال والحرام ، فسلكت نفس المنهج الفقهي الحذر ، وصارت القاعدة اللغوية كأنها قاعدة فقهية ، من حيث خضوعها للمراجعة والتدقيق ، حتى نتأكد من صحتها واطِّرادها ؛ لأن هذه القاعدة اللغوية ستنتقل إلى حقل التطبيق ، ويفسر بها كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، ويستنبط بها الحلال والحرام ، فإذا كان بها وهن من بعض جهاتها أدى هذا إلى الاختلال في التفسير والاستخراج ، وهذا هو الأمر المخوف ، والشواهد على هذا لا حصر لها ، لأنك إذا وضعت هذا بين عينيك ، وراجعت علم الطبقة الأولى من علمائنا وجدت هذا ظاهرًا في كل ما كتبوه ، وأكتفي بنموذج مختصر جدًا ، راجع كيف حدد العلماء دلالة كلمة « إنما » وكيف استقصوا اللغة ، وكلام العلماء الأوائل الذين كانت السلائق الصحيحة لا تزال مسعفة لهم ، وهم علماء القرون الثلاثة المفضلة ، قرنه ﷺ ، والذي يليه ، ثم الذي يليه ، وكيف انتهى النظر والتقصي إلى القول بأنها تفيد الحصر ، ثم دخلت الكلمة بعد ذلك ميدان التفسير ، فقال العلماء في آية مصارف الزكاة في سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (التوبة: ٦٠) .

إنه مقتضى الحصر في « إنما » أن يكون هؤلاء وحدهم هم مصارف الزكاة ، فمن صرفها لغيرهم يكون صرفها في غير الوجه الشرعي . تأمل امتزاج اللغة بالفقه وتداخل العلوم وتشابكها ، وكيف يكون فصلها ـ الذي نفعله الآن ـ إزهاقًا لروحها ، وكذلك قالوا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ﴾ (البقرة:١٧٣) ، إن مقتضى معنى الحصر في « إنما » أن تكون هذه لا غيرها هي المحرمات لحومها ، وما عداها فليس كذلك .

وهكذا ترى الممارسة العقلية للمعرفة ، لابد أن تكون في قمة اليقظة والوعي والتنبه ؛ حتى لا تسقط في الميدان فكرة زائفة ، فتفسد الكثير والكثير .

أدعو إلى العودة إلى هذا النور الذي طمسناه بأيدينا ؛ حتى لا نقع فريسة الأفكار الضارة الرديئة التي تطرحها أياد خبيثة في ساحتنا ، فتحدث في صفوفنا هذه الشروخ وهذه الحيرة التي قذفت شبابنا في قاع التيه ، وصاروا كما وصفهم محمد إقبال ـ رحمه الله ـ يحملون في أيديهم كؤوسًا فارغة يعبون منها الوهم ، وهم يعتقدون أنهم يروون .

وأرمي هنا بسؤال سريع يشير إلى الكأس الفارغة التي صارت في أيدي بعض علمائنا في جامعاتنا وأقسامها العلمية ، هذا السؤال هو : إذا كانت علاقة الدرس اللغوي بالدرس الفقهي كما نرى ، فما هي النتائج المترتبة على دعوة إخواننا اللغويين المحدثين الذين يرسخون الدرس اللغوي المقتبس من كلام الآخرين ، ويطاردون الدرس اللغوي الذي رأيناه يتشابك مع بقية فروع العلوم ؟ وأدع القارئ يجيب لأشير في إيجاز إلى أمور تتعلق بتنقية الفكرة

ونقدها وتصحيحها الذي عقدت عليه هذا المقال ، وكيف سَخِرنا منها بَدلاً من أن ننتفع بها ، فوقعنا فيما نحن فيه .

من طرائق علمائنا أنهم كانوا يحاورون الفكرة على مستويين ، الأول : الحوار الذي يكون بين المؤلف وفكرته التي يعرضها ، ترى المؤلف يناقش الفكرة التي يطرحها ، ويجاذبها ، يهزها ، ويكشف الأستار عن كل جهاتها ، حتى يرى القارئ قوتها ، وضعفها ، وسلامتها واعتلالها ، وترى هذا في أسلوب سخر منه من لا يعلم ، وهو قول علمائنا : « فإن قُلْتَ ، قُلْتُ » ، يعني إن اعترضت على الفكرة بقولك : كذا وكذا ، فإني أجيب عن اعتراضك بقولي : كذا . المؤلف هنا يلابس عقل القارئ ويحاوره ، وهذا شيء حيوي جدًا ، وطريقة فذة في تربية العقل وتعليمه ، كيف لا يتقبل إلا بعد الحوار.

والمستوي الثاني : من حوار الفكرة هو حوار العالم لفكرة غيره . وهذا شائع في الكتب كلها ، وقد أفرد علماؤنا طريقة من التصنيف لهذا الباب ، وهو المقصود هنا ، هذه الطريقة هي الكتب التي ألفت في شكل دوائر ، بعضها ينبثق من بعض ، واللاحق فيها أفسح مدى من السابق ، وهي طريقة الملخصات ، ثم الشروح ثم الحواشي على هذه الشروح ، ثم التقارير على هذه الحواشي ، والملخص يتناول بابًا من أبواب العلم ، ولم يكتب هذه الملخصات إلا الأفذاذ من العلماء ، لأنها في صورة غريبة من التركيز ، وقدرة بارعة على تخليص اللغة من الزوائد ، والألفاظ فيها كأنها أوعية متسعة الدلالة ، وأراه مذهبًا في البيان أرفع من مذاهب كتاب الرسائل ، لأنه بمثابة توقيعات علمية ، الكلمات فيها كأنها مسافات تطوى ، وحاول أن

تنظر في متن من المتون ، وتأمل كيف تتدفق الألفاظ بفيوض المعاني والإشارات ، وكيف كان هذا التدفق مضبوطًا محكوم الجماح ..

هذا الملخص تراه بعد ذلك ، وكأنه جذر شجرة باسقة متسعة الأفنان والثمار ، وذلك لأنه يتناوله عالم آخر ، ويرى فيه إجمالاً يجب أن يفصل ، ومرجوحًا يجب أن يرجح ، وغفلة عن أصل يجب أن ينبه إليها ، فيكتب له شرحًا ، ويقف مع عبارة المصنف ، ليكسبها مزيدًا من الصقل ، ويبني كتابه على مثل قوله : « قال المصنف رحمه الله » ، ثم يأتي عالم ثالث فيراجع هاتين الدائرتين ويتراءى له مما بينهما مجال حيوي للمداخلة ، فيكتب حاشية على الشرح ، تندس بين المتن والشرح ، لتخلِّص ملتبسًا ، وتكشف غامضًا ، وتدفع اعتراضًا ، وهكذا يأتي الرابع فيراجع هذه الدوائر الثلاث ، ثم يكتب دائرة رابعة تسمى تقريرًا ، وتكون بمثابة القول الفصل فيما عساه يكون قد أثير من خلافات ، وفيما عساه يكون قد بقي من غفلات .

وهذا الباب من أبواب التصنيف له دلالة ناصعة على العناية البالغة بالكلمة الفكرة ، والصبر على مراجعتها وتخليصها ، والصبر أيضًا على الإخلاص لها ، حتى إذا ما داخلت الفكرة قلوب القراء داخلتها وهي مقطرة منتقاة ، بمصفاة تلو مصفاة ، الكل يجتهد في أن يبعد عن المعرفة ، التي هي غذاء العقول ، والتي هي الجزء الحي المتحضر في الإنسان ، كل ما ليس سديدًا ، والعلماء بهذا كأنهم حراس على الحياة العقلية ، يقفون على منابعها ، فلا يجري فيها إلا ما صُفي من الكدر ، وأنا لا أريد أن أقول : إننا نؤلف كتبًا في صورة الملخصات والشروح والحواشي ، لأن لكل عصر طرائقه ،

وإنما أقول : إن الذي يجب أن يعود إلى حياتنا العقلية من هذا هو اليقظة الواعية التي تحاور كل فكرة تطرح على الساحة ، حتى لا تجد الأفكار الرديئة ـ مع هذه اليقظة ـ لها قرارًا ، فضلاً عن أن تبقى وتتأصل وتحدث في كياننا هذه الندوب الموجعة ، ولا مفر لنا من أن نستيقظ من رقدتنا الطويلة التي غابت فيها عنا الحقائق ، وزُيِّن لنا السوء فرأيناه حسنًا ، حتى صارت أمثال هذه التصانيف التي بيَّنَّا شيئًا من قيمتها موضع سخرية وغمز ولمز ، يتضاحك بها الفارغون ، ويقولون : إنها هي التي أفسدت عقول الشيوخ لطول ملابستهم لها ! ومثل ذلك مما هو أشبه بكلام أحلاس الحوانيت .

* * *

تصحيح مقولة في تاريخ الإسلام

كثر كلام المؤرخين والكُتَّاب في عصرنا حول تحليل الوثبة الفكرية التي أبدعها العقل الإسلامي في القرون الأولى من تاريخ الإسلام .

وقد كان الشائع في كلامهم جميعًا أن العرب المسلمين لما أُتيح لهم أن يتصلوا بحضارات الأمم وثقافاتها وآدابها وعلومها استنارت عقولهم وعرفوا طريقهم ، ولولا هذه الأضواء الأعجمية لظلوا في تيه جاهليتهم ، ولهذا كانت علومهم بذورًا غريبة تساقطت في تربتهم من هذه الآفاق الأعجمية ، فالنحو نبتة « سريانية، والبلاغة هامش على مقولات أرسطو في الخطابة والشعر » ، وهكذا بقية العلوم .

وبهذا تؤكد هذه المقولة أن العقل العربي لم يصنع نهضته إلا وهو محمول على عقول أعجمية ، وهذا العقل العربي في أحسن حالاته عقل شارح فحسب ، وازدهار الحياة الفكرية في أمة المسلمين يعني ازدهار الشروح والأعلاق ، وليس في ذلك شيء من الإبداع والخلق وصنع المعرفة .

وهذا الكلام يشيع في الكتب أحيانًا بهذه الصورة الواضحة وأحيانًا بصورة أقل وضوحًا ، وفيها قدر من المجاملة للعقل الإسلامي ولكن الحقيقة تنتهي إلى أن هذه النهضة الإسلامية لم تكن خالصة للمسلمين في أكثر جوانبها ، وإنما اتكأت على العقلية اليونانية بصورة واضحة ، وعلى العقلية الفارسية بصورة أقل من ذلك ، وهكذا .

وهذا الكلام ينطوي على معنى خبيث ومقصود ـ قد أغفلناه عن غفلة شائنة ـ وهو التقليل من أثر الإسلام في هذه الوثبة الرائعة مع أنها من محض عطائه ، وسوف أدع هذا ، وأناقش المسألة من وجهة نظر الواقع العلمي ، البعيد عن التأثر بمجرد الانتماء لهذه الأمة .

أعني أكتب ما يكتبه المحايد المُطَّلع ولو كان غير مسلم ، فأقول : إن الذي يتابع حركة العلوم وتاريخها ويحلل عناصرها بدقة وفهم لا يرى صوابًا في هذه الشائعة ؛ وإنما يرى أجيالاً من علماء الإسلام تتابعوا في جد ودأب ، وتوارثوا أصولاً من المعرفة ، جعلوا همهم كله في تحريك هذه الأصول وتهيئة أسباب النمو ، والازدهار لها ، وغير ذلك مما يشغل به العلماء ، وما من كتاب في فرع من فروع المعرفة إلا وله مصادره ، وأصوله ، في التراث الذي كان بين يدي مؤلفه .

وكل مرحلة من مراحل التطور في أي فرع من فروع المعرفة هي في الحقيقة فكر الزمن القديم ، تخلله عقل الزمن الحاضر ، فصاغة صياغة جديدة ، وأجرى فيه روحًا جديدة ، وأحدث فيه توقيعًا جديدًا ، وبقدر جدة وأصالة هذه الصياغة ، وقوة هذه الروح ، وجزالة هذه التوقيعات ، تكون قيمة المرحلة ومقدار الطفرة ، التي طفرتها العلوم .

تأمل ما شئت من المصادر التي كانت معالم شاهقة في تاريخ العلوم مثل كتاب (الأم) للشافعي ، و(الخصائص) لأبي الفتح ، فلن تجد في كتاب (الأم) إلا عقل الشافعي كالفرقد المتوهج يشق الغيهب ليكتشف ما تحت الكلمة القرآنية من علم غزير ، ولن تجد في كتاب (الخصائص) إلا علم الفارسي ،

وعلم سيبويه ، ومن في طبقتهم ، يتخلله عقل أبي الفتح تخللاً ، أخصب هذا الفكر إخصابًا جديدًا ، واستخرج منه استخراجات جديدة ، وهذه المداخلات التي يبثها هذا العقل هي القياس الدقيق لأقدار العلماء ، وأقدار المصادر ، فقد يكتفي صاحب الكتاب بجمع المادة العلمية القديمة وينظمها ، ويصنفها ، وحسبه أن يرجح مرجوحًا ، أو يخالف مشهورًا ، ويقف عند هذا الحد الذي يضع فيه الرأي إزاء الرأي من غير أن يثير حوارًا ، فضلاً عن أن يجعل هذا الحوار يشتد ويدمدم أحيانًا حتى ليحدث جلبة ينهدم بها رأي ضعيف في مواجهة حوار عقل فذ .

ومن العلماء من ترى له مداخلات لطيفة وخفية وجزلة وجادة وغير ذلك وأكثر من ذلك وهم العلية من العلماء الذين ترى مداخلاتهم هذه كأنها مس «الكهرباء» ، ترى بها الكلام الموروث وقد صار كأنه ينتفض في كلماتهم حتى تخرج منه ودائعه فترى فيه خواطر ، وعوارف جديدة ومبهرة .

وترى هذه الجذوع القديمة تهتز وتربو بعدما بقيت زمنًا وهي ساكنة ، وتمر بها العقول المتوسطة مر الكرام ، ثم طاف بها طائف من عقل حر فحل فانعطفت نحوه ، وكشفت له المستور في أكنانها .

أقول هذا وفي ذاكرتي مداخلات أمثال سيبويه التي صيرت علم الخليل ويونس علمًا ثالثًا هو علم سيبويه وألقت عليه رداءه ، وهكذا قل في عبد القاهر الذي كان يقف عند الجملة الواحدة من كلام سيبويه ويضرب فيها بعقله حتى يصيرها بابًا لا ينال غوره ، وهذا الذي أقوله لا يشوبه شوب من المبالغة ، والمشكلة أنه غائب .. وغيبته هيأت عقولنا لقبول القول بأن

ازدهار العلوم العربية والإسلامية إنما كان من إثر اطلاع العرب المسلمين على علوم الآخرين ، وأن الترجمة نظَّمت عقولهم وعرَّفتهم المنهج إلى آخر ما يجري ويشيع حتى غفل بعض الشيوخ وقالوه .

وأقول بصيغة أخرى : إن علم الفقه هو أصل العلوم العربية والإسلامية وهو بمثابة الجد الأكبر لهذه الفصائل ؛ لأنه الغاية من وراء علوم القرآن والتفسير والإعراب وعلوم اللسان كلها ، وقد سرت روحه في علوم العربية ، فالنحاة مقتدون بالفقهاء في طرائقهم التي يصرفون بها القول في العلم ، ومُصَرِّحون في كتبهم بهذا ، والنقاد كثير منهم فقهاء ، وملقب بالقاضي ، والبلاغيون شيوخهم من الفقهاء ، ثم إن أركان المعرفة الفقهية هم : مالك والشافعي وأحمد وأبو حنيفة وأصحابهم ، وقد كانت ولا تزال دراساتهم ومناهجهم واجتهادهم موضع إلهام لكل ذي همة في باب من أبواب المعرفة ، وأسأل نفسي أين توقيعات الفكر الأعجمي من يوناني وفارسي وهندي في هذا الصرح الهائل؟!!! والجواب لا شيء وهكذا في بقية العلوم حاشا الفلسفة والعلوم الحكمية فقد اقتبسها علماؤنا اقتباسًا ظاهرًا لم يكتمه منهم أحد ، وبقيت الفلسفة الإغريقية بعد إسلامها ذات طابع إغريقي متميز ، كفها هذا الطابع وعزلها فلم تندمج في صرح العلوم العربية والإسلامية ذات النسب الخالص ، وبقيت الجمهرة من علمائنا تدفعها وتصرف عنها .

ولا يجوز أن نقول : إن علماءنا الذين أسسوا علومنا لم يقرؤوا تراث الأمم الأخرى الذي كان يتاح لهم أن يقرؤوه ؛ لأن هذا القول يخالف ما فطر الله عليه العقول الحية ذات التوق الدائم للمعرفة ، والعقل الحي ينعطف

لا محالة نحو : هومير وهيجو وفاليري وكالوردج كما ينعطف نحو زهير وأبي الطيب والتوحيدي وشوقي ومحمد عبده ، والنائفة التي تدرك روائع الآداب والأفكار لا يمكن أن تشعر بجلال سوهبة أبي العلاء ثم تستصغر عظمه «دانتي» وهذا أمر لا كلام فيه .

وعلماؤنا الذين دفعوا الفلسفة وذادوها وصرفوا عنها ، قرؤوها وأحكموا فهم مقالتها ، وإلا كان دفعهم لها خبطًا في هواء .

وهذا الاطلاع شيء يحدد بحدوده ، فلا يجوز أبدًا أن يقال إن هذه الوثبة العلمية إنما كانت من أثر هذا الاطلاع ؛ لأننا نعلم أن الفكرة الرائعة والكلمة النبيلة أمام العقل الإنساني الحر كالماء والهواء ، لا يسأل الإنسان الذي يتنفس الهواء من أين هبت نسائمه ، ولا يسأل الإنسان الذي يُروى بالماء من أين انسابت منابعه ، ومع هذا تبقى في يد كل أمة مادتها التي تصوغ منها علومها على الوجه الذي تمليه عليها هذه المادة ، والتي تحركها دوافع وعوامل أبعد في العقول غورًا من هذا الاطلاع العام وإنما ترجع إلى المعرفة الأوسع والأعمق والأدخل في تكوين العقل ، وليس لهذه المعرفة العامة شيء في هذا السبيل وقولنا إن الكلمة الرائعة يحتضنها العقل الإنساني من غير أن يسألها عن جنسيتها أو دينها أمر ثابت ولكنه يمثل المعرفة العامة التي كان يجب أن يحصلها الطبيب والمهندس والأديب والعالم اللغوي ، وأن يكونوا جميعًا فيها سواء ، وأنت ترى الحكمة الفرنسية أو الإنجليزية قد وصلت إلى أفواه بعض العوام في ريفنا الغارق في الأوهام والأحلام والأسرار ، وعجيب جدًا أن تجد باحثًا يقول إن فلانًا من علمائنا قد انتفع

بالفكر اليوناني في كتابه كذا ، ويستشهد لذلك بأن هذا العالم ذكر « أرسطو » أو « سقراط » من غير أن يفطن إلى أن المعرفة العامة التي تذكر فيها أسماء العلماء شيء ، واقتباس العلم شيء آخر ، أو وصول الأثر إلى بؤرة التفكير وموطن الإدراك الحساس الذي يصوغ وجهة النظر هذا شيء آخر ، وأعجب من هذا أنك تجد باحثًا يقول : إن عبد القاهر ذكر هذه الصيغة (صناعة الخطابة والشعر) وفيها كلمتا الخطابة والشعر مقترنتين وهذا دليل على أنه أخذ عن أرسطو ؛ لأن أرسطو له كتاباته في الخطابة والشعر ، وأظنك ترى معي أن هذا أبعد من الصواب مسيرة أميال كما يقولون ، لأني قد أقطع بأن عبد القاهر لم يأخذ شيئًا وإن ذكر اسم أرسطو مرة ومرة وقد أقطع بأنه أخذ جوهر علمه ، وإن لم يذكر الخطابة ولا الشعر ، ووسيلة ذلك معروفة لدى أهل العلم ، ولسنا بصدد الكلام فيها ، وإنما نريد أن نؤكد الفرق بين الاطلاع الذي تقتبس فيه الكلمة ، والحكمة ، والمثل ، وتذكر فيه أسماء العلماء ، وبين الدراسة المنتظمة التي يتخرج فيها طالب العلم ويجاز من شيخه والتي تشكل وجهة نظره وطريقة بحثه إلى آخر ما هو أساس الازدهار الفكري .

وكان هذا مفهومًا وواضحًا لدى علمائنا وكانوا يرون أن الاطلاع على علوم الآخرين هو بمثابة الهامش المتسع والمهم ، أما القلب والأصل والعمود الذي عليه المعول كما يقولون فهو كدح العلماء في الإرث الذي انتهى إليهم من الجيل السابق ، ثم خلق صيغة جديدة لكل جيل تتميز هذه الصيغة الجديدة بمقدار تميز هذا الجيل ، وهذه الصيغة الجديدة من أي وجه أدرتها فلن تجد فيها إلا عنصرين؛ العنصر الأول : التراث العربي الخالص .

والعنصر الثاني : هو عقل الباحث وخبرته ، وفقهه وكل ما له صلة بكيانه من حيث هو عالم ، ومفكر ، ومجتهد ، ثم لا ثالث من عناصر فارسية ولا إغريقية ولا غير ذلك إلا في النزر الذي لا يلتفت إليه الذين يحللون تاريخ العلوم والحضارات .

قلت : إن علماءنا كانوا يفرقون بين ما يحصلونه من قراءة علوم الآخرين وبين علومهم التي هي شواغل الدرس والبحث والتأليف ، وهذه صورة تدلنا بطريقة عملية على الفرق بين وجه الانتفاع أو توظيف المادة العلمية التراثية التي هي من جنسم المعرفة العربية والإسلامية ، والمادة العلمية المقتبسة من علوم الآخرين .

كان محمود بن عمر الزمخشري شيخًا من شيوخ النحاة استخرج نحوه كله من تراث الخليل وسيبويه ومن تبعهم بإحسان مضيفًا إلى هذا اجتهاداته وهي كثيرة وخصبة وجيدة ، وكذلك تراثه البلاغي استمده من عبد القاهر مضيفًا إليه فكره الذي أعانه على تقديم صيغ جديدة ومقولات حية في هذا العلم جعله بها العلماء إمامًا ، وهكذا في علم التفسير والغريب والعقائد ؛ لا ترى في ذلك شوبًا يلفتك من كلام العجم وإنما هي علوم عربية صافية النسب لم تهجنها عجمة حتى ليخيل إلينا أن الرجل لم يطلع على غير تراث العربية .

ويلاحظ أن الزمخشري كان يكتب بعض كتبه باللغتين العربية والفارسية ، وذلك مثل كتابه (مقدمة الأدب) الذي كان يكتب فيه سطرًا بالعربية ثم يكتب السطر نفسه بالفارسية ، وهكذا حتى تم الكتاب و(مقدمة الأدب) هذا ليس

فيه خاطرة واحدة يمكن لباحث مهما كان متسامحًا أن يقول : إنها يونانية أو فارسية وإنما هو عربي خالص .

ثم ننظر من جهة أخرى ونقرأ له كتاب (ربيع الأبرار) فنجد الكتاب نقولا من آداب الفرس واليونان والهنود وهو مختارات من أقوال الحكماء والأدباء والملوك وأصحاب الدولة المثقفين ، وهكذا .

والنصوص الأعجمية في هذا الكتاب غلبت النصوص العربية ويقول في مقدمة كتابه هذا : إنه كتب الكتاب لطلابه الذين يقرؤون عليه كتاب (الكشاف) وذلك ليقرؤوه في أوقات فراغهم ترفيهًا وترويضًا لأن خفته وسهولته ومادته تُذْهِب سآمة الدرس العلمي الجاد .

هناك إذن ضربان من القراءة : قراءة بحث وتحليل وتحرير ، وفيها يكد الباحث عقله وهي علوم أمته التي يدرسها درسًا منظمًا كما يحدث في الأمم كلها وقراءة يُذْهِب بها الدارس عن نفسه السأم والملل : وهي دائرة الاطلاع المتسع ويدخل فيها علوم الآخرين ، وهكذا كان يرى شيوخنا موضع هذه المعارف من سياق الحركة الفكرية وهم أنفسهم الذين صنفوا هذه العلوم ، وأسسوا هذا الازدهار الذي زيفناه بقولنا إنه أثر للترجمة ونقل علوم الأوائل ، وهذا القول الذي زيفنا به عصر الازدهار في تاريخنا ورجعناه إلى العجم لم يقل به أحد من علمائنا الذين ورثوا هذا الازدهار وبهرهم إبداعه وتفوقه ، وكان موقف الإعجاب هذا جديرًا بأن يدفعهم إلى ذكر هذه العلة .. علة الترجمة ونقل علوم الآخرين لو كان فيها شوب من الصواب ، ثم إن هذا الجيل الوارث قد جاء في عقب الجيل الذي أسس ، يعني يشبه أن يكون من شهود هذه الطفرة ، ولا يعقل أن يتفقوا على الصمت عن هذه العلة .

وإنما الذي يعقل أنهم رأوا وشهدوا صنع الفكر وزرعه واستنباته ، وكان ذلك مصدر إعجابهم الذي سجلوه في كتبهم ، وقد كانوا لا يعدون التراجمة من العلماء ولا يلتفتون إليهم ، فكيف نتصور أن يكون هؤلا التراجمة هم معبر هذه العلوم إلى علمائهم وأسلافهم ؟!! وهم أصحاب اليد العليا على هذا الازدهار العلمي ؟!!

شاعت هذه المقولة في العصر الحديث فقط ولها غاية وهدف هو تهيئة العقل الإسلامي المعاصر لأن يكون مجرد ناقل يملأ بهذا النقل ساحة الفكر والأدب في عالمه القصي المترامي ، ولهذا علله ومراميه التي لا يتسع المقام لذكرها ، وحسبنا ما أردنا بيانه .

* * *

حقائق غائبة

لا ريب أن ثمة منافذ طبيعية ، ومداخل صائبة لإنماء العلوم العربية ، وتحريكها ، وإبداع المعرفة التي بها تتسع اتساعًا ينداح من داخلها ، ويمتد فيه نسيجها امتدادًا يتراحب .

وبين أيدينا تجارب غنية في إبداع المعرفة ، وإنشاء العلوم ، ويمكننا أن نصطنع مسالكها ، وهي باختصار شديد بعد استقصاء كلام أهل الطبع ، وطول النظر فيه . وطول المراجعة ، وإدمان النظر ، والتفتيش في كلام الأوائل ليس لحفظه واستيعابه ، فإن ذلك لا يقدم ولا يؤخر ، فيما نحن فيه ، وإنما لاستخراج خبيئه ، وبعث الفكرة من وراء الفكرة ، واستلال الخيوط المضمرة في غيبها ، ومدِّها ، ونسج كلام آخر منها ، على حد ما فعل الكبار .

تأمل كلام عبد القاهر في أي باب تشاء لا لتُحصِّل مادته ، فذلك شيء يجب أن نكون قد فرغنا منه ، وإنما لترقب حركة عقله ، وهو يكابد « عملية الإبداع » وخلق الأفكار ، ويعتصر ما بين يديه من حقائق سلفه ، ليستخرج منه رحيقًا جديدًا .

تأمل باب التقديم الذي ظل يلح فيه على استنطاق كلمة سيبويه : « إنما يقدمون الذي بيانه أهم وهم بشأنه أعني » حتى غمغمت بكل ما في بحث التقديم مما يُرى في كتاب عبد القاهر متميزًا ، وكأنه على غير مثال. وتأمل بحث « القصر » الذي أسسه على محاورة ذكية مع نص نقله من الشيرازيات ،

وما زال يستل من هذا النص خيوطًا ، ويستخرج من الخيوط خيوطًا حتى قدم شيئًا جديدًا ليس هو كلام أبي علي ، وليس مقطوعًا عنه ، وإنما هو متناسل منه كما يتناسل الحي من الحي .

ودع عبد القاهر وانظر إلى تجربة أبي الفتح عثمان بن جني في كتابه « الخصائص » ، وكيف استخرج من كلام سيبويه وأبي علي وغيرهما علمًا ليس هو علم سيبويه ولا علم الفارسي ، وإنما هو علم أبي الفتح ، وكما استخرج عبد القاهر من مكنون النحو علمًا آخر هو علم المعاني ، استخرج أبو الفتح من هذه المضابئ نفسها علمًا آخر هو علم أصول النحو ، وقياس العربية ، وهو عند ابن جني : « أشرف ما صُنِّف في علم العربية ، وأذْهَبُه في طريق القياس والنظر ، .. وأجمعه للأدلة على ما أُودِعَتْه هذه اللغةُ الشريفة من خصائص الحكمة ، ونِيطَتْ به من علائق الإتقان والصنعة » هكذا قال في مقدمة « الخصائص »

وأَلْفِتُ هنا إلى شيء مهم وهو أن اجتهاد أهل الاجتهاد من علمائنا رضوان الله عليهم لم يكن اجتهادًا في استخراج مسألة من مسألة فحسب ، وإن كان ذلك نفيسًا وعز علينا ، وإنما كان اجتهادًا في استخراج علم من علم ، وتلك هي الغايات التي لا يدركها إلا الأفراد .

ومن الغريب أننا سكتنا سكوت من لا يعلم عن مناهج هؤلاء في الاجتهاد والاستخراج ، وهي مناهج جديرة بأن تدرس ، ويستخرج منها ، وتكون بدائل زاهية لما نُدَرِّسه من مناهج البحث في معاهدنا ؛ لأنها تجارب كل خطواتها بين أيدينا ، ومحيطها الذي تحركت فيه كذلك بين أيدينا ، ثم

هي أقرب إلى عقولنا لأنها مستخلصة من علومنا ، وقبل ذلك وبعده هي جزء من تاريخ حضارتنا وعلومنا ، ومناهج البحث الحديثة لم تخصب عقولنا بشيء ولم تحفز هممنا نحو الإبداع والوصول إلى حقائق علمية جديدة ، والذي هو المقصود أساسًا من إحكامنا لمناهج البحث ، وليس هذا قدحًا فيها لأنها أثمرت عند من استخرجوها ، والواقع الذي نلمسه بأيدينا أنها لم تثمر عندنا ولم أعرف عقلاً أَلِفَ مضغها ثم انبثق عن حقيقة نافعة .

وأقول إن استخراج مناهج هؤلاء الأعلام ليس هو هذا التهاون الذي نجده في الكتب التي صنفت عنهم ، والتي نجد فيها بابًا أو فصلاً يسمى (منهجه) ثم نقرأ حقائق مثل إن هذا العالم كان ينسب النص ، أو كان لا ينسبه ، أو أنه كان بصريًا في مسألة وكوفيًا في غيرها ، أو أنه من مدرسة المتأدبين ، أو من مدرسة المتكلمين ، وأنه كان يُخرِّج الشعر ، أو لا يُخرجه إلى آخر هذه المعلومات السطحية التي يقع عليها القارئ المبتدئ .

ولابد أن يكون دارس منهج الواحد من هؤلاء قد فطن لكل كلمة قالها ، ووعاها وعيًا يستطيع به أن يَقْفُوَ أثرها ، حتى يصل بها إلى منابتها في كلام من سبقه ، أو يصل بها إلى انبثاقها في نفسه ، ثم يصف بدقة قصة الفكرة في عقل هذا العالم ، وكيف نَمَّاها ؟ ومن أي جهاتها جذبها حتى امتدت ؟ وكيف مَخَضَها حتى أخرجت مَخْضَها ؟ وغير ذلك مما تجده حيًا واضحًا بين عينيك حين تديم النظر إلى كلامهم ، وتعطيه ما هو أهله من العناية والصبر

وهذا الباب الذي هو «علم مناهج البحث في علوم العربية» لا يجوز أن ينهض به المبتدئ ، مهما كان إخلاصه ، وجِدُّه ، وإنما ينهض به الشيوخ من

علمائنا ، الذين عكفوا الفكر على هذه العلوم ، وانجذبت رويتهم إليها ، لأنها ليست دراسة في كلام العلماء ، وإنما هي نظر في منابع علومهم ، وترقيق أفكارهم بحركة عقولهم ، وارتياض قلوبهم للذي ارتاضته من عصيه ، ومعاناة أفئدتهم في اقتناص نافرة ، وتأليف شاردة ، وكيف كانوا يتدبرون ؟ ولا أقل من أن نحفظ لهؤلاء حقوقهم ، وحرماتهم ، ونبعد بهم عن اللغو الذي نحن فيه ، ولا ننتدب لدراسة هذا الجانب في تراثهم إلا من كان أشبه بهم هَدْيًا وسَمْتًا .

وتجلية روح الاجتهاد المنطوية في التراث أمر ضروري ، وإشاعة هذه الروح كأصل من أصول المعرفة أمر ضروري ، وليس بين المتخصصين في العلوم العربية والإسلامية فحسب ، وإنما بين المشتغلين بالعلم في كل فروعه ، لأنها قيمة إبداعية ، وحضارية ، لا يجوز إغفالها ، وقد غابت عن الساحة منذ زمن ، وصارت حياتنا الفكرية في غيبة هذه القيمة تعاني عقمًا ظاهرًا ، بل و« عنوسة » بغيضة شوهاء ، والغريب أن هذا التراث الذي ينطوي على هذه الودائع التي تستهدف إثارة أقدس ما في الإنسان من طاقات خَلاقة ومبدعة ، يوصف بالجمود ، ويوصف القائمون عليه بالجمود أيضًا ، بل والتخلف ، وأنهم يريدون أن يرجعوا بنا إلى الوراء « تَخُبُّ بنا النجيبةُ والنجيبُ » وأنهم خُتِمُوا على عقولهم بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وأن عيونهم لا ترى أضواء العصر الباهرة ، إلى آخر ما تجده في كتابات قد تذيل أسماء كاتبيها بأنه رئيس قسم كذا في جامعة كذا وهذا دليل قاطع على ما قلناه من أن القيم الإبداعية في تراث الأمة مطمورة مُغَيَّبة عن عيون من يسميهم الناس « علماء » وليس هذا تقصيراً فحسب ، وإنما هو أمر منكر ،

وكلنا يسمع من طلابه ، ومحدثيه ما يدل دلالة قاطعة على أنهم يفهمون أن الحفاوة بالتراث والعكوف عليه تعني إحكام الرتاج في وجه كل جديد ؛ كما تعني إلغاء الطاقات الخلاقة ، والاكتفاء بالحفظ ، والاستيعاب ، إلى آخر ما لا تجد في نفسك أمامه إلا الحيرة ، والصمت ؛ لأنه جهل بألف باء حقائق التراث ، وجهل بتاريخ قصة العقل ، والعلوم في أمة نلبس جلودها ، ونمتلك ماضيها وحاضرها . وقد تسمع ذلك من رجال مذكورين بالعلم بين الناس فتزداد لأواؤك ، ويزداد تلددك .

ومن أهم ما غرس هذا الخطأ في النفوس ارتباط كلمات « التطور » و« التجديد » وهي أسبق الكلمتين شيوعًا وقد ارتبطت أول وجودها بأمرين :

١- الرمي في وجه القديم ، بعد قتله بحثًا!!

٢- إغراء العقول بالفكر الغربي ، والترويج له ترويجًا ظاهرًا ، تجد كتب التجديد تقوم على أساس عرض شريحة من الفكر التراثي ، وقد يساء اختيارها ويهمل فهمها ، مع الزعم أنها قتلت بحثًا ، ثم عرض شريحة من الفكر الغربي ، ثم التعليق على كلام القدماء بأن انظر لترى : « وجهًا معروقًا ، بادي العظام ، شاحبًا ، يسير الحظ من الحيوية ، والنضرة» .

ثم التعليق على كلام الغربيين بأن انظر لترى صورة : «أنضر وجها وأبهى قسمات من تلك الصورة التي عرضها حديث الأقدمين» وهكذا كأنك في معرض لوحات إعلامية للتشهير بالقديم « العربي الإسلامي» والتنويه بالجديث « الغربي المسيحي» كل هذا والاستعمار الغربي باسط سلطانه على البلاد والقائلون بهذا من كبار الرواد .

ومع هزال هذا اللون من الإخراج ، وسذاجته ، وضعف مادته العلمية والخطأ البين في تفسير المعروض من الصور التراثية ، وركاكة المعروض من الصور الحديثة وسطحيته ، والانبهار الصارخ في التعليق عليه ، أقول مع ظهور ذلك كله فقد نفقت هذه الأفكار وغذت العقول والقلوب لأنها تلقتها وهي هواء ، وأخذتها أخذ المتعلم الصغير عن المعلم الكبير وصَحِبَتْها جلجلة جهيرة بأستاذية قائليها ، وريادتهم وعلمهم الواسع بالتراث ، وجهادهم في سبيل تجديده ، ومحاماتهم الشديدة عن القديم ، وغيرتهم عليه من عقلية الشيوخ ، وهذا الذي يرى كأنه هدم ، هو في الحقيقة تجديد لعقل الأمة ووجدان الأمة ، وتراث الأمة أيضًا ، وأن هذه النار التي يشعلها هذا الكلام في عقل الأمة ، وتراثها ، هي النار العظيمة المقدسة التي تجلو الجوهر ، وتزيل الخبث إلى آخر ما أحاط بالنفوس وهيأها لهذا الفساد فَقَرَّ فيها وتأثّل . وبهذا ومثله وهو كثير ويتكاثر ارتبط التجديد في نفوسنا بالأخذ عن الغرب ، وارتبط التراث في نفوسنا بمجافاة التجديد والإغراق في الجمود ، والدوران في الدائرة المغلقة « مَحلَّك سِرْ »

وغابت عن الأذهان فكرة انبثاق الجديد من غيب القديم ، وإشاعة طرائق المفكرين المسلمين ، واجتهادهم ، وجهودهم في خلق المعرفة وقدراتهم الفائقة على تطويرها ، وكيف كانوا يَصُبُّون عقولَهم على القليل الخافت فيصبح كثيرًا نافعًا ، وكيف شقتْ عقولُهم حجب الغيب عن خير كثير؟؟ إلى آخر ما يلفت إلى تلك الطاقة الهائلة من التراث ، والتي هي قادرة - لو أُتقن اصطناعها - على إثارة ما أودع الله في فطرة الإنسان من طاقات ، وابتعاث شُعَل القلوب والعقول تسطعُ وتُدْفئ ، كل ذلك مسكوت عنه ، ومضت

البحوث والكتب على النمط الذي لا يبعد عن صورة العرض التي ذكرناها ، والتي كانت بداية التجديد ، يساق كلام القدماء في المسألة ثم يعلق عليه بأنه صادر عن فقدان الوعي بكذا « جوهر الشعر ، ... حقيقة التجربة .. الصدق الفني .. التناسق النفسي .. وظيفة الخيال .. وظيفة اللغة .. طبيعة الأدب .. استاطيقا اللغة ، وهذه الأخيرة أطرفها ، وخاصة عند من سبر علم من يقولونها... » إلى آخر ما ترى ، والمهم أنه كلام صادر عن عدم وعي ، يعني غفلة ، أو بلادة ؛ أو ما يمكن أن يقع في ذهنك ، ثم يذكر في المسألة نفسها نص مقتبس ، ويعلق عليه بأنه صادر عن وعي عميق بالأدب ، أو طبيعة الخيال ، أو وظيفة كذا . إلى آخر ما تقرأ .

وصار هذا القالب أو النمط أو المنوال هو ما ينسج عليه كل من أراد أن يكون ابن عصره !! مجددًا !! مستنيرًا غير جامد ولا متخلف !! ، يأخذ بطرفي الأصالة والمعاصرة معًا ، وخطر هذه الطريقة إنما يكون على الجيل الذي يتربى عليها ويعتقدها علمًا ، وأنها معرفة ، ولم يفطن إلى أنها أشبه بكلام الباعة في الأسواق منها بكلام أهل التحقيق ، وأنها أقرب إلى أن تكون لغة أصحاب « البوتيكات» منها بلغة العلماء .

وهذا الأسلوب في الكتابة سهل جدًّا ـ وذلك أيضًا مما أغرى به ـ لأن التعليق على النص ـ سواء بالحق أو بالباطل ـ بأنه غير قائم على الوعي الاستاطيقي ، أو على الجهل بالنظرة الحديثة في بناء الصورة ، أو أن مصدره هو التذوق المادي أو الحسي للأدب إلى آخر ما تراه ، أيسر بكثير من الوقوف على النص لتفصيل مجمله ، وتوضيح مبهمه ، وتجلية جوهره ، إلى

آخر ما يعانيه أهل العلم في كل أمة من عرب وعجم . وصدقني إن كتابة الكتاب من هذا الباب المتجدد المتطور الآخذ بذيل الحداثة ، وذيل المعاصرة معًا ، لأيسر كثيرًا من فهم باب من كلام أبي الفتح ، فضلاً عن سيبويه ، الذي يكاد يَتَغَوَّل العقل تَغَوُّلاً ، وصدقني مرة ثانية إنك تستطيع أن تكتب من هذا اللون بحوثًا ومقالات تشغل بها الناس ، دون أن تتوفر على طلب العلم لأنها ليست من بابه ، ودون أن تشعر بالرهق الذي يكاد يخلع نفسك وأنت تساور نصًا من نصوص أهل الفقه ، إنه من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وصلى الله على سيدنا محمد ومن تبعه .

* * *

ويلكم! ثواب الله خير

لم تخل المجتمعات الإسلامية يومًا من فئة تنطوي صدورها على معاداة دين الله ، وهذه الفئة كانت ولا تزال تنفث أحقادها على هذا الدين العظيم في مجالات مختلفة ، وهي غالبًا مجالات حيوية وذات أثر في كيان المجتمع ، ولكن العيون الساهرة على حراسة الدولة الإسلامية كانت ترصد هؤلاء وترد غيظهم وحقدهم .

ولابد أن يستيقن المسلمون أن هذه الفئات مستمرة وأن على أهل الحق حراسة هذا الحق ، وأنهم على الثغر أبدًا يتوارثون هذا الشرف جيلاً بعد جيل ، حتى تشرق الأرض بنور ربها ويوضع الكتاب ، وهذه الفئة المحاربة لله ولرسوله تزينت في زماننا بزي العلم والحكمة والتفلسف والتمذهب الذي ينتمي بهم إلى أيديولوجيات ليس لهم فيها إلا التحصيل الناقص المضعوف ، وهم من أصحابها بمنزلة التلميذ المتخلف من صاحب الرأي ، ومن هنا كانت الحراسة ذات تكاليف لأنها تقتضي ضرورة سعة الاطلاع ووفرة التحصيل ودقة النظر ، ووجب على جند الله أن يحققوا في أنفسهم أهلية هذا الشرف السامق الذي لا يناله إلا من كابد وأخلص وصدق في مكابدته وإخلاصه . إن الذين يتعرضون لهذا التيار المعاند لشرع الله ودين الله يجب أن يكون نظرهم أعمق وأن يكون فقههم أوفر وصوتهم أضوأ ، ومقالتهم أنور ، وعليهم أن يفعلوا ذلك وإلا يفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .

ولا أريد أن هؤلاء المعاندين من ذوي العلم المتسع والفقه الدقيق والمعرفة الزاكية .. لا ... لم يقع في نفسي يومًا وأنا أطالع ما يكتبون أنهم على شيء من ذلك ، وإنما هم على شيء آخر يحتاج إلى سعة في المعرفة ومرونة في الفكر ودقة في النظر أكثر مما تحتاج مجادلة العالم لأنهم يلبسون الباطل بالحق ، ويروغون ، ويزيفون ، ثم يحكمون التلبيس والروغان والتزييف وكشف هذا كله باب من أبواب المعرفة لابد أن يكون ذا غور ، وذا سعة ، ودقة إدراك ، وحسن تلطف .

والذي يتلاعبون به الآن على الساحة هو عدم جدوى تطبيق الشريعة الإسلامية هكذا مجابهة ومكاشفة ، يقولون ذلك في مقالاتهم ومحاضراتهم ومحاوراتهم «وسهراتهم» وتنشر الصحف الكثير من ذلك ، وهذا وإن كان يجري في مصر إلا أن لهم في بقية الأقطار الإسلامية أشباهًا ورفقاء ويتنادون بذلك جهارًا ، وفي بعض الأقطار التي لا تسمح نظمها بهذه المعالنة يتخافتون فيها سرارا ، وهذا أمر بيِّن لا يجهله إلا من يغمض عينيه ويسد أذنيه .

ولا أفهم معنى للقول بعدم صلاحية الشريعة للتطبيق في زماننا إلا رد هذه الشريعة ، والمسلم قد يعطل حكمًا من أحكام الكتاب والسنة ويكون عاصيًا ما دام مقرًا بهذا الحكم ، أما حين يقول بعدم الجدوى منه فذلك شيء فوق المعصية والفسوق .

وهؤلاء يقولون إن تطبيق الشريعة رجعة إلى التخلف وتدمير الحضارة والمسلم يأخذ ما آتاه الرسول وينتهي عما نهاه عنه : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر:٧) ، والإذعان لحكم الله هو قاعدة

الإسلام : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء:٦٥) .

ومن رد ما آتاه الله ورسوله وصرف الناس عن صراط الله لا يكون من أهل القبلة إلا إذا خدعنا أنفسنا وتلجلج الحق في صدورنا وأمسكنا عن الجهر بذلك مخافة أن نُتَّهم بأننا نحكم على عقائد الناس ، وهذا ليس سبيل المؤمنين .

نعم إن الحكم في هذا الباب يجب أن يكون حذرًا وأن يكون محفوفًا بالتردد والخوف من المخاطرة ، ولكن هذا يجب أن يكون له حد يقف عنده وإلا أدخلنا في زمرتنا من هم من ألد أعدائنا وأُتيحت الفرصة لتخريب الإسلام في نفوس المسلمين من داخل الحياة الإسلامية نفسها وهذه هي الحالقة ، ويقولون في حججهم التي يحتجون بها لتأكيد تعطيل الشريعة : إنه لم تقم حكومة دينية ، ولم تطبق الشريعة الإسلامية إلا في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم انحسر ظل الشريعة عن سياسة الدولة ، ثم كان يطبق في مراحل داكنة اصطنعت فيها الشريعة سبيلاً إلى القهر والاستبداد ، ولهذا صور في زماننا ، فقد قامت حكومة دينية في بعض الأقطار وجرّت الخراب على الساحة الإسلامية ، كما حاول بعض المستبدين أن يُقَنِّع استبداده فطبق الشريعة وزاد الشعب المقهور قهرًا إلى آخر ما يقولون ...

والقارئ الحصيف يفهم أن مفهوم الدولة الإسلامية أو الحكومة الإسلامية يعني قيام أمر الجماعة على شرع الله وهذا غير مصطلح الحكومة الدينية التي تقوم على الحق الإلهي ؛ لأن الحكومة الدينية بهذا المفهوم استَنْبطتْ

مقومات مصطلحها من تاريخ الغرب المسيحي ، وهذا واقع آخر ومغاير تمام المغايرة ولا وجه للخلط ولا للمقارنة ، وفي الوقت الذي كانت سلطة الكنيسة فيه تطالب بإعدام علماء الفيزياء والكيمياء والفلك وإحراق كتبهم كان علماء الشريعة في تاريخنا هم أنفسهم يدرِّسون لطلابهم علوم الفيزياء والفلك ، وكان الشافعي يحاضر طلابه في الطب مع الفقه وأصوله .

والذين يطالبون بتطبيق الشريعة لا يطالبون بتنصيب إمام لا يسأل عما يفعل ، ولا حكومة لها حق إلهي ولا شيء من هذه (التخاريف) التي يلهج بها بعض الكتاب حول هذا الموضوع ، وإنما يقولون للحاكم المسلم ما قاله الله سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء:١٠٥) ، ويقولون مقالة أهل الشريعة التي تقرر أن بيعة الحاكم في أعناق الأمة لا يحيد عنها إلا فاسق ما دام هذا الحاكم قائمًا على أمر الله يحل حلاله ويحرم حرامه ، ولا يعطل بابًا من أبواب الشريعة ، فإذا أحلت قوانينُه ما حرم الله ، وحرمت قوانينُه ما أحل الله فلا بيعة له ، هذه خلاصة ما يطالب به الداعون إلى تطبيق الشريعة ، وليسوا هم الجماعات الإسلامية وحدهم ، وإنما هو مطلب المسلمين كافة ، ومن المغالطة أن ينسب هذا المطلب إلى ما يسمى بالتيار الإسلامي ، وأن يقال إنهم وحدهم يطالبون الأمة بأن تخضع لأمر الله ونهيه ومن عداهم من أهل القبلة لا يطالب بذلك .

أما أن الأمة عاشت تاريخها كله وهي مارقة عن شرع الله إلا في أزمنة محدودة وداكنة فهذا كلام فاسد ؛ لأننا لم نعرف حُكْمًا فرضَ على المسلمين

قانونًا يحل ما حرم الله ، أو يحرم ما أحل الله إلا في العصر الحديث ، نعم كانت هناك مخالفات ، وكان هناك قصور واختلاف في كل مرحلة من مراحل التاريخ ، وهذا شيء آخر كان يكثر أو يقل بمقدار درجة التزام الحاكم بالتطبيق وأخذه نفسه ومن حوله على منهج الله ، وتطبيق الشريعة يقتضي أن تتوفر في الجماعة صفوة من فقهاء الشريعة لها بصر بأصولها وفروعها ، تستطيع أن تستخلص من فقه الكتاب والسنة ومقالة السلف الأحكام السديدة لقضايانا المتجددة ، وألا يتخلف النظر الفقهي المستنير عن ملاحقة التطورات النشطة في حياة المسلمين ويقتضينا الإنصاف أن نقول إن نشاط الحركة الفقهية الآن ليس على مستوى جيد ، وأخشى أن يكون يومه أفضل من غده ؛ لأننا نرى ضعفًا ظاهرًا في إعداد أجيال الفقهاء في كافة الأقطار الإسلامية ، ويجب أن تكون الدعوة إلى تطبيق الشريعة مقترنة بالدعوة إلى تأسيس التعليم على أصول المعرفة الإسلامية وهذا يقتضي تغييرًا أساسيًا في كثير من مناهجنا ، وكل أمة من أمم الأرض تقوم فيها الدراسة على أصول معارفها وحضارتها ، حتى تصاغ الأجيال صياغة متميزة تحمل طابعًا خاصًا ، والواقع عندنا خلاف ذلك تجد الشخصية ذات الطابع الإسلامي غريبة وشاذة ، وكأنها وشاح قديم ، وكذلك الثقافة العربية والإسلامية باب محصور جدًا وضيق جدًا ويشغل مساحة هامشية في الحياة الفكرية وحين تحلل الظواهر تحليلاً دقيقًا تجد أن هذا الواقع الفكري قائم وراء هذا التمزق في قضية تطبيق الشريعة ، لأن فريقًا منا صاروا أساتذة في الجامعات وهم غرباء تمامًا عن المعرفة العميقة للفقه الإسلامي وتياراته المتدفقة الباهرة خلال تاريخ ممتد ، وهؤلاء الغرباء منهم من سقط في هذه

الوهدة ووقف على قارعة الطريق يدعو الناس إلى أن يردوا أمر الله ونهيه ، كما تجد منهم من ينتزع الأمة انتزاعًا عنيفًا من محيطها الفكري والحضاري المؤسس على المعرفة الإسلامية والعربية إلى دائرة التلقي عن الغير وتكرار معارفهم في الفلسفة والآداب والمعارف كلها ، وهذه المعرفة الإسلامية لا يدافع عنها من يجهلها ، وهذا الدين العظيم لا يدفع عشيرته إلى الاستضاءة بهداه والاقتباس من نوره من لم يدرك حقائق عظمته ومن لم يستضئ بهديه ومن لم يقتبس من نوره .

ولو نظرت في هذه المقالة الخبيثة من جهة ثانية لوجدتها تلتقي مع مقالة بعض المستشرقين الذين كانوا يجاهرون بعداء الإسلام ، وبيان ذلك أن هؤلاء يقولون : إن تطبيق الشريعة وقعت تحت ظله منكرات مثل التعذيب بالصلب وسَمْل العيون والإحراق في التنور ، والمطالبة بتطبيق الشريعة عودة بنا إلى هذا . والواقع أن هذا حدث ويحدث الآن في الأنظمة الديمقراطية ما هو أبشع منه ، بل إن وسائل التعذيب قد تطورت مع تطور المعارف الإنسانية وقد نبغ منا رجال في هذا الباب ، وهؤلاء الكُتّاب الذين يرمون تاريخ المسلمين بسبب هذه الصور الكريهة والمتخلفة هم سدنة عهود سقطت في أبشع من هذه الصور وأصحاب هذه الأقلام يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، ولا يجوز أبدًا أن نضيف سلوكيات شاذة وقعت في المجتمع المسلم إلى الإسلام لأن الإسلام دين الرحمة ويحرم ذلك ويضعه في إطار الكبائر التي يذكر في سياقها الشرك بالله ، وغريب جدًّا أن يقال إن تطبيق الشريعة الإسلامية يؤدي إلى هذا ، وهذا كما يقال إن تحريم الغش والتدليس والتآمر يؤدي إلى الغش والتدليس والتآمر .

ولو تأملت هذا وجدته يخرج من المستنقع الذي يخرج منه قول المستشرقين إن سبب تأخر المسلمين هو الإسلام وما تنطوي عليه عقائده من أفكار تعمل عملها في تخذيل الطاقة الإنسانية وإبطال فاعليتها ، من مثل: التوكل على الله الذي يدعو المؤمنين إلى أن يبطلوا كل ذواتهم ويصبحوا بشرا مهملا ، والواقع أن المسلمين لم يتخلفوا إلا لأنهم ابتعدوا عن آداب هذا الدين العظيم وهذه مسألة واضحة .

ومسألة تعليق السلبيات الكريهة على الإسلام وإلصاقها به وأنه سببها هي النغمة المشتركة في كلام الصليبيين وكلام من يعارضون تطبيق الشريعة .

ثم لماذا يتجه بعض الكتاب إلى أمثال هذه السلبيات في تاريخ المسلمين ولا يتكلمون إلا عنها ؟ وكأن تاريخنا كله صَلْب ونفي وتشريد ؟ هذه نزعة عداء سائدة في كثير من الكتابات ، فإذا كان أصحاب الفلسفة وتاريخ الحضارات لا يرون في تاريخنا إلا السلب والنهب ، فإن رفقاءهم ممن يكتبون في الآداب والفنون لا يرون في تراثنا الأدبي إلا نفاقًا وزيفًا وملقًا ولا يرون في علومنا إلا سذاجة وتخلفًا وضعفًا ، لا نرى واحدًا من هؤلاء يكتب فيما أشاعه الإسلام من العدل والرحمة في تاريخ الإنسان ، بينما نرى رجالاً من غير المسلمين ممن شيمتهم الإنصاف يذكرون ذلك بتقدير وإعجاب ، لم أقرأ لواحد منهم كلمة كهذه الكلمة النبيلة التي كتبها توماس أرنولد في أثر الإسلام في تاريخ الإسبان وكيف كانت صفحته في تاريخ هذه البلاد صفحة مشرقة باهرة ، وكيف كانت سيرته من أعظم السير وأزكاها يقول توماس في اختصار جزل جامع :

«أدخل العرب الظافرون الإسلام في إسبانيا سنة ٧١١م وفي سنة ١٥٠٢م أصدر فرديناند وإزابيلا مرسومًا يقضي بإلغاء شعائر الدين الإسلامي في جميع أرجاء البلاد ، ولقد كتبت إسبانيا الإسلامية في القرون التي تقع بين هذين التاريخين صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس إلى الممالك الأوروبية الأخرى ، وأتت بنهضة جديدة في الشعر والثقافة ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار في نفوسهم النشاط العقلي حتى جاء عصر النهضة الحديثة»

هذه مقالة رجل مؤرخ ليس من المسلمين وهذه مقالات المنتسبين إلى الإسلام؟!! والله يهدي من يشاء إلى ما يشاء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

* * *

ضرورة سيطرة التوجيه الإسلامي في ديار الإسلام

التاريخ كتاب زاخر بالحكمة والنصيحة لمن يصغي إلى حكمته ونصحه، ويجب أن يكون التاريخ بكل دقائقه صفحة بارزة بين عيون المسؤولين عن التوجيه الثقافي والسياسي والفكري في أمة الإسلام، وتاريخ الإسلام يقدم لنا حقيقة مهمة قد أغفلنا فهمها، وتحليلها، والانتفاع بها، وهي أن الذي حفظ جوهر هذه الأمة في محيط المحن المتدافعة التي مرت بها في تاريخ طويل هو ثقافتها المتماسكة، والتي تستمد أصولها وفروعها من الكتاب والسنة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الرباط الذي يشد أزر هذه الأمة ويعقد أطرافها، ويضم نشرها هو أمر واحد غير قابل لأن يتعدد، وغير قابل لأن يقع غير موقعه، هذا الشيء هو تأليف قلوبها وجمع شاردها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال سبحانه: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الأنفال:٦٣).

وتأليف القلوب هو انتظامها من جماعة متآلفة وكيان منتظم له مقوماته وخصائصه وأهدافه، تستطيع هذه الجماعة المتآلفة بما بينها من ترابط وتواد أن تواجه الأحداث والخطوب بروح واحدة وموقف واحد: والآية ذُكِرَتْ في سياق الحرب، وتأليف القلوب في الآية مذكور من عوامل النصر التي أيد الله بها نبيه ﷺ، وقوله سبحانه: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (الأنفال:٦٣) لا يفيد فقط ما في الأرض من ثروة مادية كما نفسره غالبًا،

وإنما أيضًا ما في الأرض من أفكار وفلسفات ومذاهب، أو أيدلوجيات، سواء كان ذلك في السياسة وأنظمة الحكم أو في الثقافة أو في الاقتصاد. لو أنفقت كل هذا الذي في الأرض لتجمع هذه الأمة عليه، فلن تفلح أبدًا، وإنما يجمعها شيء واحد هو جامع العقيدة والدين، وقد رأينا في الزمن الذي نعيشه محاولة جمع الأمة وتأليفها على النزعة «القومية» ورأينا الاحتشاد لذلك فكريًا وإعلاميًا وسياسيًا ثم كان التمزق والتقاطع والاختلاف والتناحر.

وهذا الدين الذي هو أمر هذه الأمة الجامع ليس عقيدة تسكن قلوب المسلمين وعقولهم فحسب، وإنما هو مع هذا يتحرك في شؤون الناس وحياتهم ويتقلب معهم في الأرض التي يتقلبون فيها، فيحث على ما يحث عليه من خير وفضائل وبر وتراحم، ويكف عن ما يكف عنه من القبائح والمفاسد والمظالم حتى ليكاد يرى المسلم أمره كله في قلب هذا الدين فيراه في عمله ومصنعه ومختبره ومكتبه، ولهذا اتسعت علوم الفقه واتسع الاجتهاد والاستنباط باتساع شئون الحياة وتنوعها.

وكان الفقه ولا يزال تحليلاً لسلوكيات الإنسان المسلم كبيرها وصغيرها، في القول والفعل بادئًا بخواطر النفس، ومنتهيًا عند انتهاء قدرات الإنسان، واصفًا ذلك كله بوصفه الشرعي ولهذا كان لابد للفقه أن يكون في حركة دائمة ومضبوطة حتى لا تفلت حركة الحياة من سلطان الفقه فينكشف عنها سلطان الدين، ويقف المسلم حائرًا لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع، كما هو الشأن في أشياء كثيرة تواجه المسلم في زماننا، وهو مرتاب ملتبس عليه

أمرها ، ثم إن هذا الفقه الذي هذا مكانه في الإسلام لا يقوم إلا على منظومة من العلوم الإسلامية واللغوية كالتفسير والحديث والنحو والأصول والشعر والبيان والعقائد وغير ذلك من علوم تفرعت وتنوعت وتداخلت وتشاربت وتحاورت وتجاورت حتى كونت هذه المنظومة المتفردة في تاريخ الفكر الإنساني والتي تسقى بماء واحد هو كتاب الله المبين ، وتزدهر بما في الأمة من نشاط ، وتتسع بما في الحياة من سعة ، وتتجدد صيغها حتى تلائم كل زمان ، والذين يتصورون إسلامًا من غير هذه العلوم كمن يتصور الشيء في غير نفسه ، لأنه لا معنى لأن تقول إن الله أحل البيع وحرم الربا من غير أن تدرس ما البيع في الإسلام ؟ وما الربا ؟ وهذان بابان في الفقه متسعان جدًّا ، ولوذهبت تقرأ حدود شرع الله في الربا والبيع لوجدت بحرًا زاخرًا ، وهكذا ترى هذه العلوم بمثابة « المذكرة التفصيلية » لأمر الله ونهيه في كتابه الكريم .

ولما كانت هذه العلوم من الدين بهذه المنزلة حرصت الأمة في الأزمنة كلها على حلقات العلم التي تدرس هذه العلوم ، وقد نبه القرآن الكريم إلى ضرورة وجود الفقهاء في الجماعة الإسلامية في قوله سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ ﴾ (التوبة:١٢٢) ، وفي الآية حث على كثرة العلماء لأنها ذكرت طائفة في كل فرقة ثم ذكرت التفقه في الدين وهو أعلى من مجرد تحصيل المعرفة لأن الفقه أرقى صور الفهم ، وإنما يقال فَقُه بفتح الأول وضم الثاني إذا صار صاحب ملكة في الباب الذي يدرسه ، يعرف فيه طرائق الاستنباط ومسالك الاجتهاد ، وكأنه قد صار في عقله قبس من نور هذا العلم الذي خرج في طلبه ، وهذا ضروري لأن الفقه كما قلنا علم يجب أن يكون في حركة دائبة ،

تواكب حركة الحياة ، ويجب أن تكون حركته مضبوطة على الأصول الشرعية حتى لا يدخل في دين الله ما ليس منه ، ولا يحرك هذا إلا عقول ملهمة ذات فطانة .

ثم إن كلمة ﴿ نَفَرَ﴾ التي عبرت عن خروج هذه الطائفة في طلب العلم تحتها رمز لمعنى جليل أصله أن هذه اللفظة غالبًا ما تجري في مثل قولهم نفر القوم للقاء عدوهم واستنفر الوالي الرعية أي طلب منهم أن يخرجوا للقاء عدوهم . نَفْرًا بفتح فسكون ، أي جماعات ، وهذا الاستعمال يعلق بالكلمة ولو كانت في مثل سياقنا الذي هو الخروج لطلب العلم ويوحي وحيًا ظاهرًا بأن طلب العلم باب من أبواب الجهاد .

إن علماء الأمة حماة مرابطون على ثغورها الفكرية والثقافية كما أن جنودها حماة مرابطون على ثغورها الجغرافية ، وأن قوتها ومنعتها كما تكون برجال الحرب تكون كذلك برجال العلم ، وأن اقتحام عدوها لحصونها ومعاقلها الفكرية ليس أقل خطرًا من اقتحام عدوها لثغورها وحدودها الجغرافية ، وأن هناك ثغرين مخوفين يترصدهما عدوها هما : أرضها ، وعلومها ، وأن حماية هذا من حماية ذلك ، وهذا هو الرمز ووجه الدلالة عليه في الكلمة القرآنية الشريفة ظاهر لا يلتبس .

واجهت أمة الإسلام في تاريخها الطويل ضروبًا من التحديات الشرسة التي كانت ولا تزال تستهدف استئصالها وسحقها ، ولكنها ظلت في مواجهة هذه الفتن كلها قوية متماسكة يمد بعضها بعضًا ويظاهر بعضها بعضًا ، ووراء هذا التساند والتظاهر والتعاضد ثقافة واحدة تربط قلوبها كلها برباط

واحد هي ثقافة الإسلام التي صيرتها كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وقد كان الصراع بين الإسلام والغرب المسيحي من أشد ضروب الصراع ضراوة ، وقد أورث هذا الصراع قلب أوربا عداوة متضرمة يتوقد لظاها في قلب كل أبنائها من يوم أن سقطت معاقل المسيحية الشرقية في يد الفاتحين الأولين من صحابة رسول الله ﷺ ، وقد أقام معاوية رضي الله عنه دار الخلافة في دمشق وكانت الشام ومصر من أكبر مراكز الثقافة المسيحية ، وبقيت الحروب بين الدولة الإسلامية والدولة الرومانية قائمة لا تنقضي أوزارها ، ثم احتشدت أوربا من أقصاها إلى أقصاها لغزو ديار الإسلام في الحروب الصليبية ، تشتعل نار العداوة والحقد في قلوب رهبانها وملوكها ورعاياها ، ثم لما فشل كل هذا واندحر وانكسر على صخرة صلبة لأمة متماسكة متعاونة متظاهرة سلكت أوربا طريقًا آخر هو طريق البحث عن مكامن القوة في هذه الديار التي لم تنكسر طوال هذا التاريخ مع كثرة ما خاضت من حروب وويلات ، فإذا ما استطاعت أن تضع يدها على موطن القوة فيها كان من الواجب أن يكون تعاملها معه ، وكان لابد أن يتغلغلوا في هذا العالم وأن يدخلوا كل شق فيه حتى يتعرفوا على سره الغريب المحير ، وكتب التاريخ زاخرة بأخبار هذه الحشود من أبناء أوربا المسيحية التي تغلغلت في هذا العالم وتعرفت على كل شيء وخالطت علماءه وجهاله وحكماءه وسفهاءه ، ثم أدركوا واستيقنوا أن سر قوة هذا العالم هو سيطرة الروح الإسلامية على حياة المسلمين ، وأن هذه الروح هي التي تحفز المسلمين رجالاً ونساء وشيوخًا وشبابًا إلى أن يكونوا صفًا واحدًا كالبنيان الموصول في مواجهة

أعداء الإسلام ، وأن هذه الروح تمنع منعًا باتًا من تقبل أنماط حياة غير إسلامية في المجتمع الإسلامي ، وأنه لا قرار في أرض الإسلام مع وجود أعداء الإسلام أو ثقافة أعداء الإسلام أو سلوكيات أعداء الإسلام ، لا قرار مع وجود شيء من ذلك في ديار الإسلام ، وبدهي أن أصل سيطرة هذه الروح هي العلوم الشارحة لعقائد الإسلام ، ومعارف الإسلام ، وسلوك الإسلام ، وآداب الإسلام ، وغير ذلك مما تبثه العلوم الإسلامية في كيان الأمة ، يعد بمثابة الأعصاب الحية ، والشرايين المتحركة ، في بنية المجتمع الإسلامي ، حتى ظلت دولة الإسلام مستعصية على الاختراق والتمزق والتحلل ، وأكرر أن عداوة الغرب المسيحي للإسلام بلغت حدًّا من الضراوة شاع بين رهبانه وقساوسته وساسته وعلمائه وملوكه وسفلته ، ولا يجهل هذا إلا مسلم غافل ، لأن ذلك كله مسطور في كتبهم بل وفي أحدث ما يكتبون .

وهذا الحقد الأحمق على الإسلام وأهله دعاهم إلى أن يضعوا أيديهم في أيدي يهود وهم قتلة المسيح ـ على حد عقائد النصرانية ـ ثم هم يعلمون ما في قلب اليهود من بغضاء ليسوع وأتباع يسوع ، ولكن كراهية أوربا للإسلام وحقدها عليه يفوق كل كراهية حتى ولو كانت هذه الكراهية من عقائد الإنجيل الذي قص لهم سيرة من قتلوا الأنبياء وصلبوا المسيح .

بدأ الغرب المسيحي وبكل ما لديه من رصيد البغضاء والحقد الأعمى يتعامل مع هذه العلوم التي حول إليها كل حقده وعداوته ، بل وكل قوته التي كان ينفقها في حرب الإسلام ، لأن هذه العلوم هي التي تلهب مشاعر المسلمين بروح الجهاد والاستشهاد ، وتقف سدًّا منيعًا في وجه الأنماط الحضارية المسيحية التي يراد لها أن تشيع في ديار الإسلام ، وترفض رفضًا

قاطعًا شيوع الثقافة والآداب والفنون المسيحية الغربية في ديار الإسلام ، وأنبه هنا إلى أن السياسة الغربية المسيحية الموجهة إلى ديار الإسلام تعتمد اعتمادًا كاملاً على توجيهات العلماء والباحثين والمحللين من أقطاب الاستشراق ، وأن الأمر كذلك من القرن السابع عشر ، وهو كذلك إلى اليوم وغدًا ، وإذا كانت السياسة الغربية في بلاد الغرب سياسة علمانية ، فهي ليست كذلك في ديار الإسلام ، وإنما أساسها من رأسها إلى قدمها عند كل زعيم غربي هو سيطرة المسيحية ، ثقافة ، وحضارة ، وسياسة ، على ديار الإسلام ، الذي خالط حقدهم عليه عظامهم ولحومهم كما يقول مؤرخوهم أنفسهم .

ولما صار أمر ديار الإسلام في أيديهم بعد الهجمة البربرية التي نسميها «الاستعمار الحديث» كان أول ما صنعوه هو إبعاد هذه العلوم عن برامج التعليم وإقصائها إقصاء كاملاً في مراحل التعليم كلها ، فانقطعت صلة أبنائنا بثقافتنا وحضارتنا وعزلت الأمة عن علومها وعقائدها بضربة واحدة أصابت المقتل ، ثم إنها مرت في هدوء من غير أن تحدث في أرجاء الأمة ما كان يجب أن تحدثه من رفض وثورة تكشف حجم الخطر في هذا القرار ، لأنه بمثابة قتل للجيل كله والأجيال المتلاحقة التي تتخرج في هذا التعليم الذي حال بينهم وبين علومهم ، وثقافتهم ، وتاريخهم ، وعقائدهم ، والذي يجهل ثقافته ، وحضارته ، وعلومه ، وتاريخه ، لا يغنيه أن يعلم ثقافة الأمم كلها ، وقد صار الآن وقبل الآن من يوم أن ضرب بين أبناء الأمة وثقافتها وحضارتها بسور ليس له باب ـ يتخرج العالم من جامعاتنا وهو لا يعرف عن هذه العلوم شيئًا ، ولا يستطيع قراءة مصادرها ؛ لأن قراءة المصادر مرحلة لابد أن تسبقها مراحل تعد الدارس إلى طريقة السير في هذه الأصول ،

وليس في أمم الأرض أمة تقوم حركة الفكر والثقافة والعلوم فيها على غير فكرها ، وثقافتها ، وعلومها ، إلا أمة الإسلام بعد هذه الضربة القاضية التي مرت في صمت وتمر الآن في صمت ، وخاصة بعدما صار أمر الفكر والثقافة والآداب في أيدي من ضرب بينهم وبين علومهم بسور ، وغابت عنهم ثقافتهم ، وعلومهم ، وتاريخهم ، حتى صار علماؤنا في الاقتصاد لا يستطيعون قراءة كتاب الخراج ، ولا النظر في كتب البيوع والمشاركة والإجارة في الفقه الإسلامي ، وهو بحر زاخر من المعرفة الحية التي تمثل شرع الله الذي كان يجب أن يكون قائمًا فينا يربط على قلوبنا ويشد أزرنا ، ويحفظ كياننا ، كما كان الحال في التاريخ كله ، وقل مثل ذلك في بقية التخصصات الجامعية العليا لا يستطيع أكثر أساتذة الجغرافيا قراءة كتب البلدان والأمكنة في تاريخنا وكثير من أساتذة التاريخ لا يستطيعون قراءة « أسد الغابة » ولا كتاب « الإصابة » ، وأخشى أن أقول إن المتخصصين في الفقه يجهلون قراءة أكثر المصادر فيه وكذلك قل في اللغة والعلوم كلها .

ثم كانت الداهية الأخس أن هؤلاء المقطوعين عن تراث أمتهم يكتبون في كتبهم عنه ، ويصفونه بالتخلف ، والسذاجة ، والغفلة ، وأن أصحابه لم يفطنوا إلى كذا ، ولا إلى كذا ، وأن أمرًا أفسد عليهم علمهم ، وهوكذا إلى آخر ما ترى وتسمع وتقرأ ولا يجد من ألم بشيء من هذه العلوم في نفسه كلامًا يقوله إلا « لا حول ولا قوة إلا بالله » وهكذا صار الحال بهذه العلوم الشارحة لعقيدة الإسلام ، والضابطة لأمر العقيدة ، ولم يدخل الإسلام في تاريخه كله مرحلة أشد حرجًا من هذه المرحلة التي تمر بها الآن ، وأنت ترى أن غيبة هذه العلوم أورث العقيدة تعتيمًا عند كثير من شبابنا الذي بدأ يعود ، وهذه

العودة حميدة جدًا ولكن بشرط أن تعود معها علوم الإسلام التي يشرق بها وجهه ويسطع نوره فيضع قدم الأمة مرة ثانية على المحجة التي ضاعت وذلك قريب إن شاء الله .

* * *

معذرة إليك يا شيخ الأصحاب[1]

لم يأخذ التاريخ على أبي بكر مأخذًا ، وقد أحبه المسلمون جيلاً بعد جيل لحب رسول الله ﷺ له ، فقد كان إلفَ رسول الله ﷺ وأنسه ، وموضع سره ، وكان منه بمنزلة السمع والبصر ، كما جاء في كلام علي رضي الله عنه وهو يذكر مناقب أبي بكر ، وأنه أكثر الأصحاب مناقب ، وأشدهم يقينًا ، وأخوفهم لله ، وأحوطهم لرسول الله ﷺ ، وأكثرهم غناء في دين الله ، كان رضوان الله عليه متميزًا كالشهاب بين الغر المحجلين رضوان الله عليهم جميعًا ، ما يزال صالحًا مصلحًا لا يأسى على أمر فاته من أمور الدنيا ، وكان أشبه الأصحاب برسول الله ﷺ سننًا وهديًا ، ورحمة وفضلاً ، وكانت هذه الأخيرة حسبه من الفضائل رضوان الله عليه[2]

وقد فوجئنا بكلام غريب ينشر عن الصديق رضوان الله عليه يرمي في وجهه الكريم ويتهمه بشناعات ، كذبًا وتلفيقًا وبهتانًا ، ولسنا هنا في موقف الدفاع عن أبي بكر ؛ لأن تاريخه الناصع وصحبته الشريفة ، وما له من مذخور الحب والتقدير في صدور المؤمنين بعض ذلك يكفي في دحض هذا الباطل ، وبيان زيفه وضلاله .

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي ، ذو الحجة ١٤١٤هـ .

(٢) ينظر كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني ، خطبة لسيدنا الإمام علي كرم الله وجهه التي خطبها يوم قبض أبي بكر ، وهي من كلامه الرفيع ص ١٤٣ ، طبعة دار المعارف .

والمهم عندنا هو بيان أن الهجوم على أصحاب رسول الله ﷺ ليس هجومًا على شخصيات تاريخية ، فحسب ؛ لأن هؤلاء الأصحاب رضوان الله عليهم ، لهم خصوصية ليست لغيرهم من رجالات التاريخ ، وهي أنهم هم الذين نقلوا إلينا الدين ، وأخذناه عنهم عن رسول الله ﷺ ، والتشكيك فيهم تشكيك فيما نقلوه إلينا وأخذناه عنهم ، وهذا من أشد المعاول ضربًا في عقائد المسلمين .

ولهذا شدد رسول الله ﷺ النكير على إطلاق ألسنة السوء فيهم رضوان الله عليهم ، وجعل إيذاءهم إيذاء له ، ومن هنا وجب أن نرصد بأمانة وصدق ، كل ما يكتب عنهم رضوان الله عليهم .

وأول هذه الشناعات التي كتبت عن الصديق أنه رضي الله عنه اغتصب حقوق النبي ﷺ - وهذا لفظ الكاتب - وبيان هذا الاغتصاب في حروب الردة التي سماها المؤلف (حروب الصّدقة) ؛ لأن هؤلاء (مانعي الزكاة) لم يكونوا مرتدين وإنما (ظلوا متمسكين بدينهم مقيمين لشعائره) وامتنعوا عن دفع الصدقة ؛ لأنها كانت خاصة برسول الله ﷺ لا يجوز لغيره أن يحصلها ، ولأنها كانت في مقابل صلاته ﷺ عليهم ، وذلك بصريح لفظ الآية - هكذا يزعم - ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ (التوبة:١٠٣) ولكن أبا بكر لم يعجبه هذا التفسير المستقيم وتحكم هو في تفسير الآية[1]!! ورأى أن واجبه أن يُحَصِّل منهم هذه

---

(١) ينظر : كتاب (الخلافة الإسلامية) للمستشار محمد سعيد العشماوي ، ص ١٠٥ وما بعدها دار سينا للنشر .

الصدقة ، فإذا امتنعوا حاربهم ، وكان هذا انحرافًا خطيرًا في سلوك أبي بكر ، وفي مسيرة التاريخ الإسلامي ، وذلك لأن أبا بكر استبد بتفسير الآية ، وكان عمر يرى رأي هؤلاء المانعين !! وأن الصدقة خاصة بالنبي ﷺ ، ولا يجوز لأبي بكر أن يطالب بها ، ولا أن يحاربهم بسببها ، فعارض موقف أبي بكر ، ولكن أبا بكر انتهره ، وقال له : (أجبّار في الجاهلية خوّار في الإسلام).

وهذه العبارة فيها تجاوز ؛ لأن عمر لم يكن حديث عهد بجاهلية ، وإنما كان له في الإسلام آنذاك أكثر من عشر سنوات ، وبهذا الأسلوب سن أبو بكر في تاريخ الخلافة سنة من سنن الاستبداد(!) وهي أن ينهر الخليفة وزيره أو مشيره حين لا يخضع لرأيه ، ولا يوافقه على ما تفردّ به من تفسير القرآن ، وتحكّم به في معناه ، وقد أثمرت كلمة أبي بكر ثمرتها لأن عمر قال بعدها : (ثم شرح الله صدري لما قاله أبو بكر) وعمر لم يعبر عن نفسه بصدق في كلمته هذه وإنما وافق أبا بكر (ليدفع عن نفسه تهمة الخور ، أو حتى لا يحدث انقسامًا في صفوف المسلمين) ، وليس بالقطع لأن الله شرح صدره كما قال ! .

وهذا الكلام يوشك أن يكون بلفظ الكاتب مع حرصنا على حذف بعض الألفاظ الأكثر قبحًا مثل قوله في وصف أعمال أبي بكر إنها كانت (منقلبًا سيئًا انحدرت إليه الخلافة ، عبر تاريخها منذ خلط أبو بكر بين حقوق النبي الخاصة به وحده ، كالحق في اقتضاء صدقة من المؤمن ، وبين حقوقه هو كخليفة ، وبه اضطرب الحاجز بين ما للنبي وما للناس ، واهتز الحاجب بين حقوق النبوة وحقوق الرؤساء ، سوّغ أبو بكر لكل حاكم أن يستقل بتفسيره

الخاص لآيات القرآن ، ثم يفرضه بالقوة والعنف على المؤمنين ، ويجعل من رأيه الشخصي حكمًا دينيًا ، ومن فهمه الفردي أمرًا شرعيًا) .

ويؤكد الكاتب أن حرب مانعي الزكاة كانت حربًا موجهة من مسلمين إلى مسلمين ، ومن مؤمنين مصلين ، ضد مؤمنين مصلين ، وأن وجهة نظرهم في تفسير الآية ، وأن الصدقة خاصة بالنبي كانت هي الصواب ؛ لأنها الموافقة لصريح لفظ الآية وواضح نصها ، وأن ما انفرد به أبو بكر من الفهم للآية كان لا يجوز أن يفتح به باب الشر الذي فتحه ، لأنه قَنَّنَ حرب المسلم للمسلم ، وفتح باب قطع المسلمين بعضهم أعناق بعض ، وظل هذا الشر مستطارًا في طوال التاريخ الإسلامي ، وعرْضِهِ إلى اليوم ، وإنما فتحه أبو بكر ! .

وكأن الكاتب له ثأر عند الصديق رضي الله عنه لأنه أول خليفة لرسول الله ﷺ والكاتب متجه في كتابه إلى بيان أن الخلافة ليست من الدين في شيء ، وأنها نظام جاهلي غَشُومٌ ، يقوم على التخلف ، والسطو ، والسيطرة ، والغشومة ، والظلم ، والاستبداد ، والتنكر لحقوق الإنسان ، إلى آخره ، فكان لابد من تزييف الحقائق والوقائع والمواقف للوصول إلى هذه الغاية .

والحقيقة هي أن القوم جحدوا الزكاة ، وفسّروا الآية كما يراها المؤلف ، ولكن الأمة أجمعت على فساد تفسيرهم ، وأبو بكر لم يكن له في الآية الكريمة فهم خاص به ، وإنما هو إجماع الصحابة ، وأن عمر إنما تردد أول الأمر خشية على المسلمين أن تأكلهم الحرب ، فقد صارت الردة شرًا مستطارًا في قبائل نجد (أسد وغطفان وغيرهم) وهم قوم أولو بأس ، أما أن يكون له رأي في الآية يخالف رأي أبي بكر فهذا من الكذب العريان ، قال

الشيخ الإمام محمد عبده في تفسير الآية : (اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون ، وإنما كان هذا خاصًا بالرسول ﷺ ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ (التوبة:١٠٣) وقد رد عليهم هذا التأويل وهذا الفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة) ثم قال : (وهذا مشهور ومجمع عليه)[١]

وكل كتب التفسير تقول هذا وهو إجماع لم ينخرم برأي مخالف ، ولكن الحرص على التشهير ، والحرص على التدليس ، دعا إلى ما كتبناه .

ولم يكتف المؤلف بهذا وإنما أضاف سببًا آخر لحروب الصدقة ، وهو أن أبا بكر كان يدرك بخبرته ما استخلصه المؤرخ الإنجليزي (جوستاف لوبون) من أن سيوف العرب لابد أن تظل مشهرة ، فإذا وجدت عدوًا اتجهت إليه ، وإلا توجهت إلى صدور العرب أنفسهم ، وأبو بكر فهم هذا وأحكمه فوجه سيوف العرب إلى العرب ، في هذه الحروب ، وإلا توجهت إلى الخلافة .

ولم يكتف المؤلف بهذا وإنما أضاف أن ما سمى بالفتوحات الإسلامية إنما كان المقصود به أن تشغل سيوف العرب بغير الخلافة ، وأن الفتوحات أو الغزو لم تخدم الإسلام ، وإنما أساءت إليه لأن الشعوب التي فتحت بالغزو لم تدخل في الإسلام إلا بعد زمن ، ولو أن المسلمين لم يتخذوا المنهج العسكري سبيلاً للدعوة لكان هذا أفضل وكان أثره أعظم .

---

(١) تفسير المنار ٦/٢٠

وهكذا يصير أبو بكر في كتابات الكاتب معتنقًا الفلسفة (الميكيافيلية) التي تبرر الغايات فيها الوسائل ، ويصبح واحدًا من السياسيين الانتهازيين ، أما الدين والشريعة فلم يعد لها حساب عند أبي بكر (!) ومثل هذا قاله في عمر وعثمان وعليّ وعبد الله بن عباس ومعاوية وغيرهم ، لم يترك صحابيًّا إلا رمى في وجهه بجهالة وحقد ، وكأنهم أعداؤه ، ولكل واحد من هؤلاء مقام نذكره فيه إن شاء الله .

ثم كتب عن علاقة اليهود برسول الله ﷺ والدولة الإسلامية ، وهنا يقول كلامًا يجب إحكام فهمه وتحليله ومقارنته بما قاله عن صحابة رسول الله ﷺ ، هذا الكلام هو تبرئة ساحة اليهود من العداوة للإسلام ، وبيان أنهم (استبشروا) بهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومدّوا أيديهم له معتقدين أن الأصل أن تكون علاقته بهم أقوى من علاقته بأهل يثرب ، لأنهم أهل كتاب ، والأوس والخزرج مشركون ، وهذا مستقيم(!) .

ولكن رسول الله ﷺ فرض عليهم الدخول في الإسلام (تأمل) ، وبالطبع هم يرفضون ذلك لأن الأنبياء عندهم من بني إسرائيل ، وتوجه الرسول لتوحيد الشرائع في شريعة واحدة كان قد سبق بنموذج في التاريخ العبري (تأمل) هي أن الملك اليهودي (يوحنان هور كانوس) أرغم الأروميين على اعتناق اليهودية[1] .

وهكذا مضى المؤلف في تبرئة ساحة اليهود وإعلاء شأن رجالهم حتى أن الملك (يوحنان) كان نموذجًا في توحيد الشرائع واحتذاه الناس ، وبعد ذلك

---

(١) ينظر : كتاب (الخلافة الإسلامية) ص ٥٩ وما بعدها لمؤلفه المستشار سعيد العشماوي .

في نفس الصفحة يقول إن محمداً كان متجهًا إلى توحيد الشرائع ، ثم إن محمدًا هو الذي عاداهم وهم كانوا مستبشرين به .

وهذا هو منهج اليهود في كتابة التاريخ الإسلامي ، وذلك حين يكتب اليهود لليهود والمسيحيون للمسيحيين ولم يكتب كاتب يهودي كتابًا ينشره في المسلمين في تاريخ الإسلام والصحابة بهذه الصورة القبيحة ، وكذلك لم يفعل كُتَّاب المسيحية ، لأنهم يعلمون أن المسلمين يعرفون تاريخهم ورجالهم ، وأن هذا الباطل لن يروج عنهم ، وفيهم مع ذلك بقية من حكمة تعصمهم من هذا التدليس الظاهر ، وإنما كتبوا هذا لأبناء دينهم من اليهود والنصارى لأنهم يجهلون الإسلام وتاريخه ورجاله ، والمهم عندهم الدعاية المضادة للإسلام ، والشرق ، والمسلمين ، وصار هذا الكلام يكتبه عرب مسلمون لعرب مسلمين (!) ، والكتاب ، كما قال مؤلفه ، طبع طبعات خاصة لبعض الدول العربية (!) وترجم إلى لغات كثيرة ، ومثله لابد أن يترجم ، ولهذا كان سكوتنا عن ما فيه عجزاً عن الدفاع عن حرماتنا ورجالنا وتاريخنا ، ونعوذ بالله من العجز ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أصحابه ومن تبعهم بإحسان .

* * *

مهلاً أيّها الكبار(1)

لاشك أنه من المضار التي تثقل حياتنا فقدان الطريقة المثمرة حين نغضب أو نختلف . مع أن اختلاف أهل العلم يكون دائمًا أخصب وأثرى ، لأنه موقف تستثار فيه الطاقات ، ويسطع وَهَجُ الفكر ، فيستخرج من الحقائق خوافيها ، ويجلي غوامضها ، وليس أمتع من أن ترى العقول الفذة تتحاور حوارًا ممتعًا سديدًا .

ونحن الآن إذا اختلفنا تخاصمنا وتنابذنا ، وطلب كل منا الظفر على من يخالفه ، ولا يهم أن يطأ بقدمه وهو غاضبٌ ثائر حقيقة ؛ ما دام يصل إلى ما يوهم الآخرين أنه الغالب .

ومن بيننا رجال حملوا أقلامهم ، لتبرئة الأمة من الأدواء التي منها هذا ، وشخَّصوا آثاره الوبيلة ، ودعوا قومهم - مخلصين - إلى ضرورة التفكير الهادئ ، مهما كانت المشاعر المحيطة بالموقف ، لأن التفكير الهادئ هو وحده الذي تستطيع به أن تضع الشيء في نصابه ، ثم لمّا شاء القدر أن يختصموا صاروا في حاجة إلى من يذكّرهم بمقالتهم .

---

(1) مجلة الوعي الإسلامي العدد ٢٢٤ ص ١٠٠ ؛ شعبان ١٤٠٣ هـ .

وليس هناك ما يدعونا إلى أن نشير إلى مكانة رجال يختصمون الآن على الساحة وهم : الشيخ الشعراوي ، والدكتور زكي نجيب محمود ، والدكتور يوسف إدريس ، والأستاذ توفيق الحكيم ، وإن كان الأستاذ الحكيم نفض يده ورجع في صمت . وكنا ننتظر صورة زاكية للخلاف في الرأي ، نرى فيها المختلفين متعاونين في الكشف عن الحقيقة التي هي أجلّ من الكل ، وأخلد من الكل ، ولكننا وجدنا ترامياً كالترامي الذي ألفناه في ساحات أخرى ، ولم تبرأ ساحة الفكر والأدب ، حتى عند الكبار من هذا الوبال ، وكان أول ما يجب في هذا الموضوع أن يضع فضيلة الشيخ الشعراوي يد القارئ أو السامع على الحقائق التي لا تحتمل إلا وجهاً واحداً ، والتي بنى عليها القول الذي قاله في هؤلاء الرجال ، والشيخ الشعراوي يعلم أن الرمي بهذه الكبيرة ـ إذا لم يكن مؤسساً على حقيقة لا يتطرق إليها الاحتمال ـ كان ذلك عند الله حوباً كبيراً ، وقد غضب رسول الله ﷺ أشد الغضب لما نالت سيوف المسلمين دم رجل قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وظن من رماه أنه يقولها تَقِيَّةً .

ثم إن الدكتور زكي نجيب وهو الذي كابد ويكابد نحو غاية سامية نبيلة وهي تحريك العقل العربي ، حتى ينطلق من القمقم الذي حبس فيه وطال حبسه حتى ألف الضباب ، يقع هو فيما كان يجب أن يتحاماه ، رغم تماسكه ولواذه بالحكمة ، وذلك في النقاط الآتية :

١- كان موقف الدكتور زكي نجيب من حديث الذبابة موقفا غير سديد وذلك لأنه سخر منه ، والحديث مروي في البخاري ، وما دام كذلك

فلابد من التوقف ودراسة الحديث بالوسائل التي أسسها العلماء في هذا الباب ، فإذا قوي الحديث ، وعَلَت درجة صحته ؛ كان مُلزِمًا لكل مسلم ، أدركنا حكمته أو لم ندرك ، لأننا نأخذ ديننا عن هذا النبي ﷺ الذي قال هذا الحديث . يستوي في ذلك الحكم المعلّل ، والحكم غير المعلّل ، ومن غير شك أننا لا نعرف الحكمة في كون الصبح ركعتين ، والظهر أربعًا ، والمغرب ثلاثًا ، كما لا نعرف الحكمة في كون الطواف سبعًا ، ولا في تقبيل الحجر الأسود ، ومقالة عمر بن الخطاب وهو يقبّل الحجر مقالة مشهورة ومهمّة ، قال : «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبِّلك ما قبَّلتك» . فالأمر أمر إذعان ، ما دام قد ثبت عن رسول الله ﷺ ، هذا ولم نناقش هنا مضمون حديث الذبابة ، مع أن فيه كلامًا ، وأَخْصَرُه أن رسول الله ﷺ إنما أرشد إلى طريقة التوقي ، ولم يأمر بشربه ، وإنما ترك ذلك ليتصرف كُلٌّ طبقًا لظروفه ، وفي الأحوال أحوال لا يجد المرء فيها مناصًا من شربه .

٢- وصف الدكتور زكي الشيخ الشعراوي بوصفين ينقض أحدهما الآخر ، فقد ذكر أنه يحسن فهم القرآن ، ثم ذكر أنه يعادي العلم ، وهذان لا يلتقيان ، لأن من أهم مقاصد القرآن هو تحريك العقل الإنساني ، وتوجيهه إلى النظر في هذا الكون ، وفي سنن الله فيه ، ودراستها وتحليلها ، وتسخيرها ، واستمداد القوة من ذلك حتى تكون للمسلمين الغلبة والشوكة ، والقرآن الكريم يأمر المسلمين أن يمشوا في مناكب الأرض ، وهذا معناه الأمر بأن يكونوا مقتدرين ، يستطيعون إخضاع هذه

الأرض وتذليلها ، ولن تكون الأرض ذلولاً لقوم جاهلين يعادون العلم ، والقرآن الكريم مليء بذلك ، والآية الكريمة التي تنفي المساواة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩) لم تذكر ضربًا من ضروب العلم دون ضرب . وإنما جاء لفظ يعلمون هكذا مطلقًا ، أعني لم يذكر له مفعول ، لحكمة عالية هي أن المهم أن يعلم الإنسان فحسب ، سواء كان هذا العلم علمًا نظريًّا أم كان عمليًّا ، والآية الكريمة التي في سورة فاطر والتي تقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٨) ، جاءت في سياق علم النبات ، وعلم طبقات الأرض والجبال الجدد البيض والغرابيب السود ، وعلم الأجناس البشرية واختلاف الألسنة والألوان ، وعلم البيطرة ، وراجع الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر:٢٧-٢٨) ، إلى آخر ما لا سبيل إلى استقصائه ، وهذه حقائق شائعة في القرآن يدركها من قرأه ، وتدبَّره ، فكيف يوصف الشعراوي بأنه يجهلها ؟ وأنه يعادي العلم ؟ وكيف يكون الوصف من الدكتور زكي نجيب محمود وهو واحد من وجوهنا التي ينظر إليها الكثير .

٣- الأمر الثالث : أن الدكتور زكي نجيب أنكر على الشيخ الشعراوي أن يقول : « يريد أو يريدون » ، وحجته في ذلك أن تحديد إرادة الناس

يعني مقاصدهم المطوية وراء أعمالهم إنما هو من علم الله ، وهذا حق ، ولكن من الحق أيضًا أن تحدد مرادي من كلامي هذا الذي تقرؤه ، ما دمت أفرغت إرادتي في كلامي ، وهذا هو القدر الذي عليه المؤاخذة بين الناس ، وهو الذي كان يعتمده رسول الله ﷺ ، فإذا أنكر كاتب حكمًا من أحكام الله ، أو سخر منه ، يكون من واجب من يعلم أن هذا الحكم من شرع الله أن يقول ما يجب أن يقال في هذا الشأن . هذا ما رأيت أن أشير إليه في كلام الدكتور زكي نجيب محمود .

أما الدكتور يوسف إدريس ، فقد كان يبدو منفعلاً ، وخاصة في لقائه مع الأستاذ عاطف حسين الذي نشر في جريدة الشعب، والمنشور في هذا اللقاء، والمنشور في الأهرام بعنوان « عفوًا يا مولانا » شيء واحد ، ويكاد يكون مكررًا . وقد بدأ الدكتور يوسف بذكر « الثور البقرة غير الحلوب » ، وهذه تشكيلة عجيبة دالة على مزيد من السخط والانفعال ، وأن هناك ما أثار حفيظة الأستاذ ، وهو يقصد الذين يتهمون بعض الكتّاب بالشيوعية والإلحاد ، وبالأخص هذا الثور « الأبيض الهائج في الأهرام ، والذي يتهم الشيوعيين بالإلحاد! » وهذا أيضًا غريب ، لأن من يصف الشيوعيين بالإلحاد لا يتهمهم ، وإنما يخبر عن حقيقتهم المعلنة ، والمهم أن غضب الدكتور إدريس جعل رمزه مكشوفًا ، لأن لفظ « ثور » لو تعاملنا معه على طريقة أبي الفتح ابن جني في تقليب حروف الكلمة لأخرج اسم كاتب من كتّاب الأهرام هو أعذبهم مقالة وأشرقهم ديباجة ، وأقومهم طريقًا وأهداهم سمتًا ، وأرجو ألا يكون قد قصد إليه ، لأنه من أرومة عزيزة على الفكر والأدب ، نعم هو لا يني في مطاردة الملحدين .

ثم ذكر الدكتور يوسف أنه هو وصاحباه رؤوس كبيرة جدًّا في هذا البلد، وتتلمذ على أيديهم أجيال وأجيال، وأنهم أصبحوا من عمد الوجود المصري.

- وهذا لا يقدم ولا يؤخّر في مناقشة المسألة - ثم ذكر أن الشيخ الشعراوي يكفِّر من يفكِّر، وأنه يعتبر المفكرين منافسين له، وهذا ليس داخلاً في القضية، ولا ينسب إلى الشعراوي، وليس في كلام الشعراوي ما يدل عليه، ولا يجوز للدكتور يوسف أن يحكم على مطوي نفس الرجل، وقد رفض هو أن يحكم الشعراوي على إرادة الناس.

ثم أخذ على الشيخ الشعراوي أنه شُغِل وشَغَل الناس بتفسير سورة البقرة في الوقت الذي كانت فيه الأمة محتاجة إلى مواجهة مخططات الصهيونية، ونسي الدكتور يوسف أن ما كشفه القرآن من طبيعة الشخصية الإسرائيلية لا يستطيعه كاتب مهما بلغ من الفهم والاستيعاب، وسورة البقرة حافلة بهذا اللون الذي وصف طبيعة قلب اليهود، وأنه لن يكون مصدرًا لخيرٍ، كما وصفت غدر اليهود، وأنهم لا يذعنون لحجة، ولا يستمرون على عهد، وكان الشيخ الشعراوي موفَّقًا جدًّا حين قرأ على الأمة هذه الصفحات من المصحف في الوقت الذي كثر فيه الكلام عن ضرورة تذويب جدار الحقد، وفقدان الثقة بين الطرفين، واليهود أنفسهم يعلمون أنه ما دام القرآن مَتْلُوًّا في هذه الأمة فسوف تظل العقيدة قائمة على أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا.
ويلاحظ أن بعض أعيان الأهرام في ذلك الوقت طلبوا ود يهود علنًا، وأداروا ظهرهم للعرب علنًا، وهاج لذلك من هاج.

وكتب الدكتور زكي نجيب محمود مقالاً بعنوان « قلم يتوب » ، فكيف يتهم الشعراوي في أمر قد أحسن فيه حين أساء الناس ؟! ثم أنكر الدكتور يوسف إدريس قول الشعراوي : إن مناقشة المسائل الإسلامية يجب أن تكون خاصة بعلماء الإسلام .

والذي قاله الشيخ الشعراوي حق ، لأن مسائل الدين مرتبطة بمعارف ودراسات دقيقة ومتشابكة ، لم تتح للكاتب غير المتخصص ، والشيخ الشعراوي يدفع بذلك خطراً لابد أن يدفع ، لأن صلة كتّابنا بالتراث الإسلامي لا تهيئهم للاستنباط منه ، واقرأ ما كتبه الدكتور زكي نجيب محمود نفسه في مقدمة كتابه « تجديد الفكر العربي » ، ليحدثك الرجل بأمانة عن فقدان صلته بتراث أمته فقدانًا تامًا ، وأنه بقي هو وكثيرٌ من جيله لا يعرفون إلا الفكر الغربي قديمه وحديثه ، وأنهم صاروا أساتذة يحاضرون الآلاف المؤلفة من أبناء الأمة في غيبة تامّة للفكر العربي الإسلامي ، وأن الدكتور زكي بأخرة ، وقع على هذا الفكر فرأى أنه قد فاته خير كثير ، ودع هذا ، واقرأ مقالاً نشرته مجلة الدوحة لكاتب مسلم ، يخوض بقلمه في مسائل الحلال والحرام ، ويرى أن إنكار البدعة فكر جاهلي ، وجعل عنوان المقال : « استنكار البدعة وكراهة الجديد موقف إسلامي أم جاهلي؟ » وبيّن أن من يقول « كل بدعة ضلالة » يسد في وجه الأمة مسالك التقدم ، وقد أفزع هذا الكلام المفزع كاتبًا مستقيم الفهم ، هو الدكتور كامل زعموت ؛ فرد هذه الضلالات ردًا صريحًا ، واستهول ما جاء به صاحب المقال ، فهل يكون الشعراوي مخطئًا إذا قال لمثل هذا الكاتب : دع هذا لمن يفقهه ؟ وأن الفرق بين البدعة في الدين وهي الضلالة والإبداع في الفكر والعلم وهو من أفضل

أعمال القربات ، وأن هذا الفرق لا تجهله الكنّاسة في الشارع الذي فيه مدرسة ، نعم من حق كل مسلم أن يدرس الحلال والحرام ، وأن يكون من العلماء في هذا الشأن ، ولكن من الحق الذي لا ريب فيه ، أن الذي يكتب في الإسلام من غير مراجعة مصادره لا ينتج إلا مخرقة كمخرقة هذا الكاتب الذي ينكر إنكار البدعة .

أما ما قاله الشيخ الشعراوي في مجلس الشعب ، وموقفه من كامب ديفيد ، وكونه ليس له برنامج في إصلاح أزمة المواصلات أو السكن ، فهذا كله خارج عن القضية التي كنّا نودُّ للكبار جدًا والذين هم عمد الوجود المصري أن يستهدفوا بخلافهم بيان حقائق حول المسائل التي اختلفوا فيها ، بالروح العلمية المترقية من ثقافاتهم الواسعة ، والمتنوعة ، ولكن ليست هذه أول مرة يخيب ظن الناس في الكبار جدًا .

والله هو الهادي إلى سواء السبيل .

* * *

الفهرس

الموضوع الصفحة

المقدمة

(٥-١٦)

أي نظام سياسي لا يكون العلم أول أولياته هو نظام يجهل كيف يسوس.......... ٥

العلم هو الحل.......... ٨

عمل الصالحات جنة في الدنيا قبل جنة الآخرة.......... ٩

كلمة الإرهاب الإسلامي لا يجوز أن ينطق بها لسان نطق الشهادتين. ١١

ضرورة إبعاد الإسلام وعلمائه عن المنازعات السياسية.......... ١٢

خطر التنازع.......... ١٣

السياسي إذا افتقد البر والمودة والرحمة بأهل البلاد فقد فَقَدَ شرعيته.......... ١٤

المرجع الأقدم لعلوم البلاغة هم أصحاب اللسان.......... ١٥

البحث في البلاغة بحث في ملكات أصحاب اللسان.......... ١٦

مناهج علمائنا في بناء المعرفة

(١٧-٥٤)

طرائق العلماء في استخراج المعرفة لا يجوز أن تغيب عن الدرس ١٧

لابد من التفريق بين المصادر التي أسست العلم والمصادر التي دققت وحررت.. ١٩
علماؤنا كانوا يشرحون لنا الخطوات التي قطعوها وهم يستخلصون المعرفة.. ٢٠
علماؤنا كانوا يعلموننا العلم ويعلموننا صناعة العلم.................. ٢١
الدلالة على التجارب الفذة في إرثنا العلمي......................... ٢٢
تعبّدنا ربنا بإعمال العقل كما تعبدنا بالصلاة والصوم.................. ٢٤
سيبويه عاش مع الشافعي وكلاهما مؤسس........................... ٢٦
أبو عمرو الجرمي وكتاب سيبويه.................................. ٢٧
عبد القاهر يكره مضغ المعلوم.................................... ٣٠
عبد القاهر يقرأ نصوص العلماء قراءة مختلفة....................... ٣٢
نهاية الأمر في المسألة عند السلف هي نقطة البداية عند الخلف..... ٣٤
عبد القاهر يشرح لنا القراءة التي تنتج العلم....................... ٣٦
كيف كان عبد القاهر يستنطق الواو في الجملة الحالية................ ٣٨
التغلغل في مسائل العلم يخرج العالم من باب إلى باب............... ٤٠
كيف نُعِدُّ أجيالنا لحماية أرضنا من بعدنا........................... ٤٣
عجيبة في تاريخ الإسلام صنعها القائد طغرل........................ ٤٤
باب صناعة العلم كان يُخصب أرضنا فتنتج رجالا يشبهون رجال الفتح... ٤٦

أكذوبة القديم والجديد.. ٤٧

يجب أن يطلع العقل المسلم على تجارب الأمم........................ ٥٠

من الباطل المحض قياس الخلاف حول القديم والجديد في عصرنا على ما كان في العصر العباسي.. ٥٢

قصة ترجمة علوم اليونان كما رواها القفطي........................ ٥٣

المنهج الغائب في تراث عبد القاهر

(٥٥- ١٠١)

هذا البحث داخل في الذي قبله.. ٥٥

إغفال الغائب أضرّ بنا.. ٥٦

كيف كانت المسألة تبدأ طيفا يخطر ثم ما تلبث أن تصير علمًا...... ٥٧

استقصاء الغائب في منهج عبد القاهر يحتاج إلى كتاب مستقل...... ٥٨

العلم الذي أسّسه عبد القاهر علم وجد ليبقى........................ ٥٩

الفنون البلاغية المحصورة في كتب البلاغة لا حدود لها في كلام العرب.. ٦٠

الفرق الحاسم بين كتابي عبد القاهر........................ ٦١

تحليل عناصر الكلام حتى نقف على العنصر الذي يحمل الفكرة.... ٦٣

التغلغل في قضايا العلم تفتح فيه الفكرة باب فكرة تليها............ ٦٤

طرائق اللغة مقتبسة من أحوال أصحابها........................ ٦٥

الكلف بالوقوف عند الفكرة.. ٦٦

البحث في الذي قيل عن شيء لم يُقَلْ.................................... ٦٧
الصور العقلية وجدت بعد زمن من التطور.................................... ٦٨
قدرة الصور البيانية على تحريك قوى النفس.................................... ٦٩
عبد القاهر يشرح دبيب اللغة إلى مستتر النفس الإنسانية.................................... ٧٠
تقسيمات عبد القاهر في الأسرار مؤسسة على الاستقراء.................................... ٧١
كتاب دلائل الإعجاز يحدثك عن قصته مع كاتبه.................................... ٧٢
كتاب دلائل الإعجاز متميّز في تراث عبد القاهر كله.................................... ٧٣
ليس في القرن الخامس كتاب أسس علمًا إلا دلائل الإعجاز.................................... ٧٤
نشوة عبد القاهر بما انتهى إليه في دلائل الإعجاز.................................... ٧٥
طوائف التهويش قديمة شكا منها عبد القاهر.................................... ٧٧
عبد القاهر بدأ لم يفهم تراث سلفه ولكن ثقته في عقولهم أغراه
بالوقوف والمراجعة حتى فهم.................................... ٧٩
طول مراجعته لكلام سلفه لفته إلى الكلمات المكررة فوقف عندها
وكشف الغموض.................................... ٨٠
عبد القاهر يشرح خصوصية الشعر الجاهلي.................................... ٨١
ربط معاني النحو بمقاصد المتكلمين كانت لحظة توفيق.................................... ٨٢
ملحوظة شائعة في الكتاب كله.................................... ٨٣
المعاني المستخرجة من متون الكلمات والمعاني المستخرجة من
أحوال المباني.................................... ٨٤

الذائقة البيانية هي الخطوة الأولى في الدرس البلاغي.................... ٨٥
كلمة سيبويه لماذا اصطفاها وأدار عليها بحث التقديم.................... ٨٦
لماذا نطقت كلمة سيبويه له بما لم تنطق به لغيره.................... ٨٧
كيف توفرت له المادة العلمية في باب التقديم.................... ٨٨
لماذا كان يقول الواحد من علمائنا هذا ما استخرجته.................... ٨٩
الاحتياط الشديد في ضبط اللغة.................... ٩٠
التغلغل في لغة كبار العلماء كالتغلغل في لغة كبار الشعراء.................... ٩٢
أبو علي شرح خطواته في استخراج معنى كلمة (إنما).................... ٩٤
عبد القاهر المولع بالاستنباط والاستخراج أخرج من كلمة الفارس
باب القصر.................... ٩٥
باب الفصل والوصل لم يفتحه إلا التفقد الشديد لروابط الكلام.................... ٩٦
باب الفصل والوصل متسع جدًا في الشعر والنثر.................... ٩٩

علماؤنا وتراث الأمم

(١٠٢- ١٣٢)

الكتابات في الموضوع قديمة وكافية لولا إعادتها بطريقة مستفزة... ١٠٢
مواقفنا المختلفة من علومنا نحن.................... ١٠٣
الدعوة إلى اصطناع علوم الآخرين ونبذ علومنا.................... ١٠٤
كل ما استخرج من العربية زمن الوحي يجب أن يدفن وتدفن معه.. ١٠٥
الشعر كان زفة نفاق في ركاب الأورستقراطية القرشية.................... ١٠٥
أصل هذا الاتجاه كتابات المستشرقين.................... ١٠٧

هذا خارج عن دائرة البحث العلمي لأنه سياسة استعمارية........... ١٠٩
علماؤنا في كل زمان تركوا ميسمهم على علومنا..................... ١١٢
الأصالة والمعاصرة.. ١١٤
مسألة أثر الترجمة في ازدهار الحركة العلمية كذب على القدماء وتضليل للمعاصرين.. ١١٥
اتجاه الأصالة والمعاصرة أشد خطرًا من الاتجاه الأول............. ١١٧
كل هذا ليس له نظير في تاريخ الأمم.............................. ١١٨
ليس هذا من خلق العلم وأهله.................................... ١٢٠
كل متخصص يعرف حقيقة ما تخصص فيه............................ ١٢٢
شيوع روح الحذر والاحتياط في تحرير مسائل العربية............... ١٢٣
الفقه هو المنهج الذي احتذاه علماء العربية........................ ١٢٤
علماؤنا لم يذكروا حرفًا واحدًا من علوم الآخرين في علومنا......... ١٢٦
تراث الزمخشري وصف دقيق لموقف علمائنا من تراث الأمم........ ١٢٧
كان علماؤنا يحملون هم تقريب علومنا من الجيل الجديد........... ١٢٩
كوكبة من علمائنا كانوا أهل علم بلغاتهم وآدابهم ولم يدخلوا حرفًا واحدًا من تراثهم في علومنا.................................. ١٣٢

القفطي وتراث الأمم

(١٣٣- ١٥٩)

القفطي يتميز بسعة علمه وشدة حفاوته بعلوم الأمم.................. ١٣٣

تراث الأمة هو نفس الأمة من حيث هي حيٌ ناطق.......................... ١٣٥
أي قيمة للإنسان الصدى.. ١٣٦
ذل التبعية الفكرية هو الذل المقيت البشع........................... ١٣٧
لماذا يقدح المتنورون في تاريخنا وعلومنا................................ ١٣٨
الزمخشري الذي كان من علماء الفارسية أدار بحثه على
ما تراجزت به الأعراب على أفواه القلب................................ ١٣٩
كلام مختصر عن حياة القفطي.. ١٤٠
مؤلفات القاضي.. ١٤٢
وصف ياقوت لعلم القاضي... ١٤٥
القاضي يرى النظر في علم الآخرين بابًا من أبواب القربى............. ١٤٥
كتاب أخبار الحكماء... ١٤٦
أخبار نبي الله إدريس الذي يسميه المصريون هرمس..................... ١٤٧
اعتراض القفطي على القول بأن بقراط من نسل إسقليبيوس............ ١٤٨
الترتيب الأبجدي لمن أرّخ لهم القفطي... ١٤٩
القفطي ونقد الأخبار في تاريخ رجال يونان.................................. ١٥٠
الكتب التي لم يكتب لها نظير في فنونها كتاب أرسطو في المنطق
وكتاب سيبويه في النحو وكتاب المجسطي في الهندسة.................. ١٥١
بعد غور القفطي في علوم أمته انعكس على هذه الأعجميات.......... ١٥٤
لم أقرأ لكاتب مذكور في قومه استهانة بعلوم قومه....................... ١٥٤

الغريب أن القفطي اللغوي الأديب لم يقف عند علم أرسطو بالشعر ١٥٥
قصة علوم اليونان ونقلها إلى العربية.................................... ١٥٧

موقف العقاد من التراث البلاغي

(١٦٠- ١٩٧)

من الصعب أن نحدد موقف العقاد من التراث الفقهي والتراث النحوي وعلوم القرآن والحديث إلى آخره................................ ١٦٠
غريب في تاريخ الأمة أن ينبغ فيه مثل العقاد ولا يشتغل بعلومها.... ١٦١
أي فائدة كانت تكون لو كتب العقاد عن الخليل بن أحمد أو عن الشافعي أو عن عبد القاهر.................................... ١٦٣
عزل العلوم العربية والإسلامية عن التأثير في الحياة العقلية.......... ١٦٥
المطلوب حضور التراث حضوراً يثير حركة فكرية حية.............. ١٦٧
العقاد وأبيات ولما قضينا من منى كل حاجة.......................... ١٦٩
الفحولة عند العقاد.. ١٦٩
الفحولة عند عبد القاهر.. ١٧٠
موازنات... ١٧١
كلام الشيخين عبد القاهر والعقاد يرجع إلى أصل واحد............... ١٧٣
العقاد يتخطّى الشكل اللغوي بسرعة وعبد القاهر يجعله ربوة يُطل منها على ما في الصدور.. ١٧٤
الدرس البلاغي لا غنى له عن كلام الشيخين........................... ١٧٦

علم البلاغة مضيق عليه في الجامعات المصرية........................ ١٧٧
من لطائف العقاد أن اللحن إحساس بالدونية........................ ١٧٨
العقاد يرى أن حذف الواو أو ذكرها راجع إلى صلات الأفكار........ ١٧٩
كلام العقاد في السهولة والحزونة يقترب من كلام عبد القاهر........ ١٨٠
كلام العقاد في ماهيّة الكاتب وكلام الباقلاني في سبك أبي تمام
وسبك مسلم.. ١٨٢
مقالة العقاد في التشبيه.. ١٨٣
العقاد كأنه يتكلم عن أمة أخرى.. ١٨٧
كلمة العقاد المشهورة: اعلم أيها الشاعر المعظم........................ ١٨٩
العقاد أطلق ألسنة القدح الظالمة في علمنا وعلمائنا........................ ١٩٠
تشبيهات من شعر العقاد خالفت الأصول التي حاسب الناس عليها ١٩٢
فكرة الملاءمة النفسية.. ١٩٣

محمود محمد شاكر والفجر الصادق

(١٩٨-٢٢٤)

قضايا محمود شاكر هي قضايانا.. ١٩٨
سعة علم محمود شاكر بقضايا هذه الأمة.. ١٩٩
الثقافة المتكاملة هي سبيل النهضة.. ٢٠٠
مغالطة في وصف النهضة.. ٢٠١
الخمسة الأعلام الذين هم صناديد النهضة.. ٢٠٢

الحملة الفرنسية ووأد النهضة.................................... ٢٠٣
القول بأن الحملة الفرنسية بداية عصر النهضة خزي وعار............ ٢٠٤
الفنون والآداب والعقائد.. ٢٠٥
ابن عبد الوهاب الذي وصفه شاكر بأنه أحد صناديد النهضة وصفه زماننا بأنه إرهابي.. ٢٠٦
خلاصة مشكلة الشيخ مع الدكتور طه حسين.......................... ٢٠٨
قرار ترك الجامعة كان قرارًا صعبًا.................................... ٢١٠
زكي نجيب محمود يلتفت إلى القضية بعد زمن......................... ٢١٠
الحركة القومية غيّرت موقف الدكتور.................................. ٢١٣
الفيلسوف الألماني نيتشه فطن للذي غاب عن كبارنا.................. ٢١٤
المرحوم محمود شاكر كان يضيق بالصمت عن الذي كتبه في فساد حياتنا الأدبية.. ٢١٥
عناية الشيخ بدراسة مؤسسات الاستشراق والتبشير والاستعمار....... ٢١٦
رد محمود شاكر على صاحبه محمد عودة.............................. ٢١٧
موقف محمود شاكر من الثقافة الإسلامية والثقافة المسيحية هو موقف كل علماء المسلمين.. ٢١٨
فرض الثقافة المسيحية على ديار الإسلام.............................. ٢١٩
لا يجوز للمبتدئ أن يقرأ كلام المخالفين إلا بعد أن يُحكم المذهب ٢٢٢

فرق بين من يقرأ كلام الآخر ليعرف كيف يفكر ومن يقرؤه ليفكر
كما يفكر.. ٢٢٣

على هامش منتدى إحياء التراث البلاغي

(٢٢٥- ٢٤١)

دراسة نشأة العلم ضرورة لإحيائه........................ ٢٢٥
دارس البلاغة لابد أن يستصحب علم الشعر وعلم النحو........ ٢٢٦
الخطأ أن نطوي صفحة البلاغة ونحن ندرس الشعر.......... ٢٢٧
علماء كل زمان سدوا فراغهم بعقولهم........................ ٢٢٨
الزمخشري وتراث عبد القاهر.............................. ٢٢٩
لو وضعت أسرار النفوس مكان أسرار البلاغة كنت مصيبًا........ ٢٣٠
العلوم حية في كتب العلماء................................ ٢٣١
لا يُجدّد العلم إلا بأقلام تجدّد فيها العلم.................. ٢٣١
تسهيل العلم مع النية الصالحة تسهيل طريق إلى الجنة........ ٢٣٢
ليس تحصيل العلم نهاية الطريق............................ ٢٣٣
لغة العلماء كأنها مخابئ يسكن فيها علم كثير................ ٢٣٤
الصبر والانقطاع يهديك إلى فكرة في قلب النص المدروس
أو يستخرج من نفسك فكرة................................. ٢٣٦
كيف حملنا أنفسنا على علوم عدونا.......................... ٢٣٧
محمود شاكر يقول طه حسين لم يمت إلا بعد أن غسل نفسه من
أسوأ ما كتب.. ٢٣٨
كتب الأصالة والمعاصرة ليست علمًا........................ ٢٣٩
الخوض في معمعان البحث هو لذة طلب العلم................ ٢٤٠

تربية أجيالنا على أن نأخذ من غيرنا ما نحتاجه تدمير لهم............ ٢٤١

الدين والسياسة ومقلمات يجب أن تذكر

(٢٤٢-٢٥٢)

المقصود ليس التشيع لأحد ولا معارضة أحد وإنما البحث عن الصواب.. ٢٤٢
الهداية إلى الحق دعاء أمرنا ربنا به في كل ركعة لأن الحق هو الصراط المستقيم.. ٢٤٣
الصدق يهدي إلى الجنة في الحياة الدنيا قبل جنة الآخرة.............. ٢٤٣
الذي يريد مجتمعًا خاليًا من الخلاف يريد مجتمعًا خاليًا من الناس ٢٤٥
العلماء العقلاء يوسّعون المساحات المشتركة ويضيقون مساحات الخلاف.. ٢٤٥
كلمة تأليف المختلف شائعة في كلام العلماء.............................. ٢٤٦
الذي يتبنّى سياسة الخلاف عدو لنا.. ٢٤٧
قضية الدين والسياسة يجب أن توضع تحت بصائر علماء الفقه وعلماء السياسة.. ٢٤٩
الاتفاق أكثر من الاختلاف في قضايا الوطن.............................. ٢٤٩
الشورى أمرٌ أمَرَ الله به كل أنبيائه لأنها من الفطرة.......................... ٢٥٠
التآلف والتساند ضرورة لبناء وطن نعلو بعلوه ونعز بعزه.............. ٢٥١
غيبة الوعي جعل الخلافات الصغيرة خلافات كبيرة......................... ٢٥٢

كلمات يجب التوقف عن استعمالها

(٢٥٣-٢٦٣)

التقريب بين الآراء هو شأن العلماء العقلاء الصالحين......................... ٢٥٣

شرح حديث إذا وُسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة........ ٢٥٤
جملة الإسلام السياسي إرهاب لا يجوز أن ينطق بها لسان نطق بالشهادتين........ ٢٥٥
شدة الغضب تنطق ألسنتنا بما لا يجوز أن تنطق به........ ٢٥٦
لا يجوز أن نقول كلامًا ونحن نريد خلافه........ ٢٥٧
كل كاتب له صواب وله خطأ ومن يريد ألا يخطئ عليه ألا يتكلم.. ٢٥٨
شرح لنا أستاذنا الدكتور محمد البهي توجه ابن عبد الوهاب وكان يرضاه ويخالفه أحيانًا........ ٢٥٩
من احترام الإسلام أن لا نصف علماءه بالإرهاب........ ٢٥٩
لا يوجد عالم لا غفلة له........ ٢٦٠
سمعت من يقول تيار الإسلام السياسي شر كله وإرهاب كله فاستعذت بالله مما أسمع........ ٢٦١
في الفقه المالكي لا يجوز الإجهاز على جريح لأنه لا يستطيع دفعك وهذه هي الروح الإنسانية في حرب أعداء البلاد والعباد........ ٢٦٢
الأوطان لا تبنى بالأحقاد........ ٢٦٢

التطرف والإرهاب ووجوب المراجعة

(٢٦٤-٢٧٥)

نحن أبناء أب واحد هو هذا الوطن وأبناء أم واحدة هي هذه الأرض ٢٦٤
لا تجعلوا بأسنا بيننا ولا تُنسونا عدونا........ ٢٦٥
نُهينا عن رَمْي الناس بغير ما اكتسبوا وتلفيق التهم وشهادة الزور ورمي للناس بغير ما اكتسبوا........ ٢٦٥
لا تفسدوا المودات بيننا بجنون الأحقاد........ ٢٦٦

الذين يريدون إحراق مصر لا يقال عنهم اتجاه إسلامي........ ٢٦٧
حدّدوا المراد بالإرهاب تحديداً يرضاه الشرع والعقل........ ٢٦٩
كفوا عن تشويه الإسلام........ ٢٧٠
اسمعوا كلام ربكم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾...... ٢٧١
لو سكت من لا يعلم لاستراح الناس........ ٢٧٣
كتب ابن عبد الوهاب وابن تيمية بيننا منذ مئات السنين ولم تزرع إرهابًا........ ٢٧٤

تجديد الخطاب الديني والحذر الواجب

(٢٧٦-٢٨٦)

قضايا مثارة حول دين الله ليست من مصلحة أحد........ ٢٧٧
التوجيه القسري في التجديد نحو قبلة أخرى........ ٢٧٨
يجب إبعاد ذوي الأهواء الكارهة لما أنزل الله عن الكلام في دين الله ٢٧٩
المهم مراجعة الرأي........ ٢٨١
كل ما في حياتنا يجب أن يتفوق يومه عن أمسه........ ٢٨٢
لا يجوز أن يبلّغ عن ربنا أضعفنا........ ٢٨٣
البلاغ عن الله يحمله من كل خلف عدوله........ ٢٨٣
الأزهر هو المسؤول الأول عن إعداد المبلغين عن الله........ ٢٨٤
صلاح الحال ليس من المحال........ ٢٨٥
لابد من وجود لحظة جادة يكون كل ما بعدها مغايراً لكل ما قبلها ٢٨٦

تجديد الخطاب الديني .. والطريق الواحد ..

(٢٨٧-٢٩٩)

رفع مستوى الكفاءات أمر ميسور مع العزيمة الصادقة........ ٢٨٧

عيب أن نقبل أن يقف منافق على منبر رسول الله ﷺ.................... ٢٨٨
لا يجوز أن يكون المسؤول عن البلاغ عن الله مع أحد أو ضد أحد ٢٩٠
التجديد يأتي وحده حين ينقطع أهل العلم للعلم.................... ٢٩١
الكتاب يربو بالمراجعة.................... ٢٩٢
تعليم العلم عند ذوي البصائر.................... ٢٩٣
القرون الثلاثة المفضلة.................... ٢٩٤
من تجديد الدين أن يعود سكنه في القلوب.................... ٢٩٥
معنى أنك لا ترى في المائة عام إلا رجلاً واحدًا يجدد للأمة دينها.. ٢٩٦
كيف تتسلَّلُ الضلالات إلى دين الله.................... ٢٩٧
ابحثوا في المعاني المكنوز تحت لفظ الكتاب تجدوا الجديد........ ٢٩٨
الزمخشري استخرج جديدًا من تحت كلمة: ويؤمنون به في سورة غافر.................... ٢٩٩

الشيخ أحمد الشرباصي رجل مضى ومثل مُستمر

(٣٠٠-٣١٠)

الشيخ أحمد الشرباصي رجل مضى ومثل مستمر. الفقد الحقيقي هو بقاء أماكن الكرام خالية.................... ٣٠١
كانت مصر دار القرآن لما كانت دار الأزهر.................... ٣٠٢
بدأ نبع الشيخ يتدفق منذ بواكير عمره.................... ٣٠٣
دراسته في معهد الدراسات العربية أول ما فتح.................... ٣٠٤
وصف الأستاذ إسحق الحسيني لرسالة الطالب أحمد الشرباصي..... ٣٠٥
تماسك العلوم العربية والإسلامية في تكوين عقل الباحث.......... ٣٠٦
موقف الشيخ من دعوى حقوق اليهود في فلسطين.................... ٣٠٧

حفاوة الشيخ البالغة بطلاب العلم........................ ٣١٠

البلاغة الغائبة

(٣١١-٣١٩)

طريقة العلماء في استخراج البلاغة الخاصة بالقرآن........................ ٣١٣
كل ذي بيان ساكن في بيانه........................ ٣١٤
ضعف الإنسان لا محالة ساكن في بيانه........................ ٣١٦
قصور القدرة البيانية عن الإجادة في كل ميدان قصور لازم........................ ٣١٧
خلو بلاغة القرآن من كل أحوال النفوس........................ ٣١٨

حتى لا ينقطع ميراث النبوة

(٣٢٠-٣٢٦)

الحلال والحرام يتطلب أنواعًا من المعرفة........................ ٣٢٢
جوهر الإرث الشريف........................ ٣٢٣
كان ميراث النبوة هو القبلة التي لا تخطئها العقلية الإسلامية........................ ٣٢٤
ضرورة المطالبة برفع مستوى الذين يدرسون ميراث النبوة........................ ٣٢٦

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (العنكبوت:٥١)

(٣٢٧-٣٣٦)

أو لم يكفهم أنا أنزلن عليك الكتاب يتلى عليهم ٣٢٧
القول بأن القرآن معجز لا يجوز الخلاف فيه........................ ٣٢٧
من مناقب الجاهليين أنهم لم يكذبوا في شأن البيان........................ ٣٣١
القول بانتهاء عصر المعجزات خطأ شائع........................ ٣٣٣
القرآن معجزة قائمة........................ ٣٣٤

المقصود بالعلماء في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ٣٣٥
معرفة وجه الإعجاز يجوز الخلاف فيه........ ٣٣٥

الخطابي وإعجاز القرآن

(٣٣٧-٣٤٢)

الخطابي يناقش تراث سلفه........ ٣٣٨
الخطابي يواجه القضية مواجهة جديدة........ ٣٤٠

إليه يصعد الكلم الطيب

(٣٤٣-٣٥١)

الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة........ ٣٤٤
القول السديد........ ٣٤٦
لا يقبل الكلمة الخبيثة في الشعوب إلا أعداؤها........ ٣٤٨
الكذب كلمة خبيثة والنفاق والزور كل هذا من الخبيث لا يتكاثر أهله إلا حول الطواغيت........ ٣٥١

والله متم نوره ولو كره الكافرون

(٣٥٢-٣٥٨)

أهل الباطل يسخرهم ربنا لخدمة دينه........ ٣٥٤
الاجتهاد في الهجوم على الإسلام والنتائج المضادة........ ٣٥٦
وما يعلم جنود ربك إلا هو........ ٣٥٧

يرفع الله الذين أوتوا العلم

(٣٥٩-٣٦٧)

العلوم التي تشرح قضايا الدين........ ٣٦٠

إطلاق الفعل من غير تقييد بمفعول........................ ٣٦٠
آية فاطر.. ٣٦٣

أمثال سورة النور

(٣٦٨-٣٧٥)

التشبيهات الأساسية في السورة........................ ٣٦٩
موضوع سورة النور.. ٣٧٠
موازنات.. ٣٧٢

أفلا يتدبرون القرآن

(٣٧٦-٣٨٤)

المقصود من الحفظ والتلاوة.............................. ٣٧٧
ضرورة التدبر... ٣٧٨
تجاوز المعاني... ٣٧٩
الخلاف المنفي عن الآيات لأنه من عند الله............ ٣٨٠
مواقع التدبر في القرآن.................................... ٣٨٢

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ (الحج:٢٧)

(٣٨٥-٣٩٣)

ذكر الحج في القرآن الكريم............................. ٣٨٥
شرح السياق.. ٣٨٦
حكمة آية ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ (الحج:٢٤) في سورة الحج ٣٨٩
الحج والجهاد... ٣٩٠
ومن يرد فيه بإلحاد... ٣٩١

والذين هاجروا في الله

(٣٩٤-٤٠١)

الإيمان والهجرة والجهاد.. ٣٩٥
الهجرة باقية والجهاد باق.. ٣٩٦
العشرون الصابرون الذين يغلبون مائتين.. ٣٩٨
كيف يرتقي مستوى المؤمن حتى يغلب عشرة.. ٣٩٩
هجرة أبي طلحة من أجل أم سليم.. ٤٠١

البلاغة القرآنية وتوضيح واجب

(٤٠٢-٤٠٨)

البلاغة التي في الشعر والبلاغة الخاصة بالقرآن.. ٤٠٥
شرح الخطابي البلاغة الخاصة بالقرآن.. ٤٠٧

قراءة في مقدمات كتب القدماء

(٤٠٩-٤١٨)

الفرق بين الغايات الطامحة والأعمال دعوة جهيرة إلى الاجتهاد........ ٤١٠
طموح عبد القاهر في مقدمة الأسرار وقصور الكتاب.. ٤١١
طموح عبد القاهر في مقدمة الدلائل وقصور الكتاب.. ٤١٢
عبد القاهر يدرك قصور مباحثه.. ٤١٤
طريق عبد القاهر.. ٤١٧

التراث حركة تأمل وإبداع

(٤١٩-٤٢٥)

الموروث العلمي عندنا مختلف.. ٤١٩
اختلاف الرؤية في مسائل ما ينبغي أن نختلف فيها.. ٤٢٠

صورة الإنسان المكون من ألفاظ صورة التراث........................ ٤٢١
أفكار المستشرقين تنضج في كتابات رجالنا........................ ٤٢٢
أعلن فريق من النصارى كراهية شديدة للتراث........................ ٤٢٢
الكتاب وصف لحركة عقل في حال الإبداع........................ ٤٢٤

قيم منهجية يجب أن تعود

(٤٢٦-٤٣٣)

الكلمة المدقّقة هي الكلمة السديدة التي أمرنا ربنا بها........................ ٤٢٧
طوفان من الأفكار غير المدروسة........................ ٤٢٨
القاعدة اللغوية تحرُّر كأنها قاعدة فقهية........................ ٤٢٩
المتون والشروح والحوش........................ ٤٣١

تصحيح مقولة في تاريخ الإسلام

(٤٣٤-٤٤٢)

العقل العربي لم يصنع نهضة إلا محمولاً على العقل اليوناني........................ ٤٣٤
التقليل من شأن الإسلام في أحداث التقدم........................ ٤٣٥
علم الفقه هو الجد الأكبر لعائلة علومنا........................ ٤٣٧
الاطلاع على تراث الإنسانية أمر لا جدال فيه ولكنه اطلاع الكبار
وليس اطلاع الصغار........................ ٤٣٨
الزمخشري كان يكتب بعض كتبه باللغتين العربية والفارسية........................ ٤٤٠

حقائق غائبة

(٤٤٣-٤٥٠)

مناهج العلماء ليس كما نكتب........................ ٤٤٥
علم مناهج البحث في علوم العربية لم يكتب........................ ٤٤٦

خرافات تقال عن التراث.................................... ٤٤٧

ارتباط التجديد والتحديث بالأخذ عن الغير سفه وعجز............. ٤٤٧

المجددون الرواد كانوا تحت رعاية الاستعمار...................... ٤٤٨

شرعوا طريق التفاهة لكل من أراد أن يكون ابن عصره............. ٤٤٩

ويلكم! ثواب الله خير

(٤٥١-٤٥٨)

لن ينقطع وجود أهل الباطل.. ٤٥١

المجاهرة بعدم جدوى تطبيق شرع الله.............................. ٤٥٢

نفهم تاريخ الغرب المسيحي ونعكسه على الإسلام ولا نفهم تاريخ الإسلام.. ٤٥٥

وقوع مظالم من أنظمة طبقت شرع الله لا يقدح في تطبيق شرع الله ٤٥٦

التأكيد على السلبيات في تاريخ الإسلام............................ ٤٥٧

ضرورة سيطرة التوجيه الإسلامي في ديار الإسلام

(٤٥٩-٤٦٧)

تربية أجيال الفقهاء المجتهدين ضرورة.............................. ٤٦٠

المشكلة غيبة كتائب العلماء المنقطعين............................. ٤٦١

علماء الأمة مرابطون على ثغورها الفكرية.......................... ٤٦٢

الصراع بين الأمة الإسلامية وأوربا صراع قديم والآن بشكل جديد... ٤٦٣

حقد أوربا الأسود على الإسلام دعاها إلى مصالحة يهود وهم قتلة المسيح كما يعتقدون.. ٤٦٤

سياسة أوربا في ديار الإسلام توجهها وصايا المستشرقين............. ٤٦٥

معذرة إليك يا شيخ الأصحاب

(٤٦٨-٤٧٤)

خطر الهجوم على أصحاب رسول الله ﷺ.................................... ٤٦٩

الكذب المنحط على أبي بكر وعمر.................................... ٤٧٠

كأن الكاتب له ثأر عند أبي بكر.................................... ٤٧١

الانحياز إلى اليهود ضد سيدنا رسول الله ﷺ.................................... ٤٧٣

مَهْلاً أيها الكبار

(٤٧٥-٤٨٢)

كان الخلاف بين ثلاثة كبار وتنابذوا.................................... ٤٧٦

كان على الشيخ الشعراوي أن يضع أيدينا على ما يبرر الرمي بما رمى به.................................... ٤٧٦

ما صح عن رسول الله ﷺ قبلناه أدركنا علته أو لم ندرك.................................... ٤٧٧

زكي نجيب محمود يصف الشعراوي بأنه عدو للعلم.................................... ٤٧٨

يوسف إدريس يصف الشعراوي بأن يكفر من يفكر.................................... ٤٨٠

يوسف إدريس يغضب لأننا لم نوجه جهودنا لمواجهة الصهيونية..... ٤٨٠

كاتب يرى أن إنكار البدعة من الفكر الجاهلي.................................... ٤٨٠

الفهرس.................................... ٤٨٣